

العدد

65

ربيع 2025

التجارب

فكرية فصلية



صن الربيع 2024

هيا كعابنة - رسامة فلسطينية

« اتجاه » فكرية فصلية،

المدير المسؤول: عبد الرحمن أياس

رئيس التحرير: د. علي حمية

العنوان: فرات للنشر، رأس بيروت، بيروت، لبنان. ت: 00961 1 750053 – 00961 70 543166

البريد الإلكتروني: editor@ittijah.info

www.ittijah.info

Ittijah: revue culturelle trimestrielle, Rédacteur en chef: Dr. Ali Hamiyeh.

Adresse: C/O Furat Publishers, Ras Beyrouth, Beyrouth, Liban,

tel: 00961 70 543166.

اتجاه

فكرية فصلية
ربيع 2025

محتويات العدد

3	معركة الوعي: الإبادة الجماعية لسكان الشمال السوري	نظام مارديني
5	المرأة في شعر رفعت مبارك (العتابا والزجل أنموذجان)	نرجس جمال سيد قاسم
39	نحو اللغة العربية، علماءه ومناظراته ومقاييسه	حسين محمود حرب
71	المكتبات العامة كمحركات لتحفيز اقتصاد المعرفة	حميدة كاظم العجل
99	البناء المعجمي في شعر علي محمد هاشم	زينب حبيب الحسيني
119	العولمة وتحولات الواقع العربي	زينب نصار
133	تربية الطوارئ	ساندرا أسعد روحانا
145	العمارة الأندلسية في عصر دولتي المرابطين والموحدين	سلام ضاهر
165	بحثاً عن أصول القهر والإستعباد	عفيف عثمان
171	أثر المدرسة في التربية الأخلاقية عند التلاميذ	علي عساف
185	مسرحية جورج خبز «مش مختلفين»	مايا إبراهيم حداد
199	تحديات العلاقة بين السعودية وقطر	محمد إبراهيم عاصي
213	المحاكمة الغيابية	هنادي محمود سعيدون
221	ارهاصات التفكير في الفكر العربي	يوسف أيوب
239	الخصائص الأسلوبية في شعر أحمد فؤاد نجم	غيد توفيق الدهيبي
251	الفلسفة والأيدولوجيا: علاقة ملتبسة	ديانا هدارة
281	تأثير التكنولوجيا الرقمية على العملية الديمقراطية	داليدا بيطار
1	Artificial Intelligence (AI): Adapt, Transform and Use	Doris Massoud Younes

”اتجاه“ مجلة أسبوعية تصدر باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية، مرخصة بموجب قرار رقم 1920 صادر عن وزارة الإعلام بتاريخ 24 آب 1995، ومعتمدة من الجامعة اللبنانية بصفتها ”مجلة بحثية تعنى بشؤون فكرية“.

معركة الوعي: الإبادة الجماعية لسكان الشمال السوري.

في البداية يمكن القول إن أية قراءة موضوعية لا تأخذ في الاعتبار التركيب الاتنولوجي - السكاني لمنطقة سورية الطبيعية، قراءة لا تصل إلى نتيجة، لأنها تتعامى عن الواقع ولا تستعمل المنهج العلمي في تحليلها للأمر. وبالتالي تبقى النتيجة النهائية لها مجردة من الواقع وبعيدة عن التفكير العلمي في المستقبل ولكن من ركام تفاصيل هذه القراءة، واللهب الذي تصاعد من جراح الذاكرة، ثمّة رأي عام يؤكّد أن مشاريع إبادة الأرمن والسريان والكلدان والآشوريين والإسماعيليين/ النزاريين (لعل الكثيرين لا يعلمون أن الإسماعيليين كما الصابئة كانوا ملوك السريان في التاريخ السوري القديم)، في بداية القرن العشرين، استمدّت جذورها من الأيديولوجية العنصرية لتركيّا الطورانية، التي وعلى رغم زعمها بأنها لا تتحمّل مسؤولية عمل قامت به جمعية الاتحاد والترقي، منذ قرن وتيف، إلا أنها تدرك جيداً أن اعترافاً من هذا النوع يعني استعادة الأراضي السليبية التي هُجّر منها السوريون بجميع عناصر مزيجهم الذهبي.

وكان قد أطلق على عام 1915، وهو السنة التي بدأت بها المجازر في منطقة طور عابدين، بـ "شاتو دسيفو"، أي "عام السيف" نسبة إلى المذابح التي ارتكبت بحق السريان، كما عرفت اختصاراً بـ "قطّلعّمّو" أي بمعنى "التطهير العرقي"، وكان من أهمّ المجازر المنضوية تحت اسم "مذبحة سيفو" بين عامي

1914 و1923، مجزرة ديار بكر، ومجزرة طور عابدين، ومجزرة دير الزور التي هاجر إليها عدد كبير من السريان والأرمن هرباً من القتل، وغيرها، ولا تزال العديد من العائلات السريانية تقطن في تلك المناطق، وتشكل نسبة كبيرة من السريان في الشمال السوري.

وهكذا فرغت أجمل المدن السورية القديمة من سكانها، وهي التي لعبت دوراً مهماً في التاريخ السوري: نصيبين، ماردين، حران وأورفا مركز اللغة السريانية، عدا عن "مديات" عاصمة أول مملكة آرامية تعود للقرن الثالث عشر ق.م. "مملكة بيت زمانى". إلى غيرها من المدن والحواضر التاريخية.

المرأة في شعر رفعت مبارك (العتابا والزجل أنموذجان)

نرجس جمال
سيّد قاسم

دكتوراه عربي

هدف البحث إلى الكشف عن الصدق في عمق التجربة الوجدانيّة، لتغدو تجربة إنسانيّة كاملة، ومذهباً يقظاً يعطي الحياة معناها، والشاعر «رفعت مبارك» برع في الشعر العاميّ فهو ابن بيئته؛ إذ يستخدم فيها الواقع بلهجة محلّية، ويطرح فيها قضايا في إطار إقليمي اجتماعيّ، مستخدماً الشعر الشعبيّ بغية نشر الفضيلة ومكارم الأخلاق.

ينطلق هذا البحث من فرضية أنّ الشعر العاميّ ليس كلّه أقوالاً عامية، بل هو شعر له أصوله وله جذوره، وهو يلاقي الشّعْر الفصيح في مجالات أدائه، وخصوصاً إذا تناول موضوع المرأة التي تحاكي كلّ البشريّة، والتغزّل فيها، وبرز عند الشاعر في ديوانيّ «الزجل - العتابا والشروقي» صورة المرأة بكلّ تجلّياتها، وبكلّ فنون حياتها؛ الأم، الزوجة، الأخت، العشيقّة، الحبّ المقدّس، والتضحية والقداسة والحزن والألم.

فلذا سيظهر في البحث الخصائص الفنّية لهذا الشّعْر على مستوى المفردة والتركيّب، ودور المرأة وأهمّيتها في الشعر العاميّ، إضافة إلى دراسة الصّورة الشعريّة في مفهومها الجمالي والبلاغي.

من خلال هدف البحث وأهمّيته، يمكن تتمحور إشكاليته حول الأسئلة الآتية:

- هل ثمة فرق بين نتاجات اللّغة العامية واللّغة الفصحى في مفهوم الشاعر
- رفعت مبارك؟
- كيف تجلّت إمكانيات الغزل أو الحزن في الشعر العامي عند الشاعر «رفعت مبارك» في ديوانيه؟
- كيف يتجلّى في شعر «رفعت مبارك» دور المرأة بكلّ حالاتها «الأم، الزوجة، الأخت، والابنة»؟

واعتمدت في البحث على منهجين اثنين، المنهج الموضوعاتي؛ وهو مجموع الوجوه البلاغية والمشاهد الوصفية والمواقف السيكلوجيّة، والأشياء التي يستعملها الكاتب لبناء عالمه. والمنهج الأسلوبي؛ وهو طريقة موضوعيّة يسلكها الباحث في تتبّع ظاهرة، أو استقصاء خبايا مشكلة ما، لوصفها أو لمعرفة حقيقتها وأبعادها ليسهل التعرف إلى أسبابها وتفسير العلاقات التي تربط بين أجزائها ومراحلها وصلتها بغيرها من القضايا.

وأهم الاستنتاجات التي توصل اليها:

- إبراز دور المرأة في شعر «رفعت مبارك» ونظرته إليها.
- تجليات الصّورة الشعريّة الفنيّة في ديواني رفعت مبارك.
- فرادة الشّاعر في استخدام المفردات والتراكيب اللّغوية والشّعريّة والوجدانيّة.
- إظهار الجماليّة بين الفصحى والعاميّة في نتاج الشاعر.

الكلمات المفاتيح:

الصّورة الشعريّة - المرأة - مفهوم الشّعر - الشّعر الشّعبيّ - الشّخصيّة الشّعريّة - معارف شعريّة - الثقافة.

Abstract

Title: Woman in the Poetry of Rifaat Mubarak (Al-Ataba and Zajal as Models)

This research aims to uncover the authenticity and depth of emotional experience, elevating it to a fully human experience and an alert approach that gives life its meaning. The poet *Rifaat Mubarak* excelled in colloquial poetry, being a true son of his environment; he used local dialects to reflect reality and addressed issues within a regional social framework. He utilized popular poetry as a medium to spread virtue and noble ethics.

This study begins with the hypothesis that colloquial poetry is not merely informal sayings, but rather a form of poetry with its own roots and principles. It can match classical poetry in its performance, especially when it addresses the theme of «woman», a topic that resonates universally. In his two collections, «Zajal» and «Ataba & Sharouqi», the image of woman emerges in all her manifestations and roles: mother, wife, sister, lover, sacred love, sacrifice, sanctity, sorrow, and pain. Hence, this research highlights the artistic features of this poetry at the levels of diction and structure, as well as the role and significance of women in colloquial poetry, in addition to exploring the poetic imagery in both its aesthetic and rhetorical aspects.

Based on the research's aim and significance, the central problem revolves around the following questions:

- Is there a difference between the products of colloquial language and classical language in Rifaat Mubarak's poetic vision?
- How are the themes of love and sorrow reflected in Rifaat Mubarak's colloquial poetry collections?
- How does the role of woman manifest in all her forms—mother, wife, sister, and daughter—in Rifaat Mubarak's poetry?

The research relies on two main approaches:

- Thematic Method– encompassing rhetorical figures, descriptive scenes, psychological situations, and the elements the writer employs to build his poetic world.
- Stylistic Method an objective approach used by the researcher to trace a phenomenon or investigate a specific problem in order to describe it or uncover its truth and dimensions, thereby facilitating an understanding of its causes and the relationships among its components and connections to other issues.

Main Conclusions of the Research:

- Highlighting the role of women in Rifaat Mubarak’s poetry and his perception of them.
- Artistic manifestations of poetic imagery in Rifaat Mubarak’s collections.
- The poet’s uniqueness in employing linguistic, poetic, and emotional vocabulary and structures.
- Showcasing the aesthetic interplay between classical and colloquial language in the poet’s works.

Keywords: Poetic imagery– Woman– Concept of poetry– Popular poetry – Poetic personality– Poetic knowledge – Culture.

المقدّمة

تحتلّ المرأة مكانة مرموقة ومساحة واسعة في شعر رفعت مبارك، إذ تمثّل بحكم صداها وتردّدها بين طيات قصائده المحور الأساس في بناء الحياة بفرعيها الحزن والغزل؛ وهذا يعكس بشكل واضح علاقة «مبارك» بالمرأة وما تمثّله بلائقها في المجتمع، ودورها في بناء الأسرة.

وفي الواقع أنّ هذا الأمر ليس غريباً على مستوى الشعر العربي الكلاسيكي أو العامي، فلكل شعر منهما سماته وخصائصه وفنونه التي تناولها وأغراضه التي تطرّقها، وكانت المرأة تحتل الصدارة في كليهما. ونعتقد أنّ هذا الأمر يعود إلى المرأة بما تحمله من مفاتن مادية أو معنوية؛ فهي موطن أسرار الرجل بشكل عام، والشاعر بشكل خاصّ، إذ ييوج بأحاسيسه ومشاعره في عالمه الشعري، فيتناول المرأة المعشوقة، محدثاً بذلك توازناً نفسياً تعقبه راحة وشعور باللذة التي لا تعادلها لذّة.

ورفعت مبارك مثاله مثال الكثير من الشعراء في تناوله المرأة، ولكنّه صبغ خطابه الشعري بلون خاص تفرّد به عن غيره، فتناول المرأة التي تمثّل الحياة؛ الأم وهي الكيان الأوّل الذي تصطدم به عيون المرء منذ قدومه إلى الحياة، والزوجة وهي الكيان الثاني الذي من خلاله يعيش عاطفة الأمومة، والتشبّه بها والأخت وهي الكيان الثالث الذي لا يغيب عن الشاعر إطلاقاً، والبنات وهي الكيان الرابع وثمره الحياة، ومتّخذاً الشاعر الحبّ الصادق والوفاء للمرأة عنواناً لمسيرة حياته، فنرى الصورة الشعرية عنده تميّز بسمات العفّة، والإخلاص والصدق في التعبير عن مكنونات صدره.

ولكي نقرب أكثر من عالم الشاعر رفعت مبارك، لا بدّ من الولوج في عمق معانيه، وحسن استخدام مفرداته وسبكها في قالب المعرفة ضمن العادات والتقاليد التي كان يحتذي بها، ولهذا جعلت البحث يتضمّن ثلاث نقاط أساسية، ويسبقها مفهوم الشعر وتطوّره، وذلك لتندرج في كيفية الوصول إلى الشعر العامي الذي اتّخذه الشاعر دستوراً حياتياً يعناشه؛ فجاء البحث على الشكل الآتي:

أولاً- المرأة في شعر رفعت مبارك تمثّل الحياة.

ثانياً- الحبّ الصادق والوفاء للمرأة

ثالثاً- الصّورة الشعريّة في مفهوميها الجماليّ والبلاغيّ.

● مفهوم الشعر الشعبيّ

الشعر الشعبيّ هو منظومة من الكلمات مرتبطة ببيئة الشاعر يستخدم فيها الواقع

المعاش غزلاً وحرناً بلهجة محلية، يطرح فيها قضايا وطنية أو عشائرية أو دينية، وهذا لا يعني أننا نصبغ الشعر بصفة خاصة، بل هو عام لكلّ الناس بمختلف قضاياهم واغراضهم، كما يعدّ الشعر الدينيّ غرضاً من أغراض الشعر الشعبي يستهدف نشر الفضيلة ومكارم الأخلاق.

ولبنان أرضو اللي فيها الحبّ والإيمان في وحدة الصفّ حققنا أمانينا
وعشنا عليها سوا الياس وعلي ومروان بزودنا السمر سيّجنا معاليها
وقفنا بوجه العدو بساحة الميدان من شائبات الليالي السود نحميها
ونحمي الحدود الجريحة ونسحق الطغيان وبالزرق والمال والأرواح نضديها⁽¹⁾

جمع الشاعر في هذه الأبيات بين كلّ الطوائف؛ الإسلامية والمسيحية، وجعلها وحدة متكاتفة في سبيل احقاق الحقّ، وحماية الأرض والوطن. فمصطلح «الشعر» هو ملفوظ وبناء كلمات ومفردات ذات طابع مقصود في الذات البشرية ترتبط بالتذوق والأحاسيس واللسان والمعرفة والثقافة، يعبر بها المرء عن أشياء موجودة تحيا داخل ذاته، ومهما اختلفت التعاريف، فإنّ الشعر يبقى يترجم ماهو داخلي من تصوّرات وأفكار الآخرين مستعملاً مفردات اللّغة، وما قيل من تعاريف للشعر فإنّه ينطبق على الشعر بنوعيه العامي والفصيح، ويشتركان في مجال القول نفسه الذي نعني به الأغراض .

لذا يقصد بالشعر الشعبي تلك التعابير المنظومة التي تؤدّي بالإبداعات الشفوية بلغة العامية أو باللهجات المعروفة، التي كثير ما لا تستعمل فيها حروفاً في بعض الأحيان غير معجمه⁽²⁾، كالتي ورد ذكرها في لسان العرب لابن المنظور، ومن بين العناصر التي تستعمل لتحديد مفهوم للشعر الشعبي نذكر مايلي.

1. العروبية

ظهرت العروبية⁽³⁾ (ARABICITE) كنتيجة عن الاختلاط بالوسط الحضري ويذكر أنّ الوليد بن يزيد في أثناء حكمه كان ينتقل بين القصور ولم يمل إلى حياة الصحراء، إلاّ تقديراً وإجلالاً للعروبية التي كانت بمثابة الأصل، ولما غير بنو أمية نظام الحكم غيروا اتّجاه العروبية حيث سكنوا القصور، «واتّبعوا لهو المدن وغيروا أسماء القبائل كالحطانيين والعدنانيين، عرفوا لاحقاً باليمنيين، وأيضاً، بالقيسيين خاصة المشكلين العرب النازلين من وراء النهر فمثل ذلك الاختلاط أنشأ طريقة موحدة، وحدت نطقهم من أجل التفاهم»⁽⁴⁾. ولا يخفى هذا عن الشاعر رفعت مبارك، حيث كان يعدّ العروبية من جذر القومية، فجاءت بعض أشعاره تبين علاقته بأرض الوطن الشاسع

الذي لا تحدّه حدود جغرافية:

بلادي الحضارة والوعي رُسماتها
بتصغر بعيني قصور أعلى من السما
والعزّ موال الهنا غناها
لو كنت متظلل بفي جبالها
وجبالنا فيها النجوم معرشة

2. الشخصية الشعرية

يرمز إلى الشخصية الشعرية على أنها تحصيل المعرفة، ولا يقصد بها تجميع الشهادات، وإنما الوسائل وجميع الأعمال القائمة حسيًا، وجميع الأشياء المادية والأساليب والقوى الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية التي يلجا إليها في عمليات الإظهار، وهي في حالة حركة داخلية تختلف من فرد إلى آخر، فقد تصادف شاعرًا لم يدخل المدرسة وحصل شعره على شهرة فاقت الحدود، وبالتالي فإنّ تجميع العنصرين «العروبية، وشخصية الشاعر» يقودنا إلى تبني مفهوم المدرسة الرومانتيكية للشعر بأنّه ليس فرعًا من فروع المعرفة، بل المادة التي تكونت بها حياتنا ويستشهد عبد الرحمن شكري⁽⁵⁾ بتعريف مرآتي للشعر قال فيه:

وإنّما الشعرُ مرآة لغائبه هي الحياة فمن سوء وإحسان

وإنّما الشعرُ تصوير وتذكرة و متعة وخيال غير خوان

وإنّما الشعرُ إحساس لما حققت له القلوب كأقدار وحدثان⁽⁶⁾

صورة الشعر الشعبي تكون أكثر ميلاً لوصف الحقيقة؛ لأنها تحدث التقارب من الواقع بلغة مفهومة وبمبسطة للتمعن، إذ لا يظهر في كامل تفاصيلها إلا إيجابيات الإلتقان في إيصال المعنى، تركز في بعض الأحيان على الموهبة، التي هي ليست نتيجة من نتائج التعليم أو الثقافة الشعرية، وإنما هي طاقة مخفية في الذات لأنه يوجد الكثير من يحملون معارف شعرية، ولكنهم يجهلون قول الشعر، ويذكر أبي مدين الشافعي تعريف أن الشعراء لهم نفوس لا تشبه بقية النفوس، فإنهم يجدون في الشعر قوة خفية تجعلهم يعبرون عمّا يجيش في خواطرهم و يعبرون عنه بكيفية «عجيبة ومؤثرة»⁽⁷⁾. ولكن رفعت مبارك جمع بين الاثنين العلم والثقافة وعلى لسان غسان مطر يبيّن ذلك: «رفعت مبارك الشاعر، حامل همّ الإبداع، هو في الوقت عينه، رفعت مبارك المناضل حامل همّ الأرض والإنسان، وهذه ميزة نادرًا ما انشغل بها المنبريون في زمانه، لذلك نرى عنده ما لا نراه عند سواه من معان وخواطر وصور، فهو ابن رسالة وصاحب قضية فتحت أمام عينيه آفاقًا ظلّت عصية على الآخرين، ومكّنته

من أن يحتلّ في الشعر العامي موقعاً رياديًا ذا نكهة «مباركية» خاصّة في البناء والصيغة... وإذا كانت كلّ شعب تقاس بما للشعر من مكانة في حياته، فإنّ اللبنانيين أغنياء؛ لأنّ شعر رفعت مبارك ومن سبقه وجايله ولحقه من أمراء الزجل فيهم وباقٍ كالخميرة التي من دونها لا خبز ولا قوت ولا حياة»⁽⁸⁾

● تطوّر الشعر الشعبي

لمدة قرون أربعة عدّ الشعر الزجلي في لبنان والمشرق العربيّ المادّة الفنيّة الأساسيّة في الثقافة الشعبيّة، وفي حياة المجتمعات الزراعيّة والريفيّة عامّة، فقد استمر هذا الشعر في مكانته وتطوّره حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين، حيث بدأت حركته بالتراجع والانحسار، إذ احتلّ الشعر بالعربيّة الفصحى المكانة الأولى؛ وهذا لا يعني إطلاقاً أنّ الشعر الكلاسيكيّ العربيّ لم يكن المادّة الطاغية على صعيد الفئات المتعلّمة، وشبه المتعلّمة في المرحلة المشار إليها.

بدأ الشعر العربيّ الكلاسيكيّ يحتلّ المكانة الرئيسيّة منذ أواسط القرن التاسع عشر، بعد انتشار المدارس ونهضة التعليم، وفي هذا السياق ظهرت قامات شعرية مهمّة، وعلى سبيل المثال نذكر أحمد شوقي وخليل مطران وأحمد رامي والأخطل الصغير ومحمد مهدي الجواهري وغيرهم.

وشرعت حركة الزجل اللبناني بالتراجع لصالح حركة الشعر الحديث والشعر بالفصحى، فالأجيال الشابة انصرفت عن الشعر العامي كمادّة تقليدية غير مفتوحة على مشروع نهضوي عربي، أو على مشروع تحرّري وحدائي، فاتّخذ مقاييسه من الشعر العامي السرياني، وإذا تفحصنا الشعر بالعامية، فإنّنا نجد له أوزاناً مختلفة. فالشعر بالعامية لا يختلف في مواضيعه، بل في طريقة الكتابة والتركيب، وفي موسيقاه.

في هذا الإطار يحضر في القصيدة بالعامية اللبنانية، التي كتبها سعيد عقل وميشال طراد وطلال حيدر وغيرهم، معظم أوزان الزجل اللبناني وتفعيلاته وبعض الطرائق في تركيبه وصياغته، وهذا ما يظهر عند الشاعر رفعت مبارك بقوله:

أنا إنسانٌ بكُفّر بالقناعة متى شُفت الغنى برجو تداعي
أنا جهادي وطموحي راس مالي دني مليانها بأس وشجاعة⁽⁹⁾

وتجدر الإشارة بالقول إلى إنّ من يعتقد أنّ جزءاً مهمّاً من الزجل اللبناني ذو مصدر عربي، وأنّ أجزاء أخرى تتحدّر من السريانية؛ وعلى سبيل المثال لا الحصر

نذكر ما يسمّى بـ «الشروقي»، وهو قالب شعري كتب على نسقه الشاعر رفعت مبارك بعض قصائده، ويظنّ كثيرون أنّ الشروقي جاء من الجزيرة العربية، تمامًا كما جاء «الموشح» من الأندلس؛ ومنه قول الشاعر في الشروقي:

مفروضٌ فينا احترامُ الأهلِ والتقديرُ واجبٌ مقدّسٌ ما بين القاصِّ والداني
حتى برضاهم على درب الهداية نسيرُ ونقدر نوفي المربي حقَّ إنساني
ما نسيتُ لما بمهدي كنتُ طفل صغيرُ قديشُ جاهدُ أبي منشانُ ربّاني⁽¹⁰⁾

وفي خضمّ هذا التطوّر الشعري وتوّعه تبرز قضاياها المختلفة والتي كانت مائدة الشعراء، وأبرز ما تناولوه المرأة (الغزل والحزن)، حيث سطّرت المرأة في العصور القديمة والحديثة؛ وخاصّة في المجتمعات الإسلامية أسطرًا من نور في جميع المجالات، حيث كانت ملكة وقاضية وشاعرة وفنانة وأديبة وفقهية ومحاربة وملهمّة للشعراء في كلّ اتجاهاتهم.

ونراه في الغزل (الشروقي) يقول:

عيونك يا سمرا عا دنية حبّ دلّوني وعا كوّن أخضر من الأحلام فرجوني
وبلّش هواك بدربي يزرع الأنوار وحسنك بسحر الجمال يكحلّ جفوني⁽¹¹⁾

إلى الآن ما زالت المرأة في المجتمعات الإسلامية تكد وتكدح وتساهم بكلّ طاقتها في رعاية بيتها وأفراد أسرتها، فهي الأم التي تقع على عاتقها مسؤولية تربية الأجيال القادمة، وهي الزوجة التي تدير البيت وتوجه اقتصادياته، وهي بنت أو أخت أو زوجة، وهذا ما يجعل الدور الذي تقوم به المرأة في بناء المجتمع دورًا لا يمكن إغفاله أو التقليل من خطورته، وشعراء الزجل أو الشروقي أو العتابا تناولوا المرأة بكلّ قضاياها (غزلًا، مدحًا وفخرًا).

وتتميّ المرأة طاقات أبنائها عن طريق تنمية الوعي الفكري والثقافي لديهم، وتوعيتهم دينيًا وسياسيًا حتى لا يقعوا فريسة لموجات التطرف، وترسخ فيهم القيم والسلوك والعادات الإسلامية المطلوبة، وهذه التنمية والتربية تقوم على أساس المساواة بين الذكور والإناث، ودور المرأة لا ينحصر في ذلك فقط، بل يتعداه إلى ما تقوم به من أعمال الاقتصاد المنزلي، كما أنّها في بعض الأحيان تتحمّل المسؤولية كاملة في حالة غياب الزوج أو وفاته، هذا بالإضافة إلى عملها خارج المنزل، وهذا ما أظهره الشاعر رفعت مبارك في قصائده المتنوّعة، وخصوصًا فيما قاله بحق السيدة الأولى أندرية لحدود عند زيارتها مدينة الهرمل:

«يا نجمة البيت الرفيع الشأن
لُ منوّ حفظتي رسالة الإيمان
وعنوّ حفظت العطف والتّحنان
منقدر نقلك من قلب ولسان
بيت الرئيس الأوّل الغالي
وللوطن كنت بذاتك رسالة
ونلت العلى وتقدير إجمالي
إنّ على جبين الوطن هالي
لـ فيها رفعنا راسنا عالي»⁽¹²⁾

يظهر الشاعر في هذه الأبيات دور المرأة القيادي؛ فهي إلى جانب الرجل في السياسة والاقتصاد والتربية وحفظ الرسالة، التي تربّي بها أجيالاً صاعدة، كما تصل إلى أعلى المراتب، وتنال التقدير على جهودها في مختلف ميادين الحياة.

أولاً- المرأة في شعر رفعت مبارك تمثل الحياة

أ- المرأة الأم

للمرأة دور كبير في المجتمع، فبدونها لا يمكن أن تسير عجلة الحياة، فهي نصف المجتمع وشريكة الرجل وسنده، وحين يقدّم الرّجل ما يستطيع من جهد في سبيل الإنفاق على الأسرة، ترى المرأة تبثري للقيام بدورها في المجتمع بكلّ قوّة وعزيمة، وتمتلك صفات تميّزها عن الرّجل وتجعلها قادرة على تقديم معاني الرّحمة والحنان لأولادها ورعايتهم الرّعاية الصّحيحة، ولا يمكن للرّجل أن يحلّ مكان المرأة في الأسرة، وهنا تكمن سنّة الحياة وتكامل أدوارها حين يعرف كلّ طرفٍ فيها دوره ورسالته، فيؤدّيها على أكمل وجه، وإنّ أهميّة دور المرأة في المجتمع تكمن من أهميّة الرّسالة التي تؤدّيها المرأة فيه، فما هي رسالة المرأة؟

تتجلّى رسالة المرأة في الأسرة حين تقوم برعاية أولادها وتربيتهم التّربية الصّحيحة المبنية على الأخلاق والدين، ولا يمكن أن تؤدّي الأمّ هذه الرّسالة إلا عندما تكون مهنيّة، لذلك وكما قال الشّاعر حافظ ابراهيم:

الأمّ مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

كما أنّ رسالة المرأة في أسرتها تتعدّى مهمّة التربية إلى مهمة إعداد جيلٍ من الأبناء يحسن التّعامل مع مجتمعه ويحسن العطاء، فتزوّد بالمهارات الإجتماعيّة اللازمة، ويتشارك الأب هذه المسؤوليّة مع المرأة حتى يكون نتاج التّربية أفضل، والشاعر «رفعت مبارك» يظهر هذا الدور العظيم الذي وضعه الخالق في مسيرة المرأة، فيقول:

وقال المصطفى الممدوح خلّو

أوصى بالمرأ الرحمان خلّو

النسا والطيب والصوات خلّو	بمكانة قدرها عندي انسحب
المرأ عالطفل ما أكرم خلّقها	اللي بنصف المجتمع الله خلّقها
بترضى ببيتها تلبس خلّقها ⁽¹³⁾	تا يلبس إبنها السندس تياب
بتقدّمها المرأ لازم نعدّها	وما لازم للخلف إنّنا نعدّها
نصف المجتمع فينا نعدّها	متى للمجتمع كان الحساب
المرأة بحترمها بقدر كوني ⁽¹⁴⁾	لأنّها بالحقيقة سرّ كوني ⁽¹⁵⁾

يتضمّن دور الأمومة بعنوانه العريض أدواراً فرعيّة منها: التربية والتنشئة، والاهتمام بمشاكل أفراد عائلتها، وتقديم الدعم العاطفي لهم، وتشبيتهم عند الشدائد، فكل هذه الأدوار هامة جدّاً لضمان الاستقرار النفسي لأفراد المجتمع، وفي جعلهم أشخاصاً يصدر عن تصرفات قيّمة وأخلاقية ترتقي بالمجتمع إلى القمم. فالأم هي كتلة من المشاعر والأحاسيس والحبّ تنعكس على أبنائها، وهذه الأم كان لها الدور الأبرز في شاعرية الشاعر، ولمّ لا، والمرأة في حياة «مبارك» تمثّل الفرح والوطن، لهذا نراه يرتبط بأمه التي تمثل له البيت العامر والأرض والوطن.

«المرأ من حيثها شريكة عمّرنا	إن فقدنا حلونا بتصبرع مرّنا
بلاها بيت ما قدرنا عمّرنا	ولا عيش العائلة بالبيت طاب ⁽¹⁶⁾

والمرأة الأم في نظر الشاعر لها كلّ التقدير والاحترام والإجلال، وفيها يقول:
 «وأُمّي الحنونة اللي عملت ساعديها سرير من أجل إغضى أنا بتضلّ سهراني
 قدّيش عملو على دروب الشقا مشاوير وحملو المتاعب ليالي طوال منشاني
 منشان إبقى بعينين الزمان كبير وإسعد بأُمّي وأبي وبحبّ أوطاني⁽¹⁷⁾»

من خلال هذه الأبيات ندرك كم كان الشاعر مطواعاً لأمّه، وكم هو بحاجة لرضاها، لأنّه كان مقتنعاً أنّ رضى الله من رضاها، وأنّ الجنّة تحت أقدام الأمهات.

ب- المرأة الأخت

ليست المرأة أبداً أحد جناحين يطير بهما المجتمع ثمّ يرخي بهما أرضاً حين يتوقّف عن الطيران، بل هي القلب، ينبض في المجتمع وينبض في الوطن، فترفع اسمه بجمالها وفكرها وثقافتها.

هذه المرأة هي الجميلة التي لا تصمت، هي المعطاءة بلا حدود، هي الاجتماعية بلا

قيود، هي المنفتحة بلا ابتذال، هي المفكّرة بلا عقد، هي المنتجة بلا أسر، هي الأخت التي تحمل كلّ مصاعب الدنيا ومتاعبها. فإذا ما غابت الأخت عن الأسرة، عاشت تلك الأسرة في ضياع وقلق، فهي الأم الثانية التي تربّي بحنانها وعطفها ولطفها، فهمي جامعة بأخلاقها وأسلوبها وعطاءاتها الروحية.

ج- المرأة الحبيبة (الزوجة)

الغزل هو حديث الشاعر رفعت مبارك الذي يدور موضوعه على الحب والعشق، ويعبر فيه الشاعر عن خلجات قلبه، وما تضطرب به نفسه من عواطف وإنفعالات نحو الحبيبة. إنّه حديث القلب إلى القلب، وهو: "فَنَ التحدّث إلى المرأة خُلُقًا وخُلُقًا، على براعة في الوصف والتودد"⁽¹⁸⁾، فالمرأة الحبيبة هي الملمهم الأوّل للشاعر، وتجعله يعيش الحياة بكلّ تفاصيلها وجزئياتها، فهي الروح الحقيقي التي تتجلّى بحبّها وصدقها وإخلاصها لزوجها، وبالمقابل الزوج هو الحامي للزوجة فهي أمانة في عنقه، وهذا ما كان يؤمن به الشاعر رفعت مبارك في قلبه، ويصدق على لسانه، فيقول:

«الزوجة أمانة بعنق رجالها بتكون
والزوجة تحفظ كرامة زوجها وتصون
والأم والبي إلهم واجب التقدير
واجب يحافظ عليها ببيتها الميمون
تَ يربّو أسرة كريمة وجوّها هادي
لا شكّ إلهم على الأبناء فضل كبير»⁽¹⁹⁾

د- المرأة البنت

الأولاد، في الديانات والحضارات، زينة الحياة الدنيا، ونعمة من نعم الله على البشر، فقد جاء في القرآن الكريم (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مَّالًا)⁽²⁰⁾ ومحبة اللبنانيين لأطفالهم لا تعادلها محبة، فهم يبذلون الغالي والنفيس في سبيلهم، وربّما شقي الوالدان كثيرًا في سبيل إسعاد أولادهم، وهم يقولون «الولد شريك الروح»، ونلاحظ الحنان والعطف والمحبة الأبوية للبنات عند الشاعر حطّان بن المعلّى:

لولا بُنَيَاتُ كَرْغَبِ القَطَا
لكان لي مُضْطَرَّبٌ واسعٌ
وإنما أولادُنا بيننا
لو هبَّتِ الرِّيحُ على بعضهم
رُدَدَنَ من بعضٍ إلى بعضٍ
في الأرض ذاتِ الطولِ والعَرْضِ
أكبأدنا تمشي على الأرضِ
لا متنعتُ عيني من الغَمْضِ⁽²¹⁾

نستشعر عطف اللبنانيين على البنت واشفاقهم عليها، بقولهم: «البنت جناحاً مكسور»، والعجيب أنّ اللبنانيين مع حزنهم عند إنجاب الأنثى، وشطط بعضهم بالقول: «صوت حية ولا صوت بنّية»⁽²²⁾، يعترفون بفضل البنت في مساعدة والدتها في تدبير شؤون المنزل وفي الاعتناء بوالديها عندما يعجزان. فالبنت تحلّ مكان الزوجة والأم والأب، وهي الحاضنة الحقيقيّة لوالديها، وخير مثال للبنت الصالحة السيدة الزهراء ابنة رسول البشرية محمد^(ص)، حيث أسماها أبوها «بأمّ أبيها»؛ لما لها أهمية في تخفيف الآلام والأحزان عنه. والبنت في منظار «رفعت مبارك» هي الرفعة والكبرياء فيحتضنها في مآقيه ولا يدعها للزمان وفيها يقول:

«أبيها البنت بتشكو أبيها ولها التحرير ما بتنكر أبيها
سجينة نّ ضلّت بمنزل أبيها سرقة بتسرق عيوننا الشباب»⁽²³⁾

ثانياً- الحبّ الصادق والوفاء للمرأة

اختلف الناس منذ القديم في تعريف ما معنى الحبّ، فكانت مختلف التخصّصات والمذاهب تعرف الحبّ بشكل مختلف تماماً اعتماداً على تركيزها ومنظورها. وربّما ليست المسألة مرتبطة فقط بالمذهب الفكري أو المنظور العاطفي، بل إنّ لكلّ شخص فهمًا وتعريفًا خاصًا لمعنى الحبّ، والحبّ ليس مقتصرًا على حبّ المرأة للرجل أو الرجل للمرأة، بل هناك أنواع أخرى من الحبّ كحبّ الله عزّ وجلّ و هو أرقى أنواع الحبّ وهناك حبّ الأم لطفلها وحبّ الصديق لصديقه. والحبّ الصادق عند رفعت مبارك ظهر كما كان ساكنًا في قلبه، بقوله:

«بترضي ما زالك بقلبي عارفة الأسرار وبتعرفيني بقلب وروح بفيديك
من الطير عنك كنت استورد الأخبار وإسأل النسمة الطرية شو جرى فيك»⁽²⁴⁾

فالحبّ هو فنّ معاملة الشخص المحبوب برقة وجمال، ويتمّ إنجاز هذا الفنّ، كما في الفنون كافة، من خلال الأداء الماهر والخبرة الملاحظة والدراسة والتدريب والشوق واللهفة عند وقوع أي مصيبة أو سوء حال، والهدف من فنّ الحبّ هو إبداع وإنشاء قواعد للحياة السعيدة مع الشخص المحبوب.

«قالوا مريضة سألت الربّ يشفيك ورُكعت صلّي إلو منشان يحميك
وصارت تهبّ بزلوعي من الحنين النّار وتكوي بحرّ المحبّة قلب هاويك
وعاش بعيوني السهر، والنوم جنّ وطار وعاسّكت من خوفها روعي تتاديك»⁽²⁵⁾

لعلّ الحبّ من أكثر المواضيع التي تناولتها أقلام الشعراء، وكلّ شاعر أنشد عن الحبّ كان له منظوره الخاص به بحسب المحبوب والمناخ المحيط، فمن الشعر الذي يتغنّى بالحبّ العذري إلى الذي يكتب أبياتاً ماجنة في حب فاحش. لذلك فأفضل ما يقال أنّ الشعراء اتفقوا على ألاّ يتفقوا على معنى الحبّ. والشاعر «رفعت مبارك» واحد من الشعراء الذين جعلوا للحبّ مكانة خاصة في قلوبهم، فتناول الحبّ في ديوانيه الزجل والعتابا - الشروقي، وخصّصه بمفردات وتعابير عن الوفاء والإخلاص قلّ نظيرها، ففي ذلك يقول:

«جرحك ألمني وترك فيّ جروح كتار وشو خفت من ريشة الجراح تؤذيك
وتأخذ مداها بجسم أنعم من الأزهار من بعد ما البنج عَ سريرك يغفيك
تمنيتّ حالي بقربك كُون ليل نهار تا كنت بدّل الدوى بالدمع داويك
وامسح الجرح بعيوني ل عالحلى بتغار وبين المحاجر عن الحساد خبيك»⁽²⁶⁾

بهذه العبارات والمفردات استطاع الشاعر مبارك أن يتقدّم الكثير من الشعراء، حيث دخل إلى عمق الشعر وصوره المكنونة في قلب الإنسان الآخر، وكأنّه جعل نفسه هو الداوي والمتداوي، وتمنى أن يكون الشافي، ومزيل الداء عن أنعم جسد، ولو بدموع عينيه، هذا هو الحبّ الصادق والإخلاص الصادر من شاعر عاش العاطفة الحنونة بفطرته الصادقة.

أ- الحبّ وشوق اللقاء

الحبّ هو شعور داخلي بالإعجاب والإنجذاب نحو شخص آخر، وفيه آراء مختلفة: منها ما هو قائم على أساس شرح الحبّ وتفسيره كمبدأ عام يشعر به كلّ إنسان، ومنها ما يعتقد أنّ الحبّ قائم على أساس كيميائي وبيولوجي. وفيه قال قيس لبنى:

هل الحبّ إلا زفرة بعد زفرة وحرّ على الأحشاء ليس له برد
وفيض دموع العين يامي كلما بدا علم من أرضكم لم يكن ييدو⁽²⁷⁾

وسئل أعرابي عن الهوى فقال: هو أظهر من أن يخفى، وأخفى من أن يرى، كامن كمن النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته تواری. وسئل يحيى بن معاذ عن حقيقته فقال: «الذي لا يزيده البر ولا ينقصه الجفاء»⁽²⁸⁾. فالحبّ كان موضوع دراسة وبحث للكثير من الشعراء الذين حاولوا فكّ رموزه على مرّ السنوات، فتوصلوا الى نتيجة مفادها أنّ «الحبّ يترافق مع شعور بالسعادة والغبطة والطمأنينة والدفاء،

ويملاً قلب الشخص الذي يحبّ».

ويتحوّل الشوق بعيوني دمع مدارر
كلّما تمرّ بخيالي سنين ماضيك⁽²⁹⁾

لا يمكن لأحد أن ينكر أهمية الحبّ، «فالحبّ هو بمثابة الطاقة التي نحتاجها لنتمكّن من العيش في هذه الحياة، فلا حياة من غير حبّ ولا حبّ من دون حياة». وقد أكدت الدراسات النفسية أنّ «الإنسان الذي يتمتع بالاستقرار النفسي، يشعر بحاجة إلى المشاركة الوجدانية مع الآخرين، ويبحث عن الاستجابة العاطفية من شخص يشبهه ليس على صعيد الشكل الخارجي فقط، بل على صعيد الاحتياجات النفسية والاجتماعية أيضاً». ولذلك، يبحث الرجل الذي يعاني نقصاً في العاطفة والحنان عن امرأة تستجيب لحاجاته النفسيّة.

فلحبّ هرمون يفرزه الجسم إثر لقاء العشّاق، وقد درس علماء النفس وعلماء الاجتماع «الحبّ» على أنّه حاجة ملحة وأساسية لتوازن الانسان النفسي، وقد حدّد العالم النفساني «ماسلو»، الذي بنى هرم احتياجات الإنسان الأولية من طعام وشراب، حاجة الإنسان إلى الإحساس بالعاطفة والطمأنينة، أي الحاجة إلى منح الحبّ وتلقّيه، في حين منح الأدباء والكتّاب تسميات كثيرة تحتمل معاني مختلفة، أبرزها⁽³⁰⁾:

- الغرام: وهو التعلّق بالشيء تعلقاً لا يُمكن التخلّص منه بسهولة.

- العشق: وهو فرط الحبّ.

- الهيام: وهو جنون العشق.

- الصبابة: حرارة الشوق، ورقّته.

- الوجد: الشغف والحبّ الشديد.

كما للحبّ حالات يعيشها الشاعر كغيره من الناس، إنّما الشاعر يتلقّفها بروح العشق وأهمية القضية التي يتبنّاها:

- حبّ الله: هو من أرقى وأنقى أنواع الحبّ، لأنّه لا يقوم على أي نوعٍ من المصالح، بل على النوايا الحسنة فقط.

- الحبّ الأفلاطوني: هو القريب من الحبّ المثالي، وهو الحب الذي يربطنا مع أصدقائنا وأهلنا، وغالباً ما ينمّ عن حبّ بسيط حيث لا قيود ولا شروط ولا نوايا مخبّئة أو مادية.

محسوب خييّ عليّ ولو حسودي كان ومفروض حيّو عليّ فرض إجباري

حقّ الأخوة فرضها الحبّ والإيمان بالعكس عن إختياري لُحب أنصاري

صديقي سيق والمبدا قرابي
مثل ما قرئت في نفسو قرابي
الصداقة المخلصة عندي قرابة
لها في ذمة المخلص حساب⁽³¹⁾

- الحبّ الأناني: هو الحبّ القائم على المصلحة الشخصية، حيث لا يبالي أحد الطرفين بسعادة الآخر.

- الحبّ الصامت: هو حبّ المراهقين، حيث تكون المشاعر بريئة ولا تتطلّب مقابلاً، ويمكن لهذا النوع من الحبّ أن يتحوّل حباً حقيقياً.

- الحبّ العفوي: يظهر عند المراهقين، ولا يشترط وجود رجل وامرأة، بل هو الشعور بالطمأنينة والحبّ والسعادة لكلّ ما يحيط بهم من أفراد.

- الحبّ الشهواني: هو الحبّ الذي يقوم على تحقيق الرغبات المادية والجسدية، بعيداً عن المشاعر والأحاسيس.

- الحبّ الرومانسي: يقوم على المشاعر والأحاسيس المرهفة بعيداً عن الشهوات والمصالح الشخصية.

المرآ ربحانة الإنسان والروح
ومكائتها بمكان القلب والروح
أوصى بحقّها الرحمان والروح
نقل ذات الوصية لُ بالكتاب⁽³²⁾

لا بدّ من التطرّق الى العناصر المهمّة التي يمكن أن تغذيه هذا الحبّ وتجعله يدوم سنوات طويلة:

- اهتمام الطرفين والعناية ببعضهما بعضاً على كلّ الصعد، ليس الجسديّة فقط، وإنّما النفسية والاجتماعية أيضاً.

- الحنان: هو شعور يجب أن يكون متبادلاً بين الشريكين للتنعم بالأمان والاستقرار العاطفي.

«الزوجة أمانة بعنق رجالها بتكون
واجب يحافظ عليها ببيتها الميمون
والزوجة تحفظ كرامة زوجها وتصون
تَ يربو أسرة كريمة وجوّها هادي⁽³³⁾»

- الاحترام: يعني ذلك احترام كل طرف للآخر كما هو بصفاته الطبيعية من دون العمل على تغيير طبيعته أو السيطرة عليه، وإجباره على تغيير شخصيته وفق ما يتلاءم مع الحاجات الشخصية.

«تأثرنا بأقوالك تَ همنا
بقضيّة، كثير، يا مالك، تهمنا
لنا الله إذا الغالي تهمنا
بقلة حبنا، ولام عتب⁽³⁴⁾»

- المعرفة: يعني ذلك معرفة الطرف الآخر معرفة حقيقية لا سطحية، ويتطلّب ذلك

التعرّف الى حسنات الآخر وسيئاته ومحاولة تقبّلها.

«يا مالك⁽³⁵⁾، بالشعر أعظم قوى فيك
وما في فم بالمعنى قوى فيك
وإذا قلبك صفي لمذهب قوافيك
انتهينا: لا علاج ولا عذاب!»⁽³⁶⁾
الإبتعاد عن الغيرة المفرطة والإلتصاق «المرضيّ» بالحبيب.

ب- الحبّ مقدّس روحي وعقلي

1- الصداقة... والحبّ العذري

اعتنق الشاعر «رفعت مبارك» الحبّ المقدّس المبني على الفطرة التي وضعها الله في قلوبنا، فاتّسمت أشعاره بصفة الروحانية والعقلانية والعفة على اعتبار الحبّ العذري هو العلاقة التي تجمع بين شخصين بعيداً عن كل ارتباط فيزيائي أو ماديّ.
«ذخري صديقي اختبرتو بأحرج الأزمان عن ابن أمّي وأبي بينهض بأخطاري
لا رحم فارض عليه العطف والتحنان إلاّ تجانس بأفكارو وأفكاري»⁽³⁷⁾

الصداقة بالتعريف تشبه بشكل كبير هذا الحبّ، ولكن هل تطبق نظرة المرأة للموضوع مع وجهة نظر الرجل؟ إذن الحبّ العذري والصداقة قد يعبّرا عن الحالة نفسها، وغالبًا ما يتشابهان في نظرة المرأة للأمور، ففي كلتا الحالتين هي تكنّ حبًا وتقديرًا كبيرين لهذا الرجل، أمّا بعض الرجال فهم يؤمنون على الغالب بالصداقة بين الجنسين، وأيضًا بالحبّ العذري الذي يوجب ويجدّد لحظاته في حياته، فملخص ماجاء في مضمون تحقيقنا هذا أنّ الحبّ ليس له ماهية واحدة، بل هو مفهوم مجرد يشير إلى أطراف من المشاعر والأحاسيس والإنفعالات المترابطة عضوياً في النفس الإنسانية، هذه أشياء قليلة ممّا يمكن أن يكتب عن الحبّ العذري الذي خصّص له الدارسون كتبًا كثيرة، وأستفاضوا في الحديث عنه، فمنهم من رفعه الى مقام رفيع في مشهد الحياة الأدبيّة الشعريّة، ومنهم من دخل الى خصائصه دخول الدارس المتمحّص لبيّن جوانبه الإيجابية والسلبية، وليخلص الى نتيجة مقنعة للقارئ.

2- تحقيق للذات أو إنكار لها

الحبّ عاطفة إنسانية تجذب شخصًا إلى آخر من خلال صفات جمالية أو فكرية أو روحية لهذا الشخص، وهو إمّا حبّ جسدي وحسي أو روحي، وإمّا إنكار للذات من أجل من نحبّ أو تحقيق الذات في من نحبّ، حيث يقول أحد الفلاسفة «أنّ الحبّ

العذري هو إمتزاج الروح بالروح كالماء إذا امتزج بالماء استحال تخليص بعض من بعض⁽³⁸⁾.

«بحسبك يا سمرا الهوى ردّد حكاياتو وعَ جبينك النور مخطوطين آياتو
والليل حبلوا بحبل جدائلك موصول والفجر ذوّب عثغرك نور بسماتو
مطرح ما طل السحر يحكي غزل ويقول أبيات شاعر تسامى في خيالاتو»⁽³⁹⁾

جمع الشاعر الصفات الروحية والجسدية في معشوقته؛ فهي السمراء، ذات النور الساطع، الجدايل، الفجر الرائع، الثغر، البسمة، السحر، الغزل، الكلام الجميل، والخيال» كلّ هذا جعل الشاعر تهيم نفسه بتلك الموصوفة السمراء التي جمعت تلك الصفات بقدره الخالق، فكيف بذاك الشاعر لا يعشقها ولا يصفها، ويحقّق ذاته فيها؟!!

3- عاطفة أخّاذة

ينتظر العاشق معشوقته أو محبوبته إنتظار الليل المظلم إلى انبلاج الفجر المضيء، فهو كتلة من المشاعر والعواطف أخّاذة يهيم فيها المحبّ بحبيبته، ويرجو الحظوة بوصولها، وقد تتضاءل لديه النظرة الى المتع الحسية ومن كلا الجنسين، إذ يطفئ عليها حرص المحبّ على استدامة عاطفته في ذاتها، وعلى إعتزازه بها مع التضحية في سبيل الإبقاء عليها، بما يستطيع بذله من جهد وآلام، مؤكّداً بأنّ الحبّ العذري هو حبّ زاخر بالمشاعر العذريّة، وملئء بالعاطفة المتّقدة، ومتقيّدون بأخلاق الوفاء والإخلاص. وفي هذا يقول الشاعر:

« نَيّال قلبك إنت مرتاح فاضي الببال وبالعكس روحي أنا للصبر محكومي
تعوّدت إسهر على ذكرك ليالي طوال وصورة جمالك بأّم العين مرسومي
إستوحي منها جمال الشعر والأقوال منشان أكتب إلّك لوحات منظومي»⁰

4- الحبّ الصادق

الحبّ الحقيقي هو الحبّ الصادق النابع من القلب، والذي لا تشويهه تداخلات المصالح أو أيّ أمور أخرى، وهو رغبة الإنسان بوجود من يحبّ قربه لا أكثر، لو أردت التكلّم عن الحبّ وصدق مشاعره؛ فهو من أجمل الأمور التي قد تحصل لنا، ومن أروع المشاعر التي نشعر بها، فمهما حاولنا أن نخفي ما بداخلنا إلّا أنّ مشاعر الحبّ فواحة تبعث بكلّ مكان، فليس هناك أفضل من أن يكون هذا الحبّ صادقاً مبنياً على الإحترام والوفاء والصدق والقداسة، فيقول الشاعر في محبوبته بعد أن طالبت ليالي الجفا:

« طالت ليالي الجفا يا ظالمة عودي
 نسيتي بأنها المحبة رفيقة الأعمار
 لا تحرميني بلقك الروح موعودي
 كضر المحبين بالحب المقدس عار
 وآية بصفحة خلود الروح موجودي
 وأكبر جريمة على الأرواح معدودي»⁽⁴⁰⁾

هذا الوفاء والصدق الذي عاشه الشاعر في وقعه وقد ترجمه في قصائده، فكان الودود وصاحب القلب الرقيق، الذي يقدم على الحبّ كطفل يحتضن أمه بعد شوق طال، وما هذه القصيدة إلا ترجمة واقعية لهذا العشق الذي لا ينسى؛ فهي رفيقة العمر، وهي مبسم الأزهار، وهي أحلى الأمانى، وهي المعبودة، وهي الحبّ المقدس الذي لا يكفر به إطلاقاً. هذا هو رفعت مبارك في الحبّ الصادق، الذي يرسم صورة الرجل الشرقي الذي يعشق بصدق وعفوية، لا تشوبها أيّ شائبة أو نزوة عابرة.

ثالثاً- الصورة الشعريّة في مفهومها الجمالي والبلاغي

أ- الصورة الشعريّة وفنّيّتها

الصورة الشعريّة ركن أساس من أركان العمل الأدبيّ، وتبرز فنّيّتها من خلال وسيلة الأديب الأولى التي يستعين بها في صياغة تجربته الإبداعية، وأداة الناقد المثلى التي يتوسّل بها في الحكم على أصالة الأعمال الأدبية، وصدق التجربة الشعريّة. فلبّ العمل الشعري الذي يميّز به صاحبه هو الصورة الشعريّة، وجوهره الدائم، بل إنّ ذات الشاعر لتتحقّق موضوعياً في الصورة أكثر ممّا تتحقّق في أيّ عنصر آخر من عناصر البناء الشعري، إلا أنّ هذا، لا يعني أنّها نالت نصيبها من الدراسة واستوفت حقها من التحليل، بل لأنّ المصطلح لا يزال غامضاً، ومردّه إلى ارتباط المصطلح مع مصطلحات أخرى، مثل الصورة الأدبية، والصورة الفنيّة، والصورة البلاغية، والصورة البيانية... ناهيك عن تعدّد مقاصده المنبثقة عن المذاهب الأدبية، والمناهج النقدية المتعدّدة، وتطوّر الحقول المعرفية التي يتكئ عليها النقد الحديث في تقييمها.

يا سائب الروح قلبي في غرامك هام
 مشغول فيك بسبيل الحبّ متفاني
 يا محرم عيون ولفك عالبعاد تنام
 لو غبت رسمك بيبقى بين أجزاني
 كلما التقينا بوجهي بتضحك الأيام
 وبصير شوف الدني أفرح وغناني»⁽⁴¹⁾

الجملة الشعريّة هي تلك الجملة التي تستمد عطاءها من التركيب النحويّ واللغويّ والأسلوبيّ والعروضيّ والبلاغيّ، تركيبها نابع من سماتها الشعريّة، ولعلّ اللّغة الأداة المهمّة في نقل تجربة المبدع المتوقفة على ارتباط العلاقات الداخلية في النصّ،

وإيجاد الألفاظ المناسبة في داخل السياق لنقل المعنى، فاستخدم لها الشاعر «رفعت مبارك» أبنية شعريّة وتراكيب بلاغيّة ونغويّة داخل المشهد الواحد، إذ تحوّلت هذه الجملة إلى نسق تعبيرى قائم بذاته، بصفة أنّ نظام المفردات يقيم علاقات تبادلية يتحكم فيها الانفعال والتجربة أكثر من تحكم النظام النحوي، وطغت الصّور البيانيّة من (استعارات وكنيات)، والتقاء التراكيب داخل النسق النصّي يحتم على الشاعر العودة الى القاموس الشعري لينتقي المفردات التي تساير تجربته الشعوريّة.

- يا سائب الروح: كناية عن شدة العشق والهيّام بالمحبوب.
- قلبي في غرامك هام: استعارة/ تشخيص
- مشغول فيك: استعارة / تشخيص
- بسبيل الحبّ متفاني: كناية عن كثرة الحب التي أوصلته إلى التفاني.
- يا محرم عيون ولفك: استعارة/ تشخيص
- لو غبت رسمك بيبقى بين أجزائي: كناية شدة التعلق بالمحبوب.
- كلما التقينا بوجهي بتضحك الأيام: كناية عن السعادة التي يجلبها الحبيب.
- بصير شوف الدني أفراح وغناني: كناية عن الفرحة التي يسببها لقاء المحبوب.

فاللغة الشعريّة مسؤوليّة وسلطة؛ فهي "تحمل همّ نقل عالم من الجمال بالإيحاء والإشارة والرمز، فتَهزُّ الكيان، وتلهّم الوجدان"⁽⁴²⁾.

قد اهتمّت مصادر عدة بأليات الجملة الشعريّة، وأشكالها في المنهج، هذه الجملة التي تنزاح إلى تراكيب مختلفة يتعامل معها الأديب ضمن موقفه الشعري الذي يحتم عليه الإنصراف إلى أشياء أخرى، الأدب بصورة عامة هو مغامرة إنسانية حقيقة خاصة مطلقة أو مغامرة وراء حدود العالم، كلاهما (الشعر والنثر) يمارس ضمن حدود الحرّيّة والابتكار والخلق، فالشعر مثلاً في رأي أدونيس «تنبؤيّة ورؤياوية بشكل أساسي، تقوم على كسر الآفاق المغلقة لمثل هذا العالم (عالم التراث) بغية الانفتاح على عالم أوسع». «إنّ الشعر هو هذا البحث الدائم عن تجاوز دائم»⁽⁴³⁾ أي عالم دائم الخلق والابتكار والإبداع فـ «قد بدأ يقرع أبواب هذا العالم الكبير الغني، ذلك أنه ابتداءً أن يكون فعل خلاص وتحرر»⁽⁴⁴⁾.

هذه الجملة التي تضمّ النصّ كلّه وتبني العلائق التركيبية بداخله «إنّ إيقاع الجملة الشعريّة، وتكثيفها الشعوري يعتمد على مخزونها الشعوري العميق وملفوظها الإيقاعي المتجانس مع حجم المعاناة، وعمق الشعور ورهافة الصياغة وطريقة التشكيل الأسلوبية

في جميع المفردات وحرصها في بنية السياق، وهذا ما يجعل بعض الجمل الشعرية ذات حيازة جمالية عالية لأنساق تشكيلية مبتكرة⁽⁴⁵⁾

تبرز بوضوح الجملة الشعرية في قصائد «رفعت مبارك» وتظهر العلائق التركيبية بإيقاع الجملة ومفرداتها (من خلال التكرار: والشوق/ شوق/ شوق اليتيمة - بشوفك 3 مرات)، وتكثيف معانيها (شوق الفقر للمال/ بشوفك ليل السمر بين النجوم كالهلال والشمس)، وصياغتها (الاستفهام: وين مهزومي)، وحسن ملفوظها وأسلوبها (تمايل الشبيه بالحسناوات/ تختال مع النسيمات/ ينمحي وينشال)، وسياقها (البدء بالشوق المتمثل بالفقر مروراً باللقاء في ليالي السمر، وصولاً إلى التمايل بفرحة والحيرة والخوف والقلق التي ظهرت وتصبح بها الحقيقة خيالات):

والشوق عندي إلك شوق الفقر للمال شوق اليتيمة لحنان الأم محرومي
بشوفك ليل السمر بين النجوم هلال والشمس منك حسد بتضل مهمومي
ويخاف حبي بقلبك ينمحي وينشال وتصبح أماني فؤادي الصب معدومي⁽⁴⁶⁾

ب- اللغة المحكيّة:

أثيرت تساؤلات عدّة حول توظيف اللغة العاميّة في النصوص وهذه التساؤلات تولدت منها آراء، منها مؤيد ومنها معارض، وحجته في ذلك أنّها لغة مبتدلة لا تقوى على الإيجاء، خلاف ما تحقّقه اللغة الفصحى المثيرة.

من أبرز المعارضين عميد الأدب العربي طه حسين بقوله: «وكان بعض الشباب في تلك الأوقات يحاولون أن يكتبوا باللغة العامية وأن يروجوا لها ترويحاً لا ليتملقوا قراءهم، بل ليبلغوا منهم مواطن الفهم والذوق والاستجابة، ولكنهم كانوا يظفرون بعكس ما كانوا يريدون فيزور عنهم القراء، وتسخر منهم طوائف المثقفين، ويضطرون إلى الرجوع من عاميتهم إلى اللغة الفصحى»⁽⁴⁷⁾. وانتقد يوسف ادريس لتوظيفه العامية في مقدّمة لروايته، كان معتقداً بأنّ العامية لن تصل إلى لغة أدبيّة، وفي موضع آخر يقول «ولكنها في الوقت نفسه لغة الذين يتكلمونها فمن الحقّ عليها أن تستجيب لأصحابها وأن تساير تطوّرهم وتجاري حياتهم في ظروفها المختلفة»⁽⁴⁸⁾. هذا الجنس العامي له خصيصة لغوية يتذوق فيها الشاعر الكلمة واللغة، إذ تتمتع الكلمة بحيويّة عالية، تساعد الحقل الدلاليّ في تدعيم المشهد وتقويته، فتحتمل مستويات لغوية مختلفة، وتخضع لقوانين أسلوبية مختلفة حسب مقتضيات السياق. فنرى الشاعر «رفعت مبارك» في رثاء صديقه⁽⁴⁹⁾ يظهر المشهد الحزنيّ الذي يعتره

بموت صديقه وأنّ الكلمة لا تموت إذا ما مات صاحبها:

« الكلمة البليغة وضعها الربّ بكتابو
وآدم عَ وجه الأرض في كلمتو جابو
وظانت الدنيا الوسيعة بسّ الله قال
وفجر الحياة ابتدى وعمّاتها شابو
الكلمة استحقّت من العقل الغني التكريم
وعاللوح الله عطاها منتهى التعظيم
وبرد وسلام ورجا كانت ع ابراهيم
تعمّر البيت الحرام وسدّد حسابو»⁽⁵⁰⁾

فذلك يولد انسجامًا واضحًا بين فكرة النصّ، وتصوير الواقع الحزين عند الشاعر، وهو بذلك يتّجه اتجاهاً واقعياً مستقلاً أجاد فيه، والقارئ يتقبلها بدون تكلف؛ لأنّه يعيش الحالة التي يروها الشاعر بفنّيته العالية وتصويره المبدع «واللغة الجديرة بالحياة هي التي تقوم بوظيفتها على أكمل وجه في الفهم والإفهام، وفي التعبير عن دواخل النفوس بيسر ومن دون أجهاد، فإذا كانت الفصحى أو العامية تؤدّي هذه المهمة فهي لغة لها مقوماتها»⁽⁵¹⁾، فلا تعدّ من معوّقات النصّ أو مشكلاته استخدام العامية التي تزيد من رونق التأثير والوقع، «فهي مقارنة فنيّة وفكريّة بالوقت نفسه، ففي جلسات السمر تفيض الخواطر وتنسج العواطف أهازيج وأشعاراً ويسبح الفكر بفضاء اللوعات والأحزان، والشاعر رفعت مبارك في قصيدة رثاء يوسف حسون» يخلق في عالم الأهات التي تشدّ أواصر الأسرة المفجوعة:

« حادي فلسطين يا فلسطين ما بالو ساكت مخرسن صدى نغمات مؤالو
ما عاد صوتو الإذاعي المنبري مسموع ولا عاد قلبو الحنون يفيض شاللو
وذوّبت روحك شمع في مذبج الإلهام تا يضل درب الهدى مضوّي على رجالو»⁽⁵²⁾

من خلال ذلك نرى أنّ الشخصية تُثبت وجودها بالعمل الشعري أثر تلك اللهجة أو اللّغة العامية فضلاً عن نقلها لبيئتها وظروفها الاجتماعية. فاللّغة الواحدة تشمل لهجات عدة، ولكن كلّ واحدة لها مميّزات وسمات تختلف عن الأخرى، وبالتالي نجدّها تصبّ في لغة مستقلة تتمتّع بلهجات وأصوات مختلفة هذا التنوع في لغة النصّ كان سبباً لتصوير واقع بيئة القصيدة، والكشف عن معانيها وأوضاعها الاجتماعية، فالناس فيها بسطاء وعلى فطرتهم، وهذا ما أكّده اللّغة من مفاهيم الإنسان المحدود التفكير، فلو نظرنا إلى هذه الكلمات لوجدنا أنّ العمل الفنّي الشعري لا يتحقق إلّا بلغة خاصّة يتقنها الشاعر في تجاوز القيود الكتابية والالتجاء إلى لغة الحياة اليومية

للتعمّق، واكتشاف المزيد من حياة الشخصيات وظروفهم الحياتية، فيكون توثيقاً منقولاً نقلًا واقعيًا، وبالتالي يكون العمل الفني حينها أكثر رحابة وسعة للمتلقي، الذي يسبح بفضاء تلك القصائد.

ج- التراكيب اللغوية:

طالما أنّ عنصر اللّغة العامية في النصّ الشعريّ، هو الأبرز من خلال الجمل والعبارات، ومادامت هي المسيطرة والغالبة، فكان لا بدّ أن يعتني الشاعر بجمله نحويًا وبلاغيًا ولغويًا، ويستخدم آليات التركيب النحوي واللغوي وتقنياته، وعندما نطالع قصائد «رفعت مبارك» نلمس تراكيب الجملة المتعدّدة بـ:

- تحديد حدّ القول.
- عامل اتساعه في الجملة.
- ضبط علامة الإسناد والنسبة في تركيب الجملة.
- فهم معنى السياق والمدلول التركيبي للجملة.
- إذا كانت الجملة مستقلة بنفسها ضمن سياق خاصّ بها أو تنتمي إلى سياق عام يحيط بها ويشملها.

« قدّيش ما عانت المرأة من الآلام بظروف كانت بها الطاقات مجهولة

وتوعى ويديها بقيود الجور مغلولة	كانت بسجن التقاليد القديمة تنام
وبمجتمعها العطاها الحق مسؤولة	واليوم صارت قديرة تحقق الأحلام
بالعزم بالصدق بالإخلاص مجبولة» ⁽⁵³⁾	وبالبيت تخلق من رجال الفكر أعلام

نلاحظ من القصيدة أعلاه أنّ الشاعر قد اعتنى بجمله نحويًا وبلاغيًا ولغويًا، وذلك خلال تقديم مفهوم القصيدة: دور المرأة في المجتمع، ثم توسّعت معارفه وبيّن قدرة المرأة على تحمّل المصاعب من التقاليد الموروثة، والظلم والاستبداد الذي لحقها من مجتمعها، وقد نجح الشاعر في فهم معنى السياق ومدلول تراكيبه، بترابط جمل القصيدة وتآديتها معنًى متكاملًا.

فلا بدّ برأي الطائي من «أحالة الجملة العربية إلى ثلاث أولويات هي: نحو الأعراب، نحو الدلالة، نحو الأسلوب وضرورة الفصل المؤقت بينها، لأننا لا نبحث الجملة بصفقتها بنية نحوية خالصة، وإنّما كمحول لا أعني به المحتوى، بل بصفقتها بنية علائقية من منظور العلاقات السياقية في البناء اللغوي»⁽⁵⁴⁾ والعمل الشعري العامّي عمل أدبيّ،

ويميل إلى المعاني الإيحائية والشاعر فيها يضطر إلى استخدام الضرورات كما لو كان شاعراً، ولكنه يستخدمها استخداماً على وفق بناء الجملة النثرية.

فالفن الشعري المحكي (العامي) فيه تناقضات وتحولات متعدّدة، ليس من السهل حصرها بقالب نحوي واحد أو بجملة معيّنة ضمن الحيز اللغوي أو النحوي والشاعر يعي ذلك «فإنّه مجبر على سحبها إلى صميم اللّغة التي يستخدمها في الكتابة»⁽⁵⁵⁾ ولغته تحافظ على قواعد اللّغة السليمة، وتتمتع بقيم التوازن والتناظر والانسجام مع قواعد النحو ووسائل البناء اللغويّ، وتشكيل الجملة «إذن فالجملة وحدة لغوية تتألف من معان نحوية دلاليّة وأسلوبية تدخل فيها الكلمات في علاقات تركيبية»⁽⁵⁶⁾، هذه الجملة التي تخضع للتحديد البنائي والمنطقي من أجل إنتاج جملة لغوية مسبوكة.

« المرأة بوعبها معلق وضعنا
 إن حرمانها الثقة ضاعت وضعنا
 وثقتنا بوعبها لمّا وضعنا
 تضاعف عزمها والخير جاب»⁽⁵⁷⁾

أمّا استخدام الظواهر النحويّة أو التراكيب اللّغوية فكثيرة في قصائد رفعت مبارك، إذ يلاحظ استخدامه للجملة الاعتراضية بمواطن عدة من قصائده كقوله:

«شعرك- يا راغب- رسالة ملهم وحساس
 مخلص لشعبك بإيمانك شديد الباس
 نام بضريحك - يا راغب- مطمئن البال
 نحن الرسالة لها مهما غيابك طال»⁽⁵⁸⁾

والتوكيد هو الآخر من مغذيات هذا النصّ بأشكاله وتأكيد الفكرة، فنراه يستخدم التكرار في بيتين أو أكثر، ليفيد التوكيد كما في قوله:

«ما عاد صوته الإذاعي المنبري مسموع
 ولا عاد قلبو الحنون يفيض شلالو
 ما عاد صوته الإذاعي المنبري مسموع
 من شهر وشويّ صرلو هالصدى مقطوع».

د- جمالية الصورة الشعرية

جمالية الصورة هي المنظومة المتكاملة من القيم المعنوية المرتبطة بالشاعر من جهة، وبالمتلقي من جهة أخرى، والبعد الجمالي هو الذي تتواءم فيه القيم بين المرسل والمتلقي على نحو تعبيريّ، تتلاقى فيه الانفعالات، وتتحد في الشكل؛ لتنشأ علاقة مخصوصة بين الإنسان والعناصر الجمالية، بفعل ما تولّده هذه الأخيرة من حالات نفسيّة، ومن خلال انسجامها مع تلك الحالات، والرمز «هو الذي يمسّ المناطق الأكثر عمقاً وذاتية في النفس، والجمالية تتبع من قدرة هذا الرمز على ملامسة ذاك العمق»⁽⁵⁹⁾؛

« البنت ظاهرة زينة حماها
إلهي ع جمر طيب حماها
لولا سجن عفتها حماها
الفضيحة خربت بيت الشباب»⁽⁶⁰⁾

الرمز الذي استخدمه الشاعر في شعره (سجن عفتها)، يدلّ على الطهارة والقداسة، وانتشالها من مستنقع الاستبداد والظلم الذي كان مفروضاً على القيم التي كانت سائدة آنذاك.

من هنا ندرك «أهمية التناغم الإرتقائي التام بين البعد الصوتي للشعر والبعد الدلالي»⁽⁶¹⁾. فهذه الجوانب الفكرية والعاطفية والإنسانية والروحية التي تجلّت في القصيدة، «تحوّل القراءة الشعرية إلى إنشاء بل إلى تغريد، بل إلى طقوس مقدسة، والإنشاد هو شيء يبين القراءة والغناء، هو في الشعر كالترتيل في القرآن»⁽⁶²⁾. فالصورة أمر متعلق بالأدب وجماليات اللغة، والتطور الحادث في كليهما؛ لأنّ للصورة دلالات مختلفة، وتراطات متشابكة وطبيعة مرنة كما لها ارتباط بالإبداع الشعري، وقد فشلت المساعي التي تحاول تقنيته، أو تحديده دوماً؛ لخضوعه لطبيعة متغيرة تنتمي للفريدة والذاتية وحدود الطاقة الإبداعية المعبر عنها بالموهبة.

هـ- بلاغية الصورة الشعرية

يكاد يكون هناك إجماع على صعوبة إيجاد تعريف شامل للصورة، ولعلّ هذه الصعوبة كامنة في كثير من المصطلحات الأدبية»⁽⁶³⁾، «فالوصول إلى معنى الصورة ليس باليسير الهين، ولا السهل اللين، ومن قال ذلك، فقد احتجبت عنه أسرار اللغة وجمالها المكنون المستتر، وروحها المتجدّدة النامية، وليس لها حدود جامعة، ولا قيود مانعة»⁽⁶⁴⁾.

التصوير ليس أمراً جديداً، أو مبتكراً في الشعر، «وليست الصورة شيئاً جديداً، فإنّ الشعر قائم على الصورة - منذ أن وجد حتّى اليوم - ولكن استخدام الصورة يختلف بين شاعر وآخر، كما أنّ الشعر الحديث يختلف عن الشعر القديم في استخدامه للصورة»⁽⁶⁵⁾. استطاع الشاعر «رفعت مبارك» أن يقدّم أنموذجاً صورياً بلاغياً قلّ مثيله، فجعل الصورة تتداخل بالحكمة والموعظة، ما أنتج منها الصورة المركبة، كما بقوله:

«راحوا الليالي وبعد ما تحقّقوا الأحلام ورح يخلص العمر بغيابك على الهيني
الغربة بلاها يا ابني مفرقه الأحباب كمّ قلب منها تحطّم من حنينو وداب
والأهل أبقى من المال، لو عمّلت حساب والوطن غالي، مربّيك ومرّباني»⁽⁶⁵⁾

نلاحظ في قول الشاعر مبارك استخدام (راحوالليالي للدلالة على الأيام المنصرمة وما يلحقها من ندم، إذا ما المرء لم يستفد منها)، وكذلك قوله (رح يخلص العمر للدلالة على التحذير والتنبيه، لأنّ الأيام تسير ولا تنتظر أحدًا)، وأيضًا استخدم الاستعارة بقوله (الغربة مفرقة الأحباب)، هذا ما يدلّ أن الغربة رجل شرير يحمل الأسى ويبعد الأحباب عن بعضها، فكان دور الشاعر الواعظ المرشد والمنبّه لأبعاد الشباب من الشرّ المحتّم عليهم، وكما يقول (الغربة حطّمت القلوب: استعارة)، وينهي بحكمة (الأهل أبقى من المال) أي أنّ المال الذي يجمعه الإنسان في الغربة ويسافر من أجله؛ فالأهل أبقى منها وكذلك الوطن لأنّه مربّي الأجيال كلها، فلماذا تركه والهجرة؟ فيظهر بتلك الصور المركبة الجمال الحقيقي للصور الفنيّة. قد أوضح قدامة أنّ معيار الجمال، ومقياس الجودة يرجع للشكل أكثر من المعنى، ويفصل الأشياء التي تعتمد عليها الصورة والمكونة لجزيئاتها، فيقول: «وأحسن البلاغة الترصيع، والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ، وعكس ما نظم من بناء، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة، وإيرادها موفورة بالتمام»⁽⁶⁶⁾، والشاعر رفعت مبارك في شعره العتابا كان رائدًا فيما ذكره قدامة، فيقول:

» مداعبتي إلك كانت مودة فيها كنت أخلصي مودي

وأنا، يارفيق إخلصي، ما ودي سوى إشعال نارك بالعتاب⁽⁶⁷⁾

استخدم الشاعر مبارك الكلمات: «مودة: بمعنى محبة / ومودي: بمعنى مرسل / وما ودي: لا أريد».

كذلك في قول آخر اعتمد على الجناس بقوله:

» الدروب الشاقة واجب نسرّها بنفوس، يحلّ الأنجم نسرّها

وبإذن الدهر غايتنا نسرّها تَ يفضيها بسجودو عالتراب!⁽⁶⁸⁾

استخدم الشاعر ثلاث كلمات في موضع الجناس بلفظ واحد وبمعانٍ مختلفة، وهي «نسرّها: نمشيها / نسرّها: الطير / نسرّها: نقرّها». ونلاحظ أنّ «مبارك» لم يهمل الأثر النفسي وأهميته في تكوين الصورة وتشكيلها، فاتّسمت ألفاظه بعمق تحليلها والإبداع الشعري معتمداً على الذوق الفني المرهف وما تثيره مفردات البيان العربي أو ضروبه الفنيّة من استجابة في نفس متلقيها، فبدا البيان العربي عنده قائماً على الذوق والتذوق، وكأنّه أتبع بذلك الجرجاني الذي بلغ ذروة إبداعه الفني والنقدي في تصويره للصورة حينما ينظر إليها نظرة متكاملة لا تقوم على اللفظ وحده أو المعنى وحده، بل إنّهما عنصران مكملان لبعضهما، «واعلم أنّ قولنا «الصورة» إنّما هو تمثيل وقياس لما

نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلما رأينا البيئونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة فكان بين إنسان من إنسان، وليست العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكر، بل هو مستعمل في كلام العلماء، ويكفيك قول الجاحظ: وإئما الشعر صناعة، وضرب من التصوير⁽⁶⁹⁾، ويرى أحد الباحثين أنّ مفهوم مصطلح الصورة عند الجرجاني قد استقرّ على ثلاثة أركان:

”الأول: تناول الصورة والتصوير في خضم البحث البلاغي.

الثاني: هضم معاني الصورة لغةً واصطلاحاً من شتى مصادرها الأصلية وربطها بالنظرية الأدبية العربية.

الثالث: يتلمس مصادر الصورة الأدبية ومعيار تقويمها في الواقع بأبعاده الموروثة ومقوماته الحيوية⁽⁷⁰⁾.

ونستطيع من خلال شعر «رفعت مبارك» أن نوجز أثره في النقاط التالية:

– الصّورة الشعريّة عنده تتشكل في الذهن أولاً، ثم تبرز إلى الخارج بعد انتظامها؛ النحوي والبلاغي والسياقي.

– الصّورة يكون لها معنى مقصود، وغرض يهدف إليه الشاعر.

– كلّ كلمة في النّظم أو الصورة لا بدّ أن تأخذ مكانها بين أخواتها، ويرتبط معناها بمعاني الكلم فيها على أساس التوخي لمعاني النحو.

فالشاعر رفعت مبارك بلغ قمة الخروج على المألوف والسطحي في معالجة قضايا الصورة؛ فلقد عدّها عنصرًا حيويًا من عناصر التكوين النفسي للتجربة الشعرية، التي يعيشها والتي يطبقها يوميًا.

الخاتمة والاستنتاجات

تملك اللغة المحكيّة الطواعية التي تجعلها لغة حيّة، وتؤكد أنّها لغة الحياة قابلة للتطور، وقد أثبتت وجودها ودورها الأدبي بفضل شعرائها وكتّابها، أمثال: سعيد عقل، وجوزف حرب، وطلال حيدر، ورفعت مبارك وغيرهم وهؤلاء اعتمدوا الكتابة بالعاميّة ليس في لبنان فحسب، بل في جميع البلدان العربية، حتّى أصبحت العامية مطلبًا ومقصداً، وخصوصاً في عالم الشعر العامي المغنّى، لأنّه وليد الأغنيّة الشعبيّة والتراث حيث عواطف الناس ومشاعرهم. ومن ألوانه: الميجانا، الدلعونا، العتابا، الزجل، الشروقي..

فالمرأة هي ذات كيان مستقل، وليس تابعة للرجل في أمزجته المختلفة، فهي تتمتع

بشخصية مستقلة، وإن كانت أم أو زوجة أو حبيبة إلا أنّها تماثل الرجل في كلّ ميادين الحياة، وقد أثبتت ذلك عبر التاريخ الثقافي، والحضاري الفكري الطويل؛ تاريخ يبدأ من زمن كانت الآلهة فيه أنثى، وحتى عصرنا الراهن حيث أصبحت المرأة إنساناً. وظهرت علاقة الشاعر بأمّه علاقة تفيض بالمشاعر والأحاسيس، تفيض بالحبّ والعطاء، إلى حدّ تفوق كلّ العلاقات الأخرى، وهذا يعود إلى أنّ الأمّ هي نبع الحنان الصادق، والعطاء اللامحدود، أمّا علاقته بالحبيبة أو الزوجة فتظهر بلبوس العفة والأخلاق الحميدة التي يتمتّع فيها الشاعر، فتبرز المرأة أنّها هالة من القداسة. وعلاقة الشاعر بالمرأة الأخت أو البنت فقد تجلّت بثوب التضحية والوفاء، وهي تختلف عن أي علاقة، فهي علاقة ثابتة لا تهزّها الرياح، وعلاقة متينة لا تشوبها الشوائب.

كما تناول «مبارك» في قصائده في ديوان «العتابا والشروقي» المرأة بكلّ اعتباراتها، فحملت صوراً مختلفة من الحزن والغزل، وهي تمثّل الانسان، الكائن الذي يحمل القيم والحضارة، وهي تمدّ الآخرين بالايمن والقدرة على الانجاز والإبداع، لا شكّ في أنّ النتيجة التي يخرج بها الشاعر المتمسك بأمّه بمحبوبته، بأخته، وبنته دليل على وعيه الفنّي وتعبير عن الصدق في الحبّ الذي يعيشه الشاعر في كلّ مفاصل حياته.

فالأمّ والزوجة والأخت والبنت اللاتي إلتحمن مع مبارك، شكّلن صورة توضّح علاقة العاشق بأرضه، ولم يكن هذا سوى لإكمال شيء في حياة مبارك، ولسدّ حاجاته النفسية التي تمتلئ بحنان الأمّ وعطف الزوجة وتحمل الأخت، واهتمام البنت؛ فالمرأة بالنسبة إليه هي المخلوق الذي يخفّف من ثقل هموم الدنيا، فبرزت، بذلك، عنده صور جمالية وبلاغية تحمل بذور الصداقة... والحبّ العذري، لتحقيق الذات مع عاطفة أخاذة، بمعجم شعري واضح المفردات والعبارات، تتضمن اللّغة المحكيّة، والتراكيب اللّغوية.

وبفضل ذلك نرى الشاعر «رفعت مبارك» قد دخل ذاكرة الناس والتاريخ، من خلال مكامن الشعر العامّي، وصار جزءاً منهما، وتعرف في منطقة الهرمل البقاعية باسمه، وبالتالي أصبح اسمع لامعاً في كلّ لبنان.

لا يعني هذا استبدال اللّغة العربيّة الفصحى بالعاميّة المحكيّة، بل يعني نهوض الشعر العامّي إلى جانب الشعر الفصيح. ولا بدّ هنا من الإشارة، إلى أنّ رفعت مبارك بارع في ايجاد المرادفات الجديدة، حتّى إنّ قصائده العامية اشتملت على الكثير من المفردات المستعملة في لغتنا المحكية اليومية. ويمكن أن نصل في نهاية البحث بجديد هو:

- إنّ الثقافة الشعبيّة باقية، وهكذا الأدب الشعبيّ والشعر العاميّ، وإن كانت بأشكال مختلفة عمّا كانت عليه.
- اللهجة المحكيّة هي السدّ الوحيد الذي يستطيع أن يواجه العولمة، لأنّها عاجزة عن الولوج إلى حميميّة الإنسان بكلّ ألوانها.
- إبراز دور المرأة في شعر «رفعت مبارك» ونظرتّه إليها.
- تجليات الصّورة الشعريّة الفنيّة في ديواني رفعت مبارك.
- فُرادة الشاعر في استخدام المفردات والتراكيب اللّغوية والشّعريّة والوجدانيّة.
- إظهار الجماليّة بين الفصحى والعاميّة في نتاج الشاعر.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً- المصادر

1. ديوان الزجل، جمع وتحقيق عصام مبارك، ط1، 2009م.
2. ديوان العتابا والشروقي، جمع وتحقيق عصام مبارك، ط1، 2009م.

ثانياً- المراجع

- الاصفهاني، الراغب ، محاضرات الأدباء، موقع الوراق، <http://www.alwarraq.com>
- أعمال مؤتمر روما حول الأدب العربي المعاصر، المنعقد في تشرين الاول 1961م
- الأكحل، محمود عارف، الفصحى والعامية، مجلة الاديب، لبنان فبراير 1959م.
- البصير، كامل حسن، بناء الصورة الفنية في البيان العربي.
- الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1969م، ج3.
- الجوزية، ابن القيم، شمس الدين محمد، كتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان.
- حسن ناظم ، «مفاهيم الشعرية»، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.
- حسين، طه: خصام ونقد، دار العلم للملايين، ط8، بيروت، 1978 م .
- حسين، طه، «من تاريخ الأدب العربي»، العصر الجاهلي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت.
- خير بك، كمال، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، دار نلسن، 2009م

- الزرزموني، إبراهيم أمين، الصورة الفنية في شعر علي الجارم، دار قباء للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى 2000م.
- الشافعي، أبو مدين، قائمة الوجدانات الموجبة والسالبة والشاملة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م.
- شرتج، عصام: أفاق شعرية دراسة في شعري يحيى السماوي، دار الينابيع، ط1، 2011م.
- شكري، عبد الرحمن، الديوان، منشورات مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- صبح، علي علي، الصورة الأدبية تأريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
- الطائي، علي، نصف قرن من الشعر العربي الحديث القصيدة العربية وتحولاتها، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 2000م.
- عباس، إحسان، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1955م.
- عبد العزيز الدوري، 2008. الجذور التاريخية للقومية العربية. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.
- علاء الدين السيد، «ظواهر فنيّة في لغة الشعر العربي الحديث»، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996
- الغنيمان، عبد الله بن محمد، شرح كتاب التوحيد، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.
- قدامة بن جعفر، جواهر لألفاظ، ص 3، نقلاً عن: علي علي صبح، الصورة الأدبية تأريخ ونقد.
- كلود ليفي ستراوس – الأنثردولوجيا – ترجمة مصطفى صالح – دمشق 1977
- المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج1، 1999م
- مؤلف جماعي، المعايير والقيم في الاسلام المعاصر، بايو، باريس، 1966م.
- ناظم، حسن، «مفاهيم الشعرية»، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت 1994.
- نصر، عاطف جودة، «الرمز الشعري عند الصوفية»، دار الأندلس، الطبعة الأولى، 1978م.

- 1 – مبارك، رفعت؛ العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة محبة الوطن، ص 49. ط1، 2009.
- 2 – كلود ليفي ستراوس – الأنثردولوجيا – ترجمة مصطفى صالح – دمشق 1977 – ص 77.
- 3 – القومية العربية أو العروبة في مفهومها المعاصر هي الإيمان بأن الشعب

العربي شعب واحد تجمعه اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا والمصالح وبأن دولة عربية واحدة ستقوم لتجمع العرب ضمن حدودها من المحيط إلى الخليج . ايمان العرب بأنهم أمة قديم وربما من الصعب معرفة بداياته، فكان يظهر افتخار العرب بجنسهم في الشعر العربي، وفي عهد الإسلام تجسدت القومية بشعور العرب بأنهم أمة متميزة ضمن الإسلام، وزاد هذا الشعور خلال العهد الأموي

4 - عبد العزيز الدوري، 2008. الجذور التاريخية للقومية العربية. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ص 24.

5 - عبد الرحمن شكري: (1886 1958) شاعر مصري، وأحد مؤسسي مدرسة الديوان الشعرية، وصفته الدكتورة سهير القلماوي بأنه الشاعر الذي أنزل العقل من على عرشه في إلهام الشعراء؛ فشعره خيالٌ متحرّر يرفضُ حدود الزمان والمكان. وقد أحدثت أشعاره نقلةً تجديدية في مضمون الشعر العربي؛ فتحوّلت به من شاطئ العقل إلى بحر الخيال. وُلد «عبد الرحمن شكري عياد» ببورسعيد عام 1886م، لأسرة ذات أصول مغربية، وقد كان لها دور مؤثر في حياته؛ حيث كان لزوجة أخيه أحمد شكري — المؤلّعة برواية الحكايات والأساطير — دور في إثراء خياله، كما كان في مكتبة أبيه ما يُرضي نَهْمَهُ من دواوين الشعر.

6 - شكري، عبد الرحمن، الديوان ، منشورات مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص125.

7 - أبو مدين الشافعي: ولد بتلمسان في عام 1921 في أسرة كريمة معروفة بجبها للعلم والعلماء. تابع الدروس الدينية في تفسير القرآن وشرح الحديث النبوي في مجلس الشيخ أحمد بوعروق بمسجد سيدي الجبار. كما درس النحو والصرف في جامع سيدي اليدون، وحفظ جزءاً من القرآن في جامع الشرفاء على الشيخ سيدي الداودي.

8 - الشافعي، أبو مدين، قائمة الوجدانات الموجبة والسالبة والشاملة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، ص235، 1998م.

9 - مطر، غسان، مقدمة ديوان ”رفعت مبارك شاعر المنبرين“، ص 13- 14.

10 - مبارك، رفعت، الزجل، المجلد الثاني، ص355، ط1، 2009.

11 - مبارك، رفعت، العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة بلادي، ص273، ط1، 2009.

12 - مبارك، رفعت، العتابا والشروقي، المجلد الثاني، قصيدة يا سمرا، ص 114، ط1، 2009.

13 - مبارك، رفعت، الزجل، المجلد الثاني، قصيدة استقبال السيدة الأولى أندريه لحدود، ص175، ط1، 2009.

14 - ابراهيم، الشاعر حافظ، الديوان، قصيدة العلم والأخلاق،.

15 - خُلقها: خلق الثوب: بُلي

- 16 - الكوني: الكبير العمر.
- 17 - مبارك، رفعت، العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة تعليم البنت، ص-234
235، ط1، 2009.
- 18 - م. ن. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة تعليم البنت، ص235-234، ط1، 2009.
- 19 - م.ن، العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة فضائل الوالدين، ص273، ط1، 2009.
- 20 - حسن ناظم ، ”مفاهيم الشعرية“، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص : 112
- 21 - مبارك، رفعت، العتابا والشروقي، المجلد الأول، ص285، ط1، 2009.
- 22 - سورة الكهف، الآية 46.
- 23 - المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج1، صص289-286.
- 24 - ناضر 7204، يعقوب 4333.
- 25 - مبارك، رفعت، العتابا والشروقي، المجلد الأول، حوار السجن والعدل والحرية، ص
350، ط1، 2009.
- 26 - م.ن. العتابا والشروقي، المجلد الأول، ص 144.
- 27 - م.ن. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة : ”قالوا مريضة“، ص 144.
- 28 - مبارك، رفعت، العتابا والشروقي، المجلد الأول، ص 144.
- 29 - الاصفهاني، الراغب ، محاضرات الأدباء، موقع الوراق، <http://www.alwarraq.com>
- 30 - الغنيمان، عبد الله بن محمد، شرح كتاب التوحيد، دروس صوتية قام بتفريغها موقع
الشبكة الإسلامية، الدرس 147.
- 31 - مبارك، رفعت، العتابا والشروقي، المجلد الأول، ص 144.
- 32 - معجم المعاني العربي - معجم عربي عربي، ص85.
- 33 - مبارك، رفعت، العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة الأخ والصديق، ص 259.
- 34 - م.ن. العتابا والشروقي، المجلد الأول، ص 234.
- 35 - م. ن. العتابا والشروقي، المجلد الأول، ص285
- 36 - م.س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، ص357
- 37 - مالك هو صديق الشاعر (اسمه مالك تقي الدين)، وقال الشاعر هذه القصيدة
لمناسبة إصطدام رسالتيهما في عدد سابق نقلاً عن مجلة البيدر العدد 334 تاريخ 1 آذار
1985 الصفحة 8.
- 38 - م. س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، ص355
- 39 - م.س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، ص359.

- 40 - الجوزية، ابن القيم، شمس الدين محمد، كتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، ص256
- 41 - م.س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة بحسبك يا سمرا، ص 124.
- 42 - م.س. رفعت، العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة يا أسمر اللون، ص 127.
- 43 - م.ن. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة طالت ليالي الجفا، ص 128.
- 44 - م.س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة يا سالب الروح، ص 140.
- 45 - علاء الدين رمضان السيد، "ظواهر فنيّة في لغة الشعر العربي الحديث"، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996، ص: 26.
- 46 - مؤلف جماعي، المعايير والقيم في الاسلام المعاصر، ص295 ، بايو، باريس، 1966م.
- 47 - أعمال مؤتمر روما حول الأدب العربي المعاصر، ص185، المنعقد في تشرين الاول 1961م
- 48 - شرتح، عصام: آفاق شعرية دراسة في شعر يحيى السماوي، دار الينايع، ط1، 2011م.
- 49 - م.س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة يا أسمر اللون، ص 126.
- 50 - حسين، طه: خصام ونقد، ص181، دار العلم للملايين، ط8، بيروت، 1978م .
- 51 - م.ن . طه حسين، ص181.
- 52 - صديق الشاعر رفعت مبارك المرحوم الشاعر راغب الزهر؛ أحد أركان جوقة العتابا - بدنايل.
- 53 - م.س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة رثاء الشاعر راغب الزهر، ص 413.
- 54 - الأكحل، محمود عارف، الفصحى والعامية، ص20، مجلة الاديب، لبنان فبراير 1959م.
- 55 - م.س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة رثاء يوسف حسون، ص 419.
- 56 - م.س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة دور المرأة في المجتمع، ص 247.
- 57 - الطائي، علي، نصف قرن من الشعر العربي الحديث القصيدة العربية وتحولاتها، ص168، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 2000م.
- 58 - خير بك، كمال، حركة الحدائة في الشعر العربي المعاصر، ص148، دار نلسن، 2009م
- 59 - م.ن. حركة الحدائة في الشعر العربي المعاصر، ص165.
- 60 - م.س. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة عتابا: دور المرأة في المجتمع، ص 247.
- 61 - م.ن. العتابا والشروقي، المجلد الأول، قصيدة رثاء راغب الزهر، ص 415.

- 62 - م.ن. العتابا والشروقي، المجلد الأوّل، قصيدة رثاء يوسف حسون، ص 419.
- 63 - نصر، عاطف جودة، "الرمز الشعري عند الصوفية"، ص 19، دار الأندلس، الطبعة الأولى، 1978م.
- 64 - م. س. العتابا والشروقي، المجلد الأوّل، ص 350.
- 65 - ناظم، حسن، "مفاهيم الشعرية"، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت 1994، ص: 114
- 66 - حسين، طه، "من تاريخ الأدب العربي"، العصر الجاهلي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، ص: 71.
- 67 - الزرزموني، إبراهيم أمين، الصورة الفنية في شعر علي الجارم، دار قباء للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى 2000م، ص 91
- 68 - صبح، علي علي، الصورة الأدبية تأريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، دت، ص5.
- 69 - عباس، إحسان، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1955م، ص 230
- 70 - م. س. العتابا والشروقي، المجلد الأوّل، ص 284.
- 71 - قدامة بن جعفر، جواهر لألفاظ، ص 3، نقلاً عن: علي علي صبح، الصورة الأدبية تأريخ ونقد، ص 29.
- 72 - م. س. العتابا والشروقي، المجلد الأوّل، ص 355.
- 73 - م. ن. العتابا والشروقي، المجلد الأوّل، ص 354.
- 74 - الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1969م، ج3، ص 132.
- 75 - البصير، كامل حسن، بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص42.

نحو اللغة العربية، علماءه ومناظراته ومقاييسه.

- مقدمة:

إنّ الظواهر اللغوية كسائر الظواهر المحسوسة تخضع للملاحظة والمعاناة بغية اكتشاف التعميمات الكليّة. وليست قواعد اللغة علماً مطلوباً لذاته، كما أنها لا تهدف إلى حفظ النظريات والمصطلحات، بل هي وسيلة لضبط التعبير واكتشاف القاعدة النحوية في مسألة ما وفهمها فهماً صحيحاً، وتطبيقها بشكل سليم في القراءة والمحادثة الشفوية والكتابية.

وأنزل الله تعالى كتابه الجليل الذي لا ريب فيه على قلب النبي بلغة عربية واضحة المعنى، "بلسانٍ عربيّ مبين" (1)، ظاهرة الدلالة، فيما يحتاجون إليه في إصلاح شؤون دينهم ودنياهم، ولقد نزل بالعربية (لغة العرب) لعلهم يعقلون معانيه ويفهمونها ويعملون بهديه، وهو تحدّ لهم إذ يعجزون عن معارضته أو الإتيان بمثله مع أنهم أفصح الناس لأنه وحيّ من الله، وقد بان عجزهم واضحاً وجلت أمام الحروف المقطعة في أوائل السور وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن والأمثلة كثيرة (الم/ المص/ الر/ المر/ كهيعص/ طسم/ طس/ يس/ حم/ عسق/ ق/ ن).

وأيضاً حسم الله تعالى معارضة هؤلاء القوم (الأعراب) وغيرهم للمنزل من السماء، والمنزّه عن التقليد بأنه لو كان ماء البحر حبراً للأقلام التي يكتب بها كلام الله لنفد ماء البحر قبل أن تنفذ كلمات الله ولو جاء بمثل البحر بحاراً أخرى مدداً له وفق قوله تعالى: (قل لو كان البحرُ مدّاداً لكلماتِ ربي لنفدَ البحرُ قبل

أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً(2). أو لو أن أشجار الارض كلها بُريت أقلاماً والبحر مداد لها، ويُمد بسبعة أبحرٍ أخرى، وكُتِبَ بتلك الأقلام وذلك المداد كلمات الله، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفد ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله التامة التي لا يحيط بها أحد، وفق قوله تعالى: (ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يمُدّه من بعده سبعة أبحرٍ ما نفدت كلمات الله)(3)، فويل لأحبار السوء، وهذا وعيد شديد من الله سبحانه، الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله وهو مخالف لما أنزل الله على نبيّه موسى(ع) ليأخذوا في مقابل هذا عرض الدنيا ويفتنوا الناس، فلهم عقوبة مهلكة بسبب ما كتبوا، وعقوبة محرقة بسبب ما أخذوا.

وأمام هذه النصّ السماوي المُنزل الذي ما حاد النبي (ص) عنه عن طريق الهداية والحق، وما خرج عن الرشد، بل هو (ص) في غاية الإستقامة والإعتدال والسداد، وليس نطقه صادراً عن هوى نفسه ”وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيّ يوحى“ (4). من هنا خطونا في دراسة ”النحو العربي“ في أجلّ كتابٍ وأعظم دستورٍ وأمتن لغةٍ عربيةٍ وألطف عبارة ربانية لكي لا نكون كمن قيل فيهم ”أفلا يتبرون القرآن أم على قلوب أقفالها“ (5). فلما لا نفوس في خضمّ هذا الزاد الروحي ونتدبر مواعظه ونتفكر في حججه؟ أهمل نملك قلوباً مقفلة لا يصل إليها شيء من هذا الذكر الحكيم، مواعظ الله وعبره لنا؟

أ- علم النحو:

إنّ دراسة علوم وقواعد اللغة العربية، هي الوسيلة التي تنفع كل من يُريد أن يُقوّم لسانه، ويتعلم أصول وقواعد الكتابة السليمة، فاللغة العربية هي اللغة التي شرفها الله، سبحانه، وجعلها لغة القرآن الكريم، فالإنسان عليه أن يكون على دراية ومعرفة باللغة العربية وعلومها وأساليبها، وبخاصة علمي النحو والصرف، ومن هنا جاءت أهمية دراسة وتعلم اللغة العربية.

قديمًا لما رأى العلماء أنّ العُجْمَةَ قد شاعت بين الناس، وأنّ اللحن والخطأ قد انتشر بينهم، عمَدُوا إلى تدوين الضوابط والقواعد التي تستقيم بها الألسن، فأنشأوا علوم اللغة العربية كعلمي النحو والصرف، ويقول المؤرخون أنّ أول من أشار إلى تلك القواعد هو علي بن أبي طالب، وأنه هو الذي أمر أبا الأسود الدؤلي بوضع تلك الأسس والقواعد التي تستقيم بها الألسن، والتي يتخلص بها الناس من العجمة. ومن ثم جاء العلماء من بعد أبي الأسود، فزادوا في هذه العلوم وحرّروها وصنّفوا فيها، وتعدّدت فيها المدارس اللغوية.

فالنحو في اللغة: "إعراب الكلام العربي. والنحو القصد والطريق، يكون ظرفاً ويكون اسماً، نحاه ينحوه وينحاه نحواً وانتحاه، ونحو العربية منه، إنما هو انتحاء سَمَتِ كلام العرب في تَصَرُّفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها، وإن لم يكن منهم، أو إن شَدَّ بعضهم عنها رُدَّ به إليها" (6).

فأصل النحو في اللغة: هو القصد والطريق، وقد سُمِّيَ علم النحو بهذا الاسم، لأنه يُعَلِّم الناس الطريق إلى كلام العرب الفصيح. وتقول بعض الروايات أن علياً بن أبي طالب عندما أمر أبا الأسود الدؤلي بالمباشرة بتدوين علوم اللغة، قال له: "انحُ هذا النحو"، أي اسلك هذا الطريق، ولهذا السبب وغيره سُمِّيَ علم النحو بهذا الاسم.

وتعريف علم النحو في الاصطلاح: هو علم يختص بدراسة الأصول التي تُعرَفُ بها أحوال الكلمات العربية من جهة الإعراب والبناء بعد انتظامها في الجملة. فعن طريق هذا العلم نستطيع أن نعرف ما يجب أن تكون عليه الكلمة من رفعٍ أو نصبٍ أو جرٍّ أو جزمٍ... وعلم النحو لا يَتَفَكُّ عن علم الصرف، فهذان العلماء مُتلازمان، فعلم الصرف هو العلم الذي يبحث في صيغ الكلمات العربية التي ليست بإعرابٍ أو بناء، ويُسَمَّى بعض العلماء علم النحو بعلم الإعراب. ويقول بعضهم أنَّ علم النحو يشمل الصرف أيضاً، وقد كانت ألفية ابن مالك النحوية الشهيرة، هي من أهم ما دُوِّن في علم النحو (7).

ب- جمع القرآن الكريم باب إلى علم النحو:

- زيد بن ثابت:

لقد أكرم الله البشرية برسالة محمد(ص)، حيث دخل الناس في دين الله أفواجا، وكان في مقدمة أولئك الصحابة الكرام، فقد كانوا بحمد الله هم الأنصار الذين حملوا هذا التراث العظيم إلى الناس كافة، فحفظوه وبلغوه بصدق وأمانة، فقدموا للإنسانية أعظم تراث سعدت به الدنيا وأشرفت بسببه الحياة، ومن هؤلاء زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن. (8)

- نشأته ودكاؤه:

زيد بن ثابت بن الضحَّاک الأنصاري الخزرجي من بني النجار وكنيته أبو سعيد، أمُّه: النُّور بنت مالك، قُتِل أبوه في معركة بُعث بين الأوس والخزرج قبل الهجرة النبوية وكان عمره ست سنوات. أسلم زيد بن ثابت وهو طفل لم يتجاوز سنه الحادية عشرة. أحبَّ زيد

الجهاد وهو صغير، فقد حاول أن يخرج مع المسلمين يوم بدر فاستصغره النبي(ص) وردّه عن الخروج، فشرح الله صدره لمجال آخر غير مجال الجهاد، لكنه لا يقل أهمية عنه، إنه مجال العلم والدعوة وخدمة الرسالة الإسلامية، وذكر زيد فكرته هذه لأُمَّه، فما كان منها إلا أن شجّعته على ذلك، وحدثت قومها بها، فما كان منهم إلا أن باركوها، وأخذوا زيداً إلى رسول الله (ص)، وكان قد حفظ سبع عشرة سورة من القرآن الكريم.

فعرض عليه النبي (ص) أن يتعلم كتابة اليهود (العبرية)، يقول زيد في حديثه: ”أمرني رسول الله (ص) أن أتعلّم له كتاب يهود، قال: إنّي والله ما آمن يهود على كتاب، قال: ”فما مرّ بي نصف شهر حتى تعلمته، فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبت إليه قرأت له كتابهم“ (9). ثم ”قال لي(ص) أتُحسِنُ السُّريانية ؟ قلت: لا، قال: فتعلّمها فإنه تأتينا كُتب، قال: فتعلّمتها في سبعة عشر يوماً“ (10).

وكان زيد قد قرأ على الرسول(ص) في العام الذي توفيّ فيه مرتين، وسميت القراءة قراءة (زيد بن ثابت) لأنه كتبها لرسول الله وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة (11)، وكان يُقرئ الناس حتى مات، فقد شارك زيد في غزوات عديدة مع الرسول كما واصل الجهاد بعد وفاته (ص) حتى لقي ربّه .

- جمعه للقرآن الكريم :

لقد كان زيد مُلمّاً بقراءة القرآن الكريم وحفظه، وأهمّ الحفظة: علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود، عبدالله بن عباس، وأبو خزيمة الأنصاري، ومعاذ بن جبل. ومن المعلوم أن بعد وفاة النبي (ص)، وعندما قتل عددٌ كبيرٌ من حفظة القرآن الكريم في معركة اليمامة في حرب المرتدين، فما بقي منهم إلا قليل، فقد أسند أبو بكر إلى زيد أمر جمع القرآن الكريم ، فقام زيد بهذه المهمة على خير وجه، حيث تتبع آيات القرآن الكريم وجمعها من الرقاع ومن صدور الرجال، وما اختلف زيد عن قراءة علي(ع) إلا في لفظ (التابوت) فيما جاء من قوله تعالى: (وقال لهم نبيهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم)(12)، (وأن اقدفيه في التابوت فاقذفيه في اليم) (13)، فكان زيد يقرأها ب (الهاء)، وعلّي يقرأها ب (بالتاء). كما كان زيد من الذين كلّفهم عثمان بن عفان بنسخ القرآن الكريم في عدة نسخ لتوزيعها على الأقطار الإسلامية، لجمع الناس على مصحف واحد ضماناً لعدم اختلافهم في قراءة القرآن الكريم .

- مناقبه :

لقد كان زيد شيخاً للمقرئين، حافظاً للقرآن الكريم، عالماً به، كما اشتهر بعلمه الواسع في علم الفرائض (المواريث)، وعن أنس قال: قال رسول الله (ص): "أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب الله أبي، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت" (14). كما كان مُفتياً للمدينة، وقد استعمله عمر بن الخطاب في القضاء، فهو أحد فقهاء الأمة المشهورين، وشهد له كثيرون: فعندما توفي قيل: "مات حَبْر هذه الأمة، وعسى الله أن يجعل في ابن عباس منه خَلْفاً" (15). توفي زيد في المدينة المنورة عام خمسة وأربعين من الهجرة، وكان عمره ستة وخمسين عاماً، وصلى عليه مروان بن الحكم أمير المدينة في ذلك الحين.

ج- أهمية علم النحو:

- اللغة العربية:

من أبرز اللغات وأكثرها تداولاً بين شعوب العالم هي اللغة العربية، اللغة التي نزل بها القرآن الكريم على محمد (ص)، كما جاء في قوله جل وعلا: "إنا أنزلناه قرآناً عربياً (16)، وهي لغة جميع ما ورد في الديانة من نصوص شرعية وأذكار وأدعية، مما جعل تعلمها واجباً على كل مسلم، إلا أن اللغة العربية ليست كغيرها من اللغات، وتعلمها ليس بالأمر السهل فهو يتطلب الغوص والتعمق في علومها لفهمها والإلمام بها، فهذه اللغة العريقة تتألف من العديد من العلوم أبرزها علم النحو.

- النحو لغة واصطلاحاً :

علم النحو هو أحد علوم اللغة العربية، ويُعنى بدراسة أصول تكوين الجمل وقواعد الإعراب، لذا تتم تسميته أيضاً بعلم الإعراب، ومعنى كلمة النحو في اللغة العربية: "نحا ينحو أنح نحواً نحو الشيء وإليه. نحا الصديقان إلى المقهى أو نحوه: مال إليه و قصده، نحا الطالب نحو أستاذه: سار على إثره و قلده و نحا عنه لم يقتر به، ونحا عن نفسه الجبن والكسل: أبعد و أزاله" (17)، أي جاءت بمعنى القصد أو المثل، ويرجع سبب تسميته بالنحو لقصد المتكلم أن يتكلم مثل العرب، أي ينحو منحاهم، ومن خلال علم النحو أصبح من الممكن التمييز بين الاسم والفعل والحرف، والتفريق بين المعرب والمبني، وتمييز المرفوع من المنصوب من المجرور من المجزوم، بالإضافة إلى تحديد العوامل المؤثرة على ذلك.

د- نشأة علم النحو:

علم النحو أو ما يعرف بعلم الإعراب، وتشكيل أواخر الحروف، من أهم العلوم في اللغة العربية، وهو يهتم بالتركيب الصحيح للأفكار، باستخدام الألفاظ والجمل السليمة، والغرض الأساسي من هذا العلم هو محاولة فهم اللغة، والإفهام بها، ويقول سيبويه عن علم النحو بأنه "حاجة الطعام للملح".

ولعل أول من تحدث بهذا الخصوص هو أبو الأسود الدؤلي، الذي أوجد الحركات الثلاث الشهيرة، وهي الفتحة والضمة والكسرة، والتي كانت بشكلٍ مختلفٍ عما هو متعارفٌ عليه اليوم، ففي ذات مرة طلب كاتباً، وأمره بأن يستخدم المداد وصبغة أخرى للكتابة، وأمره بوضع نقطة فوق الحرف إذا رآه يفتح فمه عند النطق به، وأن يضع نقطة بين يدي الحرف في حال ضمّ الحرف، وأن يضع نقطة تحت الحرف في حال الكسر، وإن أتبع شيء غير الذي ذكره فليضع مكان النقطة نقطتين.

وبعض الروايات تقول بأن علياً بن أبي طالب هو من دلّ أبا الأسود الدؤلي لذلك، حينما قال له: انحُ نحو هذا، ومن هنا جاءت تسمية النحو العربي. وهناك من أخذ عن أبي الأسود الدؤلي علم النحو، أمثال: "يحيى بن يعمر، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، ومضر بن عاصم، وعطاء بن أبي الأسود، وأبو نوفل بن أبي عقرب، وهناك من أخذ عن هذه الطبقة علم النحو وورثه جيلاً بعد جيل، ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي فكان له دورٌ كبير في وضع النحو وتوريثه لسيبويه، ليوجد التفاريع والأدلة والشواهد، ثم جاء أبو علي الفارسي والزجاج بكتب مختصرة في النحو." (18)

- أهمّ واضعي علم النحو:

أول من وضع علم النحو هو العالم الجليل أبو الأسود الدؤلي، وكان السبب الذي دفعه إلى ذلك هو سماعه لأعجمي يقرأ القرآن بطريقة غير صحيحة، الأمر الذي جعله يشعر بأهميّة وجود هذا العلم وضرورة تعليمه للجميع، كما أنّ هنالك عدد من المؤسّسين لهذا العلم، أشهرهم: سيبويه، وعبدالله بن أبي اسحق، والفراهيدي(19).

وتعلّم علم النحو جزء لا يتجزأ من الإلمام باللّغة العربية، لما له من أهميّة كبيرة في اللّغة، كونه يهدف إلى تحديد الأساليب التي تكوّنت بها الجمل، ومواضع الكلمات، ووظيفة كلّ منها، بالإضافة إلى ذلك فإنّه يعمل على تحديد الخصائص النحويّة (مثل: الإبتداء، الفاعليّة، والمفعوليّة) أو الأحكام النحويّة (مثل: التقديم، التأخير، الإعراب، والبناء) التي اكتسبتها الكلمة من موضعها أو حركتها أو مكانها في الجملة، لذا فإن النحو هو الذي

مكّن فهم الكلام بحسب إعرابه، بحيث يتمّ التمييز بين المسند والمسند إليه، والفاعل والمفعول، وغيرها الكثير من القواعد التي بإهمالها ينقلب معنى الجملة بأكملها، كما أنّ له دور كبير في فهم جميع الآيات القرآنيّة والنصوص الشرعيّة التي وردت عن النبي (ص)، كما مكّن المتكلم من التخلّص من اللّحن والتكلم بلغة سليمة وصحيحة، الأمر الذي يؤدّي إلى استقامة اللسان أثناء الحديث والقراءة.

• أبو الأسود الدؤلي

- سيرة حياته:

هو ظالم بن عمرو بن بكر الديلي، أو الدؤلي، ولد في العراق، وتحديدًا في الكوفة في ضواحي البصرة، وترجّح الأقوال التاريخية أنّه ولد قبل البعثة النبوية الشريفة في عام 16 قبل الهجرة، ويقال إنّ إسلامه كان عند انتشار الدين الإسلامي في الجزيرة العربية كافة، ويعدّ من الأشخاص الذين رافقوا الإمام علي بن أبي طالب، أمّا بالنسبة للقب الدؤلي بضمّ حرف الدال، فتوجد العديد من الأقوال، والآراء حوله، ولكن أغلب المؤرّخين يتفقون على أنّه يعود إلى القبيلة التي ينتسب لها أبو الأسود. تُرجح آراء المؤرّخين أن أبو الأسود الدؤلي تُوفي في العراق، ودُفن في البصرة عام 69 للهجرة؟

- إنجازاته في اللغة:

لم تقتصر إنجازات (أبو الأسود الدؤلي) اللغوية على تأسيس علم النحو العربي، بل إنّهُ ساهم في وضع دراسات مفصلة، أضيفت فيما بعد إلى مؤلفاته في علم النحو، فدرس المفاعيل في اللغة العربية، وكتب باب الفاعل، ومن ثم المفعول، وكتب بعد ذلك باباً عن المضاف، والرفع، والجر، وحروف النصب، وغيرها.

من أشهر إنجازاته أيضاً وضع النقاط على حروف اللغة العربية، حتى يُساهم بجعل تعلم اللغة سهلاً على من أراد تعلمها، وخصوصاً على الأشخاص الذين أسلموا حديثاً، وكانوا يواجهون صعوبةً في قراءة القرآن الكريم، بسبب عدم تمكنهم من لفظ كلماته بطريقة صحيحة، وهكذا تمكّن أبو الأسود الدؤلي من تثبيت قواعد اللغة العربية الفصحى، والمحافظة عليها حتى عصرنا هذا.

يُعدّ (أبو الأسود الدؤلي) أول عالمٍ في اللغة العربية، اهتم بوضع قواعدٍ لها، بناءً على حديثٍ دار بينه وبين الإمام علي بن أبي طالب، فقال له الإمام: قسم الكلام إلى حرف، واسم، وفعل، وأكمل على هذا النحو، ومن هنا جاءت الفكرة الأولى لعلم النحو، ليصبح

من العلوم الأساسيَّة الذي تقوم عليها قواعد اللغة العربية بشكلها الصحيح. ومن الأمور التي دعت أبو الأسود الدؤلي إلى وضع علم النَّحو ما ظهر من بعض النَّاس من لحنٍ في الكلام وبعد عن اللِّغة العربيَّة الفصحى، والسَّبب في ذلك يعود إلى دخول عددٍ كبير من الأعاجم في دين الإسلام واختلاطهم مع العرب، وبالتالي امتزجت اللغات المختلفة مع العربيَّة لتشكلَ لكنةً جديدةً فيها كثيرٌ من الأخطاء الإملائيَّة واللَّحن. ويروى عن أبي الأسود الدؤلي أنَّه كان يسمع أحياناً من النَّاس لغةً غريبةً فيسوّه ذلك، وعندما رأى الإمام علي ما كتبه أبو الأسود الدؤلي قال له ما أحسن هذا المنحى الذي نحيتَه فسمي لذلك علم النَّحو بهذا الإسم، وقد اشتمل هذا العلم على طريقة كتابة الحروف وفق مكانها في الجملة وتصنيف الجمل ووضع النِّقاط على الحروف. أدرك أبو الأسود الدؤلي أنَّ اللغة العربية الفصحى بدأت تضعف في نطقها عند النَّاس، بسبب انتشار العديد من الألسنة، واللهجات التي تتحدث العربية من غير العرب، مما شجَّعه على وضع علم النحو، كوسيلة لتدارك الأخطاء النحوية التي يقع فيها النَّاس؛ نتيجةً لعدم درايتهم الكافية بالطرق السليمة لقول الكلمات العربية بأسلوب صحيح. وبدأت الحاجة الماسَّة لتسهيل اللغة العربيَّة على غير أهلها ولغير الناطقين بها، فكانَ من بين طرق التسهيل على غير العرب هو وضع قواعد للنحو، وكذلك وضع الحركات والتشكيلات، وضبط النِّقاط فوق الحروف، وسننحتْ في هذا الموضوع عن وضع النِّقاط على الحروف. عندها قام أبو الأسود الدؤلي ببناءً على توجيه من الخليفة علي بن أبي طالب بوضع قواعد للنحو يتم من خلالها ضبط اللغة وتحديد الأسماء، والأفعال، والحروف، ومن جُملة ما قامَ به أبو الأسود الدؤلي أن بدأ بوضع العلامات الدالَّة على حركة الأسماء والأفعال وهي الفتحة، والضمة، والكسرة، فكانَ يدلُّ على ذلك بوضع النِّقاط على الحروف أو أداها. ولكنَّ جاءَ بعده الخليل بن أحمد الفراهيديّ فبدأ بضبط التشكيلات والحركات حيث وضع الألف المبطوحة، (/) لتدلُّ على الفتحة والكسرة، فإذا كانت هذه الألف المبطوحة فوق الكلمة دلَّت على الفتحة فتُقرأ مفتوحةً، وكذلك إن وُضعت تحت الكلمة دلَّت على أنَّها مكسورة، ووضع الواو الصغيرة فوق الكلمة تدل على الضمة، ومواقع هذه الحركات دلَّت بشكلٍ آخر على النحو الإعرابي للكلمة أيضاً، كما ضبطت قراءة القرآن الكريم بلا شك، وبدأ الخليل بن أحمد الفراهيديّ أيضاً بوضع النِّقاط فوق الحروف كالتي نعرفها الآن وهي نُقطُ الإعجام، وبالتالي يكون أبو الأسود الدؤلي قد وضعَ النِّقاط في المُصحف بحيث كانت هذه النِّقاط للضبط والتشكيل، أمَّا النِّقاط التي فوق الحروف التي نعرفها الآن فهي من وضع الخليل بن أحمد الفراهيديّ.

- نشوء علم النحو:

من أهم الأسباب التي دفعت أبا الأسود الدؤلي للمبادرة بوضع علم النحو وتوثيقه قصته مع ابنته، ومضمون القصة: "أن أبا الأسود الدؤلي دخل على ابنته في يوم شديد الحرّ، فقالت له مخبرة عن حرارة الجو: يا أبت ما أشدُّ الحرّ؟ فجعلت (أشدُّ) مرفوعة، فظن أنها تسأله: أي زمان الحر أشدُّ؟ فقال لها: شهر ناجر، فقالت موضحة: يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك، وفي الواقع أنه كان واجباً عليها أن تنصب (أشدُّ)، لتعني التعجب من شدة الحر، ولكنها لحنّت، فانتبه أبو الأسود الدؤلي لوجوب وضع قواعد للنحو تحميه من اللحن والخطأ". (20)

الفائدة ∞	الإبنة	الأبُّ
القصد: أي زمان الحرّ أشدُّ؟	ما أشدُّ الحرّ؟ جعلتُ (أشدُّ) مرفوعة	شهر ناجر (إجابة إلى سؤال)
الواجب: ما أشدُّ الحرّ!	مُوضحة: يا أبتِ إنما أخبرتك ولم أسألك.	واجبٌ عليك أن تنصبي (أشدُّ)

- القاعدة النحوية :

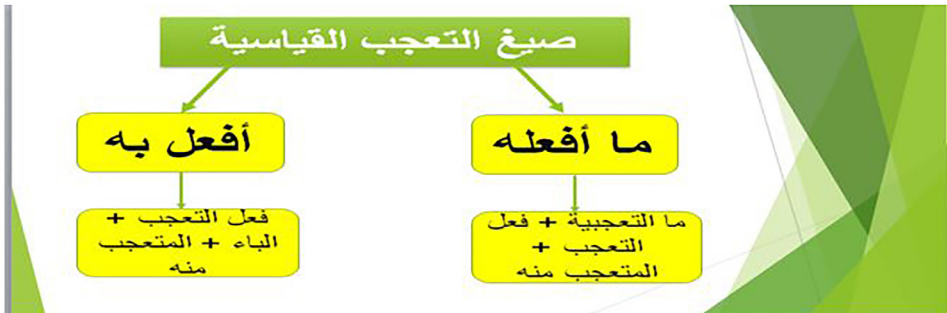
أسلوب التعجب (!)

- ما هو أسلوب التعجب؟
- هو أسلوب يستعمل للتعبير عن الدهشة أو استعظام صفة في شيء ما. مثال:

أحسن بالوفاء خلقاً!

ما أجمل السماء!

- ما هما صيغتا التعجب؟



- الإعراب:

• ما أجملَ السماءَ !

- ما: اسم نكرة بمعنى شيء مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.
- أجملَ: فعل ماضٍ مبني على الفتح الظاهر على آخره، وفاعله ضمير مستتر وجوباً على خلاف الأصل تقديره هو، والجملة (أجملَ السماءَ) من الفعل والفاعل في محل رفع خبر المبتدأ (ما).
- السماءَ: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.
- أحسنَ بالوفاء خلقاً !
- أحسنَ: فعل ماضٍ بصيغة الأمر مبني على الفتح المقدر.
- بالوفاء: الباء حرف جر زائد، والوفاء فاعل مرفوع بالضمة المقدره على الهمزة.
- خلقاً: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة والثانية للتوين.

- الآية الكريمة:

وقد بدأ اللحن بالتفشي والانتشار مع اتساع الفتوحات، واختلاط الفاتحين من العرب بالشعوب الفارسية والرومية، والأحباش، ودخول كثير من الأعاجم في الإسلام وتعلم العربية، ليستطيع الواحد منهم قراءة القرآن (21). إنَّها من الأسباب التي استدعت وضع علم النحو، وضبط الألسن، بتدوين القواعد المستنبطة من القرآن الكريم وأقوال العرب، والتخلص من أهتِي اللحن والتحريف، التي قد تجمع اللفظ والمعنى. ومثال ذلك:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

- ثارت حالة من الجدل و اللغظ في قراءة هذه الآية الكريمة إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ برفع الهاء في (اسم الله تعالى) ونصب الهمزة في العلماء. ومن الناحية العلمية - و بعيداً عن الجدل واللغظ - هناك بعض الأقوال نوردها هنا :
- قال الزركشي: "وقد يستبشع ظاهر الشاذ بادي الرأي فيدفعه التأويل كقراءة: قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم على بناء الفعل الأول للمفعول دون الثاني وتأويل الضمير في: وهو راجع إلى الولي. وكذلك كقراءة: إنما يخشى الله من عباده العلماء وتأويله أن الخشية هنا بمعنى الإجلال والتعظيم لا الخوف.(22)
- إجماع القُرَّاء على رفع (العلماء) و نصب (اسم الله تعالى)، وهو الصواب الذي لا معدل عنه.(23)

— إلا أن طلحة بن مصرف قرأ: فرفع (اسم الله تعالى) ونصب "العلماء" ويروى مثل ذلك عن أبي حنيفة (24)، وأكثر أهل العلم يذهب إلى أنه لحن، وقد اعتذر بعضهم لهذا بأن قال: هو على القلب، كما تقول: تهبني الفلاة، في معنى تهبت الفلاة .

— كثير مما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف، كقراءة (تنجيك بيدك) (25) (تنجيك) : بالحاء المهملة، (لتكون لمن خلفك آية) (26) بفتح سكون اللام.

هـ - علم النحو جذوره ومدارسه:

علم النحو أو علم ترتيب المفردات وتركيب الجمل، وهو العلم الذي يبحث في جذور تركيب الجملة وتكوين مصطلحاتها وكذلك قواعد اللغة والإعراب، كما حدد أساليب ترتيب ومواضع ترتيب الكلمات، ويحدد السمات والأحكام النحوية التي تكتسبها كل كلمة في موضعها، وتتمثل في الابتداء والمفاعيل والبناء والتقديم والتأخير وغيرها.

• مدارس علم النحو:

انتشر علم اللغة العربية في العراق خاصة وكل البلاد عامة، ويوجد علماء في الحجاز ومصر والمغرب والاندلس نجيبين في اللغة العربية، ولكن أكثر المدارس شهرة: المدرسة البصرية والكوفية والبغدادية. وقبل الحديث عن العلماء الذين اشتهروا في هذه المدارس، لا بدّ أن نتوقف على الخلاف الدائم بين هذه المدارس. فالخلاف كان من ناحية الاستشهاد في الكلام والاشعار في النحو على أنّ دائرة الاستشهاد تتسع وتضيق بحسب مدارس اللغة والنحو التي نشأت في الحواضر الإسلامية.

أ- المدرسة النحوية البصرية :

وتعود تسميتها إلى مدينة البصرة العراقية، وقد كانت هذه المدرسة بمثابة نقلة نوعية أحدثت تطوراً لعلم الخليل الذي قام بوضعه سيبويه، الذي يعود إلى أصول فارسية، علماً أنّ الكوفيين اختلفوا وتعارضوا مع البصريين في أغلب القواعد النحوية الرئيسية وكذلك الفرعية، ولطالما كان بينهم تنافس شديد على مرّ الزمن. فالمدرسة البصرية شدّدت أشدّ التشدّد في رواية الأشعار والأمثال والخطب، واشترطوا في الشواهد المعتمدة لوضع القواعد أن تكون جارية على السنة العرب وكثيرة الاستعمال في كلامهم بحيث تمثّل اللغة الفصحى خير تمثيل، وحينما يواجهون بعض النصوص التي تخالف قواعدهم، كانوا يرمونها بالشذوذ أو يتأولونها حتى تنطبق عليها قواعدهم.

- علماء المدرسة البصرية:

تعتبر المدرسة البصرية الأكثر انجذاباً للعلماء في اللغة والأدب، وأيضا الشعراء، ولكن غالبيتهم من أصحاب الأهواء. ولم يسلم منهم إلا أربعة: أبو عمرو بن العلاء، والأصمعي، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي. وأما أصحاب الأهواء: خلف الأحمر، أبو عبيدة، الجاحظ، وحماد الراوية، وأبونواس وغيرهم. ومن العلماء المتقدمين فيها: سيبويه، والأخفش، قطرب، واليزيدي، ابن سلام، وأبو حاتم السجستاني، وغيرهم. ومن العلماء المتأخرين: المبرد، وأبو عثمان المازني، الزجاج، ابن السراج، ابن دريد وغيرهم. ونرى كثرة العلماء في البصرة لأنهم ولعوا في الجدل والكلام، ومنهم ظهرت المتعزلة وأصحاب الجدل والكلام.

ب- المدرسة النحوية الكوفية:

وتعود تسميتها إلى مدينة الكوفة العراقية في العصر العباسي، وعلى رأسهم الكسائي. فأقطاب المدرسة الكوفية فقد اتسعوا في الرواية عن جميع العرب بدواً وحضراً، واعتدوا بأقوال وأشعار المتحضرين من العرب ممن سكنوا حواضر العراق، واعتمدوا الأشعار والأقوال الشاذة التي سمعوها من الفصحاء العرب والتي وصفها البصريون بالشذوذ.

- علماء المدرسة الكوفية:

كانت الكوفة مدينة الحديث والعلماء والفقهاء، ومنهم أبو حنيفة والمذهب الحنفي، وكانت البصرة تباخر الكوفة بأربع كتب: كتاب الحيوان للجاحظ، كتاب البيان والتبيين للجاحظ، كتاب العين للخليل بن أحمد، وكتاب الكتاب لسيبويه. وكانت الكوفة تباخر البصرة بـ سبع وعشرين ألف مسألة لمحمد بن الحسن تلميذ أبو حنيفة في القياس والكلام. وكان علماء الكوفة يندمجون مع علماء بغداد لتقارب المدرستين من بعض، وكان أبر علماء الكوفة هم: الكسائي، أبو عمرو الشيباني، والفراء، وغيرهم. ومن المتأخرين: أبو العباس بن ثعلب، ابن الأعرابي، ابن السكيت، أبو جعفر الكوفي، الأنباري وغيرهم.

ج- المدرسة النحوية البغدادية:

شكلها بعض المهتمين بعلم النحو، وذلك عندما رأوا أنّ كلّ من مدرسة الكوفة والبصرة ابتعدتا عن جوهر النحو وأصوله وأنهم أدخلوه في دوامة لا علاقة للنحو فيها وعملوا على تعقيد هذا العلم. فالمدرسة البغدادية توسع فيها بعض أعلامها في الأخذ والاستشهاد

بأشعار الطبقة الرابعة، فقد استشهد الزمخشري بشعر أبي تمام (ت231هـ)، وقال : هو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه (27)، واستشهد الرضي الأسترآبادي شارح أبيات كافية ابن الحاجب بشعر أبي تمام أيضاً في عدّة مواضع من شرحه.

- علماء المدرسة البغدادية:

أشهر علماء المدرسة البغدادية: ابن قتيبة الدينوري، الزمخشري، أبواسحاق الموصلي، أبو سعيد السيرافي، أبو القاسم الزجاجي، أبو الحسن الرازي، الرماني، الخطيب التبريزي، وابن جني، وغيرهم.

- النحاة:

النحاة أو النحويون هم علماء اللغة العربية والنحو العربي، وهو العلم الذي يبحث في أصول تلك اللغة وأساليبها وتراكيبها. ولقد نشأ النحو كعلم يُدرّس بعد قيام أبو الأسود الدؤلي بجمع القرآن وتشكيله، حيث كان أول من رأى ضرورة لتثبيت وتحديد قواعد اللغة العربية كي لا تضيع، وتؤكد من ذلك عندما رأى بعض القراء يخطئون أحياناً في قراءة القرآن الكريم فينصبون المرفوع أو يجرون المنصوب.

- في الجاهلية:

في عصر الجاهلية كانت هناك العديد من المناظرات والمسابقات في اللغة العربية، حيث كان العرب شديدي الاهتمام بلغتهم وقواعدها، ولكن كان كلُّ الاهتمام منصباً على الشعر والنثر، وبالتالي على الكلمات والقوافي أكثر من الإعرابات والأبنية، وإن برعوا في الجانبين. وكان سوق عكاظ من أشهر مواسم المنافسات اللغوية بين أولئك الشعراء والأدباء، وظلت اللغة العربية قوية وسليمة بسبب تلك المنافسات المستمرة، وكان من أشهر الشعراء وقتها أصحاب المعلقات السبع، مثل عنتر بن شداد وعمرو بن كلثوم، ومن النثر قس بن ساعدة الإيادي.

- في العصر الإسلامي:

أثر ظهور الإسلام تأثيراً كبيراً على اللغة العربية، حيث حافظ عليها من الضياع والتغير وجود القرآن الكريم الذي تضمنت عملية جمعه والحفاظ عليه جمع وتأسيس قواعد اللغة العربية.

- فجر الإسلام:

عندما ظهر الإسلام، كانت اللغة العربية عاملاً أساسياً في انتشاره، حيث كانت معجزة القرآن الكريم هي لغته القوية السليمة، والتي لم يتمكن أي من كبار الشعراء أو النثر مضاهاتها أو حتى مجاراتها، مما جعل العديد من الناس يؤمنون بأنها منزلة من عند الله خاصة وأن حاملها محمداً (ص).

- بعد الفتح و عام الوفود:

لدى انتشار الإسلام في الأقطار المحيطة والدول المجاورة وحلول عام الوفود، جاء العديد من المسلمين الجدد من العجم وغير العرب، وممن لا يتحدثون العربية كلغة أم، بالإضافة إلى تعدد اللهجات واللكنات بين الأقطار المختلفة المحيطة بشبه الجزيرة العربية، فهناك المصريون والفرس والروم والبربر، والأبشاش، مما أضعف اللغة العربية بشدة، وانتشرت الأخطاء اللغوية وانتقلت من غير العرب إلى العرب. وكان ذلك هو السبب الرئيسي الذي شجع أبا الأسود الدؤلي على تأسيس علم النحو، وإنشاء مدارسه.

وعندما نشأت مدارس النحو، كانت تتمركز في مدن معينة يقطن فيها أساتذة ذلك العلم، وكان يلقب بـ "شيخ النحاة"، ونحوي نسبة إلى النحو، وتجمع على نحاة، أي "عالم بقواعد اللغة العربية". فكان هناك نحاة البصرة، ونحاة الكوفة. وأخرجت تلك المدارس العديد من علماء النحو النابغين مثل الأخفش الكبير، ويونس بن حبيب، وأبي زيد الأنصاري. وكان الخليل بن أحمد هو إمام نحاة البصرة، وتبعه سيبويه الذي كان تلميذاً للخليل، أمّا الكسائي فكان شيخ نحاة الكوفة.

* الكسائي عالم القراءات والنحو:

هو علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز، الأسدي المعروف بالكسائي النحوي أحد أئمة القراء من أهل الكوفة (28). والكسائي، بياء النسب، قيل: نسبة إلى كساء أحرم فيه، وقيل: نسبة إلى كساء التف به في مسجد كان يقرأ فيه حمزة الزيات، أحد علماء القراءات (29)، فالكسائي رجلٌ أخلص لطلب العلم، فامتد ذكره بالعلم بعد موته. وهو إمام نحاة الكوفة انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة الزيات، وبلغ عند هارون الرشيد منزلة عظيمة، كان الناس يأخذون عنه ألفاظه بقراءته عليهم، و ينقطون مصاحفهم بقراءته، ولد في حدود سنة عشرين ومائة، خرج إلى البوادي فغاب مدة طويلة وكتب الكثير من اللغات والغريب عن الأعراب بنجد وتهامة، قال الشافعي: "من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي" (30).

1 - الكسائي وحمزة بن حبيب:

وقيل : ”دخل الكسائي الكوفة فجاء إلى مسجد السبيع، وكان حمزة بن حبيب يقريء فيه، فتقدم الكسائي مع أذان الفجر فجلس وهو ملتف بكساء، فلما صلى حمزة قال: من تقدم في الوقت؟ قيل له: الكسائي يعنون به صاحب الكساء، فرمقه القوم بأبصارهم. فقالوا: إن كان حائكاً فسيقراً سورة يوسف وإن كان ملاحاً فسيقراً سورة طه. فسمعهم فقراً بسورة يوسف فلما بلغ إلى قصة الذئب قرأ ” فأكله الذئب“ بغير همز.

— فقال له حمزة : الذئب بالهمز.

— فقال له الكسائي ولذلك أ همز الحوت وقرأ ” فالتقمه الحوت ”.

— فقال : لا.

— فقال : لم همزت الذئب ولم تهمز الحوت؟ وهذا فأكله الذئب وهذا فالتقمه الحوت؟ فرجع حمزة ببصره، وتقدم إليه في جماعة أهل المجلس فناظروه فلم يصنعوا شيئاً ، وقالوا : أفتدنا يرحمك الله تعالى. فقال لهم تهتموا عن الحائك.

— تقول : إذا نسبت الرجل الى الذئب قد استذاب، ولو قلت قد استذاب بغير همز لكنت إنما نسبت إلى الذئب ، فتقول قد استذاب الرجل إذا ذاب شحمه بغير همز وإذا نسبته الى الحوت قلت : قد استحات ارجل أي كثر أكله للحوت إذا كان يأكل منه كثيرا فلا يجوز فيه الهمز فلنتك العلة همز الذئب ولم يهزم الحوت. وفيه معنى آخر: لا تسقط الهمزة من مفرد، ولا من جمعه. وأنشدهم :

”أيها الذئب وابنه وأبوه أنت عندي من أذؤب ضاريات“.

2 - الكسائي والهباريين:

تعلم الكسائي النحو على الكبر، وكان سبب تعلمه أنه ”جاء يوماً وقد مشى حتى أعيا ، فجلس إلى قوم فيهم فضل وكان يجالسهم كثيرا ، فقال: قد عييت بتشديد الياء الأولى، فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن، فقال كيف لحننت؟ فقالوا: إن كنت أردت من التعب فقل: أعييت، وإن كنت أردت من إنقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل: ”عيت“ بالتخفيف، فأنف من هذه الكلمة وقام من فوره، فسأل عن من يعلم النحو، فأرشد الى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفد ما عنده. ثم خرج الى البصرة ولقي الخليل بن أحمد، وجلس في حلقتة، فقال رجل من الأعراب تركت أسداً وتميماً وعندهما الفصاحة وجئت إلى البصرة، وقال للخليل بن أحمد: من أين علمك هذا؟ فقال الخليل من بوادي الحجاز ونجد وتهامة(31). خرج الكسائي وأنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه، ولم

يكن له همٌّ غير البصرة والخليل، ولما رجع وجد الخليل قد مات، وجلس في موضعه يونس بن حبيب البصري النحوي فجرت بينهما مسائل أقر له يونس فيها وصدّره في موضعه“ (32).

ما أعظم صنيع كلمات الهباريين (33)، إذ حصدت للعربية رجالاً من روادها، وأيقظت داخله نهم العلم، فهو يغرف منه غير شعبان، فما إن اطمأن إلى أنه قد أنهى ما عند معاذ الهراء حتى خرج إلى البصرة، ليلقى إمامها الخليل، ويجلس في حلقة، يتصت إليه، ويحفظ ما قال.

3 - الكسائي والخليل:

رجع الكسائي إلى البصرة ثانية يقصد الخليل، لكن البصرة قد تغير حالها، كما أن الكسائي قد تغير حاله فضمن فؤاده ما سمع من الأعراب أهل الفصاحة حتى امتلأت ذاكرته، وامتلأت كذلك رقاعه التي دوّن عليها، ونفذت أحبارها في تدوين ما سمعه. تغيّر حال البصرة بموت الخليل بن أحمد، رأس اللغة والنحو في عصره، وأستاذ أساتذة المدرستين الكبيرتين الكوفة والبصرة. مات الخليل، ولم يمُت علمه، ولم تنته حلقة درسه، إذ ارتقاها يونس بن حبيب البصري، ليلبغ العلم كما كان يبلفه الخليل. وجاء الكسائي يسأل عن الخليل فأخبر بموته، فجلس يستمع ليونس بن حبيب، لكنه هذه المرة لم يكن مجرد طالب علم، فهو رجل قد ضمّ بين جنبيه علم معاذ الهراء، ونقحه بما أخذ عن الخليل، ثم إنه قد عاش أعراب البادية، فأصلح عجمة لسانه، وعرف طبائع الفصحاء في الكلام، وحفظ عنهم ما حفظ، ودوّن عنهم ما دوّن. وقف الكسائي موقف النظير من يونس بن حبيب، ودارت بينهما مسائل ومناظرات ” أقر له يونس فيها، وصدّره موضعه“ (34).

4 - الكسائي والخلافة:

قدر للكسائي أن يشيع أمره، وينتشر علمه، فهيئت له الأسباب، فها هو ذا الخليفة المهدي أبو هارون الرشيد يأتي بمؤدب لهارون، ليعلمه، فدعاه يوماً المهدي وهو يستاك. فقال: كيف تأمر من السواك؟ فقال: استك يا أمير المؤمنين فقال المهدي: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم قال: التمسوا لنا من هو أفهم من ذا، فقالوا: رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة، قدم من البادية قريباً فكتب بإزعاجه من الكوفة، فساعة دخل عليه قال: يا علي بن حمزة، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: كيف تأمر من السواك؟ قال: سك يا أمير المؤمنين، قال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وصار الكسائي مؤدباً لابن الخليفة، ثم صار مؤدباً للخليفة هارون الرشيد، ومؤدباً لابنيه الأمين والمأمون. وازدادت مكانة الكسائي بعد موت الخليفة المهدي، وتولي هارون الرشيد الخلافة، فهارون تلميذه، والكسائي - لا شك - ذو حظوة عند الرشيد معلومة الأسباب.

• مناظرات الكسائي:

1 - مع القاضي أبي يوسف :

وقد كان بعض العلماء يغبط الكسائي على هذه المكانة التي كان يحظى بها عند الخليفة، فيروى أن القاضي أبا يوسف، كان يقع في الكسائي ويقول: إنما يحسن شيئاً من كلام العرب، فبلغ الكسائي ذلك، فالتقيا عند الرشيد فسأله الكسائي: ماذا تقول في رجل قال لامرأته أنت طالق طالق طالق؟ قال: واحدة، قال: فإن قال لها: أنت طالق أو طالق أو طالق؟ قال: واحدة، قال: فإن قال لها: أنت طالق ثم طالق ثم طالق؟ قال: واحدة، قال: فإن قال لها: أنت طالق وطالق وطالق؟ قال: واحدة، قال الكسائي: يا أمير المؤمنين؛ أخطأ يعقوب في اثنتين وأصاب اثنتين.

أراد الكسائي أن يبرهن للقاضي أبي يوسف أن القضاء الذي هو صنعة أبي يوسف لا يستقيم أمره إلا بالنحو، فالسؤال الذي وجهه الكسائي في الفقه والقضاء، ولا جواب له إلا بالنحو، وكانت هذه عادة الكسائي في مناظراته مع القاضي أبي يوسف، إلى أن جعل أبا يوسف يمدح العربية والنحو.

طفق الكسائي بعد أن لاحظ خطأ أبي يوسف يحلل له المسائل التي سأله فيها تحليلاً نحوياً دلالياً، وربما ما حصّله الكسائي خلال ارتحاله العلمي من علمٍ كثيرٍ، وربما كانت كلمات الهباريين التي قالوها في نقد لحنه فاتحة خير عليه لم ينقطع، فقد ألم بعلوم شتى، ولم يكتف بالوقوف عند حدّ النحو.

• التحليل النحوي:

- "أما قوله: أنت طالق طالق طالق فواحدة، لأن الاثنتين الباقيتين تأكيد كما يقول أنت قائم قائم قائم. وأنت كريم كريم كريم.
- وأما قوله: أنت طالق أو طالق أو طالق فهذا شك، ف وقعت الأولى التي تتيقن.
- وأما قوله: طالق ثم طالق ثم طالق فثلاث لأنه نسق.
- وكذلك طالق وطالق وطالق."

∞ الفائدة

- الأولى:	واحدة، لأنَّ الإثنتين الباقيتين (طالق طالق) تأكيد للأولى.
- الثانية:	واحدة، أو: تفيد التخيير والشك والتقسيم. نحو: أحترمك أكنت عربياً أو أعجمياً.
- الثالثة:	ثلاث، ثم: تفيد الترتيب والترخي في الزمن. نحو: خرج الرجلُ ثم زوجته.
- الرابعة:	ثلاث، و: تفيد المشاركة والمصاحبة. نحو: حضر زيدٌ وعمرو.

2 - مع علماء أهل البصرة:

الكسائي أعلم العلماء، لو سئل عن كلِّ شيء لأجاب، ويدلنا على ذلك ما رواه صاحب وفيات الأعيان عن السجستاني إذ يقول: "قال محمد بن الحسن الأزدي: حدثنا أبو حاتم قال: وفد علينا عامل من أهل الكوفة ولم أر في عمال السلطان أبرع منه، فدخلت عليه مُسَلِّماً فقال لي: يا سجستاني، من علماءكم بالبصرة قلت: الزيايدي أعلمنا بعلم الأصمعي، والمازني أعلمنا بالنحو، وهلال الرأي أفقهننا، والشاذكوني من أعلمنا بالحديث، وأنا - رحمك الله - أنسب إلى علم القرآن، وابن الكلبي من أكتبنا للشروط. قال: فقال لكتبه: إذا كان غداً فاجمعهم إليّ."

قال: فجمعنا فقال: أيكم المازني، فقال أبو عثمان: ها أنا ذا، قال: هل يجزي في كفارة الطهارة عتق عبد أعور؟ قال المازني: لست صاحب فقه، أنا صاحب عربية، قال: يا زيادي، كيف يكتب بين بعل وامرأة خالعهما على الثلث من صداقها؟ قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم هلال الرأي، قال: يا هلال، كم أسند ابن عون عن الحسن قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم الشاذكوني، قال: يا شاذكوني، من قرأ: (أَلَا إِنَّهُمْ يَتُنَوَّنُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا) (35): (تتوني صدورهم) قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم أبي حاتم، قال: يا أبا حاتم، كيف تكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين تصف خصاصة أهل البصرة، وما أصابهم في الثمرة، وتسأله لهم النظر والنظرة قلت: لست صاحب بلاغة وكتابة، أنا صاحب قرآن.

فقال: ما أقبح الرجل يتعاطى العلم خمسين سنة لا يعرف إلا فتناً واحداً حتى إذا سئل عن غيره لم يجُل فيه ولم يُمِر، لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا كله لأجاب (36).

3 - مع سيبويه:

لم تقف مناظرات الكسائي عند القاضي أبي يوسف أو يونس بن حبيب البصري، بل إن له مناظرات ممتعة مع كثير من العلماء، وبخاصة من مناظرته مع سيبويه التي عُرفتُ بالمسألة الزنبورية في النحو.

المناظرة التي وقعت بين سيبويه والكسائي أظهرت أنها تمَّت بغش الكسائي للفوز بها، فهل

غش أو تجنى الكسائي فعلا على سيبويه في مناظرته التي عُرفتْ بالمسألة الزنبورية في النحو؟

”استملى سيبويه على حماد بن سلمة، وأخذ النحو عن عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، والخليل، وأبي الخطاب الأخفش الكبير. وقد جمع يحيى البرمكي ببغداد بينه وبين الكسائي للمناظرة، بحضور سعيد الأخفش، والفراء، وجرت مسألة الزنبور: ”الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها. فقال سيبويه: ليس المثل كذا، بل : فإذا هو هي. وتشاجرا طويلاً، وتعصّبوا للكسائي دونه ، ثم وصله يحيى بعشرة آلاف، فسارسيبويه إلى بلاد فارس، فاتفق موته بشيراز.(37)

أ- الرواية بين التصحيف والتحريف:

وقد دخل هذه الرواية الكثير من التصحيف مُبكرًا، حيث وردت بزيادات كثيرة منها طرح الأمثلة التي تؤيد رأي الكسائي وفي حديث الأعراب الذين كانوا يقفون خلف باب القصر هؤلاء العلماء سُئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه دون ذكر هذه المسائل، خلف هذا الباب، فطائفة منهم قالت: ”فإذا الزنبور هي، وهذا يدل على دلالة واضحة على أن تأييدهم لرأي سيبويه. وقالت أخرى: إياها بعينها، وهذا لم يرد في الورود الأول لهذه المناظرة“ (38).

كما نجد قول هارون ليحسم بين الطرفين: فما الذي يقطع ما بينكما؟ فقال الكسائي: العرب الفصحاء المقيمون على باب الذين نرتضي فصاحتهم، نحضرهم، فنسألهم عما اختلفنا فيه، فإن عرفوا النصب علمت أن الحق معي، وإن لم يعرفوه علمت أن الحق معه. فأشار إلى بعض الغلمان ، فلم يكن إلا ساعة حتى حضر منهم خلق كثير.(39)

ب - المضمون النحوي للمسألة الزنبورية.

- 1 - يرى الكوفيون أنه يجوز على رأي شيخهم الكسائي أن يقال: ”كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو إياها“ .
- 2 - أما البصريون فكان رأيهم أنه لا يجوز أن يقال : فإذا هو إياها، ويجب أن يقال فإذا هو هي .

والملاحظ أن مسألة الخلاف بين الطرفين تكمن في الاسم الواقع بعد إذا الفجائية، هل يجوز الرفع أم النصب أم كلاهما:

3 - الكوفيون: أخذوا برأي الكسائي الذي أجاز النصب والرفع معاً، والعرب قد وافقت الكسائي على ذلك.

4 - أما البصريون فقد أخذوا برأي سيبويه الذي أجاز الرفع فقط .
” والقياس عند الكوفيين - كما ذكره الأنباري - هو أنّ (إذا) ظرف مكان، والظرف يرفع ما بعده، وتعمل في الخبر عمل (وجدت)، لأنها بمعنى وجدت .
أما القياس عند البصريين فإنه لا يجوز النصب، لأن (هو) مرفوع بالابتداء، ولا بدّ للمبتدأ من خبر، فوجب أن يقال: فإذا هو هي. فضمير (هو) راجع إلى الزنبور، لأنه مذكر، والضمير (هي) راجع إلى العقرب لأنه مؤنث .

وأما الجواب على كلمات الكوفيين - على رأي الأنباري - فإنّ ما رووه عن العرب من قولهم: ”فإذا هو إياها“، فمن الشاذ الذي لا يعبأ به كالجزم والنصب بـ (لم)، وما أشبه ذلك من الشواذ التي تخرج عن القياس.

وأما قولهم: إنّ (إذا) إذا كانت للمفاجأة كانت بمنزلة (وجدت) فباطل، لأنها إن كانت كذلك فوجب أن يرفع بها فاعل وينصب بها مفعولان ، كقولهم: ”وجدت زيدا قائماً“ فترقع الفاعل وتنصب المفعولين ، ومهما أوّل الاسم بعد (إذا) الفجائية ، فهذا اللفظ ظرف مكان ، وظرف المكان يجب رفع المعرفتين بعده ، فوجب أن يقال: ”فإذا هو هي“ .

وأما قول ثعلب فإنّ (هو) في قولهم : فإذا هو إياها، عماد. فباطل عند الكوفيين والبصريين، لأن العماد عند الكوفيين الذي يسميه البصريين الفصل، يجوز حذفه من الكلام ولا يختل معنى الكلام بحذفه، ألا ترى أنك لو حذف العماد الذي هو الفصل من قولك: ”كان زيد هو القائم“ فقلت: ”كان زيد القائم“ لم يختل معنى الكلام بحذفه، وكان الكلام صحيحاً، وكذلك سائر الأماكن التي يقع فيها العماد الذي هو الفصل يجوز إثباته، ولو حذفته من قولهم: فإذا هو إياها لاختلّ معنى الكلام وبطلت فائدته فيه، لأنه يصير ”فإذا إياها“ وهذا لا معنى له ولا فائدة منه ؛ فبطل ما ذهبوا إليه.“ (40).

- سيبويه ومكانته.

العجم يقولون: سيبويه بضم الباء وسكون الواو وفتح الياء لأنهم يكرهون أن يقع في آخر الكلمة: ويه فإنها للندبة(41). و”سيبويه“: هو عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه، أبو بشر، وسيبويه: لقب فارسي ومعناه: رائحة التفاح كانت أمه تشم منه رائحة الطيب لللطافته لأن التفاح من لطاف الفواكه.

نشأ بالبصرة وأخذ عن الخليل ويونس، وناظر الكسائي في قولهم: كنتُ أظن أن العقرب

أشدُّ لسعة من الزنبور فإذا هو هي أو: هو إياها. فاختار سيبويه الرفع. وقال الكسائي: النصب. ورجح العرب جانب الكسائي، وقيل: مات بشيراز سنة 179.

- مفاد المسألة الزنبورية:

”والعربُ قد تحذفُ الأخبارَ بعد إذا
فإن تولَّى ضميرانِ اكتسى بهما
لذالك أعيّت على الأفهام مسألةً
وفي الجوابِ عليها هل (إذا هو هي)
وخطأ ابنُ زيادٍ وابنُ حمزة في
وغازطَ عمرًا عليّ في حكومته
وليسَ يخلو امرؤٌ من حاسدٍ أضمٍ
والعُبنُ في العلمِ أشجى مِحنةً علِمَتْ

وربّما رفعُوا من بعدها رُبّما
وجهُ الحقيقة من إشكاله غمما
أهدتُ إلى سيبويه الحنفَ والغمما
أو هل (إذا هو إياها) قد اختصما
ما قالَ فيها أبا بشرٍ وقد ظلما
يا ليتهُ لم يكن من أمره حكما
لولا التناهُسُ في الدنيا لما أضما
وأبرحُ النَّاسِ شجواً عالمٌ هضما

أوجه الاختلاف	المسألة الزنبورية	الفائدة ∞
<p>- علماء الكوفة</p> <ul style="list-style-type: none"> • امتاز منهجهم على السماع وإجازة الشاذ من كلام العرب. • لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز، ومخالف للأصول جعلوه أصلاً وباباً وقاعدة. • شيخهم الكسائي الذي كان يسمع الشاذ ويجبر ضرورة استعماله. ويقول: "إنما النحو قياسٌ يتبع وبه في كلِّ ينتفع" 	<p>- علماء البصرة</p> <ul style="list-style-type: none"> • امتاز منهجهم على بناء اللغة على الأكثر الشائع من كلام العرب. • مخالفة التأويل عندهم شاذ وخطأ. فلا يلتفتون إلى كل مسموع ولا يجيرون إلا المطرد. • شيخهم سيبويه الذي كان أكثر منهجية ودقة، والنحو عنده له ضوابط وأصول ويعتمد على التصنيف والتنسيق. 	<p>∞ الفائدة</p>
<p>• العقرب أشدُّ لسعة من الزنبور</p> <p>إياها هو إذا</p> <p>↓ ↓ ↓</p> <p>ضمير منفصل مرفوع لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به للفعل (وجدتُ)</p> <p>ضمير منفصل في محل رفع فاعل</p> <p>الفجائية ظرف مكان بمعنى وجد</p>	<p>• العقرب أشدُّ لسعة من الزنبور</p> <p>هي هو إذا</p> <p>↓ ↓ ↓</p> <p>ضمير منفصل في محل رفع خبر</p> <p>ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ</p> <p>الفجائية ظرف مكان بمعنى وجد</p>	

<ul style="list-style-type: none"> • إذا هو إيها : الاسم الواقع بعد إذا الفجائية يجوز فيه الرفع والنصب. • قياس العماد: إذا هو إيها - حذف الضمير (هو) أوجد خللاً في معنى الجملة. • القياس: <div style="display: flex; justify-content: space-around; margin-top: 10px;"> <div style="text-align: center;"> <p>نعبذ</p> <p>↓</p> <p>ضمير نصب منفصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به مقدم.</p> </div> <div style="text-align: center;"> <p>إياك</p> <p>↓</p> <p>ضمير نصب منفصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به مقدم.</p> </div> </div>	<ul style="list-style-type: none"> • إذا هو هي : الاسم الواقع بعد إذا الفجائية يجوز فيه الرفع فقط. فالمبتدأ والخبر اسمان مرفوعان دائماً. • قياس الفصل : كان زيدٌ هو القائمُ كان زيدٌ القائمُ - حذف الضمير (هو) لم يحدث خللاً في معنى الجملة. • القياس: <div style="display: flex; justify-content: space-around; margin-top: 10px;"> <div style="text-align: center;"> <p>هو</p> <p>↓</p> <p>ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ</p> </div> <div style="text-align: center;"> <p>نعبذ</p> <p>↓</p> <p>ضمير نصب منفصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به مقدم.</p> </div> </div>
--	--

4 - مع اليزيدي:

وكانت للكسائي مناظرات مع اليزيدي وصولات وجولات اتسمت بالتنافس القوي الذي كان مرده إلى أن الكسائي قد آل به الأمر إلى أن يؤدب الأيمن، وأن يؤدب المأمون(42).

ومن المناظرات التي دارت بينهما ما روي من أن الرشيد جمع بين الكسائي وأبي محمد اليزيدي، يتناظران في مجلسه، فسألها الكرمانى عن قول الشاعر: من مجزوء الرمل:

ما رأينا حَرَبًا يَدُ قر عنه البَيْضَ صَقْرُ
لا يَكُونُ العَيْرُ مُهْرًا لا يكون، المُهْرُ مُهْرُ

فقال الكسائي يجب أن يكون المهر منصوباً على أنه خبر كان، فضي البيت على هذا إقواء. فقال اليزيدي: الشعر صواب، لأن الكلام قد تم عند قوله: لا يكون الثانية، ثم استأنف، فقال: المهرُ مهْرُ، ثم ضرب بقلنسوته على الأرض، وقال: أنا أبو محمد. فقال له يحيى: أتكتني بحضرة أمير المؤمنين؟ فقال الرشيد: والله، إن خَطَأَ الكسائي مع حسن أدبه لأحب إلي من صوابك مع سوء أدبك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن حلاوة الظفر أذهبت عني التحفظ ، فأمر بإخراجه (43).

أذهبت حلاوة الظفر عن اليزيدي التحفظ، ففرح بما كان منه أمام عالم الكوفة وأستاذها، وما كان التنافس ليحمل اليزيدي على بغض الكسائي، بل كان يعرف له قدره ويجله، وليس أدلّ على ذلك من الأبيات التي قالها اليزيدي في رثاء الكسائي بعد أن خرج الأخير مع هارون الرشيد إلى الري، وكان بصحبتهما محمد بن الحسن القاضي صاحب أبي حنيفة، فمات القاضي، ومات الكسائي في بلد واحد، وهو قرية رنويه بالري، فقال الرشيد: ”دفنا

الفقه والنحو بالري“ (44). وباغت الخبر اليزيدي فأحزنه، وحرك أشجانته، فقال:
 ”تصرّمت الدنيا فلَيْسَ خلودُ
 وما قد يُرى من بهجةٍ سيبيدُ
 وأسيتُ على قاضي القضاة محمدٍ
 فأذريتُ دمعاً والفؤادُ عميدُ
 وقلتُ إذا ما الخطبُ أشكلَ من لنا
 بإيضاحه يوماً وأنت فقيدُ
 فأوجعني موت الكسائي بعده
 وكادت بي الأرضُ الفضاءُ تميدُ
 هما عالمان أوديا وتخرّما
 وما لهما في العالمين نديدُ
 فحزني إن تخطر على القلب خطرة
 بذكرهما حتى الممات جديدُ“.
 فقال الرشيد: أحسنت يا بصريّ، قد كنت تظلمه في حياته وأنصفته بعد موته (45).

5 - مع هارون الرشيد: أثر المؤدّب في المؤدّب :

كان الكسائي ذا حظوة عند هارون الرشيد وكان موضع ثقة وإجلال، حتى إنه ليحكي عن نفسه وهو يصلي بهارون الرشيد ذات يوم فيقول: ”صليت بهارون الرشيد فأعجبتني قراءتي فغلطت في آية ما أخطأ فيها صبي قط، أردت أن أقول (لعلهم يرجعون) فقلت (لعلهم يرجعين)، قال: فوالله ما اجترأ هارون أن يقول لي أخطأت، ولكنه لما سلمت قال: يا كسائي أي لغة هذه، قلت: قد يعثر الجواد، فقال: أما هذا فتعم (46).
 ما بذره الكسائي المؤدّب في هارون ظهرت بوادره في النحو واللغة من خلال كلام وصّى به بنيه حين سمعهم يتعاطون الغريب في محاورتهم ويجنحون إلى الغليظ من الكلام، فمن ”وصايا الأباء للأبناء“ ما قاله هارون لبنيه: ”لا تحمّلوا أسننكم على وحشيّ الكلام، ولا تُعوّذوها المستشنع ولا المتصنع، فإن العادة ألزم من الطبع. واعتمدوا سهولة الكلام من غير استكراه ولا مؤونة تكلف. سيّد الكلام ما ارتفع عن طبقة العامة، وانخفض عن درجة المتشدقين، وخالف سُبُل المُغرّقين. فليكن كلامكم قَصْداً، وألفاظكم عدداً؛ فإن الإكثار يمحق البيان، ومن قبليّ تحدث الأفة على اللسان. وتحاموا الأُتس بالسلطان، وكلما رفع دونكم سترًا من الحشمة فاحتجبا عنه بستر من الإعظام، وكونوا أشدّ ما يكون لكم بسطًا أشدّ ما تكونون له هيبة“ (47).

• الأخصش الأوسط

هو سعيد بن مسعدة، النحوي البصري، ويكنى بأبي الحسن، وقيل في نسبه: ”(البلخي) نسبة إلى (بلخ)، وقيل : (الخوارزمي) نسبة إلى (خوارزم)“ (48). وعرف بلقب (الأخصش الأوسط) (49).

وقد ذكر السيوطي: أحد عشر نحوياً من الأخافش (50)، لذلك ميّزت كتب النحو سعيد بن مسعدة بإطلاق لقب (الأخفش) عليه، أو (الأوسط)، أو بذكر كنيته (أبي الحسن)، أو بالأشارة إلى مذهبه كقولهم: (ذهب الأخفش من البصريين) أو (ذهب البصريون إلى الأخفش). وقد أشارت كتب النحو إلى الآخرين بذكر القابهم، ك (الأخفش الصغير)، أو (الأخفش الأكبر)، أو (أبي الخطاب الأخفش). ولم يبقَ عدد الأخافش على ما هو عليه عند السيوطي، فقد زاد عددهم فصاروا ستة عشر أخفشاً (51).

- ولادته : (ت نحو 215هـ / 830 م)

لم تسعفا المصادر بذكر تاريخٍ محددٍ لولادة أبي الحسن الأخفش، فقد رجَّح المحدثون أن "ولادته كانت في العُقْد الثالث من القرن الثاني، مستنديين في ترجيحهم هذا إلى حقائق عن تاريخ حياته ومعاصرتة لغيره من العلماء وأولهم سيبويه" (52).

- مصنفاته :

للأخفش مصنفاً كثيرة تدلّ على عقلية علمية واسعة، فقد ألّف في النّحو، والعروض، والقوافي، وله في كلّ فنّ منها آراء مشهورة، ومصنفاً الأخفش التي وصلت إلينا تُعدّ اثراً لطبيعة عصره العلمية، وصورة لجهده الدؤوب في العمل خدمة للغة القرآن الكريم، أفاد منها طلاب العلم على مرّ الزمان، فهو عالم من علماء التفسير، والكلام، والنحو، واللغة، والشعر، وحازت مصنفاً على شهرة واسعة، ف "لم تمض مدة نصف قرن على وفاة الأخفش حتى كانت كتب ومؤلفاته قد حازت على أشتهاً واسع لما تدلّ عليه من علمٍ واسع غزير" (53).

أما أبرز كتبه فهو كتاب (القوافي) وكتاب (الاشتقاق) وكتاب (العروض) وكانت له مشاركة في علم العروض، وهو الذي أضاف البحر المتدارك إلى الخمسة عشر بحراً التي أحصاها الخليل. وكتاب (معاني القرآن) وفيه يفسر الأخفش معاني كلام الله لغوياً، وقد تناول الأخفش السور القرآنية كما وردت مرتبة في المصحف، واستعان بالآيات القرآنية في تفسير آيات أخرى، كما تناول القراءات المختلفة وأقام حولها الدراسات الصرفية أو النحوية أو الدلالية أو الصوتية، وبين أثر اختلاف القراءات في المعنى، مفضلاً منها ما كان أجود في العربية.

وتقوم دراسة الأخفش على السماع، وقد عرف لهذا (بالأخفش الراوية)، وقد اتبع فيه منهج المدرسة البصرية، وفي الكتاب اهتمام ظاهر بالشعر الذي يستشهد به على صحة

ما يذهب إليه، وقد وضع تفسير غريب كل بيت شعر تحته. واستفاد من أقوال العرب في القياسات اللغوية والدراسات الصوتية، وذهب في تفسيره معاني القرآن مذهب المعتزلة، وابتعد عن الاستشهاد بالأحاديث النبوية لجواز نقلها بمعانيها، كما ابتعد عن الاستعانة بالأخبار والقصص والإسرائيليات في عمله التفسيري.

- عقيدته :

لعقيدة الأخفش أثرٌ واضحٌ في الكثير من تفسيراته وتوجيهاته المعنوية والنحوية. وكان الاعتزال هو العقيدة التي يعتقها الأخفش، واتفقت أقوال المؤرخين، من قدامى ومحدثين، على أن الأخفش كان من أهل الاعتزال، فقد وصفه أبو الطيب اللغوي (ت 351هـ) بأنه من القائلين بالعدل، وأورد قول المازني فيه: "كان الأخفش أعلم الناس بالكلام ، وأحذقهم 22 بالجدل ، وكان غلام أبي شيمرو على مذهبه".

عُدَّ الأخفش أحد أئمة النحاة البصريين، ولقي من لقيه سيبويه من العلماء لأنه كان أسنَّ منه، وقد أصبح الأخفش الطريق إلى كتاب سيبويه بعد وفاته، وكان قد خالفه في كثير من آرائه في حياته، ولكنه بعد رحيل سيبويه إلى الأهواز إثر المناظرة التي جرت بينه وبين الكسائي(54) . توجه الأخفش إلى بغداد وانتصر لشيخه فسأل الأخفش الكسائي عن مئة مسألة نحوية فأجابته الكسائي إجابات خطأً فيها الأخفش، فاعترف له الكسائي بعدها بالفضل وأحب أن يتأدب على يديه، وقرأ على الأخفش كتاب سيبويه سرّاً فأعطاه الكسائي سبعين ديناراً. وكان الأخفش قديراً من دون غلو، وكان من علماء الكلام المبرزين في الجدل، وقد عدّه العلماء ثقة صادقاً فيما يرويه، ولم يكن يقول ما لا يعلم، ولا يأنف أن يقول: لا أدري، واتصف بالتواضع مع شيوخه.(55)

• المقاييس :

كان الأخفش يتشدد في القياس في بعض المسائل كقومه البصريين، ومع هذا فقد كان أكثراً من استعماله مولعاً به، لذلك ألف كتابه "المقاييس" وتزيد في تطبيقه على طائفة كبيرة من مسائل النحو والصرف حتى ظهر في شطر من أقيسته التسمح كالكوفيين.

وبهذا تمادى الأخفش في استعمال القياس حتى جاءت له مواقف فيه تجاوز بها القصد فاصطنع الصيغ وصنعها، وطرد القياس في الباب الواحد وأجاز في كل أفرادها ما يجوز

لأحدها أو بعضها بالسمع تسمحا، وقاس شيئا على شيء شبيه به شهاً بعيداً، كما قاس كالكوفيين على الشاهد الواحد أو القليل النادر، مع أنه كان من الواجب أن يقف تسامحه عند الحدود التي لا يؤذن فيها للقياس بأن تكون علته خفية أو بأن يتجاوز السماع أو يضاده، لأن المراد في الحقيقة من القياس أنه إذا ورد شيء ولم يعلم كيف تكلموا به فإنك تقيسه لا أنك تقيسه مع وجود السماع.(56)

ولعل مرد تشدد الأخفش في القياس النحوي في بعض الأحيان كالبصريين وتسامحه فيه في أحيان أخرى اقتداء بالكوفيين هو إلى انتقاله من البصرة إلى بغداد واتصاله بالكوفيين فيها وتأثره بأرائهم وتسمحاتهم. ثم عودته إلى البصرة وإقامته فيها وانقطاعه بذلك عن مشافهة الكوفيين، ممّا أعاده ثانية إلى شيء من منهج البصريين المتشددين .

- مواقفه القياسية:

ومن مواقف الأخفش المتنوعة إزاء القياس وفيها ما تشدد فيه، وما تساهل، وما تجاوز بتساهله الحد:

1 - منعه إيلاء إن وأخواتها معمول خبرها مع إجازة غيره ذلك قياساً على ما سمع من قول الشاعر:

فلا تلحني فيها فإنَّ بحبها أخاك مصاب القلب جم بلابله

2 - إجازته تثنية الأعداد غير المائة والألف وجمعها قياساً على قول الشاعر :
فلن تستطيعوا أن تزيلوا الذي رسا لها عند عال فوق سبعين دائم
وفي حين لم يجز غيره من البصريين هذا القياس وعدوا البيت شاذاً يحفظ ولا يقاس عليه.(57)

3 - إجازته إعراب ثاني العدد المركب إذا أضيف مع إبقاء الأول على بنائه قياساً على إحدى لغات العرب، فنقول: هذه خمسة عشر، بفتح التاء ورفع الراء، وأخذت خمسة عشر، بفتح التاء ونصب الراء، ونظرت إلى خمسة عشر، بفتح التاء وجر الراء .

4 - إبقاؤه عمل إن بعد تخفيفها قياساً على إبقاء العرب عمل يكون بعد جزمها وحذف نونها للتخفيف مع بعد ما بينهما، وجعل منه تخفيف أهل المدينة إن وإعمالها في قوله تعالى : (وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُؤْفِقِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ).

5 - قبوله الأشعار الشاذة واتخاذها أصلاً للقياس ، كما جرى في قول الشاعر :
 فزججتها بمزججة زج القلوص أبي مزاده
 فقد جوز الأخفش وتابعه الكوفيون الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به قياساً
 على هذا البيت، فأقاموا عليه قاعدتهم هذه وطردها، في حين ذهب سيبويه إلى أنه لا
 يجوز الفصل بينهما إلا بالظرف في الشعر فحسب.

ومع مواقف الأخفش هذه كانت له مواقف أخرى التزم بها في القياس جانب الاعتدال،
 وابتعد فيها عن التسمح وعن المغالاة والإبعاد على حد سواء وأدار القياس فيها بكفاءة
 وفقاً لمقاييس المفهومات المتماثلة، واعتمد في الترجيح بين الأحكام القياسية على الذوق
 اللغوي والإحساس العميق بالمعاني، ومن ذلك :

6 - قياسه رفع الابتداء للمبتدأ والخبر سوياً على إعمال إن في اسمها وخبرها معا
 واعتباره هذا الحكم في المقيس أقيس وأوجه وأحسن مما ذهب إليه سيبويه من أن المبتدأ
 مرفوع بالابتداء وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ، لأنه أقرب إلى التوجيه الظاهر .

7 - قياسه بقية أفراد الباب على الفعلين القلبين المتعديين "عَلِمَ ورأى" الذين سمع
 من العرب تعديتهما بالهمزة إلى أكثر من مفعول.(58)

8 - حكمه بزيادة أكاد في غير التعجب في نحو قوله تعالى: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ
 أُخْفِيهَا) قياساً على زيادة أصبح وأمسى السماعية في باب التعجب في قول العرب: "ما
 أصبح أبردها ، وما أمسى أدفأها" وقياساً على زيادة "كان" أم الباب القياسية بين ما
 وفعل التعجب كقول ابن مالك: "ما كان أصح علم من تقدما" والسماعية في غيره ، وقد
 فتح ذلك الباب للكوفيين ليقيسوا بدورهم بقية أفعال باب "كان" بناء على التماثل بين
 أم الباب وبقية أفرادها في العمل من جهة ، وعلى عدم انتقاص المعنى بزيادة كل واحدة
 منها من جهة أخرى.

• خاتمة:

علم النحو علم يتكامل مع غيره من علوم اللغة التي تشكّل فيما بينها وحدة تُكسب المتلقي
 المهارة اللغوية وتجعله قادراً على القراءة الصحيحة والكتابة السليمة، لذلك علم النحو

ضروري جداً لا تكتمل اللغة إلا به. فجاءت دراسة تأريخية لجذور علم النحو ونشأته على يد جهايزة النحو وعلمائه، ومعرفة الدافع إلى وضع هذا العلم الضابط للقراءات الصادرة عن السماع لتأسيس اللبنة الأولى ضبطاً وتقيطاً ثم جمعاً واستساخاً لبلوغ أرقى الأهداف: التدوين الصحيح لكتاب الله ولكل وثيقة سماعية حديثاً كان أو مثلاً أو شعراً، معتمدين في صنعهم المرتكزات الأساسية والأعمال الجوهرية لإنجاح النحو العربي.

من هنا انطلقت دراساتهم من نصوص أصيلة وضعت بعناية لاستنباط القاعدة النحوية التي يقرأها المتلقي وينقل بواسطتها إلى جو الإعراب بشكلٍ لطيفٍ بحيث يتأهب ذكاء المتلقي ويلعب دوراً بارزاً في الانتقال من مرحلة الاستقراء إلى مرحلة اكتشاف القاعدة الجزئية النحوية ثم العمومية لاسيما وأن الأمثلة كثيرة تتناسب ومستوى تفكيره لتكوّن أداة علمية لتطبيق أصول اللغة، وتمكينه من فهم حقيقة النحو عبر تدريبيه على طرق استعمال الإعراب والتشوق لهذا الهدف الإجرائي في كل وقتٍ.

فعلماؤنا وهبوا عقولهم لدراسة الظواهر اللغوية والتفتوا إلى السماع فوضعوا الضوابط له عبر القياس، فكان هذا القياس باباً لمناظراتٍ شتى بينهم، أثمرت إلى نشاطٍ فكري لا إلى بدعٍ تتناقضها السنة الحاقدين على اللغة أولاً ثم على الدين لينشأ الشتات والتباعد بين الملل والمذاهب، في حين أن المذاهب نشأتها نحوية تستقي من النص السماوي "القرآن الكريم" كل علمها ومعارفها ودراساتها.

فالله من أنزل هذا النص السماوي "القرآن الكريم" على نبيه(ص) وهو القائل سبحانه "وإنّا له لحافظون"(59)، ويتعهد بحفظه من أن يزداد فيه أو يُنقص منه، أو يضيع من شيء. فهو مُنزل من خالف الخلق، ومالك الأمر كله، نزل به جبريل الأمين(ع) فتلاه على النبي(ص) حتى وعيه بقلبه حفظاً وفهماً، ليكون من رسل الله، وإنّ ذكر هذا القرآن لمثبت في كتب الأنبياء السابقين، وقد بشرّوا به وصدقوه "وإنّه لفي زُبرِ الأولين"(60). فما يبذل الله من آيةٍ أو يُزلها من القلوب والأذهان يأت بأَنْفَعِ منها، أو يأتِ بمثها، فهو القادر لا يعجزه شيء. فهو القائل سبحانه: "ما نَسَخُ من آيةٍ أو نُنسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها"(61).

• المصادر والمراجع

- 1 - سورة الشعراء : 26 / 195.
- 2 - سورة الكهف: 18 / 109.
- 3 - سورة لقمان: 31 / 27.
- 4 - سورة النجم : 53 / 3 - 4.
- 5 - سورة محمد : 47 / 24.
- 6 - أنظر إبن منظور، "معجم لسان العرب".
- 7 - حيث جاء من آياتها: كَلَامُنَا لَفْظٌ مُّفِيدٌ كَاسْتَقِيمُ واسمٌ وفعلٌ ثم حَزَفُ الكَلِمِ.
- 8 - يوسف جمعة سلامة، "زيد بن ثابت، كاتب الوحي وجامع القرآن"، تاريخ النشر: 11-9-2012.
- 9 - أخرجه الترمذي.
- 10 - أخرجه ابن حبان والترمذي.
- 11 - العرضة الأخيرة: هي القرآن الموجود بين الدفتين، أي الجلدتين من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس.
- 12 - سورة البقرة: 2 / 248.
- 13 - سورة طه: 20 / 39.
- 14 - أخرجه أحمد.
- 15 - أنظر، "أسد الغابة"، 2/127.
- 16 - سورة يوسف: 12 / 2.
- 17 - أنظر "القاموس المحيط".
- 18 - سعيد الأفغاني، "أصول النحو"، المطبوعات الجامعية، مصر، 1994، ص: 70.
- 19 - أنظر إبن هشام الأنصاري، "أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك"، وأبي عمرو بن الحجاب، "الكافية".
- 20 - أنظر الأصفهاني، "الأغاني".
- 21 - سورة فاطر: 35 / 28، "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، برفع الهاء في إسم الجلالة أو نصبه.
- 22 - عدّها الإمام الزركشي (ت 794هـ) من القراءات الشاذة ، و ذلك في كتابه " البرهان في علوم القرآن"، في النوع الثالث والعشرون : معرفة توجيه القراءات و تبين وجه ما ذهب إليه كل قارئ.

- 23 - ذكرها أئمة متقدمون ، وحكى عنها ابن فضال المجاشعي(ت479هـ)، في كتابه ” النكت في القرآن“.
- 24 - قال ابن الجزري: (قلت) : وقد رويت كتاب الخزاعي الذي وضعه في الحروف ونسبه إلى أبي حنيفة، ومنه (إنما يخشى الله من عباده العلماء) برفع الهاء ونصب الهمزة، وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكلف توجيهها، وإن أبا حنيفة لبريء منها ”
- 25 - سورة يونس : 10 / 92.
- 26 - سورة يونس : 10 / 92.
- 27 - أنظر كتاب ”الانصاف“ للانباري.
- 28 - القفطي، ”إنباه الرواة على أنباه النحاة“، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1406 هـ ، ص: 256.
- 29 - تاريخ بغداد ، تحقيق د. بشار عواد معروف، ط1، ج 13، دار الغرب الإسلامي، 2001، ص: 348.
- 30 - م، ن، ص: 349.
- 31 - م، ن، ص: 345.
- 32 - أنظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص: 59.
- 33 - تاريخ بغداد، ص: 346. (الهباريين وهم قوم فضحاء كان الكسائي يكثر مجالستهم).
- 34 - م، ن، ص: 347.
- 35 - سورة هود: 5 / 11.
- 36 - تاريخ بغداد، ص: 350. وينظر ”وفيات الأعيان“: 432. (تلك قراءة شاذة تروى عن ابن عباس).
- 37 - الطبقة السابعة من سير أعلام النبلاء في حديث عن سيبويه: ص: 352.
- 38 - أنظر الزجاجي، ”مجالس العلماء“.
- 39 - عبد الفتاح محمد الحلو، محقق كتاب ”تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين“.
- 40 - أنظر أبو البركات الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف“، في المسألة التاسعة والتسعين من مسائل كتابه.
- 41 - ابن خلكان، ”وفيات الأعيان“، دار صادر، بيروت، 1970.
- 42 - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ)، ”بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة“، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، المكتبة العصرية، لبنان، ص: 265. وينظر ابن عساكر، ”تاريخ دمشق“، تحقيق ”محب الدين العمروي، ج33، ص: 284.

- 43 - تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، "طبقات الشافعية الكبرى"، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، ط2، ج3، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1413هـ، ص: 142. (وروي البيت الأول بروايتين: الأولى التي ذُكرت، والثانية (ما رأينا خرباً نق / قر عنه البيض صقراً)، والخرب الذكر من الحباري، والعر بفتح العين وسكون الياء الذكر من حمر الوحش.
- 44 - أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، "العر في خبر من عبر"، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: 234.
- 45 - أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري النهرواني (ت 390هـ)، "الجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي"، تحقيق عبد الكريم سامي الجندي، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص: 683.
- 46 - محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، "البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة"، تحقيق: محمد المصري، ط1، ج1، دار سعد الدين، دمشق، 1421هـ، ص: 208. وينظر شمس الدين الذهبي (ت 748هـ)، "سير أعلام النبلاء"، تحقيق: كامل الخراط، ط1، ج9، مؤسسة الرسالة، 1402 هـ، ص: 133.
- 47 - المسعودي، "مروج الذهب"، ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص: 254.
- 48 - ابن خلكان، "وفيات الأعيان"، دار صادر، بيروت، 1970، ص: 3.
- 49 - والخفش صغر العين وضعف البصر خلقةً.
- 50 - أنظر السيوطي، "المزهر".
- 51 - أنظر عبد الأمير الورد، (من المحدثين)، دراسته الموسومة بـ "منهج الأخفش الأوسط في الدراسة النحوية".
- 52 - أنظر "منهج الأخفش الأوسط في الدراسة النحوية".
- 53 - ياقوت الحموي، "معجم الأدباء"، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 54 - المناظرة التي جرت بينهما : "المسألة الزنبورية في النحو".
- 55 - القفطي، "إنباء الرواة على أنباء النحاة".
- 56 - المقاييس، ج 38، ص: 315.
- 57 - المقاييس، ج 38، ص: 316.
- 58 - م، ن، ص: 317.
- 59 - سورة الحجر: 15 / 9.
- 60 - سورة الشعراء : 15 / 196.
- 61 - سورة البقرة : 2 / 106

المكتبات العامة كمحركات لتحفيز اقتصاد المعرفة (نموذج الرابطة الثقافية / طرابلس)

حميدة كاظم العجل

د. الجامعة اللبنانية

الملخص

تتناول هذه الدراسة دور المكتبات العامة في دعم أهداف التنمية المستدامة، مع التركيز على دورها في التحول نحو اقتصاد المعرفة. تسعى الدراسة إلى الإجابة على سؤال حول مدى قدرة المكتبات العامة على توفير البيئة المناسبة لتعزيز الابتكار والبحث العلمي، وتنمية الكفاءات اللازمة لسوق العمل في عصر المعرفة. تعتمد الدراسة على فرضية مفادها أن المكتبات العامة تلعب دورًا حاسمًا في دعم أهداف التنمية المستدامة من خلال توفير الوصول إلى المعلومات والتكنولوجيا، وتعزيز البحث العلمي والابتكار. ولتحقيق أهداف الدراسة، تم استخدام المنهج الوصفي، واعتمدت على جمع البيانات من خلال استبيان إلكتروني تم توزيعه على مسفيدي المكتبة.

تتوقع الدراسة أن تُظهر نتائجها أهمية دور المكتبات العامة في توفير البنية التحتية التكنولوجية اللازمة للبحث والابتكار، وتقديم برامج تعليمية وتدريبية متنوعة، ودعم خطط العلوم والتكنولوجيا. كما تتوقع الدراسة أن تؤكد على أهمية المكتبات في تعزيز الابتكار والإبداع لدى الأفراد، وبالتالي المساهمة في بناء اقتصاد معرفي مزدهر.

الكلمات المفتاح: المعرفة — اقتصاد المعرفة — التنمية
المستدامة — عصر المعرفة

Public libraries as catalysts for the knowledge economy

(Al Rabita Al Sakaffa/ Tripoli)

Dr.Hamida Kazem Al Ejel

Lebanese university

alejelhamida@gmail.com

ABSTRACT

This study explores the role of public libraries in supporting the Sustainable Development Goals, with a particular focus on their contribution to the transition towards a knowledge-based economy. The research aims to answer the question of how well public libraries can provide an environment conducive to fostering innovation, scientific research, and developing the skills required for the knowledge-based workforce. The study is based on the hypothesis that public libraries play a crucial role in supporting the Sustainable Development Goals by providing access to information and technology, and promoting research and innovation. To achieve the study's objectives, a descriptive research methodology was employed, and data was collected through an online survey distributed to library users.

“The study anticipates that its findings will highlight the crucial role of public libraries in providing the necessary technological infrastructure for research and innovation, offering diverse educational and training programs, and supporting science and technology plans. Furthermore, the study expects to emphasize the importance of libraries in fostering innovation and creativity among individuals, thereby contributing to the development of a thriving knowledge-based economy.”

Keywords: knowledge - knowledge economy - sustainable development - knowledge era

المقدمة

لطالما كان مجتمع المعرفة هو المجتمع الذي يركز على إنشاء ونشر واستثمار المعرفة لتحسين جودة الحياة، حيث يعد اقتصاد المعرفة محوراً رئيسياً لهذا المجتمع. في هذا الاقتصاد، تُعتبر المعرفة سلعة وخدمة محورية، وهي المحرك الأساسي للنمو الاقتصادي. يعتمد اقتصاد المعرفة على توافر تقنيات المعلومات والاتصالات والإبتكار، والتي تشكل الركيزة الأساسية له، حيث أصبحت هذه التقنيات المحرك الرئيسي للإنتاج والنمو الاقتصادي. تعتمد المنظمات والمؤسسات الآن على المعرفة، أو ما يُعرف باقتصاد المعرفة، الذي يستند إلى الموارد البشرية المؤهلة القادرة على دعم عملية الإبتكار والتجديد والتنمية المستدامة من خلال التعليم والتأهيل.

يؤثر اقتصاد المعرفة ويتأثر بالأنظمة المرتبطة به، مثل التعليم والبحث والتطوير، وأنظمة المعلومات. في هذا السياق، تلعب المكتبات دوراً مهماً في تحقيق التطور والنجاح من خلال تقديم المعرفة وتطبيقاتها. فقد أصبحت المكتبات العامة، في عصر التطور الرقمي، أكثر من مجرد أماكن لحفظ المعلومات؛ فهي الآن مراكز تعليمية ومعرفية وثقافية، تقدم مصادر معلومات تقليدية وإلكترونية وتوفر منصات للتنشيط الثقافي وتنظيم الفعاليات والندوات في مختلف ميادين المعرفة. كما تقدم التدريب وتكوين المهارات في مجال البحث والمعرفة، مما يعزز التكامل الاجتماعي والاقتصادي ويساعد الأفراد على المشاركة بفعالية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

في هذا السياق، تبرز أهمية الرابطة الثقافية في طرابلس كمؤسسة تلبى احتياجات المجتمع المحلي. وبالنظر إلى دورها البارز في تقديم الأنشطة والخدمات الثقافية والمعرفية، تم اختيارها كموضوع للدراسة بهدف تقييم مساهمتها في خدمة المجتمع الطرابلسي واللبناني بشكل عام، وتسهيل الضوء على دورها في تعزيز الوعي المعلوماتي والخدمات المقدمة ورضا المستفيدين عنها.

1. إشكالية الدراسة

انطلاقاً من الدور المتوجب على المكتبات العامة في خدمة المجتمع بشرائحه المختلفة وعلى اعتبارها منارة ثقافية وواجهة حضارية لكل بلد، فإنها معنية بمدى إيفائها بتقديم خدماتها بكل اقتدار فيجب عليها أن تكون على مستوى عال من الجاهزية والفعالية لاكتساب المعرفة للمستفيدين ومساعدتهم في

الوصول إلى المعلومات بكفاءة وفعالية ويعد إنتاج الخدمات الوثائقية في رحم مهنة المكتبيين للنهوض بالحياة الإجتماعية والثقافية والإقتصادية والسياسية للمجتمع خاصة في ظل تحديات عصر التوجه الرقمي وانتشار البيانات الضخمة وفجر الذكاء الاصطناعي واقتصاد المعرفة. من هذا المنطلق تطرح الدراسة الإشكالية التالية:

كيف يمكن للمكتبات العامة تعزيز دورها كمحركات فعالة في اقتصاد المعرفة في ظل التحديات والتحولات السريعة في مجالات التكنولوجيا والمعلومات؟ ومن هذه الإشكالية يتفرع عدة تساؤلات فرعية:

- 1 - هل هناك علاقة بين دور المكتبات العامة في توفير بيئة محفزة للإبتكار والتعاون وبين نمو الاقتصاد المعرفي؟
- 2 - كيف تؤثر التحديات المتعلقة بالتمويل والتكنولوجيا والتدريب التي تواجهها المكتبات العامة على قدرتها في تلبية احتياجات المجتمع وتعزيز اقتصاد المعرفة؟

2. فرضيات الدراسة

- الفرضية الرئيسية:

تساهم المكتبات العامة بشكل فعال في تعزيز الإبتكار والبحث العلمي، مما يدفع عجلة النمو الاقتصادي من خلال توفير بيئة محفزة لتبادل الأفكار والتعاون. الفرضيات الفرعية:

- 1 - توجد علاقة إيجابية بين دور المكتبات العامة في توفير بيئة محفزة للإبتكار والتعاون وبين نمو الاقتصاد المعرفي.
- 2 - تواجه المكتبات العامة تحديات تتعلق بالتمويل والتكنولوجيا والتدريب وهي تحديات تؤثر على قدرتها في تلبية احتياجات المجتمع وتعزيز اقتصاد المعرفة.

3. أهمية الدراسة

تتبع أهمية هذه الدراسة في مضمونها الذي يتوجه إلى ما تسعى إليه منظمات اليوم في التوجه نحو الإبداع والتميز. وهي تمثل خطوة في تقييم مستوى أداء أنشطة خدمات

المعلومات، كما تعد هذه الدراسة الأولى من نوعها على مستوى ارتباط المكتبات العامة باقتصاد المعرفة كونها تستهدف المجتمع المستفيد منها بشكل مباشر لتقصي مدى استفادتهم منها ومستوى فعاليتها. ويؤمل من هذه الدراسة أن تقدم واقعاً تطبيقياً ملموساً عن عمليات إدارة المعرفة في المكتبات للإستفادة منها وتطويرها في ظل الإقتصاد القائم على المعرفة. إضافة إلى إمكانية الإستفادة من دراستنا في تطوير أدوات قياس لتقييم باقي أنشطة المكتبة لتكون بالتالي خطوة إستهلاكية تمهّد لدراسات مستقبلية أكثر عمقاً.

4. أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الآتي:

- 1 - التعرف على واقع الرابطة الثقافية من حيث أهداف المستفيدين من خدماتها ومستوى استخدامهم لمصادرهما المتنوعة.
- 2 - التعرف على ما تتضمنه الرابطة من تكنولوجيا المعلومات والعالم الرقمي.
- 3 - التعرف على العوائق التي تحول دون التطبيق الأمثل لإدارة المعرفة في المكتبة بغية مواكبة عصر المعرفة.
- 4 - التعرف إلى ما إذا كان الوعي بالخدمات المقدمة كافياً لدفع استخدام خدمات المكتبة العامة.

5. مصطلحات الدراسة:

5.1. المعرفة: هي استخدام شامل للبيانات والمعلومات والخبرة والتعلم، بحيث تتحول إلى معلومات منظمة ومفيدة. تُعتبر المعرفة عامل إنتاج مهم وضروري للعمل الفعال (الجاموس: 2013، 73) ويُنظر إليها أيضاً كاستثمار في المعلومات من خلال استغلال مهارات الأفراد وأفكارهم في ظل تزايد المعلومات (السحيمي: 2009). كما تُعد مرحلة حاسمة في تحويل البيانات إلى معلومات ثم إلى معرفة، ويتطلب ذلك توفير بيئة مناسبة وتواصل فعال بين البيانات والمعلومات والمعرفة (عباس: 2014). باختصار إنها معلومات حوّلت إلى قدرات من أجل عمل فاعل. (دياب: 2014، 54).

وتعرفها الباحثة إجرائياً بأنها فهم الحقائق الذي يحصل عليه الفرد من خلال اكتساب الخبرات والمهارات، وهي النتيجة النهائية لاستخدام المعلومات واستثمارها، مما يتيح

تحويلها إلى عمل منتج يفيد الفرد والمجتمع.

5.2. الإقتصاد المعرفي: هو الإقتصاد الذي يعتمد على إنتاج المعرفة وتوزيعها واستخدامها كمحرك رئيسي لتحقيق النمو المستدام، وخلق الثروة، وتوفير فرص العمل (علّة، 2014، 4). ويعرّف بورات الإقتصاد المعرفي على أنه الإقتصاد الذي تلعب فيه القطاعات التي تعتمد على استخدام وإنتاج المعلومات الدور الأساسي، بدلاً من الصناعات التقليدية التي تعتمد على استخدام المواد والطاقة لتوليد الناتج، مثل الزراعة والصناعة (Borrat: 1977).

وتعرفه الباحثة إجرائياً أنه الإقتصاد الذي يركز على المعرفة المتقدمة التي تعتمد على توليد واستخدام وتحويل المعلومات والمعرفة، واستثمارها في مجال التقنيات العالية، بهدف تحقيق ثروات الأمم.

5.3. التنمية المستدامة: هي التنمية التي تلبى احتياجات الحاضر دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها الخاصة (1, Univers of Edinburgh).

5.4. المكتبة العامة: وفقاً لمنظمة الأونيسكو، هي مؤسسة ينشئها المجتمع المحلي ويدعمها ويمولها من خلال الحكومة المحلية أو الإقليمية أو الوطنية أو أشكال أخرى من التنظيم المجتمعي. توفر المكتبة العامة الوصول إلى المعرفة والمعلومات عبر مجموعة متنوعة من الموارد والخدمات دون تمييز بناءً على الجنس أو الدين أو أي اعتبارات أخرى (Federation International: 2001) وتعكس المكتبة العامة مستوى اهتمام الدولة بالحضارة والديمقراطية، حيث تقدم خدماتها مجاناً لجميع المستفيدين (المالكي: 2000، 47).

وتعرفها الباحثة بأنها مؤسسة ثقافية تنشئها الدولة أو السلطة المحلية وتزودها بمختلف أنواع مصادر المعلومات بهدف كسب المعرفة والتثقيف الذاتي الحر، كما وتسهم في تنمية المعارف وثقافة المواطن وبالتالي هي مؤسسة إجتماعية تعمل على تحقيق التماسك الإجتماعي والعمل التعاوني.

6. الدراسات السابقة

تعد الدراسات الميدانية التي تركز على المكتبات العامة ودورها في تحفيز الإقتصاد من بين الأبحاث البارزة في هذا المجال. وقد تناولت بعض هذه الدراسات دور المكتبات العامة في اقتصاد المعرفة وتأثيرها على النمو الإقتصادي. وفيما يلي، نعرض أهم الدراسات

التي تم استعراضها في هذا السياق، والتي تشمل أبحاثاً حول المكتبات العامة بشكل عام، وأخرى تركز على اقتصاد المعرفة وتأثيره:

1 - دراسة مسفرة بنت دخيل الله بن مسفر الخثعمي (2009) بعنوان: "واقع تقنيات المعلومات في المكتبات العامة بالمملكة العربية السعودية"

ركزت هذه الدراسة على واقع تقنيات المعلومات في المكتبات العامة التابعة لوزارة الثقافة في المملكة العربية السعودية، مستخدمةً المنهج المسحي وتقنية المقابلة. وقد أظهرت نتائج الدراسة وجود نقص كبير في تقنيات المعلومات، بما في ذلك الكتب الإلكترونية وقواعد البيانات، كما لفتت إلى غياب خطة واضحة لتطوير تقنيات المعلومات في هذه المكتبات العامة.

2 - دراسة رانيا عثمان (2014) بعنوان: "دور أخصائي الجودة ومؤسسات المعلومات" تناولت الدراسة مفهوم الجودة في المكتبات العامة والجامعية في مصر، وقيمت مدى إلمام العاملين في هذه المؤسسات بمفهوم الجودة. كما ناقشت الدور الفعال الذي يمكن أن يلعبه أخصائي الجودة في المكتبات، والذي يتضمن جمع المعلومات والبيانات بشكل مستمر. أوصت الدراسة بضرورة تعيين أخصائي جودة في كل مكتبة عامة وخاصة، مع التركيز على التقييم المستمر للأداء باستخدام استبيان يقيس احتياجات المستفيدين من مصادر المعلومات، والإستفادة من خبرة اختصاص المكتبة في اختيار الأنسب منها..

3 - دراسة Joy & Idowu 2014 بعنوان:

"Utilization and user Satisfaction of Public library services in South-West, Nigeria in the 21st century: A survey"

"الإستفادة من خدمات المكتبات العامة ورضا المستخدمين في جنوب غرب نيجيريا في القرن الـ21: دراسة إستقصائية"

تناولت الدراسة مدى استفادة المستخدمين من خدمات المكتبات العامة ورضاهم في جنوب غرب نيجيريا باستخدام المنهج الوصفي، حيث شملت عينة من 400 مستخدم تم اختيارهم من أربع ولايات في المنطقة. أظهرت النتائج تحسناً ملحوظاً في استخدام المكتبات، ولكن المستخدمين أشاروا إلى نقص المرافق وموارد المعلومات كعوامل رئيسية تؤثر على رضاهم. أوصت الدراسة بزيادة التمويل الحكومي لتحسين موارد المعلومات ومرافق تكنولوجيا المعلومات في المكتبات العامة، مما سيسهم في تعزيز استخدامها بين السكان النيجيريين وتلبية احتياجاتهم المعلوماتية.

وتعقيباً على هذه الدراسات فقد تناولت فاعلية خدمات المكتبات العامة، حيث أشارت دراسة عثمان إلى قصور برامج الجودة في المكتبات العامة في مصر. كما لفتت دراسات الخنمعي و Joy & Idowu إلى نقص في خدمات الإنترنت ومصادر المعلومات الإلكترونية. جميع هذه الدراسات اعتمدت على الاستبيان كأداة لجمع المعلومات والبيانات، وهو ما يتفق مع منهج دراستنا في استخدام الاستبيان لتقييم واقع وأنشطة خدمات المعلومات وفعاليتها في الرابطة الثقافية.

الفصل الأول: الإطار النظري للدراسة

يتناول الإطار النظري للدراسة دور المكتبات العامة في برامج المعرفة والمعلومات، ويبرز أهمية تكنولوجيا المعلومات في المكتبات العامة كمحفز رئيسي للإقتصاد المعرفي كنموذج جديد للتنمية.

أولاً: المكتبات العامة

المكتبة هي مستودع للمعرفة ومؤسسة إجتماعية ديناميكية تعتبر مركزاً أساسياً للموارد المعلوماتية الموثوقة، وتهدف إلى حفظ المعرفة المسجلة للإستخدام البشري (Aina: 2004). تُنشأ المكتبات العامة بتمويل حكومي أو محلي لتلبية الإحتياجات المعلوماتية والتعليمية والترفيهية للأفراد في المجتمع، بغض النظر عن الجنسية أو العمر أو الجنس أو الدين أو اللغة. تلعب المكتبات العامة دوراً حيوياً في إحداث التغيير الإجتماعي والسياسي والثقافي في المجتمع، وتوفر نطاقاً واسعاً من القراء مقارنة بأنواع المكتبات الأخرى. يرتبط رضا المستخدمين عن الخدمات التي تقدمها المكتبات العامة ارتباطاً وثيقاً بالإستخدام الفعال لتلك الخدمات والموارد. كما يؤثر مستوى رضا المستخدمين بشكل كبير على مدى استفادتهم من الخدمات المقدمة. لذلك، من الضروري أن توفر المكتبات العامة خدمات وموارد فعالة لجذب المستخدمين المحتملين.

1. وظائف المكتبة العامة

تلعب المكتبة دوراً محورياً في تنمية الفرد والمجتمع، فهي بمثابة منارة المعرفة والثقافة. تسعى المكتبة جاهدة لتوفير مواد وخدمات متنوعة تلبى احتياجات شرائح المجتمع المختلفة، مما يساهم في تنمية ذوقهم الفني والأدبي ويساعدهم على التأقلم مع متغيرات العصر. وبالتالي، تؤدي المكتبة دوراً تثقيفياً هاماً في بناء شخصية متكاملة قادرة على الإبداع والتواصل (مرعبي، 2022).

كما تساهم المكتبة بشكل فعال في تطوير الجانب التعليمي لدى الأفراد، حيث تشجع على القراءة المستمرة وتنمي حب المعرفة لديهم (شعيب، 2019، ص 124). بالإضافة إلى ذلك، تقوم المكتبة بدور إعلامي من خلال توفير مصادر معلومات حديثة ومتنوعة حول الأحداث الجارية والقضايا المجتمعية، مما يساعد الأفراد على الاطلاع والتوعية (عدنان، 2022).

2. أهداف المكتبة العامة

تقدم المكتبات العامة خدماتها لجميع فئات المجتمع، من هنا فإنها تتطلع الى الأهداف التالية: (عدنان: 2022، 101)

- تعكس مقنايتها إحتياجات المجتمع الفكرية الحالية والمستقبلية
 - تتيح مصادر عدة من المعلومات لمن يرغبون في الإطلاع
 - تساعد على التطوير الثقافي والروحي والفكري وإعداد فرد مشارك إيجابياً في ثقافة العصر والمجتمع الذي ينتمي إليه
 - تصل بين الفرد وما يحدث في العالم من تطورات معاصرة
 - تنمية المواهب الفكرية وتنمية قدرات الإعتماد على النفس
- باختصار تساهم المكتبة في تشكيل وعي المجتمع من خلال توفير مصادر معلومات متنوعة تلبي احتياجاته الحالية والمستقبلية، وتدعم التطوير الفكري والثقافي للأفراد، مما يجعلهم قادرين على المشاركة الفاعلة في بناء مجتمعهم.

3. تكنولوجيا المعلومات في المكتبات العامة

تعرف تكنولوجيا المعلومات بأنها الوسائل والأدوات سواء كانت مرئية أو سمعية أو مكتوبة والبرمجيات التي يتم خلالها جمع المعلومات وتخزينها وبثها وإنتقائها وإسترجاعها والتي تعمل على تسهيل العمليات للمستخدم (النجار: 2010، 46).

فهي إذاً مجموعة من الأدوات والمنهجيات والتقنيات المستخدمة لجمع المعلومات ومعالجتها وتخزينها وإستخدامها في تنفيذ أنشطة مختلفة والتي يمكن أن تستعين بها المكتبات العامة في سبيل تطوير أدواتها وتحسين أنشطة خدماتها كالقدرة على الولوج الى قواعد البيانات والإستفادة منها ومن الكتب والدوريات، هذا عن الدور التي تلعبه تكنولوجيا المعلومات في تسيير الوصول الى المجتمع والتأثير فيه عبر إسهامها في إذكاء الوعي المعلوماتي في المجتمع أو الثقافة المعلوماتية.

وفي هذا السياق أشار مارتن (1988) أن هذا التحول يحصل عبر المجالات التالية:

- المجال التكنولوجي: حيث تشر تطبيقات المعلومات بشكل واسع في أنشطة المجتمع المختلفة.
- المجال الاجتماعي: إن إتاحة المعلومات للأفراد تساعد على الإرتقاء بمستوى المعيشة.
- المجال الإقتصادي: تبرز فيه المعلومات كعامل إقتصادي وكصدر لإيجاد فرص عمل جديدة.
- المجال السياسي: يزداد معدل إجماع الرأي وبالتالي تزداد مشاركة الجماهير.
- المجال الثقافي: حيث الحرص على الصدق الإعلامي والأمانة العلمية عبر إحترام الملكية الفكرية والبيانات الشخصية وجماعتها.

وعلى إعتبار أن المكتبة العامة من شأنها جذب مختلف فئات المجتمع فإن أي خطوة تقوم بها المكتبة في ذلك يعتبر حقاً من حقوق المواطنين المستفيدين منها عبر تسهيل الإستفادة من تكنولوجيا المعلومات التي تمكنهم من الولوج الى قواعد البيانات الإلكترونية. من هنا أصبح لزاماً على المكتبات العامة أن تواكب التطور الرقمي وذلك لتوفير إمكانية توافر المعلومات والإتصال بقواعد وبنوك المعلومات. فتكنولوجيا المعلومات في المكتبات تعتبر الآن ضرورة حتمية كونها تعمل على تحسين مستوى الخدمات المقدمة وتوفير الوقت والجهد لتلبية إحتياجات المستفيدين، هذا مع العلم أنه في ظل الثورة الرقمية التي نعيشها أصبح الكثير من الشباب والمتقنين يفضلون القراءة الإلكترونية على حساب الورقية الأمر الذي يشكل تحدياً للمكتبيين والمهتمين بشؤون المطالعة فمن جهة يجب تشجيع القراءة الورقية وأنه لا غنى عن الكتاب ودوره في تثقيف وتطوير الأمم، ومن جهة أخرى لا بد من تجهيز المكتبات بكل مستحدثات التكنولوجيا والخدمات الإلكترونية لمواكبة متطلبات العصر ولجذب أكبر قدر ممكن من الزوار.

وفي لبنان يوجد اليوم حوالي 100 مكتبة عامة إضافة إلى حوالي 40 مركز مطالعة وتنشيط منذ العام 2001 بمبادرة من وزارة الثقافة وبالتعاون مع المنظمات الدولية بهدف تحقيق إنماء إجتماعي - ثقافي مع العلم أن هذه المكتبات تتفاوت من حيث إمتلاكها للتجهيزات والموارد ويعاني الكثير منها من شح في الكتب والمراجع إضافة الى غياب الدعم الكافي من الدولة والمجتمع المدني.

4. المكتبات العامة في لبنان

يعكس التاريخ الطويل والمعقد للمكتبات العامة في لبنان تطور النظام الثقافي والتعليمي في البلاد، فبدايتها كانت مبكرة خلال الحقبة العثمانية في المدارس الدينية ومؤسسات

التعليم الخاصة ومع الإنتداب الفرنسي بدأت الحكومة الفرنسية تعمل على تشجيع إنشاء المكتبات العامة في المدن الكبرى في بيروت وصيدا وطرابلس بهدف توفير المعرفة للمواطنين وتعزيز ثقافة التعلم وصولاً إلى مرحلة ما بعد الإستقلال حيث ازداد الإهتمام بالمكتبات العامة وتم تأسيس مكتبات جديدة في عدة مدن وقرى لبنانية. وقد جاء الإهتمام بالمكتبات العامة بشكلها الحالي منذ العام 2003 بالتنسيق مع وزارة الثقافة وجمعيات ومنظمات دولية كما اختير يوم 23 نيسان/إبريل من كل عام يوماً عالمياً للمطالعة (CLAC) حيث خصصت وزارة التربية أسبوعاً سنوياً في هذه الفترة ما يسمى "بأسبوع المطالعة للجميع" عبر حملات ترويجية في المدارس لتعريف الطلاب على أهمية المطالعة ودورها في بناء شخصية مثقفة واعية ومتطلعة على كل ما يدور حولها من أحداث كما يتم تنظيم زيارات إلى المكتبات العامة في لبنان وتعريفهم على دورها وأهدافها وتشجيعهم على المبادرة على الإرتياد للمطالعة داخلها لإستعارة الكتب وقراءتها في المنزل أو في أوقات الفراغ. وبما أن تطوير القراءة والتغذية الفكرية هو أحد المحاور الأساسية للوزارة انطلقت فكرة إقامة شبكة من المكتبات العامة بدعم من الوزارة عبر تأمين مجموعات الكتب وإقامة النشاطات التدريبية والثقافية وتقديم الخبرة والمشورة عن طريق عقد اتفاقيات تعاون مع مكتبات الجمعيات أو البلديات منذ شباط 2003.

5. الرابطة الثقافية

تأسست الرابطة الثقافية لخرجي دائرة دار التربية والتعليم بطرابلس عام 1943 وحصلت على العلم والخبر رقم 336 عام 1944. وهي واحدة من أعرق المؤسسات اللبنانية وأكثرها حضوراً وفعالية وتضم قرابة 1000 عضواً يتوزعون على مختلف ميادين العمل والإنتاج في طرابلس ولبنان والوطن العربي ويعج مبنائها كل يوم بحضور كثيف وأنشطة ثقافية متنوعة تتوزع بين قاعات المحاضرات والمؤتمرات والمسرح والمكتبة وقاعات الأنشطة المتخصصة، وتتعاون مع مختلف الوزارات والمؤسسات العامة والخاصة في لبنان والوطن العربي بالإضافة إلى البعثات الثقافية الأجنبية ومن أهداف الرابطة وفقاً لنظامها الأساسي:

- تنمية الثقافة ونشرها بمختلف الوسائل.
- العمل في المجالات الثقافية والاجتماعية والخيرية والرياضية.

- أما عن الأنشطة التي تقدمها الرابطة الثقافية فهي كثيرة ومتنوعة نذكر منها:
- المحاضرات والندوات والمؤتمرات التي تعالج مختلف القضايا الوطنية والإقتصادية والإجتماعية والعلمية والفكرية.
 - الأعمال المسرحية العربية والأجنبية.
 - أمسيات الموسيقى الشرقية والغربية والحديثة والكلاسيكية والتراثية.
 - أمسيات الفنون الشعبية الراقية من مختلف أنحاء العالم.
 - المعارض الفنية التشكيلية من رسم ونحت ومن مختلف المدارس الفنية.
 - التأهيل المهني والتقني في حقول المعلوماتية واللغات والفنون.
 - أنشطة إجتماعية وترفيهية لأبناء المؤسسات الإجتماعية ودور الأيتام.
 - الإحتفالات الجامعية والتربوية للقطاعات العام والخاص.
 - أنشطة ومباريات رياضية.

هذا عدا عن احتضانها لمعرض الكتاب السنوي، ففي أيار 1974 قدمت الرابطة الثقافية أول معرض للكتاب السنوي الذي أصبح بعدها حدثاً سنوياً هاماً في إطار الحياة العامة في طرابلس والشمال. ويعتبر المعرض تظاهرة ثقافية – إجتماعية وإقتصادية مميزة يعكس خلاصة وافية للنتاج الحضاري الإنساني في كل الميادين ويتيح فرص اللقاء والتداول حول ما يقدمه من رؤى وأفكار ومواضيع، ويضج بالحيوية من خلال الأنشطة الثقافية المتنوعة المواكبة للمعرض وقد احتفلت الرابطة في العام 1999 باليوبيل الفضي لمعرضها السنوي في معرض رشيد كرامي الدولي.

وقد أشار رئيس الرابطة الثقافية أنه ”على الرغم من الظروف العصيبة التي يمر بها لبنان والمنطقة وشبح الحرب الذي يخيم على بلادنا فقد أصرينا على الاستمرار في معرض الكتاب الذي يشكل جزء من تاريخ المدينة بالتعاون مع الأصدقاء من المكتبات والجامعات والمؤسسات التربوية والثقافية والإجتماعية والذي ينظم على هامشه عشرات الأنشطة والأمسيات والندوات وتواقيع الكتب واللقاءات والوقفات التضامنية مع أهلنا في غزة وجنوبنا الغالي وشجبا ورفضاً لمجازر الإبادة الجماعية التي يرتكبها العدو الصهيوني بحق أهلنا في فلسطين على أمل اللقاء في معارض قادمة وتكون هذه الغمامة السوداء قد زالت عنا وعن وطننا وعن أمتنا العربية والإسلامية“

<https://www.nna-leb.gov.lb/ar/education/687578>

فرغم الظروف الصعبة التي تمر بها مدينة طرابلس والمنطقة، والتي تشمل الفوضى

والحرب والنزاعات، فإن الرابطة الثقافية ما زالت مصرة على إطلاق معرض الكتاب السنوي. هذا الحدث الثقافي الكبير، الذي يمثل عرساً معرفياً لسكان المدينة، يعتبر بمثابة رسالة أمل وتحدي، تؤكد على تمسك طرابلس بثقافتها وحضارتها، وعلى قدرة الإنسان على التغلب على الصعاب.“ وقد شهد معرض الكتاب في طرابلس انتقالات عدة بين الرابطة الثقافية ومعرض رشيد كرامي الدولي، بدافع البحث عن أفضل الظروف لاستقبال الزوار وعرض الكتب. فبعد أن استضافه معرض رشيد كرامي لأكثر من عقدين، عاد المعرض إلى مقره الأصلي في الرابطة الثقافية، وذلك بسبب الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي دفعت إلى تقليص النفقات والتركيز على الأساسيات.

فقد تأسست في مايو 1993، وافتتحت المكتبة الكبرى بعد أربع سنوات من أعمال الإنشاء والتجهيز، حيث تمتد على مساحة قدرها 1200 متر مربع. حظي المشروع بدعم كبير من فعاليات المجتمع والقوى الحية. تعد مكتبة الرابطة مرفقاً ثقافياً وتربوياً أساسياً لمدينة طرابلس والشمال، حيث يستفيد منها سنوياً عشرات الآلاف من الطلبة والباحثين والمتقنين، وذلك من خلال اشتراك رمزي سنوي متاح لجميع المثقفين والطلاب في طرابلس والشمال وكل لبنان دون استثناء.

تحتوي المكتبة حالياً على عشرات الآلاف من الكتب والمراجع والموسوعات باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية، مما يتيح تغطية واسعة لمختلف ميادين المعرفة. كما تتوفر بها أجهزة الكمبيوتر للوصول إلى الإسطوانات المضغوطة وشبكة الإنترنت. إضافة إلى ذلك، تقدم المكتبة الصحف اليومية بشكل دائم، والمجلات والدوريات المتنوعة في قاعة مطالعة تزيد مساحتها عن 550 متر مربع، والتي توفر بيئة مريحة تتسع لـ 150 قارئاً بنموذج معماري رائد.

تعتبر الخدمات التي تقدمها المكتبة جزءاً أساسياً من الدور الثقافي للرابطة، وتلبية لإحتياجات المجتمع في طرابلس والشمال. تؤكد الرابطة الثقافية في طرابلس عاماً بعد عام على مكانتها كحاضنة للثقافة والمعرفة في المدينة. فمنذ تأسيسها عام 1943، سعت الرابطة إلى ترسيخ مكانة طرابلس كـ “مدينة العلم والعلماء”، وذلك من خلال تنظيم فعاليات ثقافية متنوعة. وقبيل قتراب تتويج طرابلس عاصمة للثقافة العربية لعام 2024، يأتي معرض الكتاب هذا العام ليعكس هذا الإرث الثقافي العريق، وليؤكد على استمرارية المدينة في الإبداع والتألق.

تلخيصاً لما ذكر تعتبر الرابطة الثقافية في طرابلس ومعرض الكتاب

السنوي تجسيدا للالتزام المجتمعي الثقافي بمواجهة الصعوبات من خلال تعزيز الثقافة والمعرفة. إن هذه المبادرات تؤكد على أهمية الثقافة كأداة لبناء مجتمعات قوية و متماسكة، مما يعزز دورها كمحرك رئيسي للنمو والتطوير الاجتماعي.

ثانياً: اقتصاد المعرفة

يُعتبر اقتصاد المعرفة من المفاهيم المركبة، حيث يدمج بين مفهومين رئيسيين: الإقتصاد والمعرفة التي تتضمن مجموعة من المعلومات والأفكار والمنتجات الفكرية التي تعكس حقائق وعلاقات، والتي تظهر في شكل تصرفات وسلوكيات الأفراد، وتكون ناتجة عن التفكير الذهني أو التجارب والممارسات الميدانية. بناءً على ذلك، يُعرّف اقتصاد المعرفة بأنه الإقتصاد الذي يعتمد على إنتاج ونشر واستخدام المعرفة والمعلومات. (قلش: 2007) وقد عرّفه البنك الدولي بأنه "الإقتصاد الذي يحقق استخداماً فعالاً للمعرفة من أجل تحقيق التنمية الإقتصادية والإجتماعية" (العترى وصالح: 2009، 441) وهو الإقتصاد الذي يعتمد اكتساب المعرفة وتوليدها ونشرها واستثمارها بفاعلية لتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية متتالية. (منصوري وخليفة: 2005، 9)

فأقتصاد المعرفة باختصار هو الانتقال من عصر الصناعة إلى عصر المعرفة حيث الأفكار والإبتكارات هي القوة الدافعة للنمو والتنمية.

1. أهمية اقتصاد المعرفة

إقتصاد المعرفة هو الإقتصاد الذي يدور حول المعرفة وتوظيفها وإبتكارها بهدف تحسين نوعية الحياة وتوظيفها للبحث العلمي لإحداث مجموعة تغييرات استراتيجية استجابة لخطط التنمية المستدامة. من هنا تتبع أهمية اقتصاد المعرفة التي يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- يرغب المؤسسات على التجديد والإبتكار
- يقوم في نشر المعرفة وتوظيفها
- يحقق مخرجات ونواتج تعليمية جوهرية (الهاشمي والغراوي: 2015)
- يعتمد اقتصاد المعرفة على الأصول الإنتاجية اللاملموسة (كالأفكار...) عوضاً عن تلك الملموسة
- يعتمد اقتصاد المعرفة على الرقمنة ذات القدرة على نقل المعلومات وتخزينها (مركز المعرفة: 2015)

• يبحث إقتصاد المعرفة دائما عن أصحاب المواهب والأفكار الجريئة وأصحاب العقول الخلاقة (89، 2003، Begg)

2. ركائز إقتصاد المعرفة

يستند إقتصاد المعرفة على أربع ركائز أساسية:

- 1 - الإبتكار(البحث والتطوير): من أجل مواكبة ثورة المعرفة المتنامية واستيعابها وتكيفها مع الإحتياجات المحلية.
- 2 - التعليم: بهدف توفي اليد العاملة الماهرة والإبداعية في ظل تنامي الحاجة إلى دمج تكنولوجيا المعلومات والإتصالات في المناهج التعليمية.
- 3 - البنية التحتية: المستندة على تكنولوجيا معلومات دينامية ووسائل اتصال حديثة.
- 4 - الحوكمة الرشيدة: التي تقوم على أسس إقتصادية قوية توفر الأطر القانونية والسياسية التي تهدف إلى زيادة الإنتاج والنمو.

3. متطلبات التحول نحو إقتصاد المعرفة

- إن التحول من الإقتصاد التقليدي إلى الإقتصاد المعرفي يتطلب مجموعة من الأسس التي يجب توافرها لتحقيق ذلك والتمثلة في النقاط الآتية:
- توفر سياسات إقتصادية مستقرة تسمح بالتخطيط الطويل الأمد.
 - توفر سياسات إقتصادية تؤمن الإستخدام والتدريب الفعال التي من شأنها أن تفضي إلى سرعة تعلم الأفراد وزيادة اكتساب المعرفة.
 - توفر عنصر المنافسة الذي يسمح بدخول الإستثمار الأجنبي المعتمد على التقنيات الحديثة.
 - اعتماد إقتصاد المعرفة على ركائزه الأساسية وهي الإبداع، التعليم، البنية التحتية والحوكمة.
- باختصار إن ارتباط الإقتصاد المعرفي بتكنولوجيا الإعلام والإتصال وظهور فروع علمية جديدة واتساع مجالات البحث والتطور إضافة إلى التطور التكنولوجي الكبير في مختلف المجالات العلمية والتقنية (نجم: 2005، 226).
- فالإنتقال إلى الإقتصاد المعرفي ليس مجرد تحول إقتصادي، بل هو تغيير في كيفية تفكير الأفراد والشركات والحكومات حول الإنتاجية والنمو والتطور...

4. دور المكتبة في إقتصاد المعرفة

جاء في تقرير الأونيسكو (2000) أن هدف التنمية هو تنمية البشر، فتحسين الطرقات وزيادة عدد الأبنية لا يعتبران بحد ذاتهما نتيجة للتنمية، بل هما أدوات لتحقيقها إذ أن الهدف الحقيقي للتنمية هو زيادة فرص الأفراد لاكتساب المعرفة والوصول إلى المصادر التي تعزز صحتهم وزيادة دخلهم وتعزز من كرامتهم. إذ إن أساس إقتصاد المعرفة هو تنمية رأس المال الفكري والذي يمكن للمكتبات تعزيز هذا الدور من أجل تحقيق التنمية المستدامة من خلال تنظيم المعرفة، تطوير التعلم ودعم المشاريع الإقتصادية والمحلية... (بدر: 2010) فيمكن للمكتبات أن تعمل على تعزيز قيمة الإنتاج الفكري من خلال تنظيمه والحفاظ عليه مما يتيح الوصول إليه على المدى الطويل بحيث تساهم عمليات التصنيف والتحليل في تحويل الأفكار المتناثرة إلى معلومات مترابطة ما يجعل الإنتاج الفكري مفيداً. كما أن الإستهلاك المكثف للبيانات البيبليوغرافية يساهم في تلبية احتياجات الأفراد التجارية والخدماتية.

الفصل الثاني: منهجية الدراسة

تعتمد منهجية الدراسة على تحليل شامل للبيانات والإتجاهات المتعلقة بدور المكتبات في الإقتصاد الرقمي، وتهدف الدراسة إلى استكشاف تأثير الإبتكارات التكنولوجية على وظائف المكتبات ودورها في تعزيز المعرفة والتفاعل الإجتماعي.

1. منهج الدراسة

تم اختيار مكتب محددة كوحدة تحليل لهذه الدراسة، والتي اعتمدت على المنهج الوصفي وأسلوب دراسة الحالة وقد سمح هذا النهج بتحليل الوضع الحالي للرابطة الثقافية والظروف المحيطة بها. وقد تم الإشارة إلى هذا المنهج في دراسة Joy & Idowu على اعتباره المنهج الأنسب لوصف الأشياء المرتبطة بآثار الظاهرة أو سمات محددة، كما ويعد المنهج الوصفي ملائماً لموضوع دراستنا.

2. مجتمع الدراسة وعينتها

شمل مجتمع دراستنا مجموعة متنوعة من مستفيدي الرابطة الثقافية ومكتبتها بما في

ذلك الزوار المنتظمون وغير المنتظمين. وقد تم اختيار عينة غير احتمالية (ميسرة) من بين هؤلاء المستفيدين لتمثيل هذه الفئات استهدفت المستفيدين من المكتبة خلال الفترة بين شهري أيار وتموز 2024. ونظراً للصعوبات اللوجيستية المرتبطة بحصر جميع مستفيدي المكتبة والحصول على عينة عشوائية تمثيلية خاصة في ظل وجود فئة كبيرة من المستفيدين غير المسجلين تم اختيار عينة غير احتمالية، هذا الخيار وإن كان يحد من تعميم النتائج إلا أنه يسمح بجمع البيانات في الوقت المحدد وتغطية شريحة واسعة من المستفيدين. وقد شملت العينة 48 مستفيداً ومشاركاً في المكتبة.

وفيما يلي جدول يبين توزيع عينة الدراسة تبعاً لمتغيرات خاصة بالمبحوثين كالعمر والجنس والمؤهل العلمي.

جدول رقم (1): توزيع أفراد العينة تبعاً للجنس والعمر والمؤهل العلمي

النسبة %	العدد/ التكرار		
41.7%	20	ذكر	الجنس
58.3%	28	أنثى	
16.7%	8	10 - 20 سنة	العمر
58.3%	28	20 - 30 سنة	
16.7%	8	30 - 40 سنة	
8.3%	4	40 - 50 سنة	
4.2%	2	أساسي	المؤهل العلمي
12.5%	6	ثانوي	
41.6%	20	جامعي	
25%	12	دراسات عليا	
16.7%	8	دكتوراه	

يتضح من الجدول أعلاه أن (41.6%) من مؤلات المستفيدين هي جامعية تليها (25%) في مرحلة الماجستير و(16.7%) دكتوراه، أي أن المكتبة تقدم خدماتها للطلاب حيث بلغت نسبة ما بين الفئات العمرية [30 - 30] نسبة (58.3%) وتعتبر هذه الفئة من العينة في مرحلة الدراسة والتحضير للدراسات العليا والدكتوراه ما يعني أن المكتبة تساعد الطلاب بالقيام بدور المكتبات الجامعية عدا عن كونها مكتبة عامة.

3. أداة جمع البيانات

اعتمدت الدراسة على الاستبيان كأداة رئيسية لجمع البيانات بعد الإطلاع على أدبيات سابقة ذات الصلة بموضوع الدراسة، وعلى ضوء ذلك فقد صممنا استبيان إلكتروني تم توزيعه على المستفيدين من المكتبة بعد الحصول على أرقامهم من إدارة المكتبة وقد تضمن الاستبيان (23) سؤالاً توزعوا إلى عدة محاور تتضمن بيانات عن المستفيدين وأسئلة حول موضوع الدراسة عن الرابطة الثقافية ومكتبتها ومصادر المعلومات وأدوات البحث المتوافرة في المكتبة التي تراوحت بين المصادر المطبوعة وتلك الإلكترونية التي بلغ فيها استعمال المواقع الإلكترونية النسبة الأعلى بـ (58.3%) و(50%) بالنسبة للفهارس المتاحة ورقياً. إضافة إلى الاستبيان محاور تتعلق بأنشطة المكتبة وخدماتها ورضى المستفيدين عن هذه الخدمات والأجهزة المكتبية وتأثير التكنولوجيا والتحديات وصولاً إلى المحاور المتعلقة بدور المكتبة في الإقتصاد الرقمي. واستندت الدراسة في تحليل البيانات وعرضها إلى التكرارات والنسبة المئوية وقد روعي وضع استخدام (متعدد الإجابات) في معظم الجداول التي تضمنت بياناتها إمكانية أن يكون للمبحوث أكثر من إجابة.

4. تحليل النتائج ومناقشتها

يتناول هذا القسم من الدراسة عرض النتائج التي توصلت إليها وتحليلها المعتمد على الأسئلة المنظمة في الاستبيان والمتعلقة بمدى فاعلية وجاهزية الرابطة الثقافية في مواكبة الإقتصاد المعرفي وإحداث تنمية مستدامة. وفيما يلي عرض للنتائج المتحصلة:

جدول رقم (2): أنواع الأنشطة التي يمارسها المستفيدين من المكتبة

النسبة %	التكرار	نوع النشاط
79.2%	38	قراءة / مطالعة
8.3%	4	أنشطة رياضية
45.8%	23	بحث أكاديمي
41.7%	20	حضور معارض وفعاليات ثقافية
33.3%	16	ورش عمل ودورات
8.3%	4	حفلات وأمسيات
16.7%	8	أنشطة أطفال

يتضح من الجدول أعلاه أن الهدف الرئيسي لزيارة المكتبة هو المطالعة، حيث يشكل نسبة (79.2%) من الزوار، سواء الصغار أو الكبار، لتوسيع المعرفة، اكتساب مهارات جديدة، أو ممارسة القراءة كهواية. يلي ذلك، زيارة المكتبة لأغراض البحث العلمي بنسبة (45.5%)، مما يشير إلى أن الطلاب وأصحاب الدراسات العليا والدكتوراه يعتبرون المكتبة مرجعاً مهماً لمشاريعهم البحثية. تأتي الزيارة لحضور المعارض والفعاليات الثقافية في المرتبة الثالثة بنسبة (41.7%) حيث تلعب المكتبة دوراً كمركز ثقافي متميز. كذلك، يشارك (33.3%) من المستفيدين في ورش العمل والدورات التدريبية التي تهدف إلى تطوير المهارات في مجالات متنوعة مثل الكتابة والرسم والموسيقى والروبوتات. ويمكن اعتبار المكتبة مساحة هادئة تعزز التنمية الشخصية والعلاقات المتميزة والتطوير الذاتي من خلال الموارد والخدمات المتاحة. وقد أفاد حوالي (70%) من المستفيدين برضاهم عن خدمات المكتبة وأثاثها وتجهيزاتها.

جدول رقم (3): تأثير التكنولوجيا على تجربة المبحوثين المكتبية

النسبة	التكرار	التأثير
70.8%	34	تسهيل الوصول إلى المعلومات
8.3%	6	تقلل من الحاجة إلى المكتبات التقليدية
8.3%	4	تعزيز التفاعل والتعاون
12.5%	4	ليس لديها تأثيراً كبيراً

يتضح من الجدول رقم (3) أن (70.8%) من المبحوثين تمكنوا من الوصول إلى المعلومات بشكل أسرع بدلاً من البحث اليدوي كما تساعد محركات البحث في العثور على المعلومات التي يحتاجها هؤلاء بسرعة وسهولة. كذلك عبّر البعض عن تعزيز التفاعل والتعاون عن طريق المجموعات والمجتمعات الافتراضية بنسبة (8.3%) بسبب التواصل مع أشخاص يتشاركون الاهتمامات نفسها كذلك حضور الأحداث الثقافية والإجتماعية التي تنظمها المكتبة عبر الإنترنت يمكن إلى حد ما من اعتبار أن التكنولوجيا ستغير من شكل المكتبة حيث يتطور دورها من تقليدية إلى مركز للتعلم والمعرفة والإبتكار وغالباً الدورين معاً فهي توفر تجربة أكثر تفاعلية.

جدول رقم (4): التحديات الرئيسية التي تواجه المكتبة في العصر الرقمي

التحديات	التكرار	النسبة %
التنافس مع المصادر الرقمية	34	70.8%
صعوبات لغوية	16	12.5%
نقص التمويل / صعوبات مالية	20	41.7%
تحديث البنية التحتية	8	16.7%
نقص المعرفة التقنية لدى الموظفين	16	33.3%
مقاومة التغيير من قبل المستخدمين	2	4.2%
مشاكل الأمان وحماية البيانات	6	12.5%

تواجه المكتبات في العصر الرقمي العديد من التحديات المتشابكة والمتنوعة، ويتضح من الجدول أعلاه أن التحدي الرئيسي هو المنافسة مع المصادر الرقمية، حيث تشكل نسبة (70.8%) من التحديات، نظراً لأن محركات البحث توفر الوصول السريع والمباشر إلى المعلومات، مما يقلل من الحاجة لزيارة المكتبات التقليدية. بالإضافة إلى ذلك، تسهم المكتبات الرقمية المجانية في تقليل جاذبية المكتبات التقليدية. ثاني أكبر التحديات هو نقص التمويل، الذي أشار إليه (41.7%) من المشاركين، مما يؤثر على قدرة المكتبات على شراء مواد جديدة أو الاشتراك في قواعد البيانات. أيضاً، نقص المعرفة التقنية بين الموظفين، الذي أشار إليه (33.3%) من المبحوثين الذي يعوق قدرة المكتبات على مواكبة التطورات الرقمية السريعة، ويؤثر سلباً على أدائها وكفاءتها في تقديم الخدمات، مما يتسبب في صعوبات في إدارة الموارد الرقمية ومساعدة المستخدمين في استخدام الأجهزة والبرامج.

جدول رقم (5): عوائق استخدام التطبيقات الحديثة لتكنولوجيا المعلومات في المكتبة

العوائق	التكرار	النسبة %
نقص التأهيل	16	37.5%
الخوف من التكنولوجيا	4	8.3%
نقص التحفيز والتشجيع	14	29.2%
الأمية التكنولوجية	12	25%

يبرز من الجدول رقم (5) أن المكتبات العامة تواجه تحديات متعددة في اعتماد تطبيقات التكنولوجيا الحديثة رغم فوائدها الكبيرة في تحسين جودة الخدمات وتلبية احتياجات المستخدمين. تشمل هذه العوائق نقص التأهيل والتدريب، الذي أشار إليه (37.5%) من المشاركين، مما يحد من المعرفة التقنية والخبرة الضرورية لتشغيل وإدارة الأنظمة والبرامج الحديثة. كما تواجه المكتبات نقصاً في التحفيز والتشجيع، الذي يبلغ (29.2%) نتيجةً الخوف من التكنولوجيا وتفضيل بعض الأفراد الأساليب التقليدية. بالإضافة إلى ذلك، تبرز الأمية التكنولوجية، التي أشار إليها (25%) من المبحوثين، بسبب غياب التدريب المناسب، والموارد المحدودة، والتكاليف المالية الكبيرة المرتبطة بذلك.

نجدول رقم (6): دور المكتبة في رفع الوعي المعلوماتي

النسبة %	التكرار	الدور
70.8%	12	تحقيق التغيير في المستوى الثقافي والمعرفي للمجتمع
25%	2	تحقيق رسالة وأهداف المكتبة في المجتمع
4.2%	34	تحقيق الرفاه الاقتصادي والاجتماعي من خلال خدماتها المباشرة وغير المباشرة

تعد المكتبة من المؤسسات الرئيسية التي تساهم في رفع وتعزيز الوعي المعلوماتي بين الأفراد والمجتمعات، حيث تعزز تبادل المعرفة والوعي الثقافي بنسبة (70.8%). تروج المكتبة للبرامج والأنشطة المتنوعة والمبادرات التي تشجع الأفراد على المشاركة المجتمعية، مما يعزز روح التعاون والتفاعل بين أفراد المجتمع. كما تنظم فعاليات ثقافية محلية وتعزز الحوار بين الأفراد من خلفيات متنوعة، ما يحقق رسالتها في تطوير المجتمع ثقافيًا ومعرفيًا، وهو ما أكدته (25%) من المستفيدين. بالإضافة إلى ذلك، تدعم المكتبة التعليم وتوفير المعلومات الاقتصادية والمالية والتجارية، الأمر الذي يساعد الأفراد والشركات في اتخاذ قرارات مستنيرة. بذلك، تعزز المكتبة الثقافة والابتكار، وتعمل على تحسين جودة الحياة والرفاه الاقتصادي والاجتماعي، مما يجعلها عنصرًا أساسيًا في تطوير المجتمع والنهوض به.

جدول رقم (7): الفرص التي تتأتى عن تطوير المكتبات في العصر الرقمي

النسبة %	التكرار	الفرص
29.2%	14	زيادة الوصول إلى الموارد التعليمية
25%	12	تحسين تجربة البحث والاستكشاف
12.5%	6	تقديم خدمات مخصصة لكل مستخدم
33.3%	16	دمج التكنولوجيا المتقدمة في التعليم

في عصرنا الحالي، تمثل المكتبات فرصة كبيرة للتطور والإبتكار، إذ تلعب دورًا أساسيًا وحيويًا في بناء مجتمعات معرفية متقدمة، مما يجعلها مراكز حيوية للتعليم والإبتكار. وقد صرح (33.3%) من المستفيدين بأن دمج التكنولوجيا المتقدمة في التعليم يعزز مهارات المستخدمين و يتيح لهم الوصول إلى برامج تعلم ذاتي مخصصة لاحتياجاتهم. بالإضافة إلى ذلك، تُعتبر المكتبة بوابة واسعة للعالم المعرفي بفضل قدرتها على توفير الوصول إلى الموارد التعليمية والرقمية، وهو ما أشار إليه (29.2%) من المستفيدين. كما يرى (37.5%) من المستفيدين أن المكتبات ينبغي أن تقدم خدمات جديدة تعتمد بشكل أكبر على التكنولوجيا، مع التركيز على الموارد الرقمية لتسهيل البحث وتقديم خدمات الدعم الذكي، واستخدام الواقع الافتراضي المعزز لخلق تجارب تفاعلية مثل استكشاف الكتب بشكل ثلاثي الأبعاد. يتوقع أن تشهد المكتبات تحولًا كبيرًا في المستقبل، حيث ستتحول من مجرد مخازن للكتب إلى مراكز حيوية للتعليم والإبتكار والتفاعل الاجتماعي، وستلعب دورًا حاسمًا في بناء مجتمعات معرفية متقدمة.

جدول رقم (8): مساهمة المكتبات العامة في تطوير مهارات الأفراد وزيادة معرفتهم

النسبة %	التكرار	نوع المساهمة
50%	22	تقديم برامج تدريبية وورش عمل
66.7%	28	توفير موارد تعليمية وكتب جديدة
37.5%	18	تقديم استشارات ومساعدات بحثية
29.2%	14	دعم المشاريع والمبادرات الشخصية

تساهم المكتبة في تعزيز مهارات الأفراد وزيادة معرفتهم من خلال مجموعة متنوعة من الخدمات، مثل توفير المواد التعليمية والكتب الجديدة بنسبة (66.7%). كما تدعم

المكتبة برامج تعليمية متنوعة وتبني مجتمعات تعلم من خلال تنظيم نقاشات وفعاليات حول مواضيع مختلفة وتقديم برامج تدريبية بنسبة (50%). بالإضافة إلى ذلك، يتجاوز دور المكتبة مجرد تقديم الكتب والمعلومات ليشمل تقديم خدمات استشارية ومساعدات بحثية بنسبة (37.5%). يشمل ذلك استشارات في البحث العلمي، تقديم معلومات حول كتابة وتقديم المخططات للأعمال، وتنظيم ورش العمل والندوات والدورات التدريبية حول القضايا المجتمعية.

جدول رقم (9): إمكانية معالجة فجوات المكتبة لتعزيز اقتصاد المعرفة

النسبة %	التكرار	إمكانية المعالجة
58.3%	28	تحسين جودة الكتب والموارد المتاحة
33.3%	16	زيادة عدد ورش العمل والندوات
54.2%	26	تحسين خدمات الإنترنت والتكنولوجيا
45.8%	22	تعزيز التعاون مع مؤسسات تعليمية ومهنية

رغم التحديات المتعددة التي تواجه المكتبات العامة في عصر المعلومات، فإنها تظل حجر الزاوية في بناء اقتصاد المعرفة. إذ تسهم المكتبات في تعزيز اقتصاد المعرفة من خلال تحسين جودة الموارد والكتب المتاحة بنسبة (58.3%)، وتعزيز خدمات الإنترنت والتكنولوجيا بنسبة (54.2%)، مما يوفر خدمات متنوعة مثل القراءة الرقمية، والبحث المتقدم. كما تساهم المكتبات في توسيع الشراكات مع المؤسسات التعليمية والمهنية بنسبة (45.8%)، وتعزيز علاقاتها بالقطاع الخاص والمجتمع المدني لتنظيم فعاليات توعوية وثقافية، بما يتماشى مع أهداف التنمية المستدامة.

جدول رقم (9): إمكانات تحويل المكتبة إلى مركز للمبادرات الاقتصادية والاجتماعية

النسبة %	التكرار	الإمكانية
45.8%	22	توفير الوصول إلى الموارد التعليمية والتدريبية (دورات/ورش عمل)
41.7%	20	دعم رواد الأعمال والمشاريع الصغيرة (مساحات عمل مشتركة/ نصائح واستشارات)
29.2%	14	دعم البحث والابتكار
20%	10	تعزيز التعاون والمبادرات المشتركة
45.8%	22	الوصول إلى المعلومات والخدمات

لكي تلعب المكتبة دوراً رائداً في تحفيز المبادرات الإقتصادية والإجتماعية، يجب أن توفر بيئة تشجع على الإبداع والتعاون وذلك يتطلب توفير الوصول إلى الموارد التعليمية والتدريبية بنسبة (45.8%)، وتقديم الدعم الضروري للمجتمع ورواد الأعمال بنسبة (41.7%)، مع توفير مساحات عمل مشتركة تعزز التعاون وتبادل الأفكار. كما أن المكتبة، بفضل مصداقيتها كمؤسسة موثوقة تقدم معلومات دقيقة ومحايدة، توفر بيئة هادئة ومحفزة للتعلم والإبداع وسهولة الوصول إلى المعلومات والخدمات بنسبة (45.8%). بالإضافة إلى ذلك، فهي تعزز التعاون مع الجامعات والقطاع الخاص بنسبة 20%، والشركات المحلية، لتعزيز المبادرات الإقتصادية والإجتماعية وزيادة تأثيرها الإيجابي على المجتمع. جدول رقم (10): تأثير استخدام المكتبة على تحسين الحياة المهنية والأكاديمية للمستفيدين

النسبة %	التكرار	التأثير
75.2%	26	توسيع المعرفة والمهارات
50%	12	تحسين مهارات البحث
41.7%	20	تطوير المهارات الشخصية
54.2%	26	تعزيز الإبداع
33.3%	16	التخفيف من الضغط المالي
20%	10	الاستفادة من الشبكات المحلية

بما أن المكتبة هي منارة المعرفة، فهي تساعد في تطوير السيرة المهنية والأكاديمية كتوسيع معرفة مهارات الأفراد (75.2%) وتعزيز ابداعاتهم (54.2%) عبر توفيرها للأدوات اللازمة في سبيل تطوير البحث العلمي والإبداعات العلمية والتطوير المهني وتعزيز المهارات الشخصية وثقلها (41.7%) إضافة إلى تطوير مهارات التحليل والنقد ما يساعد الأفراد على اتخاذ القرارات المستنيرة والجريئة، فهي لا تساعده فقط على تطوير الحياة المهنية والأكاديمية وإنما تساعد أيضاً على تطوير وتعزيز مهارات وقدرات الأفراد للنهوض بمجتمعاتهم لركب موجة التقدم والنمو في سبيل تحقيق التنمية المستدامة.

5. مناقشة النتائج

أظهرت الدراسة أن المكتبات العامة تشهد إقبالاً متزايداً من قبل المستخدمين، حيث يزورها معظمهم بشكل منتظم هذه النتيجة الإيجابية تدعو إلى تطوير الخدمات المقدمة في المكتبات لمواكبة التطور التكنولوجي وتلبية احتياجات المستخدمين المتزايدة. هذا

الأمر يسלט الضوء على الحاجة الملحة لتحسين جودة الخدمات المقدمة في المكتبات، وذلك للحفاظ على قاعدة المستخدمين الحالية وجذب المزيد من الزوار. كما تؤكد على ضرورة أن تكون المكتبات العامة في طليعة التطورات التكنولوجية والمعلوماتية، وأن تقدم خدمات مبتكرة تلبي تطلعات المستخدمين في القرن الحادي والعشرين. وتبين الدراسة أن الأنشطة الأكثر استخداماً من قبل المستفيدين هي: بهدف المطالعة (79.2%) والبحث العلمي (45.8%) وهذا يتطلب المزيد من الخدمات العصرية وإعادة تطوير التركيز على الخدمات التي تقدمها المكتبات العامة لمواكبة تطورات العصر الحالي وتحقيق التغيير في المستوى الثقافي والمعرفي للمجتمع (70.8%).

كما وجدت الدراسة أن المستفيدين راضين إلى حد ما عن الخدمات المقدمة من قبل المكتبة. ففي ظل الوفرة النسبية نوعاً ما للمواد المعلوماتية أو كونها قديمة أحياناً، وعدم كفاية مرافق تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وربما نقص المرافق الأخرى في عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، لا شك أن هؤلاء المستخدمين لن يجدوا أقصى درجات الرضا وطالبوا بتحسين خدمات الإنترنت والتكنولوجيا (54.2%).

الخاتمة

أكدت هذه الدراسة على الدور المحوري للمكتبات العامة، ممثلة بالرابطة الثقافية، في رفع الوعي المعرفي وتنمية المجتمع. وقد أظهرت نتائجها رضا مستخدمي المكتبة بشكل عام عن الخدمات المقدمة، لاسيما فيما يتعلق بالتعاون مع الموظفين والبيئة المحيطة. ومع ذلك، كشفت الدراسة عن حاجة ملحة لتعزيز دور التكنولوجيا في المكتبة، وذلك لتلبية احتياجات المستخدمين المتزايدة في عصر المعلومات بالإضافة إلى استعراض الصعوبات التي يواجهونها. كما أظهرت النتائج أيضاً أن للمكتبة دوراً إيجابياً كبيراً في تحقيق أهدافها ورفع الوعي المعلوماتي للمجتمع المستفيد ما يعني أن هناك حاجة ملحة لتعزيز دور الرابطة ودمجها بالتكنولوجيا المتقدمة في عصر المعرفة خاصة في تحسين استفادة المستخدمين من خدمات المعلومات الإلكترونية واستخدام الإنترنت. إذ أن للمكتبة دوراً إيجابياً في خدمة المجتمع، بغض النظر عن بعض التحديات التي تواجهها ومن أهمها هو الحاجة إلى مواكبة التطورات التكنولوجية المتسارعة وتوفير خدمات معلوماتية إلكترونية متطورة. ومع ذلك، فإن هذه التحديات تمثل في الوقت نفسه فرصاً لتطوير دور المكتبة وزيادة جاذبيتها لدى المستخدمين.

التوصيات

- 1) استناداً إلى النتائج التي توصلت إليها الدراسة والحاجة الملحة لتعزيز دور الرابطة الثقافية في خدمة المجتمع، توصي الدراسة بتنفيذ مجموعة من الإجراءات، من بينها:
 - (1) ضرورة تطوير البنية التحتية التكنولوجية للمكتبة وتقديم المزيد من التدريب للمستخدمين على استخدام الموارد الإلكترونية.
 - (2) تقديم التدريب الملائم على استخدام الإنترنت والتكنولوجيا المتوفرة بالمكتبة.
 - (3) ضرورة توفير الدعم المادي والمعنوي للرابطة لتمكينها من أداء دورها على أكمل وجه.
 - (4) بذل المزيد من الجهود لتحسين جودة الخدمات المقدمة، وذلك للحفاظ على هذا الزخم وجذب فئات جديدة من المستخدمين.
 - (5) التركيز على التمويل بهدف تطوير خدمات المكتبة وتحديث مواردها، مما يؤثر إيجاباً على قدرتها على دعم المجتمع.
 - (6) وضع الأساس لدراسات مستقبلية تعتبر هذه الدراسة خطوة أولى نحو إجراء المزيد من الأبحاث في مجال تقييم أداء المكتبات.

المراجع العربية

- 1 - الجاموس، عبد الرحمان (2013). "إدارة العرفة في منظمات الأعمال وعلاقتها بالمنظمات الإدارية الحديثة"، عمان - الأردن، ط1.
- 2 - الحميدان، ابراهيم عبد لله (2019). "عصر المعرفة: المفهوم والتحديات" المجلة الدولية للبحوث في العلوم التربوية"، المجلد (2)، العدد (3).
- 3 - السحيمي، زينب عبد الرحمان (2009). "جاهزية المنظمات العامة لإدارة المعرفة: حالة تطبيقية - جامعة الملك عبد العزيز بن سعود بجدة"، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر الدولي للتنمية الإدارية نحو أداء متميز للقطاع الحكومي، الرياض، معهد الإدارة العامة، 1 - 4 نوفمبر.
- 4 - دياب، مفتاح محمد (2014). "معجم مصطلحات إدارة المعلومات وإدارة المعرفة"، عمان - الأردن، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، ط1.
- 5 - شعيب، حاج (2019). "أنشطة ووظائف المكتبات العامة في المجتمع في ظل استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة: مكتبة محمد ديب أنموذجاً"، سلسلة الأنوار، المجلد (9) العدد (1).
- 6 - علة، مراد (2014). "الإقتصاد المعرفي ودوره في تحقيق التنمية الإقتصادية والإجتماعية في الأقطار العربية: دول مجلس التعاون الخليجي أنموذجاً".

أنظر الموقع: <https://ddl.ae/book/3170694>

7 - المالكي، مجبل لازم مسلم (2000). "المكتبات العامة: الأهداف، الإدارة العلمية، الخدمات المكتبية والمعلوماتية"، مؤسسة الوراق، سلطنة عمان.

8 - مرعي، رقية عدنان خليل (2022). "دور المكتبات في زيادة الثقافة المجتمعية"، المجلة العربية للنشر العلمي AJSP، العدد (50).

9 - النجار، فايز جمعة (2010)، "نظم المعلومات الإدارية منظور إداري"، عمان - الأردن، دار الحامد للنشر.

أ- المراجع الأجنبية

1- Aina, L.O. (2004) Library and Information Science Text for Africa. Third World Information Services Ltd, Ibadan.

2- Federation international des associations de Bibliothécaires, organization ds Nations Unis pour l'éducation, la science et la culture(2001). "les services de la bibliothèque: principes directeurs".

3- Martin W.J (1998), "The information Society London: ASLIB, the University of Michigan 2009.

4- Report of university of EDINBURGH, Global Academy of Agriculture & Food System, Report "What is sustainable development?"

5- Porat, Marc U and Rubin Michael R (1977), "The information Economy" 9 volumes office of telecommunication special publication US department of commerce.

البناء المعجمي في شعر علي محمد هاشم قصائد "قانا- لبنان والتاريخ - الشاعر الذي كان" أنموذجاً

زينب حبيب الحسيني

المستخلص

عنوان الدراسة: البناء المعجمي في شعر علي محمد هاشم قصائد
«قانا - لبنان والتاريخ -
الشاعر الذي كان» أنموذجاً
ملخص الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على البناء المعجمي في شعر علي محمد هاشم، الذي يقوم على دراسة البنية التحتية الدلالية للنص، وبمقدار ما يستطيع القاموس اللفظي للشاعر أن يداني المكنون في ذاته ويلامسه، تكون الدلالة الناجحة عن ذلك وكاشفة للحالة التي يريد الشاعر نقلها للمتلقى، ويقوم هذا البناء المعجمي على مباحث، وهي: الحقول المعجمية والترادف والتكرار والتضاد.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن أهمية هذه الظواهر وأثرها الدلالي، والافادة من مخرجاتها كأساس ينطلق من خلال مدونات الشاعر علي محمد هاشم، وبرز ذلك من خلال الإشكالية المحورية: إلى أي مدى تسهم الظواهر اللغوية (الحقول المعجمية، التكرار، التضاد، الترادف) في بناء المعنى في القصيدة، وما علاقتها بالبنية الإيقاعية والدلالية للنص؟

قد اعتمدت في الدراسة على المنهج الأسلوبية الذي يساعد في الكشف عن بصمة الكاتب اللغوية والفنية داخل النص، كما يسهم

في فهم جماليات النصّ الأدبيّ، ويتيح دراسة اللغة بوصفها أداة تعبير فنيّة، وقد قسّمت هذه الدّراسة إلى أربعة نقاط: أوّلاً - الحقول المعجميّة. ثانياً - التكرار. ثالثاً - التّضاد. رابعاً: الترادف.

من أهمّ الاستنتاجات التي تمّ التّوصّل إليها:

- الحقول المعجميّة هي دراسة البنية الدلالية للنصّ، وتقوم على علاقة معنوية: تشابه، ترادف، تعارض، جزئية، كلية.

- أفاد التكرار من النظام اللغوي عبر الدلالة الوصفية للكلمة المكررة.

- العلامات المترادفة على المستوى اللغوي خرجت على الترادف داخل النصّ، وتحوّلت إلى الاختلاف.

- تظهر روعة الصّورة في النصّ عبر التّضاد المتمثّل في التي تعطي معنى كينونة الفعل.

الكلمات المفتاح: الحقول المعجميّة، الترادف - التكرار - التّضاد - البنية الدلاليّة - السياق - الانزياح.

Abstract

Study Title :The Lexical Structure in the Poetry of Ali Muhammad Hashim: An Analysis of the Poems «Qana - Lebanon and History - The Poet Who Was»

Study Summary:

This study seeks to shed light on the lexical structure in the poetry of Ali Muhammad Hashim, focusing on the semantic infrastructure of the text. The poet's lexical repertoire reflects his inner self, and the more effectively it conveys his intended meaning, the more successful and revealing the poem becomes for the reader. This lexical structure is based on several key aspects: lexical fields, synonymy, repetition, and antonymy.

The study aims to uncover the significance and semantic impact of these linguistic phenomena and to benefit from their findings as a foundation derived from the poet's works. This is reflected in the central research question: To what extent do linguistic phenomena (lexical

fields, repetition, antonymy, and synonymy) contribute to meaning construction in poetry, and what is their relationship with the rhythmic and semantic structure of the text?

The study adopts a stylistic approach, which helps in identifying the poet's linguistic and artistic signature within the text. This method also contributes to understanding the aesthetics of literary texts by analyzing language as an artistic means of expression. The study is divided into four sections:

1. Lexical fields
2. Repetition
3. Antonymy
4. Synonymy

Key Findings

- Lexical fields examine the semantic structure of the text, based on relationships such as similarity, synonymy, opposition, partiality, and totality.
- Repetition enhances the linguistic system through the descriptive significance of the repeated word.
- Synonymous signs within the text deviated from traditional synonymy, transforming into nuanced differences in meaning.
- The artistic depth of imagery in the text is enhanced through antonymy, which conveys the essence of action and existence.

Keywords: Lexical fields, synonymy, repetition, antonymy, semantic structure, context, deviation.

المقدمة

المعنى المعجمي هو ما يطلق عليه «المشترك اللفظي» كما عني عنه القدماء بالترادف، وهو دلالة مفردتين أو أكثر على الشيء الواحد، وكذلك اهتموا بالتضاد وهو دلالة الكلمتين المتضادتين على الشيء الواحد، ولا يعني اللغوي كثيراً موقف الناس من موضوع التعدد والاحتمال في المعنى المعجمي، لأنه يعتقد أن كل واحد من المعاني محتمل للقصد، وقد أنكر بعضهم الظاهرتين، كما أنكروا المشترك وحسبوا أن المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات، وأن الأضداد يمكن تأويلها، ونظروا إلى دلالات الكلمات في الترادف على الذات بصرف النظر عن الفروق الدقيقة بينهما، ورأوا الأضداد أنها ممّا ورثته العربية من القبائل وتعددها واختلافها في لغاتها.

إذا أمكن للألفاظ أن تختلف دلالاتها فإن هذا الاختلاف تدريجي في كثير من الأحيان بحيث يصعب على المرء أن يكتشف، أو يتبين الخطوات المختلفة لعملية الاختلاف، وعلى هذا فليس أمام الباحث الحديث، إلا أن يعول على واقع الاستعمال اللغوي للألفاظ المختلفة المترادفة، وإذا كان الشعر العربي يتنوع إلى أغراض فهذا يقتضي أن تتعدّد الحقول الدلالية بتعدّد الأغراض، وأن يتضمّن المعجم الشعري العام معاجم خاصة يتصل كلّ منها بغرض محدّد، ولا يخرج عنها إلا انزياحاً لنكتة بلاغية، كتأكيد الظم في معرض المدح، وتأكيد المدح في معرض الظم.

وهذه الحقول الدلالية بنيت على أساس المستوى المعجمي الذي هو مجموعة من الشيفرات والإشارات والعلامات اللغوية التي تشكّل بنية نصّ ما، تشكيلاً جديداً من خلال سياق يشحن هذه الألفاظ المعجمية بمجموعة من الدلالات السياقية التي يتفرّد بها النصّ الشعري، وهي التي تشكّل حقولاً معجمية ودلالية، ودراسة الحقول المعجمية هي دراسة البنية التحتية الدلالية للنصّ، وبمقدار ما يستطيع القاموس اللفظي للشاعر أن يداني المكنون في ذاته ويلازمه، تكون الدلالة الناجحة عن ذلك وكاشفة للحالة التي يريد الشاعر نقلها للمتلقّي؛ لأنها أكثر حضوراً في الوجدان من المعنى.

هكذا يتجلى أن لا تفاضل بين الألفاظ، وإنما التفاضل يكون بين شعرية اللفظ، وعدم تعريته وذلك بواسطة دلالة الإيحاء التي تصبح منطوية عليها، وبالتالي فإن مراعاة خصوصية الاستعمال اللغوي للمفردات قد يؤدي إلى سوء الفهم وتشويه المعنى، فيشوّه المعنى الشعري عندما تموت الحالة في الشاعر، لأن موتها في الشاعر يؤدي إلى موتها في المتلقّي، أيضاً، وخصوصاً في النصوص الشعرية.

ويظهر أن كلمات المعنى هي التي تحتلّ الصدارة على المستوى المعجمي للقصيدة، أمّا

كلمات العلاقة أو البنية أو الربط فأهميتها تتجلى أساساً على مستوى التركيب، إذ تحدّد العلاقة بين الوحدات المعجميّة داخل العبارة، وإذا كانت الكلمة الشعرية مقطّعة من جسد اللّغة، من الطبيعي أن ينصبّ الاهتمام على موازنتها بمثلها في اللّغة العادية ليتبيّن الخلاف بينهما، ومن خلال ذلك سيُدرس البناء المعجمي في شعر علي محمد هاشم¹ في قصائد "قانا- لبنان والتاريخ - الشاعر الذي كان"، ويقوم هذا البناء المعجمي على مباحث، وهي: الحقول المعجميّة والترادف والتكرار والتّضاد، وفي هذا السّياق نطرح الإشكالية المحوريّة: إلى أي مدى تسهم الظواهر اللّغويّة (الحقول المعجمية، التكرار، التّضاد، الترادف) في بناء المعنى في القصيدة، وما علاقتها بالبنية الإيقاعية والدلالية للنّص؟

وعند دراسة العناصر اللّغويّة في القصيدة: الحقول المعجمية، التكرار، التّضاد، الترادف، تبرز عدّة تساؤلات؛ وهي:

- ما دور الحقول المعجميّة في تشكيل موضوع القصيدة وتوجّهها الدّلالي؟
 - هل التكرار يؤدّي وظيفة دلاليّة تعمّق المعنى أم أنّه مجرد عنصر إيقاعي؟
 - هل استخدام التّضاد يعكس صراعاً فكرياً أو نفسياً داخل القصيدة؟
 - أيعزّز الترادف المعنى ويوضّحه، أم يؤدّي إلى الغموض والإيحاءات المتعدّدة؟
- وللإجابة عن هذه التّساؤلات لا بدّ من أتباع المنهج الأسلوبي الذي يساعد في الكشف عن بصمة الكاتب اللّغوية والفنيّة داخل النّص، كما يسهم في فهم جماليات النّص الأدبيّ، ويتيح دراسة اللّغة بوصفها أداة تعبير فنيّة، وليس مجرد وسيلة تواصل. فالمنهج الأسلوبي «يعدّ منهجاً نقدياً حديثاً يهتمّ بدراسة النّص الأدبيّ من خلال تحليل أسلوبه اللّغوي والفنيّ، أي الطريقة التي يستخدم بها الكاتب أو الشاعر اللّغة للتعبير عن المعاني والأفكار والمشاعر»².

أولاً- الحقول المعجمية ودلالاتها

يعدّ المستوى المعجمي في النصّ من المستويات الأساس للفهم بسبب الدور الوظيفي الذي تقدّمه كلّ مفردة في توضيحها لباقي المستويات اللغوية الأخرى، وهناك فرق بين معجمية الألفاظ ومعناها الشعري، فاللجوء للمعجم لا يلغي دلالية اللفظ بسبب صعوبتها، والمتلقي هو مرآة النصّ، وليست وظيفة النصّ تعليمية، ”وإنّما هي كشف ومكاشفة، وبهذا ينتفي المفهوم القاموسي للفظة حين تصبح شعراً في الأدب“³. والحقول المعجمية هي مجموعة الكلمات والعبارات التي ترتبط بينها في نصّ معين أكان شعراً أم نثراً، وتقوم على علاقة معنوية: تشابه، ترادف، تعارض، جزئية، كلية... فتدور حول مجال فكري واحد، وهذا ما ظهر عند الشاعر «هاشم» في معظم دواوينه.

فعنوان قصيدة «قانا» من ديوان «عناق»⁴ هو رمز تاريخي له دلالاته المكانية والزمانية والاعجازية؛ ما يجعل للعنوان أكثر من دلالة، وهو رمز متشعب، ويعود العنوان إلى زمن المعجزة يوم حوّل المسيح الماء خمراً، وهكذا يصبح المآثم في قانا الجليل عرساً بفعل المقاومة، وهنا رغم تبدّل الحادث تبقى المعجزة هي الرابط بين قانا القديمة تلك المدينة الرافضة للذل والقهر وبين مآثم قانا التي تحوّلت إلى أعراس بفضل الشهادة، ونقيضاً لهذه الصورة المفعمة بالدلالة والايحاء يلجأ الشاعر إلى استخدام عبارة «أيّها الحكام» في بداية المقاطع الأربعة، وذلك ليربط بين العنوان «قانا» وما حلّ بها بفضل بلايا هؤلاء الحكام، فأصبحت القضية مرتبطة بحقل معجمي مختصّ بالحكام وبصفتهم الشنيعة التي يرفضها كلّ زمن وكلّ تاريخ وكلّ إنسان.

أيّها الحكّام شكراً.... ذبّحت قانا

أيّها الحكّام، يا أصلَ البلايا.... منكم ظلماً وجوراً

أيّها الحكّام، من نذكر منكم... الحجاج.. يزيد... هنذا...

أيّها الحكّام يا أهلَ «الوفا»... كفضوا⁵

استطاع الشاعر أن يبرز المكان بمعناة الآخر؛ فيلجأ الى استعمال «قانا» الضحية بعهر الحكام، وبمقدار ما كانت قانا الجليل رمزاً للشهادة والفداء، يصبح الحكام رمزاً للخيانة والمساومة، وبلغة مرة مملوءة بالفجعية والسخرية يقول الشاعر «هاشم» مخاطباً المعتدين:

أيّها الحكّام يا أهلَ «الوفا» كفضوا الدمع الذي ينسأح عهراً

كفضوا الدمع الذي مكرّاً جرى فدموعُ المكرِ لنُ تحملَ عُذراً⁶

منذ فجر التاريخ ظلّ الحزن والدم أقوى الأسلحة في وجه أعداء الإنسانية، حيث تحوّل

الجسد إلى قبلة، وتحول الموساد والحكام الى مزبلة من اللحم النتن، عندما قرّر الجسد الواعي جسد «قانا» المتمثلة بالطفولة التي ذُبحت واهترّ لها الوجدان، فأطلق الشاعر العنان لدمها وحزنها في لحظة واحدة، وانتفضت تلك المدينة كطائر الفينيق. من الطبيعي في حالة كهذه أن يكون المكان مجبولاً بالموت ويحمل حقلاً معجمياً واسعاً، فالأرض التي لا موت فيها لفئة معينة، لا تستطيع هذه الفئة ادّعاء ملكية هذه الأرض، وبخاصة عندما يكون الموت موتاً من أجل الحياة، ولذلك يتكرّر فعل الموت بمعناه الابداعي، ويبدو أنّه أصبح رمزاً تعبيرياً عن المأساة، ويعود الشهداء (الموتى الأطفال) كما كانوا ليصبحوا الرمز الأزلي لكلّ فعل جميل، ويعود الشاعر ليستخدم التعبير الذي أطلقه العدو على اسم العملية «عناقيد الغضب»⁷ والتي قابلها في مؤتمر «شرم الشيخ» على ذبح العرب، وهكذا تتجلى الصورة بوضوح دفن القتلى، والموت الآخر هو تقابل مع آلة القتل العدوانية، ومؤتمرون في شرم الشيخ للتأمر على ما تبقى من هذه الأمة.

إنّ صهيون، وأنتم واحدٌ عنبٌ طاب⁸، ونخلٌ فاض تمرًا

إنّ لبنان سيبقى، خنجرًا وسيبقى شعبه، يختال كبرا

كم كبير، جاء أرضي، غازياً فتهاوى، فوقها، رغباً وخرّاً

ترمي القسيده في النهاية إلى حقل معجمي باطني وهو «الانتصار لحقّ الانسان» في العيش الكريم، ولذلك ترفض القسيده الظلم والعبودية ايماناً بحقّ الإنسان في الحرية والعيش الكريم. والموقف في هذه الحالة لا يقبل من الإنسان أن يكون كصاحب الأعراف، إذ لا بدّ من الانحياز لصف المقاومين، فكيف لقاتل شعب أن أساومه على معنى الحياة، وتهدف في النهاية إلى رفض الماضي المظلم، والنهوض والتأثر بالدم الذي يجري في عروق الأطفال المقاومين الذين أرادوا الحياة، ورفض الظلم والاحتلال والقتل، فعصر العبودية يولد الجوّاري، والاقطاع يستخدم زنود الفقراء لاشباع جشعه، ويظلّ الجوعى هم الجوعى، ويبقى الظلم هو الظلم.

هذا الواقع هو المقدّمة لصنع الإنسان الجديد كلّ هذا يعبر عنه الشاعر بغصّة وعمق مستخدماً الزمن والنقائض والتاريخ لاكتمال الصورة المراد رسمها:

كلّ تل، في بلادي، اليوم قانا كلّ ورد، صار: جلموداً وصخرًا

كلّ كفّ قطعّت، صاحت، ونادت سوف أبقى أرفع الرايات حمرا

كلّ ساقٍ بترت، صارت حسّاما كلّ صدر صار، للأحرار، جسرا

كلّ طفلٍ مات، في قانا، ينادي قد وهبت الأرض، من عمري، عمرا⁹

وقد برز حقل معجمي آخر في قصيدة "قانا" وهو العذاب والقهر نتيجة أعمال السوء التي ارتكبتها الحكام العرب: «البلايا، كم لقينا، ظلماً، جوراً، الأشلاء، رمى طفلاً، نبش القبر، غال شيخنا، يخرج العظم...»، فظهر ذلك بقصيدته.

ورغم الموت تتحوّل "قانا" إلى حلم برؤية الفوز والانتصار إيماناً من الشاعر بالولادة الخصبة لهذه الأرض، ولتعلّق أهلها بها إنّها مؤمنة وجميلة، الإيمان والجمال ينقذان العالم من الإنهيار، ويجعلان المرء أكثر وفاء للقضية التي يعيشها، فلا يمكن أن يستسلم لأبناء العنف حين يجتمع الحقّ والجمال. فالأرض تبقى معطاء برغم النزيف، وبرغم منظر النظايا الحمر يبقى هناك مجال لتطور المحتفي والمحتفل بولادة هذه الأرض، وتكرّرت لفظة «كل» في المقطع الأخير ستّ مرات للدلالة على أنّ الأجزاء مجتمعة لتتألف وتكون من جديد «قانا» التي لا يمكن أن تتلاشى؛ وتكرّرت اللفظة في الأبيات الأربعة الأخيرة، وهي أبعد من معناها المعجمي لما استعيرت له حيث تتحوّل إلى كليّة تسمّى «قانا»: كلّ تلّ / كلّ كفّ / كلّ ساق / كلّ طفل / كلّ ورد / كلّ صدر: فهذه الأجزاء مجتمعة كلّها تنادي "قانا" فتبقى مصرّة على قيامتها من تحت الأنقاض، ولا تعود الأرض مجرد مادّة، بل تتحوّل إلى جسد يحنّ ويتألّم ويعشق ويكره ويقاوم، وهي في النهاية صورة عن عاشق لهذه الأرض والمؤمن كينونتها المقدّسة.

فالرابط بين الشاعر والأرض هنا متّصل بسمو فكرة الجهاد ضدّ المغتصب، ومرتبطة بحبّ هذه الأرض، وبالألّم النازف منها بفعل شظايا العدوان القائم وتسمو العلاقة، وتصبح حميمة أكثر بين الأرض والشاعر بمقدار ما تغدو أكثر إيلاً وأكثر حضوراً، وأكثر تصميمًا على الانتقال من حال إلى حال؛ فتأخذ الأرض شكل الهوية إنّها ليست لباساً، وإنّما هي التكوين الأساس لنا وخلعها خلع الحياة نفسها، ولكي يتّضح حضورها أكثر يهبها الشاعر عمره، وهذا هو الفداء الحقيقي؛ إنّ الموت هنا بداية الحياة، والبلاد التي تأخذ الهوية الذاتية لأصحابها لقيدها لضحاياها عبر استمرارهم في مسيرتها إلى الأمام.

وفي قصيدة «لبنان والتاريخ»¹⁰ تستمدّ لغة قاموسها اللفظي من «الأمجاد والحضارة والهوان والذل، والشهادة في سبيله ليبقى عاليًا كالنسور في القمم». هذه الألفاظ مأخوذة من قاموس اثبات الوجود وعدم الرضوخ الذي يلبسه الشاعر لقصيدته، والذي يكتب به أحاسيسه ويعبّر عن أحواله التي هي من سلامة وطنه، كلّها تجتمع في دلالات متقاربة تعبيراً عن الحزن والألم بسبب ما حلّ في وطنه من تفرقة ومن التحامل عليه، وهناك علاقة بين الحياة والموت، وبين العبث بالحياة والوجود، وبين اثبات أحقية الوطن والمواطن، وبين الغدر والمواجهة، وبين الصمود والانكفاء، كلّها صور متجاوزة ومتلاحقة في لوحة واحدة اسمها لبنان والتاريخ.

حقل المجد: وهو متنوع الدلالات في هذه القصيدة حيث يحمل معاني التحدي والتغني بتلك الأمجاد التي امتاز فيها لبنان عن غيره: «أمجاد التاريخ، صفحة مجده، متشامخاً، شطه الغافي، جابت مراكبه، تسامى أهله، معارفاً، نثروا ممالك مجدهم، تجاوزوا قمم الجبال، دوّنت أول صفحة بحروفهم، الحضارة في ذراه، أضحى في العلى»

لو قيل: للتاريخ، حسبك صفحة لتخطّ، من أمجادها، عنواناً

لأجاب: إنّي اخترت صفحة مجده وكتبت، إنّي عاشقُ لبناناً

نثروا ممالك مجدهم، وتجاوزوا قمم الجبال، أعزة، شجعاناً

أرنبو لأقوامٍ عليه توافدوا فتمازجت أنوارهم ألواناً¹¹

ومن جهة ثانية برز حقل البغض والحقد تجاه الوطن: «تقاتل أهله، تهدم، تخاصم أخوة، تناحروا، أيهدمون بلادهم، دكّت بلاد»

ماذا جنيت ليضربوك بحقدِهم ويهدموك ويسقطوا البنيانا

قالوا: تقاتل أهله وتناحروا حتى تهدمَ جهرةً وعياناً

أيهدمون بلادهم، وهم إذا دكّت بلاداً، عمّروا البلدانا

جعلوا البلادَ غنيمَةً وتقاسموا فيها المناصبَ، قادة أعياناً¹²

وبرز حقل ثالث يرفض فيه الشاعر أن يهان لبنان؛ بلد الحضارة، ويضفي على أهله صبغة عدم الرضوخ ويزيل عنه الاتهامات، وذلك بحرف النفي (ما، ولم) فلبنان بنظره وهو صورة عن أبنائه فهم: «ما تخاصم أخوة، لبنان لم يهدم، لبنان لم يطعن، لن يقوى وفيه منافق»

لبنانُ لم يُهدمَ، بطلقةٍ مدفع يكفيه، من «أسياده» ما عانى

لبنانُ لم يطعنَ، بمديّةٍ عاقلٍ "أسياده" نثروا المدى، مجاناً

لبنانُ، لن يقوى، وفيه، منافقٌ باسمِ التدينِ، ينحرُ الأيماناً¹³

في النهاية هذا هو لبنان الذي يريده الشاعر، فيظهر عنده التفاؤل، في إنجازه حتمية النصر، وفي رفع شأن اللبناني الحرّ الذي لا يرضى بالخضوع، فهو كنسر يعشق العلالى، ولا ترسخه الأوغاد وإن تحاملوا عليه، فيقول:

أيجوزُ أن يرضى الرجالُ، بعجزهم عن حقّهم، ويمجدوا الطغيانا

من غيرِ أصحابِ المروعةِ قادرٍ أن ينبري، ويعدّلَ الميزانا

ثانياً- التكرار

للتكرار دلالات فنيّة ونفسية، حيث يدلّ على الاهتمام بموضوع ما، أكان سلباً أم إيجاباً، ويستحوذ الاهتمام على ملكة الإنسان، "وهو يصوّر مدى المكرّر وقيّمته، وقدرته في

النّص¹⁴، ومنه قول الشاعر ”علي محمد هاشم“ نراه يكرّر أكثر من لفظة في مقطوعة واحدة: «وجوه» و «فوق» و «أراها» للدلالة على أهمية هذه المفردات مع بعضها، إضافة إلى القيمة الفنيّة في توليد الايقاع الموسيقي:

وجوهٌ.. وجوهٌ..

وفوقَ كلّ جدارٍ أراها

وفوقَ الغمامِ أراها.

وفوقَ بلاطِ اللحدِ أراها.

وفي وجناتِ الغواني

وقبضاتِ السيوفِ

وفوقَ متونِ الرياحِ أراها¹⁵.

وفي قصيدة «قانا»، من ديوان «عناق» نجد التكرار هو إلحاح على جهة هامّة من العبارة، يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها، وهو بذلك ذو دلالة نفسية قيمة، تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس النّص، ويحلل نفسية كاتبه، إذ يضع في أيدينا مفتاح الفكرة المتسلّطة على الشاعر بقول الدكتور محمد مفتاح «إنّ تكرار الأصوات والكلمات والتراكيب ليس ضروريًا لتؤدّي الجمل وظيفتها المعنوية والتداولية، ولكنّه شرط كمال أو محسن أو لعب لغوي»¹⁶.

يستدرك مقولته السابقة عن التكرار وأهميته قائلاً: «ومع ذلك فإنّ التكرار يقوم بدور كبير في الخطاب الشعري أو ما يشبهه من أنواع الخطاب الأخرى الإقناعية»¹⁷. وللتكرار دور كبير في عكس التجربة الانفعالية، فهو عندما يركّز اهتمامه على لفظة معيّنة يجعلها النقطة المركزية التي تتمحور حولها القصيدة، ومن هنا: «فلا يجوز أن ينظر إلى التكرار على أنّه تكرار ألفاظٍ بصورة مبعثرة غير متّصلة بالمعنى أو بالجو العام للنّص الشعري بل ينبغي أن ينظر إليه على أنّه وثيق الصلة بالمعنى العام»¹⁸. وممّا لا شك فيه أنّ التكرار يسهم بما يوفره في دق غنائي في تقوية النبذة الخطابية، وتمكين الحركات الإيقاعيّة، في الوصول إلى مراحل الانفراج بعد لحظات التوتر القصوى؛ فيوظّف التكرار فيها في بلورة موقفه المتوتر الرافض لكلّ مظاهر العبوديّة والاحتلال، وهذا ما انعكس في قصيدته: ”قانا“، حيث يقول:

ذبحّت قانا، وماتَ الأهلُ غدراً

وقضى أبنائُنا، طعنًا ونحرًا

وجعلتمْ ذبحها: فوزًا ونصرًا

جفّ فيها، الماء، كي نعدمَ شرًا¹⁹

أيّها الحكّام، شكراً، ثمّ شكراً

ذبحتُ قانا، على سكينكم

ونشرتمْ، في العرّا، أشلاءها

ليت أرحاماً، حبتكم ماءها

نلاحظ من خلال المقطع الأول تكررت في قوله عبارة: "ذبحت قانا" مرتين، ثم أكد ذلك بألة الذبح «سكينكم» فكّررها في هذا النصّ الشعريّ كونها نقطة الارتكاز في الموضوع المعالج لقد كانت مسرحًا لمأساة قام بها الصهاينة ضدّ هذه المدينة التي لها علاقة بالتاريخ وبالحدث، وكان التكرار لهذه العبارة ومرادفاتّها؛ يهدف الى تبيان العرس الدموي الذي مارسه الألة الصهيونيّة ضدّ أهل هذه المدينة، وبين عرس "قانا" الذبيحة الذي حوّل فيه المسيح الماء خمراً وتظهر مأسوية ما حصل في الجليل من تبيان الفرق بين العرسين: العرس الأول وصل الأرض بالسماء، حين حوّل السيد المسيح الماء خمراً، أمّا العرس الثاني فقد أحال المدينة إلى أنقاض وأطلال وضحايا والإضاءة النصّية لتكرار لفظة قانا كان الهدف من إبرازها وتكرارها إيصال الذاكرة التاريخية، بكلّ ما فيها من قداسة إلى المأساة بكل ما فيها من وحشية ودموية، وعبر هذا التكرار والتناقص البيّن تعود "قانا" المضحية ثانية إلى الذاكرة؛ لتصبح ذاكرة جديدة غير قابلة للفناء ومستعصية على الغزاة الذين استندوا بقتلهم على الحكام العرب. وفي قصيدة «لبنان والتاريخ» نجد أنّ تكرار الألفاظ في القصيدة مرتبط بالعامل الوجداني، وخالف هذه الألفاظ الذي يجعل من تكرارها حضوراً، لما ترمز إليه من معنى ودلالة. فتكرار لفظة «لبنان» ستّ مرات في القصيدة يدلّ على الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر تجاه وطنه في أثناء كتابة النصّ؛ لأنّ القلب مستودع الأسرار والعواطف وكلّ ما يضمه الإنسان في حياته يظهره على لسانه، "فالتكرار في الشّعر هو في حقيقة أمره إلحاح على جهة هامّة في العبارة، يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها، وهو بذلك ذو دلالة نفسية قيّمة، أو لنقل: هو جزء من الهندسة العاطفية للعبارة، يحاول الشاعر فيه أن ينظم كلماته، بحيث يقيم أساساً عاطفياً من نوع ما.

لبنانُ لم يطعنْ، بمديّة عاقلٍ "أسياده" نثروا المدى، مجّانا
لبنانُ، لن يقوى، وفيه، منافقٌ باسمِ التدينِ، ينحرُ الأيماناً²⁰

والتكرار يقوم بدور كبير في الخطاب الشعري أو ما يشبه من أنواع الخطاب الاقتناعية الأخرى²¹، حيث الشاعر بتكرار اللفظة «لبنان» بعينها، إضافة إلى مدلولاتها ومشتقاتها والضمائر العائدة إليها، منها: «حرفه، شراعه، بحضن جباله، مراكبه، الشيطان، قمم الجبال، ثلج الحاني، فوق جباله، ذراه، ليضربوك، يهدموك، أهله، فيه، يكفيه، أسياده، وفيه منافق، التراب، وطناً، بأرضه، وجوده، وكيانا».

هذه الألفاظ مجتمعة تدلّ على أهمية الوطن في حياة الشاعر الذي يعيشه بكل أشكاله وألوانه، ولا يرضى عنه بديلاً، فهو وطن العزّ والمجد وفيه تحلو التضحية؛ لأنّ لبنان مجد

قد خطّه الشعر عاليًا، وهو لا يرضى إلاّ العلو بين الأوطان الأخرى، وبهذا التكرار يلفت الشاعر إلى العودة إلى حُضن الوطن:

عودوا نسورًا، في السماء، وحلّقوا
 إنّ الأعمالي تلفظ الغربانا
 كما تکرّرت بعض الألفظ منها: “صفحة، صفحة مجده، أول صفحة، شطه، شطّانا، مجده، مجدهم، أمجاده...” كلّها للدلالة على صفاء لبنان ورفعته بين الأوطان.

ثالثاً- الترادف

تتعدّد صور العلاقة بين اللفظ والمعنى، ومن بين تلك الصّور علاقة الترادف في وجود كلمات ممكن أن تتبادل المواقع بعضها مع بعضها الآخر من دون أن يتغيّر المعنى على الرغم من اختلاف المكونات الصوتيّة لهذه الكلمات، “والعلاقة في وجود هذه الحالة علاقة إيجاب، تدلّ على وجود قرابة بين الكلمتين أو الكلمات التي تقبل التبادل مع بعضها”²²، والمصطلح الذي يطلقه اللّغويون على هذه الحالة هو “الترادف” ويعرف الدكتور أحمد مؤقّت الترادف بقوله: “يحدث الترادف عندما يمكن استعمال لفظين لغويين أو أكثر ليحلّ أحدهما مكان الآخر في سياق معين، ولا يزال يعطي معاني متشابهة، وليس بالضرورة متطابقة”²³. وهذا يدلّ على غزارة الرؤيا الكامنة في ذات الشاعر والتي تتحوّل إلى سائل لغوي يعبر عن الكلمات.

ونرى ظاهرة الترادف في اللّغة العربيّة بارزة حيث استخدم الشعراء الفاظًا مترادفة غنية وكثيرة، وما كان للشاعر “هاشم” إلاّ أن يتبع هذا التطوّر اللّغوي في شعره، فترى للترادف في نصّه دلالة إنسانية للمعنى الذي يحاول إدخاله في وعينا، فاستخدام “طعنًا ونحرًا” يأخذ معنًى واحداً وهو القتل بأبشع صورته، وكذلك قوله: “فوزًا ونصرًا” لها دلالة واحدة وهي الظفر بذبح تلك المدينة التي أصبحت في نظرهم كشاة، وكذلك قوله: “ظلمًا وجورًا” الذي نشره بطغيانهم وحقدتهم تجاه الشعوب المستضعفة. فالترادف عند الشاعر كان مقصوداً لإضاءة النصّ أكثر ولتصعيد المعنى من دلالة الى دلالة أبعد، فترادف الحكام مع البلايا وكذلك مع الأسماء الكثيرة في النصّ الدالة على الظلم؛ هي رمز الهمجية والطفيان والاضطهاد، فقال الشاعر:

أيّها الحكام من نذكر منكم نذكر الحجاج، أم نذكر شمرا

أم يزيدًا، حين نالت كفّه من سليل الطهر، كي يشفي، وترا

إنّ هنداً، أرضعتكم درّها فاستحال الدرّ في الأحشاء جمراً²⁴

مع لفظه الحكام وتعداد الأسماء: «الحجاج، يزيد، هند» تعطي دلالة عالية للنصّ،

وهو بالتالي هادفٌ لإلقاء الضوء على هذا المعتدي الذي لا يمكن أن نجد صفة إلا القتل والعدوان. فالترادف يصعد المعنى من معتد صهيوني ليصبح قاتلاً لشعب بسيط. يلجأ الشاعر إلى الترادف في قصيدة «لبنان والتاريخ»، في أكثر الأحيان لتبيان مكانة الموصوف أو موضوع الدراسة، وربما يؤدي دوراً دلاليًا شبيهًا بالترادف، ولهذه الترادفات ظلال وإيحاءات كثيرة تعبّر عن الأجواء النفسية للشاعر في تقريب الصفات المتباعدة، والشاعران «هاشم وشومان» قد لجأ كثيرًا إلى الترادف بدلالات مختلفة ومتنوعة :

مثلك، أنا، عميق الأغوار..
وغامض.. وساكن.. حتى الخوف.

مثلك، أنا، لا أستطيع الكشف.

عن كامل وجهي²⁵.

نلاحظ الترادف في: عميق الأغوار، غامض، ساكن، لا أستطيع الكشف..، كما اعتمد الشاعر في قصيدته «لبنان والتاريخ» على الترادف بكثرة ليظهر صورة لبنان كيف يجب أن تكون، وإن شوّها المغرضون الذين يحاولون النيل من مجده الذي لا يرضى بالخنوع إطلاقاً. ومن الترادف الذي استخدم: «كتبت، أدون، لبنان، بلد، سلاح، حرب، سنانا، طلقة مدفع، فوق الذرى، قمم الجبال، فوق جباله، أرنو، لتراه، البكاء، الأحزان، تقاتل، تاحروا، تخاصم، قتلوا، الأوطان، البلدانا، لصوص، منافق».

والترادف في هذه القصيدة هو محاولة جادة من الشاعر لإكمال لوحة متكاملة، وهذه اللوحة هي لبنان المجد والعنفوان والحضارة والتاريخ، ويبعد عنه الضيم، حيث يقول:

”بلد تسامى أهله، بعقولهم وهبوا الشعوب: معارفاً وأماناً

جعلوا اليراع سلاحهم وشعارهم والغير جهّز: حرباً وسناناً

ماذا سأكتب، إن حملت صحيفتي ماذا أقول إذا سئلت بيننا

عودوا نسوراً في السماء، وحلّقوا إنّ الأعمالي تلفظ الغربانا

لبنان منكم يستمد وجوده ويكمّ تسامى، جوهرًا وكياناً“²⁶

بهذا المعنى يبدو الترادف واضحاً وجلياً في خدمة الهدف النهائي للقصيدة؛ لأنّها تحاول إثبات الحقّ، وإعلاء صوت لبنان بمجده وتراثه بين الأوطان. ومن الترادف، أيضاً، في البيت الآتي:

ماذا جنيت، ليضربوك، بحقدهم ويهدموك، ويسقطوا البنيانا

فالترادف وقع في الكلمات الآتية: ليضربوك، ويهدموك، ويسقطوا: للدلالة على البطش الي يحمله المنافقون الذين أرادوا من لبنان ألا يكون لبنان مرتفعاً بأمجاده وحضارته.

رابعاً: التّضاد

التّضادّ هو نوع من الاشتراك اللفظي، وهو من أعجب ما في هذه اللّغة، لأنّه ايقاع اللفظ الواحد على معنيين متناقضين، ومثل ذلك ”لم تصحّ فيه الحجّة ولم ينهض به الدليل، وكان عبثاً، لما فيه من التباس أطراف الكلام ورجوع بعضه على بعض بالنقض، وإن أصبح من القرينة بما يوضح تأويله، ويعين جهة الخطاب فيه“²⁷، وذلك بما لا يمكن أن يغمز فيه على العربية، وهي بخصائصها وسنن أهلها في الوضع والتصرف، تعدّ كالعقل المدرك في هجمة اللّغات، ولا بدّ من التأكيد على أنّ التّضاد في اللفظ يساعد الصورة الشعريّة على السطوع أكثر، فإذا كان التّضاد في اللفظة الواحدة أعطى تأويلاً إضافياً يخصب المعنى ويضيف إليه كقوله تعالى: (فأصبحت كالصريم)²⁸. فإذا أخذنا اللّيل بمعنى الصريم كان دليل على تغطية الشيء كلّ بما لا يدع مجالاً للرّائي، وإذا أخذنا النّهار بمعنى الصريم، فكانت له دلالة وضوح الإبادة وتلاشي الصورة، وسّمّي كلا الليل والنّهار صريماً؛ لأنّ كليهما ينصرم من الآخر، وإذا كان التّضاد في اللفظتين غدا عملاً بلاغيّاً يتعمّق بمقدار قدرة الشاعر على توظيفه.

تقدّمت معاني الكلمات بتقدّم وعي البشر، إنّه تعبير عن الحاجه الطبيعيّة، وليس كلّ ما ورد من ألفاظه لفظه واحدة تفتقر إليه اللّغة، فلا بدّ أن يكون أصله حادثاً في زمن النهضة التي تقدّمت الاسلام حين اختلطت القبائل، ”وانصرف العرب إلى زينة المنطق والتلمح في الكلام، فهو تفتّن تدخله بعض القبائل في لغتها، وتتوسّع به إحدى المناسبات المرهونة بأوقاتها“²⁹، ثمّ يعرفون به ويمضون عليه في التعبير؛ فيثبت في ميراث القبيلة في اللّغة. أمّا أكثر ما يعنونه في الأضداد فمعظمه حادث في الإسلام، أقضاه تصرّفهم في اللّغة على ضروب من الإشارة والايجاز فهو تفتّن محض لا مرجع الى الوضع الواحد ولا المتعدّد، بل يكاد يعدّ نوعاً من البديع أو الصناعات اللفظية.

وهنا لا بدّ من التركيز على التّضاد البديعي، وإلى جمال تضادية الألفاظ في قول الشاعر في قصيدة ”الشاعر.. الذي كان“³⁰

كنتُ بالأمسِ

أرويّ الناسِ

من طيبٍ مدامي

من كلامٍ

نُسجتُ أحرفه البيضاء

من قلبي وأجفاني

إلى أن يقول بعد مرور الزمن على ذلك "الشاعر.. الذي كان".

وأتاني

من وراء الغيم

صوتٌ غائرٌ!

أيها القديس، أين الشاعر؟!

أين من كان إذا ناجى انتشيتُ

وإذا صليّ اهتديتُ.

هنا دلالة على التغير الذي حصل مع الشاعر، فبرز التناقض في المضمون، كيف كان ذلك الشاعر القديس الذي إذا تكلم انصت الجميع، واليوم أضحي خبيراً كان، فقط عنواناً وذكرى، وليس التكرار وحده هو الذي يبين الدلالة المضيئة للنص، وإنما يظهر، أيضاً، من خلال التّضاد الذي تظهره صورة التاريخ المقدّس للشاعر، وكيف انقلبت الأحوال، فاستخدم التّضاد الضمني بقوله:»

صرت يا قديس ليلاً مطبقاً

صرت لغيراً

غامضاً

منغلقاً!

صرت همماً مقلقاً

يا شاعري،

كلّ هذا من بعد أن كان ينير للأعمى الدرب فيبصر أمامه بكلماته وعباراته، وكان فوق اليمّ كالإعصار يهدر، ويعلو موجه العاتي، وكان صوته كدويّ الرعد الذي لا يخمد.

كنت فوق اليمّ

كالإعصار

أعلو موجه العاتي

وأبحر.

كان صوتي

كدويّ الرعد³¹.

هكذا تطوّرت الألفاظ خارج معناها القاموسي لتعطي دلالاتها الایحائية، فهي صورة عن حالة التّضحية التي قدّمها الشاعر تجاه شعبه، فتحول بها إلى رمز عبر ربط الحالة بدلالاتها المشار إليها؛ إنّه رمز لكلذ الذين يقدمون أجسادهم قرابين للحق والحقيقة،

ليشع الضوء ثانية في هذا الكوكب الذي حوّله الظلم الى الظلام، وتظهر روعة الصّورة في النَّصِّ عبر التضاد المتمثّل في التساؤلات حول ما الذي حلّ بالشاعر، في رمزية عالية تعطي التّضاد معنى كينونة الفعل:

فلماذا بَحَّ صوتي؟

ولماذا جفَّ طلّي؟

ومات الحرفُ عندي!

وتراءى

كنعيبِ البومِ

في الناسِ كلامي؟!

إنّ التناقض في قصيدة «لبنان والتاريخ» يهدف لتعميق الوعي الشعوري الذي ينتاب شاعرنا في حالة قاحلة كالبيداء رافضة للرضوخ والهوان الذي ينال لبنان، وحالة واعدة؛ كالبساتين المزهرة الموصوفة بالتفاؤل والأمل لإعادة أمجاد الوطن مع أهله ومحبيه، ومن هذا التناقض قول الشاعر:

جعلوا اليراع سلاحهم وشعارهم والغير جهّز: حرباً وسناناً³²

ورد التناقض بين أهل الوطن لبنان الذين يهتمون بالعام والمعرفة والثقافة وبين أهل الجهالة الذين أرادوا للبنان الفضل والذل والهوان (اليراع ≠ حرباً وسناناً)، وفي قوله:

أيهدّمون بلادهم، وهم إذا دكّت بلاد، عمروا البلدانا

التناقض بين كلمتي: دكّت ≠ عمروا، للدلالة أنّ اللبناني أينما وجد فهو يعمر باليراع، ولا يهدّم إطلاقاً، بل هو دائماً يسهم في إعمار البلدان الأخرى، لأنّ ثقافته هي ثقافة الحضارة والتطور والمعرفة، وورد التناقض في تشبيه المنافق واللص الذي يريد النيل من لبنان كالذئب الذي يرمي اللوم على الخراف المهدور حقّها، وهذا هو الفعل في لبنان، صاحب السيادة والسلطة يلوم الفقير والإنسان الذي يستر نفسه، ولا يريد إلاّ الحياة بكرامة:

كالذئب، يشرب من علّ، متحجّجاً أنّ الخراف، تعكر الغدراناً

لبنان، لئن يقوى، وفيه، منافق باسمِ التديّن، ينحر الإيماناً³³

إنّ التناقض في هذه القصيدة هو تعبير عن التناقض الداخلي بين عالمين في وجدان الشاعر، عالم ينهار هو الواقع الموجه، وعالم يحاول إعادة بنائه عبر تجاوز الحاضر إلى تلك الواحات التي نسميها التفاؤل بأمجاد الوطن.

خاتمة واستنتاجات

من خلال دراسة المستوى المعجمي في قصائد "علي محمد هاشم" قد اتخذت مساراً واحداً يفضي بالقارئ إلى غاية الشاعر الحضاريّة - الثقافية، التي تقوم على أنّ المجتمع يحيا بعامل الحركة الفاعلة المرتبطة بالتحرّر من براثن الخمول والاستسلام التي أوقعتنا في أزمتنا الحاضرة.

وظهر في ذلك أنّ التطوّر والتغيير لا يتحقّقان عموماً إلا بالمراجعة والنقد، وهذا ما أبرزه الشّاعر، فقد كان لحركة النقد المعجمي أثر بالغ الأهميّة في عملية تطوير المعجم العربيّ في مناهجه المتعدّدة والمختلفة، وموضوعاته المتنوّعة، وهذه الحركة النقدية ما توقّفت بل استمرّت نشطة قوية في العصر الحديث، ومن خلالها ظهرت دراسات عامّة تبحث في خصائص المعاجم العربية وفي عيوبها، وقد أتت الحقول المعجميّة لتعبّر عن هذا الصراع، منسجمة مع ظاهرة كلّ من التكرار والترادف والتضادّ فوجّهت النّصّ وجهةً توصلنا إلى حتميّة انتصار قوّة الخير والفضيلة على عدوّتها البالية والمتصلّبة بفعل التضحية والإرادة ولو بعد حين، ممّا فرض على الشاعر إبراز ذاتيته بصورة قويّة مؤكّدة، وبما أنّ الشعر الذي كتبه الشاعر هو شعره لا شعر سواه، والموسيقى موسيقاه التي تعزفها أوتاره كلّما توتّرت أعصابه وهاجت انفعالاته واستيقظت ملكاته، وهذه الموسيقى التي يلائم نغمها العواطف الإنسانيّة المتلوّنة والمختلفة، والتي يتمّ بها الإنسجام والتألف الطبيعي مع غائيّته الصادقة والعميقة، فجاءت الألفاظ لتعبّر عمّا يخطر في ذهنه، فارتبطت بالفكر الإنساني ارتباطاً وثيقاً، وأصبح من الصّعب أن نتصوّر أيّ نوع من التفكير بغير هذه الألفاظ حتى ما يسمّى بالتفكير الصامت أو التأمل لا يُؤدّي إلا بعمليةٍ نطقيةٍ يقوم بها المتأمّل، وإن لم يسمعها أحدٌ ممّن حوله ما دفع إلى ابتكار نماذج شعريّة جديدة، فأدّى إلى بلوغ اللحظة الحاسمة في بنية القصيدة الحديثة وغائيّتها، وهذا برز مع الشعراء الحديثين ومنهم الشاعر موضع الدراسة "علي محمد هاشم".

على هذا الأساس، أصبح الشعر تمثيلاً للحياة، متجدّداً فيها، فلا يعود النّصّ الشعريّ نصّاً كاملاً، لأنّ الواقع غير كامل، وهذا ما يضعنا أمام أمرين، الأوّل هو تجدد الشعر بسبب تجدد الحياة، والثاني تجدد الحياة داخل الشعراء فيظهر الشعر لديهم حديثاً؛ ومن هنا برز الجديد في البحث:

- دراسة الحقول المعجميّة هي دراسة البنية الدلالية للنّصّ، وفي هذه الحالة لا تبقى الكلمة منفصلة عن الفكرة، بل تدخل فيها إلى تكوينها.
- تقوم الحقول المعجمية على علاقة معنوية: تشابه، ترادف، تعارض، جزئية، كلية.

- لا يقتصر التطور اللغوي على الوحدات المعجمية بدالها ومدلولها فقط، بل يقع أيضاً على مستوى الصوت ومستوى النحو.
- مرّت الثنائيات المعجمية في مرحلتين أساسيتين: مرحلة الانفعال ومرحلة الفعل.
- التكرار قد أفاد من النظام اللغوي، عبر الدلالة الوصفية للكلمة المكررة.
- العلامات المترادفة على المستوى اللغوي خرجت على الترادف داخل النص، وتحوّلت إلى الاختلاف.
- تتعدّد صور العلاقة بين اللفظ والمعنى، ومن بين تلك الصور علاقة الترادف في وجود كلمات ممكن أن تتبادل المواقع بعضها مع بعضها الآخر.
- تظهر روعة الصورة في النص عبر التضاد المتمثل في التساؤلات حول ما الذي حلّ بالشاعر في رمزية عالية تعطي التضاد معنى كينونة الفعل.

لائحة المصادر والمراجع

أولاً- القرآن الكريم

ثانياً- مصادر البحث (المدونة)

هاشم، علي محمد:

- عناق، شعر، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
- الرقص على رماد الهيكل، شعر، منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.
- كؤوس الحيرة، دار الحدائث، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، 2007م
- كآني على الماء أجري، شعر، منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.

ثالثاً- المصادر العربية

1. جريدة الفداء، الشعر ودلالات التكرار، حماه، مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر، العدد 13469، 2008.
2. الجيوسي، سلمى الخضراء، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، مركز دراسات الوحدة العربية، 1987م.
3. حاتم، عماد، النقد الأدبي قضاياها واتجاهاته، دار الأفق العربي، 1990م.
4. حسن، عبد الحفيظ محمد، المنهج الأسلوب في النقد الأدبي، جامعة قناة

السويس، مصر، 2020.

5. خير بك، كمال: حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، بيروت، 1986م.
6. الداية، فايز، جماليات الأسلوب، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 2، 1424/2003.
7. ربابعة، موسى، التكرار في الشعر الجاهلي، الأردن، جامعة اليرموك، مؤتمر النقد الأدبي 10 – 13 تموز، لا ط، 1409/1988
8. محمد مفتاح. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 3، 1412/1992.

رابعاً- المصادر الأجنبية

- 1- Ahmed Mouakket. Linguistics and Translation. 1998. P. 48
- 2- Groupe d'Entrevue: Analyse Sémiotique des textes. 2002.

الهوامش:

- 1- علي محمد هاشم (1946-2018): هو شاعر لبناني من بلدة ميفدون الجنوبية حصل على ماجستير في الأدب العربي من الجامعة اللبنانية، عمل مدرساً للغة العربية لسنوات طويلة، وكان عضواً في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، أبرز إنجازاته الأدبية: نال جائزة سعيد عقل عن كتابه "الناي المجنون"، وعن كتابه "مآذن زرقاء اليمامة"، ومن أشهر دواوينه الشعرية: عناق، الرقص على رماد الهيكل، كؤوس الحيرة.
- 2- حسن، عبد الحفيظ محمد، المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي، جامعة قناة السويس، مصر، 2020، ص 120.
- 3- Groupe d'Entrevue: Analyse Sémiotique des textes. 2002
- 4- عناق: ديوان شعر للمؤلف الشاعر علي هاشم، ص72، الشركة العالمية للكتاب، 1998م.
- 5- هاشم، علي محمد، ديوان عناق، قصيدة "قانا"، ص 72
- 6- هاشم، علي محمد، ديوان عناق، قصيدة "قانا"، ص73.
- 7- عملية عناقيد الغضب: هو الاسم الرمزي الذي أطلقه العدو الإسرائيلي على هجوم عسكري خاطف (حرب نيسان 1996) ضد لبنان لمدة ستة عشر يوماً.
- 8- إشارة إلى "عملية عناقيد الغضب" ضد لبنان في نيسان 1996.
- 9- هاشم، علي محمد، ديوان عناق، قصيدة "قانا"، ص 74.
- 10- هاشم، علي: قصيدة لبنان والتاريخ، من ديوان: عناق، ص 29، الشركة العالمية للكتاب، 2010م.

- 11- هاشم، علي: قصيدة لبنان والتاريخ، ص30.
- 12- هاشم، علي: قصيدة لبنان والتاريخ، ص30.
- 13- هاشم، علي: قصيدة لبنان والتاريخ، ص31.
- 14- الداية، فايز، جماليات الأسلوب، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 2، 2003/1424، ص45.
- 15- م. س. هاشم، علي محمد، كآتي على الماء أجري، ص77، ط1، بيروت، منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، 2009م.
- 16- م. س. محمد مفتاح. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص). الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 3، 1992/1412، ص 39.
- 17- م ن. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ص 39.
- 18- ربايعة، موسى، التكرار في الشعر الجاهلي، الأردن، جامعة اليرموك، مؤتمر النقد الأدبي - 13 تموز، لا ط، 1988/1409، ص 15.
- 19- هاشم، علي: قصيدة قانا، ص74.
- 20- هاشم، علي: قصيدة لبنان والتاريخ، ص31.
- 21- جريدة الفداء، الشعر ودلالات التكرار، حماه، مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر، العدد 13469، 21-7-2008.
- 22- خير بك، كمال، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، بيروت، 1986م، ص49.
- 32- Ahmed Mouakket. Linguistics and Translation. 1998. P. 48.
- 24- هاشم، علي، قصيدة قانا، ص74.
- 25- هاشم، علي، محمد، كؤوس الحيرة، ص103، دار الحداثة، بيروت، 2007.
- 26- هاشم، علي، قصيدة "لبنان والتاريخ"، من ديوان عناق، ص32-33.
- 27- حاتم، عماد، النقد الأدبي قضايا واتجاهاته، دار الأفاق العربية، 1990م، ص 89.
- 28- القرآن الكريم، سورة القلم، الآية 20.
- 29- الجيوسي، سلمى الخضراء، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، مركز دراسات الوحدة العربية، 1987م، ص56.
- 31- م. س. هاشم، علي، القصيدة من ديوان الرقص على رماد الهيكل، ص 94، منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، ط1، 1999م.
- 32- هاشم، علي، قصيدة الشاعر الذي كان، من ديوان: الرقص على رماد الهيكل، ص94-95.
- 33- هاشم، علي، قصيدة "لبنان والتاريخ"، ص34.
- 34- هاشم، علي، قصيدة "لبنان والتاريخ"، ص35.

العولمة وتحولات الواقع العربي

”نكون ولا نكون في زمانين متعاقبين“ فنحن نتواجد داخل التحولات، وفقاً لهيراقليطس ان الكون والانسان ضمنه عرضة للضرورة والتغير، وهذه أساسها الصراع والتعايش. يمر النظام الرأسمالي العالمي بوحدة من تأزماته المفصلية، تواجه الجميع، ان الدول المتطورة، او تلك النامية. لأن النظام، عبر منظومة التقسيم الدولي للعمل، يربط الجميع معاً، ويفرض تباعاته عليها. واذ تفرض العولمة تفتت الدولة الوطنية، فأن المفارقة، تقتضي من الدول النامية، تعزيز الدولة الوطنية، كي تستطيع القيام بما يتطلبه النظام الدولي، وفي الآن معاً مواجهة مجتمعاتها والمسؤولية عنها، وهذا هو تحدي التحديات امام هذه الدول، فكيف السبيل الى ذلك؟ بأي الوسائل؟ وما هي القوى التي ستتنبأ المهمة؟ هذا ما ستحاول هذه الورقة المساهمة به في استعراض واقع المجتمعات العربية، وامكانيات المواجهة بالانعتاق والانخراط في الآن معاً.

العولمة: تغير مرحلة

كل شيء من حولنا يتغير، ونتغير نحن معه، بخيارنا أو بالضرورة. فليس شيئاً من الواقع ألا نتغير في عالم يتقدم ولا يكف في كل لحظة عن التغير.

”ان التفاعل الحاصل أبداً بين المبدئين المتقابلين، مبدأ

الاستمرار ومبدأ التغير يكون مادة التاريخ“¹ والعمران البشري وجوهره التبادل: تبادل البضائع والأفكار، تبادل الاختلافات، التفاعل والقيم.

في هذا السياق تظهر العولمة كُمتكف مُسرّع للتبادل، ليس إلا، عبر شبكة تدفقات رؤوس الأموال والسلع ورافعتها التكنولوجية، بأرقى ما توصل إليه الفكر البشري، من الثورة الرقمية إلى الجينية وجزئياتها، وكل الجماليات البراقة الخلوية.

ولكن للصورة وجهها الآخر، والتي سرعان ما تكشف ان العولمة تجتاح كل مألوف وتصل إلى أقصى بقاع الأرض لتعولمها، عبر الاستحواذ والتميط وفقاً لمقتضيات السوق. لذا لا بد من تغير الآخر المختلف، تكييفه، تعديله، وحتى إلغائه إذا ما اقتضى التمييط ذلك. ليتربت بذلك شكلاً جديداً لا شكل له، لا يني نفسه يتغير في اللحظة. لقد خرجت التكنولوجيا من قمم العولمة ولا سبيل لها وبها إلا التغيير.

ويطرح السؤال عن اتجاهات التغير، والخيارات، ليتبين، ان كل الخيارات في أفضلها، انما يتقدم عليها وحصرياً المعايير الاقتصادية، التي تحكم توجه المستويات الأخرى. ”تشكل الليبرالية الجديدة سلاحاً لضمان النصر، فهي تعلن عن قدرية اقتصادية لا تنفع في أعراضها أي مقاومة، ان الليبرالية الجديدة مثل مرض السيدا تدمر جهاز المناعة في ضحاياها“²

يؤمن التفاوت المعمق آلية لتمدد العولمة ويعتمد نجاحها واختراقها في كل مكان على وضع الفرد بين فكي كماشة: التأكيد على أولية الإنتاج، وتكييف الزبون وانسياقه. وهذا يقتضي إعادة ترتيب الأولويات ليتقدمها، تدفق المنتجات وحرية عبورها، تضمنه قوانين تؤكد قدسية السلعة نفسها وحقوقها، وسعرها لا يتضمن عرق الأطفال الذين ينتجونها، فهذا عرق رخيص، وليس لهذا أنت تشتريها بسعر مرتفع ”بل لأنك تشتري الصورة، المفهوم عن السلعة وليس السلعة نفسها“³. وهذه عملية يقودها رأس المال المالي الدولي، عجول، منفك من أي علاقة مع الحيز الجغرافي، ومستعد دائماً لمعاينة الحكومات والدول المذنبة في التو، وأقله بالمغادرة، والمنفلت من أي مسؤولية أو حساب عن أعماله الحالية، أو عن نتائجها المستقبلية، لا بل ان عمله يشترط، وانسجاماً مع مبدأ ”دعه يمول دعه يفر“، ترشيق الحكومات وترشيدها، وفق نموذج محدد يتلاءم ولامسؤوليته، عن أعماله فيتوازي هذا مع عمليات الخصخصة، التجزئة، التوزع، توكيل السلطة إلى سلطات محلية بأطر ضيقة.

تتقدم العولمة لتغير كل شيء وتراجع أمامها مترنحة انجازات تاريخية إنسانية تراكت

على مر عصور، ولعل أوجعها جميعاً ما يصيب انجاز الدولة الحديثة، كأرقى تعبير تنظيمي لتعاقد الناس الاجتماعي، لتضرب معها مفاهيم السيادة الوطنية والاستقلالية. ينتهي مفعول وصلاحيه كل الاتفاقيات التي أمكن تحصيلها لصالح العمل، وتنزع الصفة الاجتماعية عن الأجر، ينتهي عصر الاستخدام، وتسقط العولمة العقد الاجتماعي بالضربة القاضية. وتتأسس القاعدة، لنشؤ ما يمكن تسميته دون (تحت) الطبقات sous-classe، الذين ليس فقط لا حاجة لهم، ولكنهم زيادة على ذلك، يشكلون فائضاً بشرياً لا لزوم له وعبئاً استهلاكياً. ف ”لم يعد الغرب بحاجة لدول العالم لثالث، وهذا ما يشكل خيراً سيئاً لهذه الدول“.⁴

تتقهقر متبعثرة القيم الإنسانية التاريخية المتراكمة، وتتقدم قيمة المستهلك وتفوقه بتمظهر قيمة النقود فيه.

أنت مستهلك إذن أنت موجود!

”أن تكون مستهلكاً إذن أنت موجود! هذا هو جوهر هذا المتغير، التوجه اليوم هو للمستهلك، عبر لا أخلاقية التبذير وعبثيته. إذ أن الرغبة لا ترغب بالإشباع وإنما بمجرد الرغبة“.⁵

ينزع عن الناس شيئاً فشيئاً قابليتهم في الاختيار، ويحل الانسياق في النمط وفقاً لمعايير يتم إنتاجها وإحلالها بدل معاييرهم الخاصة، التي ينتجها المجتمع. أنه الإكراه الطوعي، لأنك ان تختلف، ان تمتنع عن التنمط، شيء لا يمكن للعالم ”الحر“ أن يتحملة. إن أي شكل للاختلاف، قد يشكل تهديداً، للنظام، لذلك يصار الى وسمه بالهرطوقي، لا بد من إعادته إلى حظيرة النظام يجب أن يعود طوعاً أو غصباً، أو فليختف. ما يعيدنا الى مطاردة الساحرات في القرون الوسطى، انها أبداً حكاية التاريخ الرأسمالي!

”يتم تفكيك المركزي، لأن الأستبعاد والتهميش يدخل في صلب منطق العولمة، التي تفكك البنى القائمة من أجل استيعابها ”وليس المحلي هو الذي يحل مكان المركزي، وإنما المفكك“.⁶

”ان العولمة النيوليبرالية تنتج وتعيد انتاج الصراعات القبلية، والاثنية، حروب التطهير العرقي، والتوسعات العنفية، والمحافظين المتدينين المتعصبين، الفوبيا، وحتى الهلع التحريضي بواسطة شعور الخوف من فقدان الهوية.“⁷

ويصاحبها في هذا كله ”المأسسة التدريجية للجريمة المنظمة، وهي عبارة عن الرأسمالية المفرطة“⁸

تقدم العولمة الفرصة، تنجح قلة قليلة في التعولم، لكن يبقى دونها الأمان. في حين، ان الأكثرية تتقلب، تختبر وجهات للتغير دون ان تهتدي، أو تستكين، فنصبح جميعاً ومعاً أقلية وأكثرية خائضين من هذه التغيرات للعالم القديم الذي ألفناه، وعرفناه، والخوف الأكبر هو انعدام الأفق.

ينتج هذا عن صعوبة فهم، أو لا فهم، هذه التغيرات، اذ يحدث تسارع في التغير حيث تعديلات هذا الأخير تسابق التفكير.

”انها مرحلة الليبرالية الجديدة، التي تدمر كل مناعة، تنزع الصفة السياسية للأحداث“⁹. وكل ما زاد الاقتصاد عولمة، كلما تفككت السياسة تشرذماً. ولا تعطي الفرد ولا الجماعات ولا حتى الدول أي فرصة لالتقاط أنفاسها.

فدخل جميعاً ومعاً في دائرة القلق المسكون بالتوترات، في الزائل المتسارع، اللامستقر.

العولمة عقيدة الهيمنة

ولأن الشرعية امر مطلوب دائماً، اثباته من السيد والمسود الأول ليؤكد قوته، والثاني ليبرر اذعانه، و”العولمة هي العقيدة الطبيعية للهيمنة العالمية“¹⁰. فان ايديولوجيا العولمة الحرة، في بحثها عن شرعيتها، أو ما يشبه الشرعية التاريخية، لا تجد أمامها الا محاولة دحض شرعية خصمها، فتتخذ من تجارب اليسار، وتحديدًا جوانب فشله منذ قرن، لتؤكد ان كل الطرق الأخرى تؤدي إما إلى طرق مسدودة أو للاعتراف بمتانة أساساتها. فتتجمع كل العوامل لدفع الأمور إلى نهاياتها القصوى، فتدفع العالم ونظامه إلى الحافة، حافة الهاوية، فيفقد العالم توازنه ليترنح نظامه على سقطات بين حدين اثنين يلبيان بعضهما جموح العولمة، وتطرف الأصولية، وأولى الضحايا هي مفاهيم الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان، التي بهت بريقها. فتضيع الحدود فتتداخل القضايا ببعضها، لتتعد ممارسات الإرهاب، على مساحات المقاومة، وتعتدي على قضاياها، وتنتهك حرية الرأي العام بقوة العبث العبثي، وتفتتح أمام الخيارات في أحسنها أبواب الجحيم، اذ ” ان قواعد اللعبة الجديدة ضارية لأن الرهان شرس، ففي مواجهة نظام يطرح إسرافه في استعمال القوة تحدياً لا مساومة فيه، يجيب الإرهابيون بعمل تكون المساومة فيه بحد ذاتها منعومة ومستحيلة“¹¹. انه نفي بمواجه النفي، يقابله رعب بمواجهة الرعب.

الا أن أقصى الأشكال تعبيراً لا تعيد للسياسة اعتبارها، انها مرحلة الانتقال من السياسة إلى الحارقة، أو المجانبة للسياسة، او شبه السياسة. ومع هذا يبقى السؤال هل من مجال

لكبح جماح العولمة، وبودريار يطرح سؤال «من يستطع هزم النظام العالمي؟ ويجب عليه، بالطبع ليس أولئك، حركة مناهضة العولمة، إذ أن أقصى ما يهدفون إليه هو فرملة الانحرافات. لا يمكن الحديث عن تأثير يغير جوهرياً، أما العنف المتضمن فهذا نوعاً من العروض الداخلية، والتي يمكن للنظام ان يستوعبها ويتخطاها مع احتفاظه بخيوط اللعبة»¹² أننا نعيش - بحسب ريكور - إحدى اللحظات الخطيرة حيث تفرض المسؤولية علينا ابتداءً مفهوم وممارسة جديدين للحياة البشرية. والسؤال الذي يطرح: هل في إمكاننا قبول مفاهيم جديدة للحياة والموت، وللجسم الإنساني، وللتناسل، وللنسب وللجنسانية؟ تلك المفاهيم التي يجهد الحقوقيون لصوغها مدفوعين بتقدم العلوم البيو - طبية.

«نحن على عتبة انقلاب وجودي اجتماعي، وليس هناك مجال للنظام القديم كي يبقى فاعلاً»¹³

يتطلب الدخول فيه، المشاركة، وفي الحد الأدنى، رفض الانسياق، أي أنه يعني التورط، أو على الأقل الاستعداد له، رفض الانسياق يعني الاستعداد للإغصاب، وهذا الشرط الأول الضروري للحرية، للوجود الإنساني.

العرب: الانسحاب المدوي:

العرب والإسلام:

منذ أحداث 11 ايلول التي ابرزت الإسلام - الاعتراض الأشرس على العولمة، يسود خطأً جوهرى يعتبر ان الإسلام هو العدو الأبرز. ولكننا نرى أنه يمكن الحديث عن الخطأ الفعال، الملائم.

ورغم كل المخاطر الوجودية، يعيش العرب في دوامة التاريخ المشترك، وهذا أمر مهم، ولكنه ثانوي، «نحن لسنا سجناء ماضينا، إلا إذا أردنا ذلك، وعلى كل أمة ان تتسنى جزءاً من تاريخها، ولا تتذكر منه إلا ما تجد فيه نفعاً لها»¹⁴. وإلا ما معنى ان يكون لهذا الماضي المشظى وحطامه ان يمسك بتلابيب الحاضر ويخنقه. ل «كأن الشرق بقواته التاريخية الساحقة يخيم علينا، بل يحط بكله علينا»¹⁵

لقد تكونت الثقافة العربية، بتأريها الليبرالي والاسلامي في جو غلب عليه دائماً منطق المواجهة، كان العرب ولا يزالوا يأخذون، وعلى رأسهم وأولهم رواد النهضة، دائماً مواقع دفاعية، عما مضى، وفي اعتمادهم مبدأ التوفيق، «وكثيراً ما يبرروا تركة الذات ونقد الآخر، وادعاء نقاوة أصلية - مصرية، أو عربية، أو إسلامية، لوثها المحتل الأوروبي الأجنبي، الأمر الذي أدى إلى تحميل الأعراب (وحدهم) مسؤولية الانحطاط»¹⁶

ان هذا الخطاب يخفي أكثر من اللاواقعية، ويغلفه ادعاءً ورغبة مصرّة على التفوق والبطولة، وكأن الجماعة تحيا من أجل خدمة التاريخ.

اختلفت الصورة، وتداخلت المبهمات، بين حركات التحرر الوطني، وحركات الجهاد الديني، وتلبس الأشياء أشياء لا تلائمها ولا حتى تتدعيها، ومع هذا يصار وبشكل مثير، إلى التسليم والاعتراف بالمساحات المقتطعة عنوة وعلى الحساب العام، وكأن ضعفاً يقوي ضعفاً، فلا المثقفون، يتجرؤون على خوض غمار الواقع، وقضاياها، وحتى يتجاهلون، خوفاً، ولا ذوي القربى يجرؤون على وضع الحدود بين الممكن المقبول نقاشاً وجدلاً وذلك المحرم اداءً وادعاءً بتمثيل الحق والتمثيل به عنوة، وبقوة النص وهوى فهمه والسيف.

ان التطور في نطاق الوعي والنشاط السياسيين وحلول «سياسة الجماهير» يوصل في السياق السياسي رجالاً ونساءً، ما زالوا موضوع تأثير بما يقوله أو/ وما يمكن أن يعلمه مشايخ الطريقة. فالعمى الإيديولوجي ينتج عن الأفكار المسبقة، وهو يؤدي إلى العزلة الكاملة مما يعيق تفاعل المجتمع بتكويناته، وبالتالي تكون رأي عام، يتفق ويفصل في قضايا أساس. لا بل ان بعض القضايا كالحبز والتنمية والحرية والديمقراطية تتحول الى تفاصيل ثانوية، لا تجد من يتبناها، ولا حتى كتلاً اجتماعية تنهض بها.

تصور عندما يأخذ هؤلاء قرارات بك، وبمصيرك لأجيال قادمة، أنه بالضبط إنتاج الضحايا واحتقار حياة البشر.

هذا ما يعنيه ان يتولى العبثيون القضايا، بعد أن يتولون تفتيتها، لا فرق في ذلك من أن يكونوا قد انتخبوا بواسطة صناديق الاقتراع، أحد أشكال الديمقراطية المعلبة اليوم، أو أن يكونوا استولوا بالقوة على حق تمثيل الناس، في مسعى لتمثيل الضحايا.

ولكن ما العمل إذا كان واقع التخلف أقوى من فكرة أصلحه، وإذا كان المعرفي منفصلاً عن التاريخي، وإذا كانت الفكرة تعجز عن التحول إلى قوة تغيير¹⁷. وقد سبق للنهضوي الكبير الأفغاني ان بين، « ان انتصارات أوروبا انما تحققت بفضل المعرفة وتطبيقها الصحيح، وان ضعف الدول الإسلامية راجع إلى الجهل،...فالبدان الإسلامية ضعيفة، لأن المجتمع الإسلامي فاسد»¹⁸.

ان ما يحصل هو محصلة جدلية مؤدلجة في العمق لعدة عوامل:

أولاً: البنية السياسية التقليدية التي جاءت تكريساً للبنية المتخلفة لا بديلاً منها.

«ثانياً: البنية الاجتماعية والفكرية للمجتمع العربي الذي لم يستطع التخلص من ماضيه.

ثالثاً: سياسات التقهقر الثقافي والاجتماعي التي فرضها عدد كبير من الأنظمة التوتاليتارية»

رابعاً: ضغوط الحداثة الكلاسيكية التي لم تُستوعب أبداً، يضاف إليها ضغوط العولمة

«المتوحشة»¹⁹.

«ومن الواضح أنه، من «الخطأ الاعتقاد ان في إمكان العرب أن يعثروا في تراثهم على كل ما يحتاجون اليه لنهضتهم»²⁰

ان الغاية من أعمال الانسان ليس خدمة الله فحسب، بل خلق مدنية إنسانية زاهرة»²¹، ولن يكون هذا إلا بالتغير وحاملته التقدم، «التقدم: معنى الشعب الناشط لتغير حاله»²²

العرب والدولة:

منذ ما يزيد على القرن يختبر العرب مشاريع بناء الدولة، ولكن النتائج بأحسنها، أفضت إلى الفشل في بناء الدولة - الأمة القائمة على مشروع الاستقلال السياسي والتنمية الاقتصادية في الدول العربية.

وبرغم دخول العصر إلينا بأهم التكنولوجيا، فأن العرب صمدوا على ما يبدو، في المعارك ضد التغير، _ التغير الذي يدفع المجتمع قدماً _، بخنق حيوية المجتمع وعقلانيته، بالإهدار المتلاحق لإمكانات بناء الدولة الحديثة، فاستقر واقع راكد مترد اجتماعياً وسياسياً، متخلفاً اقتصادياً، وتأتي تغيرات اللحظة الراهنة وتحديات العولمة لتكشفه عاجزاً، ضعيفاً، رخواً عرضة لكل أنواع الانتهاكات، خروج الجماعات، المعارضة، كما تلك الراضة، على الدولة، الاحتلالات، الغزو، والاستيطان، ناهيك عن المشاكل المتراكمة على الصعد الأخرى. ولا عجب ان ينظر العالم إلى العرب اليوم بأنهم خارج الحداثة ومفاهيمها ومؤسساتها ما يعزز مسار المصير المفتوح في المنظور على مزيد من الانتهاك، يشير بريجنسكي إلى ان بلاد العرب تقع في أوراسيا، وهي نقطة الوصل بين أوروبا والشرق الأقصى وبأنها ستصبح في المنظور «منطقة البلقان العالمي» الجديدة»²³، ومع هذا يبدو اننا نسير عمقاً في طرق مسدودة، فلماذا يتجدد في كل مرة مأزق العرب وتعثرت نهضتهم؟ انه من جديد وأبدأ سؤال الهوية، وهو أصلاً سؤال اشكالي، لأنه يخفي التفاصيل كلها من خلال كلية الطرح الخاص بالهوية القومية، أو ما يسميها ادوارد سعيد «سياسات الهوية»، «ذلك الشعور الذي يفضي بأن كل ما تفعله يجب ان يكتسب شرعيته... أو يمر عبر مصفاة هويتك القومية، والتي هي في أقصى حالاتها محض خيال كامل، كما نعرف جميعاً. أعني بذلك الهوية التي تقول ان جميع العرب هم متجانسون تماماً ضد جميع الغربيين الذين هم على نفس الشاكلة»²⁴. وتزيد مخاطر التجزئة ورسم حدود جديدة ضمن تحديات العولمة اليوم من التشبث بهذا الطرح دفاعاً عن النفس.

يسير العرب تدفعهم الطريق إلى لامكان، فهم لا ينشدون مثلاً محدداً ولا ينتجون فكراً

ديمقراطياً، لأنهم متمسكون أصلاً بخيار لا يختبروه، كما أنهم يعطلون عملية اختياره، في نموذج معين، ليتمكن تعديله، تصويبه أو حتى إلغائه، وهكذا تتعطل الحياة برمتها. وفي المحصلة فإن الإنسان العربي، مرة أخرى يخشى من الاختبار، يقبل العالم بكليته بكل معاييره الغربية الجديدة، ويخضع له، ويحتج عليه ويرفضه في شكل شامل. يبدو أن هناك توافقاً متواطئاً على إعدام السياسة، وإعاقة إقامة الدولة الحديثة، التي تقوم على مشاركة الجميع طوعاً.

ولأن الفرد العربي مهمل مؤرق حلمه مكسور، لم يطمئن بعد لموقعه الأمان في الحيز العام، يتشتت بحثاً عن انتماء، وغالباً ما يدفعه واقعه الخاص المهمش، للعودة إلى الماضي، للانتماء إلى أقرب جماعة، عائلية، قبلية، وغيرها، فتستقطبه جماعات بتضخيم قيمته وقدرته في إطار مشاريعها المثالية، الغامضة. فيبدو هناك توافقاً ملائماً، لعدم إعلاء سلطة القوانين العامة، فلا الدولة تتطلب انتماء تاماً لها، لا بل أنها في بعض الأحيان تخضع هي بنفسها لبعض العادات والأحكام التقليدية، لقوة نفاذها في الواقع، يقابلها في المقلب الآخر، تخل ضمني، أو طوعي من المواطن بدولة تصون حقه اجتماعياً واقتصادياً، يعزز «موقف خاطئ من السلطة، فهم يطلبون من الحكومة أن تقوم عنهم بكل ما ينبغي أن يقوموا به هم. لذلك اتكلوا عليها وتنازلوا عن حقوقهم وواجباتهم. لكنهم مع هذا لا يثقون بها بل يخشونها ويشكون بها... ومن هنا عطفهم على الذين يقعون في قبضة العدالة»²⁵.

لم تنجح الدولة في أن تصبح مشروع انتماء، ولا إطاراً للأمان، وكأن الفرد يدفع للدولة كي تدعه وشأنه، لا كي تتبناه. وللمفارقة فأن ضعف الدولة، يؤمن مخرجاً للجماعات على اختلافها، كما يؤمن خروجاً عليها للبعض الآخر...

ان هذا بالضبط ما أسس لشلل العصب السياسي العربي، الذي أدى إلى إدمان الإحباط والخنوع، وصولاً حتى اللامبالاة في أقصى حالات الغضب، يتلازم هذا مع الاستعداد للتكليف الدائم للهبوط الناعم، بما يتلاءم تنازلاً تدريجياً، إلى الامتثال، والتسليم، فتصبح حالات الفقر والجوع والمرض، ليست سوى مظاهر لحالات عادية، ما يولد اللامبالاة إزاء الأشياء والأحداث والقضايا المصيرية، إلى درجة الامتناع حتى عن الامتناع، في أقصى الحالات قد نزرع، ” كيف أصبحنا منضويين مخدرين، مستوفين للشروط“ كما يقول اندري بلون نستسهل النتائج كي لا نبحث عن الأسباب. اننا لا نمسك بشيء، إلا الفراغ واللاجدوى. ان هذا كله، وبحسب كانط، ما رسخ ”هشاشة القاعدة العامة، وكذلك هشاشة النسيج الاجتماعي المتولد عن الارادات غير النقية والهوة التي تهدد بالخطر

المؤسسات التي تبدو في الظاهر في غاية القوة. كان يطلق عبارة "الشر الجذري" على القوة التي تحرف الإرادات الفردية للمواطنين وتقودها إلى إضعاف وإفساد بل إلى إلغاء القاعدة العامة"²⁶. وهذا بالضبط ما يفسر كيف يفقد الشارع وظيفته، وكيف تصادر حيويته ويتم تقيئته وحتى تكلف الجموع وتساق للتعبير الصاحب للدفاع عما لا تتبناه ممن قضايا لجغرافيا أخرى، في حين انها تسلم خاضعة بواقعها كقدر محكم.

يشير الكواكبي إلى "إن الدولة المستبدة تتعدى على حقوق المواطنين، تبقيهم جهلاء كي تبقيهم خائعين وتكر عليهم حقهم في القيام بدور فعال في الحياة، فتفصم في آخر الأمر العلاقة بين الحكام والمحكومين، كما بين المواطنين أنفسهم. فتتنشى ذهنية الاستبداد وممارساته من رأس الهرم إلى قاعدته، يستبد الفوق بمن تحته، وتكون النتيجة موت العزة في النفس"²⁷.

فتضعف الدولة عن أن تكون إطاراً جامعاً حاوياً لمكونات المجتمع على اختلاف تنوعاته، تحيط بها تراكم مشاكل القرن الماضي والعجز عن النمو، وتاريخ القرون المنصرمة، من التبعية، وكلما ضعفت كلما استبدت، تقوى لسوط الرعية في الاتجاه الصحيح، ويؤدي تدرج الاستبداد وانتشاره وتبنيه فيسهل عندئذ التسليم بالانسياق، وتدخل هذه الدول منصاعة في حظيرة العولمة.²⁸ "وتنزع بقايا مناعتها الوطنية مع اضطرارها لتوقيع اتفاقيات، تكبلها "اتفاقيات قميص المجانين، وهي اتفاقيات نزع السلاح الاقتصادي من جانب واحد"²⁹.

ويضيف هذا ضعفاً على ضعف ويوقع المجتمعات العربية بين خيارين، يبدو ثالثهما متعثر حتى الآن، بين الأصولية، وجموح العولمة، مما يزيد من صعوبات نجاح الدولة وتعثر تحولها إلى دولة قومية، وفي أحسن الأحوال تظهر الدولة وحتى إشعار آخر متماهية مع حدودها الجغرافية، وتعجز عن ان تخرق في العمق الأطر السياسية، والاجتماعية. وسيظل التحدي قائماً أمام المجتمعات العربية حتى تتحول وتتمظهر في دول بالمعنى الحقيقي، وحتى ذلك الحين ستظل هذه المجتمعات تؤمن التربة الخصبة لفرز تنظيمات وجماعات تتحدى الدولة، وتخرج عليها.

المتقضون العرب:

سبق للعروي ان بين، ان الثقافة العربية «تكونت في جو غلب عليه دائماً منطلق المواجهة مع أوروبا، وقد انعكست هذه المواجهة مع الخارج مواجهة بين الوطنيين والإسلاميين بشتى تياراتهم من جهة، والليبراليين المغتربين من جهة أخرى» وقد نجح الفريقان ومن

خلال الإنكار والإنكار المتبادل وفي استعمال نفس الأساليب من قطع النقاش، ليحل محله الجدل الصاخب، مما أعاق الثقافة العربية عن خلق المثقف العضوي، الذي ينهم ويعبر عن قضايا بيئته، ليأنس إلى استخدام الجاهز مما تقدمه الثقافات الأخرى، سواء ما سبق إنتاجه، في الماضي، أو بالاستعانة بما ينتجه الغرب المتقدم. دون أن ينجح الفريقان في التقاط الحيوانات المجتمعية، الحاضرة، المعاصرة وتلمس سبل الولوج إلى المستقبل. وفي حين تذهب بعض النقاشات ووجهات النظر إلى إننا نعيش لحظات تغيير العالم لقديم، وتغيير مدير العالم، نرى المثقف العربي، إلا في ما ندر، في موقع ملتبس، يصل به إلى حد الانسياق مع القائم.

أكثر من ذلك، لا يبدو معنياً بالفضل في مشروع بناء الدولة الوطنية، والاختراق في تكون رأي عام، لا بل مساهمته بشكل أو بآخر، ومصادرته لصالح الحركات الشعبوية، بمائلة الأنظمة والملتحقة بحركات الغيب، انه الخوف بذاته، والتهرب من المسؤولية بإعاقه التغيير. باستعمال delivery، الجاهز من الثقافات والاستماتة في الدفاع عن المواقع التي تؤمنها، على حساب خنق إرهابات الواقع وتفاعلاته، الحية. وحتى الهروب من مسؤولياتها بمحاسبة الآخر على تخلفه بركب الخيارات الجاهزة. انه ليس فقط النكوص بواجبه، وإنما أيضا إعاقه الحياة، اذ يرضى العيش على الضفاف، فهو العيش على بقايا الثقافات. انقطاع التواصل والأواصر بين النخب والواقع المعيش. وتفاصيل العادية للناس العاديين.

«لا تُستولد الحضارات من بطون الكتب»³⁰ «لأن الأفكار التي لها تأثير لا تتعلق بالمؤسسات الديمقراطية، أو حقوق الإنسان فقط، إنما بالوحدة الوطنية وبقوتها وسلطة الحكومة»³¹ ان نقطة البداية لأي مسار تبدأ بالإجابة عن سؤال ماذا نريد، وهذا سؤال لا يطرح لتتم الإجابة عليه هكذا مرة واحدة ونهائية، بل لا بد من طرحه في سياق تحديد الذات ومن ثم نقدها لتجديدها، وليس جلدتها، فقط لكي تستقيم المسيرة ولتحديد المسؤولية.

لا بد من إجراء جردة واسعة وعميقة يواجه بها ماضي الذات وحاضرها، إلى كوننا المسؤولين في المقام الأول عما نحن فيه، ما يقتضي ضرورة التخلص من عمليات التوفيق والتلفيق التي سادت الفكر العربي وأنتجت مأزقه.

”بقدر ما تتعطل الظروف الاجتماعية اللازمة لمشاركة سياسية واسعة، فأن القرارات الديمقراطية، ولو اتخذت وفقاً لإجراءات سليمة تفقد صدقيتها“.³²

”هذه العروبة البائسة هل يُعطينا الحديث عن أزمته من ضرورة الحديث عن تجديد معناها وتغيير قواها وتبديل وسائلها؟! يكبر العالم من حولنا وتصغر العروبة، وحده

التعاطي العقلاني مع قضايانا الساخنة لنقل الصراع من مستوى التشنج الطائفي والمذهبي والارتقاء إلى المستوى السياسي، بأشكاله الديمقراطية المتعددة»³³. لا يتحقق التغير المرتجى إلا بالمعرفة.

لذا لا بد من نفض غبار العجز، لأنه في الأقل المتاح، إذا لم نعش، فلنموت كما يموت الآخرون، موتاً نستحقه. وهذا يقتضي المشاركة، نشارك بالضرورة، فلنشارك كي نكون، أو حتى كي نموت.

يحرزني موت أي شخص كان لأنني جزء من الإنسانية؛ لا تبحث إذاً لمن ستقرع الأجراس، إنها تقرع من أجلك. بأن موت لبنان، ليس سوى موتنا الخاص. ثمة مصير مشترك يجمعنا حيثما وجدنا»³⁴.

ما لم يتقدم تمركز موقع الإنسان في أي مشروع للتنمية، ستندم شروط الحياة مستقبلاً. لأن الإنسان لم يولد إلا لكي يخلق مدنية زاهرة وحضارة»³⁵. توريط الجميع أجل، أجل تحت هذه الأكدا من أنقاض إيديولوجيات المقاومة القديمة، كان لا بد من إعادة بناء الإنسان، لا يمكن ديمقراطية الدولة في غياب ديمقراطية المجتمع.

الخلاصة

ولأن التغير ليس هدفاً بذاته، فأن أي تغير لن تكون وجهته التقدم بنا، مالم يكن الفرد العربي كقيمة إنسانية أساس كل مشاريع التغير المتمحورة أصلاً على التنمية، وهذا يفترض انسجام اتجاه التغير وتعبيره عن مصالح الجميع مشتركين به معاً: الدولة، المجتمع بأفراده وسلطته.

وهذه المسيرة تبدأ ب «انهاء القطيعة مع عالم الواقع، والنزول من الأعالي، فلن يتم إحقاق العدالة في غياب المتضرر من غيابها»³⁶.

« لا نعلم بأن يسود الإخاء في يوم، ولكن حذار ستبدو غداً الأحقاد العنصرية هزيلة مع ما سيحدث»³⁷

الهوامش:

1- عفيف فراج، إشكالية النهضة بين الليبرالية الاغترابية والإسلامية الاجتهادية، دار الآداب، بيروت، 2006، ص، 33

2- جان زيغلر، سادة العالم الجدد، مركز دراسات الوحدة بيروت، ط، 2004، ص، 49

3- Daniel Cohen, La mondialisation et ses enemies, ed. Grasset & Fasquelles, Paris 2004, p. 95

- 4- Paul Bairoch: mythes et paradoxes de l'histoire economique, Paris 1997,
- 5- Zygmunt Bauman, Le Co ̂ t Humain de la Mondialisation, Hachette Litt ´ratures,1999, p, 128
- 6- القيم إلى أين؟ مداولات القرن الحادي والعشرين، بإشراف جيروم بندي، مجموعة باحثين، ترجمة زهيدة درويش جبور وجان جبور، دار النهار، بيروت، طبعة 4002، جان بودريار، من الكلّي الى المفرد: عنف العالميّة، ص،14-24
- 7- Les valeurs d'une nouvelle civilisation, texte initial pour la conf ´rence sur "Principes et valeurs" du FSM, dimanche 19 janvier 2003
- 8- جان زيغلر، سادة العالم الجدد، مركز دراسات الوحدة بيروت، م.ن. ص، 331
- 9- جان زيغلر، سادة العالم الجدد، مركز دراسات الوحدة بيروت، م.ن.، ص،94
- 10- بريجينسكي زبغينو، الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم، ترجمة عمر الأيوبي، دار الكتاب العربي، بيروت، 4002 ص، 361
- 11- القيم الى أين؟ مداولات القرن الحادي والعشرين، بإشراف جيروم بندي، مجموعة باحثين، المرجع نفسه، جان بودريار، من الكلّي الى المفرد: عنف العالميّة، ص، 44
- 12-Jean Baudrillard، De l'aniterrorisme la guerre,la violence de la mondialisation, Le Monde Diplomatique/ Novembre 2002/ p,18
- 13- Helga Zepp-LaRouche , Schiller's Concept of the Beautiful Soul—A Contribution from German Classicism
Toward a New Humane World Order, September 19, 2003 issue of Executive Intelligence Review
- 14- ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة كمال خولي، دار نوفل، بيروت. ط2، 2002 ص، 319
- 15- عفيف دراج، إشكالية النهضة بين الليبرالية الاغترابية والإسلامية الاجتهادية، دار الأداب، بيروت، م.ن. ص، 110
- 16- عفيف فراج، المرجع نفسه، ص،22
- 17- عفيف دراج، إشكالية النهضة بين الليبرالية الاغترابية والإسلامية الاجتهادية، م.ن. ص، 121
- 18- حوراني ألبرت، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة كمال خولي، دار نوفل، بيروت، م.ن. ص،124
- 19- القيم إلى أين؟ مداولات القرن الحادي والعشرين، بإشراف جيروم بندي، مجموعة باحثين، م.ن. محمد أركون، من أجل نشأة مخرّبة للقيم، ص،74
- 20- حوراني ألبرت، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة كمال خولي، دار نوفل، بيروت.م.ن. كما أورده

- عن بطرس البستاني، ص، 109
- 21- حوراني ألبرت، المرجع نفسه، كما أورده عن بطرس البستاني، ص، 109
- 22- حوراني ألبرت، المرجع نفسه. كما أورده عن لأفغاني، ص، 124، 59
- 23- بريجنسكي زبغينو، الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم، ترجمة عمر الأيوبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص، 55
- 24- ريتشارد كيرني، جدل العقل، حوارات آخر القرن، المركز الثقافي العربي، المغرب، بيروت، 2003، ص، 38
- 25- حوراني ألبرت، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة كمال خولي، دار نوفل، بيروت، م.ن. كما أورده عن لطفي السيد، ص، 183
- 26- جان زيغلر، سادة العالم الجدد، مركز دراسات الوحدة بيروت، م.ن. ص، 92
- 27- ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة كمال خولي، دار نوفل، بيروت، م.ن. ص، 279
- 28- عفيف فراج، إشكالية النهضة بين الليبرالية الاغترابية والإسلامية الاجتهادية، م.ن. ص، 62
- 29- جان زيغلر، سادة العالم الجدد، مركز دراسات الوحدة بيروت، م.ن. ص، 148، 154
- 30- عفيف فراج، المرجع نفسه، ص، 17
- 31- ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة كمال خولي، دار نوفل، بيروت، م.ن. ص، 3
- 32- جان زيغلر، سادة العالم الجدد، مركز دراسات الوحدة بيروت، م.ن. ص، 30
- 33- سليمان تقي الدين، جريدة السفير اللبنانية، تاريخ 2006/06/24
- 34- ستاماتيس بوليناكس، موتنا الخاص، جريدة السفير اللبنانية، 2006/70/26
- 35- عفيف فراج، إشكالية النهضة بين الليبرالية الاغترابية والإسلامية الاجتهادية، م.ن. ص، 58
- 36- جان زيغلر، سادة العالم الجدد، مركز دراسات الوحدة بيروت، م.ن. ص، 75
- 37- شتراوس كلود ليفي، مقالات في الاناسة، ترجمة حسن قبيسي، دار التنوير، بيروت، ط2، 2005، ص، 255

تربية الطوارئ دراسة حالة واعداد خطة تدخّل مع طفل نازح بسبب الحرب في جنوب لبنان

اله إلى مدينةٍ جديدة بسبب تداعيات الحرب في المنطقة. يسلّط هذا البحث الضوء على التأثير العميق لمثل هذه الظروف على رفاه الطفل، كما يركّز على تطبيق أصول تربية الطوارئ بهدف إعادة بناء شعور الأمان لدى الطفل، وتسهيل معالجة التجارب الصادمة، ومنع تحوّل الصدمة إلى مسارٍ مرضي.

الكلمات المفتاحية: طفل، الصدمة، الحرب، النزوح الداخلي، لبنان، خطة تدخّل في تربية الطوارئ،

الفصل الأول: مقدمة

على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية، تراجع عدد الأفراد الذين يعيشون في سلامٍ حول العالم (معهد الاقتصاد والسلام، 2022). وبسبب الحروب المستمرة في مختلف أنحاء العالم، تم تهجير أكثر من 100 مليون شخص قسرًا وبشكل غير إرادي (مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، 2021ب، 2021ج).

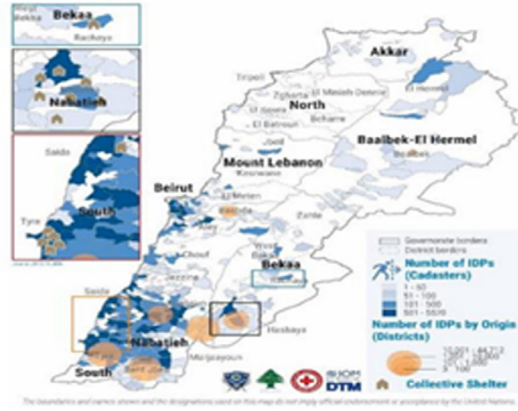
الأشخاص النازحون داخليًا هم أولئك الذين أُجبروا على مغادرة منازلهم أو أماكن إقامتهم المعتادة بسبب النزاعات المسلّحة، أو العنف المنتشر، أو انتهاكات حقوق الإنسان، أو الكوارث، ولكنهم يبقون داخل حدود دولتهم. على الصعيد العالمي، يتزايد عدد النازحين داخليًا نتيجة الكوارث من صنع الإنسان أو الطبيعة. في كل ساعةٍ تمرّ، يجد الأطفال أنفسهم في مكانٍ ما حول العالم

ضحايا للحرب أو النزوح (روف، 2013، ص. 5). وقد تترك تجربة الحرب والعيش في مناطق النزاع والفرار من المنزل ندوبًا عميقة في نفوس الأطفال، وتبقى الحقيقة أنّ قلة قليلة جدًا من الأطفال تتلقى الدعم أو المساعدة التي يحتاجونها لمعالجة تجاربهم وذكرياتهم المُجهدّة. وقد يمهد غياب الدعم الطريق لنتائج مستقبلية مثل تطوير اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD).

قام برند روف بتطوير مفهوم تربية الطوارئ (Emergency Pedagogy) في عام 2006، وهو مؤلّف كتاب "تعليم الأطفال المعرّضين لأحداث صادمة". يستخدم هذا التدخّل مجموعةً متنوّعةً من الأساليب والاستراتيجيات التي تهدف إلى تحقيق الاستقرار خلال المرحلة المبكرة من الصدمة. ويساعد هذا التدخل الأفراد، ولا سيما الأطفال والشباب الذين يعيشون في مناطق الكوارث والنزاعات، على معالجة تجاربهم الصادمة. إذا تُركت هذه التجارب دون معالجة، فقد تؤدي إلى تغيير مسار حياتهم وسُعياني الأطفال الأصغر سنًا من عواقب أكثر خطورة. وستكون أصول تربية الطوارئ الإطار الذي تستند إليه دراسة الحالة ضمن هذا البحث.

نظرة عامة موجزة عن الحرب وعملية النزوح

منذ بداية الحرب في غزة في تشرين الأوّل/أكتوبر 2023، يتعرّض جنوب لبنان لهجماتٍ إسرائيلية متواصلة. ووفقًا لأرقامٍ تقريبية نُشرت على منصة إعلامية لبنانية باستخدام إحصائيات من أحدث تقرير للأمم المتحدة، فقد تم تهجير أكثر من 86000 شخص من منازلهم، حيث يقيم 79% منهم مع عائلات مضيضة، و15% يستأجرون منازل، و4% ينتقلون إلى مساكن ثانوية، و2% يبحثون عن مأوى في مراكز جماعية. أُصيب أكثر من 686 شخصًا بجروح، كما قُتل ما لا يقلّ عن 25 مدنيًا، بينهم 3 صحفيين. بالإضافة إلى ذلك، حدثت خسائر بيئية شملت أضرارًا بالطيور وخلايا النحل... و أكثر من 47000 شجرة زيتون احترقت بسبب القصف الإسرائيلي (الأمم المتحدة، 2024). وسط هذا الوضع الكارثي، من الضروري أن نولي اهتمامًا خاصًا لأكثر الأفراد ضعفًا وبراءة — الأطفال الذين يعانون من العنف والنزوح خلال فترة طفولتهم الحرجة.



الرسم البياني 1: خريطة النزوح

مرحلة الطفولة

وفقاً للعالم والفيلسوف النمساوي الألماني رودولف شتاينر، فإن فترة الطفولة لها تأثير كبير على مستقبل الأفراد، فالأمور التي تحدث في السنوات الأولى من الطفولة تشكل عوامل حاسمة للحياة اللاحقة. وتتطلب هذه الفترة بيئةً مليئةً بالحب والأمل والرعاية. ومع ذلك، خلال فترات الحرب، يعاني الأطفال بشكلٍ مباشر أو غير مباشر من عواقب مروعة تؤثر على رفاههم الجسدي والعقلي على حدٍ سواء. وقد أثبتت الدراسات أنّ العديد من الاضطرابات والأمراض قد تكون ناتجة عن الحروب والصراعات. لا يستطيع الناس، وخاصة الأطفال، تحمّل مشاهدة الإصابات وفقدان الأحباء المأساوية، والأصوات العالية للقصف العنيف، والتدمير المروّع للمباني خلال فترات الحرب.

الفصل الثاني: دراسة الحالة

تتناول دراسة الحالة هذه صبي يبلغ من العمر 10 سنوات يواجه تحديات النزوح من منزله ومدرسته في بلدةٍ على الحدود الجنوبية للبنان إلى مدينة بيروت. كان الإخلاء القسري نتيجةً للهجمات الإسرائيلية المتواصلة على المنطقة. وتركز الدراسة على معالجة الصدمة المحتملة الناتجة عن هذا النزوح القسري والمفاجئ، وتقدّم رؤى حول تطوير خطة تدخل تربويّ طارئٍ تهدف إلى دعم هذا الطفل.

المراقبة الدقيقة

1. المظهر الخارجي

يبلغ الصبي متوسط الطول المناسب لعمره البيولوجي، وجسمه نحيف ومتناسب. وجهه مميّز بشكلٍ مستطيل، مع ملامح واضحة. لديه أنف طويل وعريض، وفم متوسط الحجم بشفة علوية رقيقة، وعينان كبيرتان خضراوان داكنتان منخفضتان على الجانبين. لديه هالات سوداء تحت عينيه. رموشه قصيرة، وحاجباه كثيفان وبنيان. أبرز ما يميزه هو شعره البني الداكن المجعد والكثيف. أذناه كبيرتان وبارزتان.

2. الحركة

يمشي الصبي ببطء شديد، وضعية جسده غير مستقيمة، حيث يحني كتفاه قليلاً للأمام، كما لو كان يحمل وزناً ثقیلاً عليهما. رأسه منخفض، وعيناه مثبتتان على الأرض نحو قدميه. خطواته بطيئة وقصيرة، مما يوحي بالحذر وعدم اليقين. يتوقف أحياناً أثناء المشي ويوجه رأسه وعينيه نحو والديه. مشيته هادئة عموماً، دون أي تعبيرات لفظية منه.

3. الجانب الاجتماعي والسلوكي

يُظهر الصبي سلوكاً اجتماعياً يميل إلى الانطواء. يظهر التزاماً بالمعايير الاجتماعية من خلال أدبه ومحاولاته لإظهار ابتسامه خجولة. يكون صامتاً في أغلب الأحيان ولا يبادر بالحديث، بل يرد على الأسئلة المباشرة بإجاباتٍ قصيرة. بالإضافة إلى ذلك، يعاني من التأتأة أثناء التحدث بصوتٍ منخفض.

السياق العائلي

يُحاط الصبي بحب والديه غير المتزعزع، وهما يعانيان من قلقٍ كبير بشأن سلوكياته الجديدة التي تشمل التأتأة، وقلق الانفصال عنهما، وعدم رغبته في الذهاب إلى أي مدرسة جديدة، واسترجاعه لأصوات الطائرات والقصف. يعيش والدا الصبي معاً مع أطفالهما الأربعة، والصبي هو الثاني من حيث العمر بين إخوته. يعمل والد الصبي في وظيفة تتطلب عملاً شاقاً ويكون غائباً عن المنزل معظم اليوم. أما والدته، فهي متواجدة بشكلٍ كامل وتهتم بأمور العائلة والمنزل. وفقاً لوالديه، كان للصبي دائرة واسعة من الأصدقاء في المدرسة والجوار في بلدهما، بينما في الوقت الحالي، ليس لديه أي أصدقاء في المكان الذي يقيمون فيه. ومع ذلك، يشجعه والديه على الاستمتاع بصحبة إخوته في المنزل المستأجر الجديد. عندما يلعبون معاً، يتولى الصبي غالباً دور القائد.

التفكير المتعاطف

في هذه المرحلة، يصبح التفكير المتعاطف أمرًا ضروريًا، فهذا الصبي يحتاج إلى التعاطف، ولا يعني هذا أن نشعر بألمه فحسب، بل يشمل أيضًا تجربة مشاعره المتنوعة مثل الفرح، والخوف، والحزن، والغضب، والحزن العميق... يجب أن أغوص في تجربته العاطفية وأطور تعاطفًا عاطفيًا وتواصلًا مليئًا بالرأفة، مع الحرص على عدم التسبب بصدمة ثانوية، حيث أن الصدمة معديّة. لذا، فإن تقنيات التباعد ضرورية لحماية نفسي. كما أن عملية "التفكير العقلي" ضرورية في هذه المرحلة، حيث تمكّني من فهم أفكاره ومشاعره ونواياه، وتتيح لي أن أفهم كيف سأشعر إذا تحدثت أو مشيت أو تصرفت مثله، أو بمعنى آخر، تكوين أفكار حول عالمه الداخلي.

بالتعاطف مع وضعه، فإنّ فكرة هجر بيته الخاص، وألغابه المفضلة، والمدرسة التي اعتاد عليها، والحي الذي يعرفه، للانتقال إلى مدينة جديدة تمامًا هي فكرة محطّمة للقلب، خاصة عندما يحدث هذا الانتقال بين عشية وضحاها. فبعد أن عاش حياته كلها في مسقط رأسه، شكّلت فكرة الانتقال إلى مدينة تبعد ثلاث ساعات تحديات كبيرة، إذ حملت معها مجموعة جديدة من التجارب. فالحياة في البلدة توفّر حرية اللعب في الهواء الطلق، والتواصل مع الطبيعة، والتفاعل داخل مجتمع متماسك. لكن الانتقال إلى حياة المدينة يمثل تحديًا، لا سيما عند عدم معرفة المحيط والأشخاص. علاوة على ذلك، في سنّه هذا، فإنّ استيعاب تعقيدات العالم، مثل العنف والصراعات التي لا يمكن تفسيرها، يعتبر مهمة صعبة. يمكن أن يطرح على نفسه الكثير من الأسئلة حول سبب انخراط الناس في أعمال ضارّة ومدمّرة. كما أن الشعور بأنه يُعاقب دون ارتكاب أي ذنب قد يكون طاغيًا. قد يبدو تبرير مغادرة المنزل والمدرسة غير واضح بالنسبة إليه. عندما أضع نفسي في مكانه، أساءل كيف سأتعامل مع مثل هذه التغييرات الجذرية. بالإضافة إلى كل التحديات المذكورة، يلاحظ أيضًا الصبي العجز والإحباط لدى والديه، اللذين يكافحان هما أيضًا من أجل التكيف.

تحليل الحالة

سأتعامل مع هذه الحالة مستندةً إلى المعلومات المكتسبة من الوحدات السبع الشاملة في تدريب حول أصول تربية الطوارئ، ومن الكتاب المشوّق "تعليم الأطفال المعرّضين لأحداث صادمة" لبرند روف، مع مراعاة الكثير من المبادئ النظرية والنصائح العملية، بهدف تطوير خطة تدخّل فعّالة.

أولاً، من المهم أن نتذكر أن الطفل المعرض للصدمة في النهاية لا يزال طفلاً. ومع ذلك، فهو يحمل روحاً جريحة تحتاج إلى الشفاء تماماً مثل أي جرح جسدي. إنه بالتأكيد طفل جديد الآن نظراً لقوة التحول التي تسببها الصدمة، إذ تغيرت أفكاره ومشاعره وسلوكياته. في تصنيف الحالات الطارئة، تعتبر الحروب كارثة من صنع الإنسان، ولمثل هذه الكوارث قدرة أكبر على إحداث الصدمة، مقارنةً مع الكوارث الطبيعية. ويمكن أيضاً تصنيفها كصدمة تراكمية، حيث يمرّ الصبي بسلسلة من الأحداث المجهدّة (مغادرة مسقط رأسه، ترك المدرسة، الانتقال إلى مكان إقامة جديد، إلخ).

الصبي في منتصف مرحلة الطفولة (7 - 14 عاماً). خلال هذه المرحلة التنموية المحددة، يجب أن تأخذ التدخلات نهجاً فنياً.

الفصل الثالث: خطة التدخل

- مساحة آمنة صديقة للطفل

كانت بلدة الصبي تشكّل بالنسبة له دائماً بيئة آمنة ومأمونة. ومع ذلك، أصبحت الآن عرضة لهجمات متواصلة، فتزعزع الأمان الذي كان يشعر به دائماً في هذا المكان، وعطلّ إحساسه بالأمان. وبالتالي، تتضمن الخطوة الأولى في أي خطة تدخل إنشاء مكان آمن للطفل، بحيث يجب أن يشمل الأمان الأبعاد الخارجية والداخلية على حدّ سواء. ويعدّ إنشاء مساحة آمنة وصديقة للطفل، تسترشد بمبادئ الجمال والبساطة والدفع، أمراً محورياً في تدخل أصول تربية الطوارئ للأطفال المتضررين من صدمات النزوح بسبب الحرب، وهذا ما يضمن الحماية. علاوةً على ذلك، فإنّ فقدان الأمان في العالم الخارجي، الذي كان يعتبر سابقاً "مكاناً آمناً"، يدمّر إحساس الفرد بالأمان الداخلي على المدى الطويل. يحتاج الأطفال المعرضون للصدمة إلى أكثر من مجرد أمان جسدي، إذ يجب عليهم أيضاً أن يشعروا بالأمان الذاتي لمعالجة جروحهم النفسية.

- الإيقاع

أدى النزوح القسري والمفاجئ إلى اضطراب إيقاع الصبي اليومي والروتين الخاص به، ممّا أثر على شعوره بالأمان. كما أنه يستمر في تذكر أصوات القصف والطائرات، ممّا يعني أن إيقاعه في التذكر والنسيان أصبح الآن غير متزامن. لذلك، فإن استعادة الإيقاع في حياة الطفل يعدّ أمراً ضرورياً لأنه يعني الأمان والاستقرار والتوجيه. فالإيقاع هو جزء لا يتجزأ من مختلف جوانب التجربة والوجود البشري. هناك إيقاع في كل شيء، سواء في دورة الفصول،

أو شروق وغروب الشمس، أو مراحل القمر، وكذلك الإيقاعات البيولوجية في جسم الإنسان مثل إيقاع التنفس، وإيقاع القلب. يعاني الأطفال الذين تعرضوا للصدمة من اضطراب في الإيقاع، لذلك فإن وجود يوم منظم بإيقاعات وطقوس واضحة يوفر لهم الأمان والتوجيه. يجب أن يكون هناك وقت لكل شيء، مثل اللعب، والأنشطة الفنية، والحركة. لقد ثبت علمياً أن الإيقاع المضطرب يمكن أن يؤدي إلى أمراض مختلفة. لذلك، هناك حاجة ملحة للشعور بالاستقرار للتكيف مع هذه التغييرات المفاجئة والوضع الجديد. إن إنشاء هيكل يومي يعتبر أمر ضروري لخلق بيئة متناغمة للطفل.

- التواصل

تعرض الصبي لتغيير مفاجئ دون أي فترة انتقالية أو مرحلة تحضيرية. لذلك هناك حاجة ماسة للتواصل الشفاف مع الصبي. وبالتالي، من المهم توفير معلومات واضحة وصادقة له، تتناسب مع عمره البيولوجي ومستواه العقلي، حول الدوافع السياسية وراء الهجمات الحالية على جنوب لبنان، إذ سيساعده ذلك على فهم الوضع وإعداده لأي أحداث مستقبلية. على المستوى اللغوي، من المهم استخدام جمل قصيرة مع نطق واضح تقدم ضمن سياقٍ داعم ومليء بالمحبة.

- العلاج النطقي

بدأ الصبي مؤخراً بالتأتأة، وهو تعبير عضوي عن الخوف. ويظهر لديه اضطرابات في تنفسه وجهازه التنفسي. يمكن أن يؤدي علاج النطق دوراً مهماً في مساعدته على التغلب على تحديات التواصل (التأتأة) الناتجة عن تجربته الصادمة، مما يعزز وسيلة أكثر فعالية للتعبير عن الذات. يمكن لأنشطة مثل اللعب بالأبيات والقوافي، مدعومة بالإيماءات والحركات، أن تساعده في التغلب على اضطراب النطق. فالذكريات والنطق مرتبطان، وفي حالات الصدمة، يكون مركز اللغة في الدماغ غير وظيفي ومشلول. لذلك، فالعلاج اللغوي ضروري لتكوين وتعزيز الروابط العصبية التي تتأثر أثناء التجارب الصادمة. لذا، فإن مساعدة الطفل في التعبير عن تجاربه من خلال النطق يؤدي دوراً حيوياً في تعزيز الروابط العصبية. ومن الجيد ملاحظة أن التواصل لا يعني التعبير اللفظي فحسب، رغم أنه مفيد جداً، فقد يشمل أيضاً أشكالاً مختلفة من التعبير غير اللفظي.

- الأنشطة الفنية

لا يتحدث الصبي عن تجربته أو يعبر عن مشاعره، فهو غالباً ما يكون صامتاً. ومن هنا

أهمية دمج الأنشطة التعبيرية غير اللفظية الإبداعية. فالمشاعر بحاجة إلى وسيلة للخروج، والأنشطة الفنية مثل الرسم والتلوين لها تأثير علاجي، فهي تسهل على الطفل القدرة على التعبير عن مشاعره بشكلٍ غير لفظي، من خلال تحريرها وإسقاطها على الورق.

- التمارين الإيقاعية وتقاطع الأطراف

الصبي عالق في أفكاره ويستمر في تذكر أصوات المروحيات والقصف على بلده. لذلك، تؤدي عملية دمج الأنشطة الإيقاعية وتمارين تقاطع الأطراف إلى تعزيز تنسيق وظائف الدماغ وتحسينها. يمكن أن تسهّل هذه التمارين إعادة الاتصال بين نصفي الدماغ، وهي تتضمن حركات مثل لمس الركبة اليسرى باليد اليمنى أو حك الخد الأيسر باليد اليمنى، مما يعزز التزامن بين نصفي الدماغ الأيسر والأيمن. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لممارسة التمارين البصرية المحددة والمشي الإيقاعي المساهمة في تحقيق التزامن بين نصفي الدماغ. ويمكن لألعاب الخيط والحبل أيضاً تحسين وظائف الدماغ، والشبكات العصبية، والمهارات الحركية.

- سرد القصص

يعاني الصبي من مشاعر الوحدة نتيجة غياب أصدقائه من المدرسة والجوار الذين اضطروا إلى تركهم عندما غادر من مسقط رأسه. لذلك، فإنّ الاتصال بالعالم الخيالي من خلال سرد القصص مسألة ضرورية، إذ ستحميه القصص من الوحدة والملل وتوفّر له أيضاً مساحة آمنة للتعامل مع مخاوفه ومعالجتها. يمكن للصور الجميلة التي تنقلها القصص أن تحلّ محل الصور المرعبة. من المهم أيضاً أن يشارك في سرد قصّته، لكن يجب أن يكون مستعداً وراغباً في القيام بذلك. ويشكّل توفير مكان آمن وأذن صاغية له أهمية كبيرة في هذه المرحلة. يمكن لأنشطة الدراما، ولعب الأدوار، وعروض الدمى أن تدعم القصص وتمنح الصبي فرصاً للتعبير عن نفسه دون خوف.

- العلاج بالموسيقى

يواجه الصبي صعوبة في التعبير عن مشاعره لفظياً. كما أنه يسترجع ذكريات سمعية لأصوات المروحيات والقصف. وبالتالي، يمكن دمج العلاج بالموسيقى في خطة التدخل الخاصة به، مما يوفّر له مدخلاً سمعياً إيجابياً بديلاً. كما يمكن للاستماع إلى الموسيقى أو العزف أن يساعده على الاسترخاء ويحوّل انتباهه بعيداً عن الأفكار المثيرة للقلق.

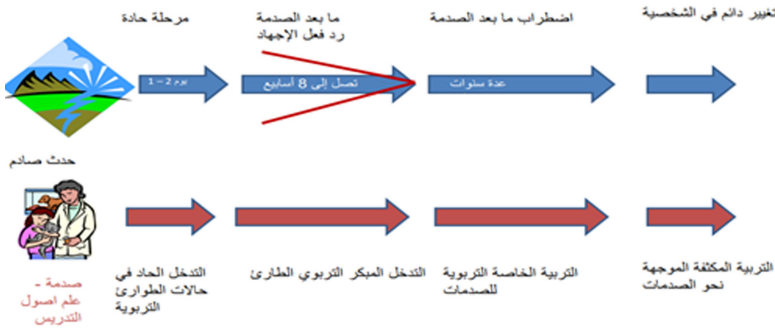
- الأنشطة الطبيعية

كان للصبي علاقة قوية مع الطبيعة في مسقط رأسه، ولكن وجوده الآن في المدينة يقيد فرصه في قضاء الوقت في الهواء الطلق. لذلك، يمكن أن تساعد الأنشطة الطبيعية في خطة التدخل على إعادة الاتصال بالتجارب الإيجابية المرتبطة بالطبيعة التي كان يستمتع بها في مسقط رأسه. فهو يحتاج إلى إعادة إحياء اللحظات المبهجة في الهواء الطلق والانخراط في الأنشطة التي كانت جزءاً من الروتين الخاص به، كما ستوفر له البيئة الطبيعية تأثيراً مهدّئاً ومدخلاً حسيّاً غنياً.

- العلاج بمساعدة الحيوانات

يشعر الصبي بالوحدة بعد مغادرته مسقط رأسه، لذلك يجب دمج العلاج بمساعدة الحيوانات في خطة التدخل. يمكن أن يكون التفاعل مع الحيوانات مفيداً جداً للأطفال الذين تعرّضوا لصدمات، حيث توقّر الحيوانات (خصوصاً الأليفة) الرفقة والمحبة، إذ ثبت أنها تقدم دعماً عاطفياً للأطفال الذين يشعرون بالوحدة والعزلة.

التطبيق المستقبلي والتقييم



الرسم البياني 2: الصدمة النفسية والتدخل التربوي

يجب تطبيق أصول تربية الطوارئ خلال مرحلة الصدمة الحادة، والتي تشمل الساعات والأسابيع الأولى بعد وقوع الحدث المؤلم. تحدّد هذه الفترة ما إذا كان بإمكان الأطفال والشباب التعامل مع تجاربهم المجهدة ودمجها في سيرتهم الذاتية، أو سيعانون من اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD). فيما بعد (روف، 2015).

يعاني الأطفال الذين تعرّضوا للصدمات من فقدان الثقة في العالم وفي الآخرين وفي

أنفسهم. وهذا يعني أن الخطوة الأولى في أصول تربية الطوارئ تكمن في تعزيز علاقة إيجابية بين المربي والطفل. هذا وتؤدي شخصية المربي دورًا كبيرًا في هذا النوع من التعليم، حيث يجب أن يكون مستقرًا عقليًا وهادئًا، مما سيمنح الطفل شعورًا بالقبول والأمان. يمكن للمربي أن يكون قدوة إيجابية يمكن ربطها بتجارب التعافي (روف 2013، ص. 88).

بعد تنفيذ خطة التدخل، من المتوقع أن نلاحظ تغييرات إيجابية في سلوك الصبي، والتي قد تشمل تحسّن تدفق الكلام، والاعتماد على الذات والاستقلالية، والحدّ من التهرّب، وعدم رفض الذهاب إلى أماكن جديدة. وقد تتضمن مؤشرات هذه التغييرات: استرخاء الجسم، وزيادة سرعة المشي، وزيادة التواصل الاجتماعي، والابتسامات المتكررة، والانخراط في الأنشطة. يمكن جمع البيانات حول التغييرات المحتملة من خلال مراقبة الطفل في بيئات مختلفة، والتفاعل معه، والنقاش مع والديه.

الأهل

إنّ والدي الطفل يشعان بالإحباط، وهما في حاجة ماسة للمساعدة، فهما غير قادرين على فهم سلوكيات طفلهما الجديدة. يجب ألا يغيب عن ذهننا أن والدي الطفل المتعرّض للصدمة قد يكونان هما أيضًا قد تعرّضا لصدّمتين شديديتين. قد يكون لديهما ذكريات للهجمات نفسها التي تعرّضت لها منطقة الجنوب. لذا يجب تقديم إرشادات نفسية وتربوية وتقنيات طارئة لهما لتخفيف المعاناة. يمكنهما ممارسة تمارين التنفس، ويمكن توفير فرص لهما للتعبير عن مخاوفهما ومناقشتها مع أشخاص يشاركونهما تجارب مماثلة. ومن الضروري أن يحافظ والدا الطفل على الاستقرار العقلي والهدوء الداخلي، حتّى يتمكّنوا من نقل الهدوء إلى طفلهما المتعرّض للصدّمتين. يحتاج الأهل، بالإضافة إلى مساعدتهما في تحسين رفاهما، إلى فهم التغيّرات السلوكية والتقلّبات العاطفية التي يعاني منها طفلهما بعد تعرّضه لتجربة صادمة. ويصبح من الضروري شرح طبيعة الصدمة للوالدين، وكيف تتجلّى، وأهداف خطة التدخل السلوكي للطفل. يعرّض هذا الفهم بيئة أكثر دعمًا، مما يمكّن الوالدين من تلبية احتياجات طفلهما بصورة فعّالة (روف 2013، ص. 95). ينبغي أيضًا تشجيع والدي الطفل على تقديم تغذية متوازنة في المنزل، إذ يتأثر جهاز المناعة لدى الطفل وصحّته العامة ورفاهه البدني بالتغذية. ويشكّل النوم الجيد والنظافة الشخصية السليمة أيضًا عوامل مساهمة.

الفصل الرابع: الخاتمة

الأطفال هم المستقبل، ولديهم القدرة على إحداث تغييرات إيجابية في المجتمعات. من هذا المنطلق، فإنّ توفير الدعم لهم لمعالجة صدماتهم في أعقاب تجربة صادمة هو أمر بالغ الأهمية. فهذا ليس مجرد تعاطف ولفتة إنسانية، بل هو أيضاً استثمار في تطوير المجتمعات والدول المتأثرة بالأزمات والكوارث. ويشكّل التعليم أداةً واسعة النطاق وقوية تعمل كعامل حماية، وينبغي على جميع البلدان الاستثمار في التعليم من أجل التطوّر والازدهار. أخيراً، من المهم النظر إلى التجارب الصادمة كفرص للنضج والنمو. فمثلاً تتطوّر مناعة أجسامنا من خلال التغلب على الأمراض، يمكن للأفراد بناء القدرة على الصمود بعد الأزمات والتجارب الصادمة.

المراجع:

- Institute for Economics and Peace (2022). Global Peace Index 2022—World [online] available at: <https://reliefweb.int/report/world/global-peace-index-2022> [accessed: 31 January 2024]. Ruf, B. (2015). Organisation and Intervention Manual for Emergency Pedagogical Crisis Interventions in War and Catastrophe Regions. [Online] Available at: https://www.freundewaldorf.de/fileadmin/user_upload/documents/Notfallpaedagogik/Publikationen/15_10_2015_NF_P_Leitfaden_E_online.pdf (Accessed: December 2023). Ruf, B. (2013) Educating Traumatized Children: Waldorf Education in Crisis Intervention. (Saar, M.M., Trans.) Hudson, NY: Lindisfarne Books. United Nations. (2024). LEBANON: FlashUpdate#10-Escalation of hostilities in south Lebanon. Retrieved from file:///C:/Users/sandra.rouhana/Downloads/LebanonFlashUpdate.10_final%20(1).pdf UNHCR (2021b). Global Trends Report 2021 [online] available at: <https://www.unhcr.org/publications/brochures/62a9d1494/global-trends-report-2021.html> [accessed: 31 January 2024]. UNHCR (2021c). The Displaced and Stateless of Myanmar in the Asia-Pacific Region. UNHCR, pp. 1–7.

العمارة الأندلسية في عصر دولتي المرابطين والمؤحدين 484 – 620 هـ / 1091 – 1223 م المساكن أنموذجاً

سلام ضاهر

مدخل:

إن تقاليدنا في الكتابة عن الفنون الجميلة بشكل عام وعن العمارة بشكل خاص هي حديثة العهد. وبالتالي فإن ثقافتنا العامة في الموضوع فقيرة جداً ، مما يُفسّر جزءاً كبيراً من فوضى المفاهيم والأحكام القِيَمِيّة حول كل ما له علاقة بالعمارة بمعناها المحصور الذي يتناول المبنى بذاته وبمعناها الشامل الذي يتناول جميع المباني وعلاقتها المُعقّدة مع بعضها وتشكيلها معاً النسيج العمراني وشخصية المستوطنة قرية كانت أم مدينة . كل ذلك انطلاقاً من القناعة الراسخة بأن الأسباب بتعدد أنواعها وطبيعتها هي التي تقرر النتائج وتتحكم بالنهايات ، وليس هناك مثل العرض والتشريح طريقة مفيدة لاكتشاف الواقع والاستفادة منه في سبيل المبتغى .

• الإشكالية :

نالت الدراسات العمرانية في الأندلس لا سيّما المساجد والقصور عناية بعض الباحثين ، حيث أن الجوانب السياسية قد درست في غالبيتها . ولم تحظ المساكن الأندلسية في عصر المرابطين والمؤحدين بدراسة تُبرز أهميتها وعناصرها وخصائصها . من هنا كان التوجّه لتناول هذا الموضوع في تاريخ الأندلس . حيث أن كثيراً من الموضوعات تناولت المساجد والقصور في المدن

الأندلسية بشيءٍ من التفصيل . ولكن لم تتوفر دراسات وافية عن المساكن الأندلسية في عصر المرابطين والموحدين فكان الاتجاه نحو دراسة هذا الجانب من النماذج العمرانية . السؤال الذي يُطرح هل لهذا النموذج من العمارة ميزة خاصة ؟ أم أنه كان على غرار النماذج التي عُرفت في الأندلس في عصر الخلافة وعصر ملوك الطوائف ؟ وهل المستندات للتناول في هذا البحث تفي الموضوع حقّه ؟

• الفرضية:

على الرغم من أهمية صناعة البناء في الأندلس ، غير أنها لم تعالج المساكن بأبحاث تتناسب مع أهميتها. لهذا كان البحث في هذا العنوان بشكل موجز لا يخل بالموضوع، في محاولة لإبراز أهميتها من الناحية المعمارية مع إشارات لأهميتها الاجتماعية . وتكمن صعوبة البحث في هذا الموضوع في قلة المصادر والمراجع التي تتحدث عن المساكن في مدن الأندلس في عصر المرابطين والموحدين بشكل عام . إلا إن بعض المصادر حوت معلومات متفرقة ، فكان العمل على جمعها وتنسيقها من أجل إعطاء صورة واضحة حول هذا النموذج من المنشآت العمرانية . وتعد المصادر التاريخية أهم مصادر الدراسة، حيث قدّمت معلومات هامة عن اهتمام الحكّام وعلية القوم بالمنشآت العمرانية التي أقاموها ومنها المساكن موضوع الدراسة. أما كتب الجغرافيا فقد اشتملت على ذكر إشارات لمختلف العمائر في المدن الأندلسية ، فكانت من المصادر الهامة في كتابة هذا البحث ، إضافةً إلى المراجع الحديثة .

المقدمة:

المسكن هو الملجأ الذي يأوي إليه الإنسان وهو أحد النماذج العمرانية التي عرفها الإنسان والأخيرة هي نتاج حضاري لأي قوم في الأرض وترتبط بالفرغ الداخلي والخارجي وبالتقنيات والإنشاءات إلى جانب الأداء الوظيفي والتكويني ، وتتضمن المحتوى الخاص بالمبنى والداخل ربطاً بالنظام والأداء . وترتبط بالمكان والزمان وتشمل التقليد والثقافة والعقيدة ، والروابط الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب التفاعلات المنطقية والجغرافية إضافةً إلى التأثيرات النفسية والبيئية المحيطة . من هذا الموجز سيكون الحديث عن المساكن الأندلسية في عصر المرابطين والموحدين ولن يتم التطرق إلى الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحضاري ، لأن المراد من هذا البحث تسليط الضوء على مساكن الطبقة الحاكمة ودور العامة والفقراء، والمواد

المستخدمة في بنائها وعناصرها الإنشائية وخصائصها وأبرز ميزات الزخرفية .

1 - مساكن الطبقة الحاكمة (القصور)

اهتمت الطبقة الحاكمة من المرابطين والمؤحدين بتشييد القصور الفخمة الشاهقة والمنيعة والشاسعة ، إضافةً إلى الدور ” فهي الأكنان لمأوى الأنفس والمُهَج والأبدان ” (1) ، وكذلك عملوا على ” تحصينها وحفظها ” (2) كقصر قرطبة الذي أصلحه المرابطون بعد أن تعرّض للنهب والتخريب ، من أيام الخلافة الأموية ولكنه في عصر المؤحدين أصبح أطلاً (3) .

إلى جانب القصور اهتم المرابطون والمؤحدون بإنشاء القصور الخاصة بهم ، فقد بنى ” علي بن يوسف ” (4) قصرًا في إشبيلية كان ينزل به كلما حلّ بالأندلس وهو غاية في الحسن (5) ومن القصور يمكن الإشارة إلى قصر فتقوت في سهل مرسية ، ويعتبر هذا القصر المثل الأول الذي احتذاه المؤحدون في قصورهم في إشبيلية وقرطبة ومالقة ، ويتميز بالتناسق التام في الخارج سواء في سوره أو مداخله وفي توزيع غرفه ، ويبدو من الخارج حصناً منيعاً ، ترتفع جدرانها في شموخ وقد تبقى من هذا القصر جدرانها التي لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة أمتار (6) . كما وجد في ضواحي قرطبة كثير من القصور المزيّنة بالحدائق مثل منية الزبير المنسوبة إلى الأمير ” الزبير بن عمر ” الملقب صاحب قرطبة (7) .

وفي العهد المؤحدي كان الاهتمام ببناء القصور كبيراً ، ففي عهد ” عبد المؤمن بن علي ” تم بناء العديد من القصور والديار المبنية بالحجر والجيار (8) . وقد حظيت إشبيلية في عهدهم بالاهتمام ، فأسسوا بالإضافة إلى قصور ” بني عباد ” ، قصوراً ” عظيمة ، وأجروا فيها المياه وغرسوا البساتين فزاد ذلك في حسن هذه المدينة ” (9)، وأشهر هذه القصور هي ” قصور البحيرة ” خارج باب جهور ، وقصور أخرى للسادة الأمراء خارج باب الكحل . فأما قصور البحيرة فقد أمر ” أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ” (10) ببناء قصوره المكرمة السعيدة المعروفة بالبحيرة خارج باب جهور من إشبيلية في الموضع المعروف عند الناس قديماً بقلم فرعون (11) ، وفي هذا المكان ابنتى العرفاء القصور ودوراً للأمراء ، فبنيت القصور التي ابتناها العريف ” محمد بن المعلم ” لأخيه السيّد الأعلى ” أبو حفص ” (12) على وادي إشبيلية خارج باب الكحل (13) وقد أشرف على بناء قصور البحيرة ودور الأمراء العريف ” أحمد بن باسة ” عريف البنائين في الأندلس .

ما هو جدير بالذكر أن قصور المؤحدين في إشبيلية توزّعت في القصبتين التي أقامها ” أبو يعقوب بن يوسف ” الداخلية وتضم قصور بني عباد وما أضيف إليها من قصور المؤجدين

ضمن دائرة المدينة . أما القصبية الخارجية فقد أقيمت خارج باب الكحل وتحيط بقصور السادة الأمراء أخوة الخليفة وأبنائه (14) .

أما ” المنصور المؤحدي ” (15) فقد أمر ببناء حصن على نهر إشبيلية عرف باسم ” حصن الفرج ” بنى فيه قصراً وقباًباً ” جارياً في ذلك على عادته في حب البناء وإيثار التشييد ، فإنه كان مهتماً بالبناء وفي طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها ” (16) . وقد بنى ولاية المؤحدين في الأندلس قصوراً في المدن التي كانوا يحكمونها ، فكان من أبداع القصور خارج قرطبة ، قصر السيد ” أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن ” (17) وهو على متن النهر الأعظم تحمله الأقواس وقيل للسيد : ((كيف تأنت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة ؟ فقال : علمت أنهم لا يذكرون والياً بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقي من رؤوسهم من الخلافة المروانية ، فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر به على رغمهم)) (18) .

وكان قصر حاكم مالقة المؤحدي بالقرب من مسجد الجامع (19) ، وقد عرف أن سهل مالقة كثير القصور والبساتين ، ذات المرأى العجيب ، وكان بها قصور مبنية بسفوح الجبال (20) . وفي مريبطر (21) كان هناك قصر الثائر بها ” أبي عيسى بن لبون ” (22) .

2 - بيوت العامة:

هي بيوت متواضعة ، صغيرة جداً وبسيطة وتتكون من دهليز يستوي فيه الباب الخارجي والباب الداخلي متواجهين أو متجانبيين ، وصحن صغير مربع ومرحاض بداخله مصطبة وبالوعة ومسارب معزولة عن الدار . هذه النماذج من البيوت وجدت في مالقة . وعثر كذلك في هذه البيوت على درجات عالية ضيقة وهذا يؤكد وجود طابق علوي بالدار وكذلك بقايا حَمَام صغير (23).

ووجد في إشبيلية منازل تتكون من سور يحيط بالبيت وأسطوان وصحن تتوسطه نافورة وحولها ممرات ذات أعمدة تؤدي إلى مختلف الحجرات ، وفي المنازل الكبيرة توجد أكثر من مساحة وبالطريقة نفسها (24) وقد بدأ ظهور الصحن قبل المرابطين لكنّه انتشر على عهدهم في الأبنية (25).

أما منازل الفقراء فهي عبارة عن ممرات متواضعة متعرجة يوصل إلى الأول باب ليس في مقابل الباب الخارجي . حتى لا يستطيع من في الخارج رؤية من بالداخل . وصحن صغير ، وفيه تقوم المرأة بأعمالها المنزلية ، ويقضي السكان جزء من وقتهم فيه ، كما أنه مرتع للعب ولهو الأطفال ، ويعلو هذا الطابق طابق آخر يصعد إليه بسلاسل ضيقة عالية . وفي

هذا الطابق توجد غرف النساء والحياة الخاصة لسكان البيت . وكشفت الحفائر على أن البيوت لم تكن كثيرة الغرف ففي مدينة المرية (26) وجد دار في ريبض الحوض ، يتضح منه وجود قاعة بجانبها مخدع (27) . كان أصحاب هذه البيوت يعملون على صيانتها بشكل دائم ، فيأتون بالصنّاع والبنّاؤون (28) ، كذلك النشارون والكناسة والكنافون (29) . ما هو جدير بالذكر أن هذه القصور والبيوت كانت تتعرض للتخريب والهدم أثناء الغزو والاستيلاء عليها . حيث كانت المدن المحتلة تتعرض للحرق والتدمير والنهب. ومن الأمثلة على ذلك وعلى سبيل المثال لا الحصر ، النهب الذي تعرضت لهما مدينة يابسة (30) وميورقة (31) ، حين غزاهما أهل جنوى عام 508 هـ / 1114 م (32) كذلك الحريق الذي تعرضت له مدينة بلنسية عندما اشعلت امرأة القنبيطور النار فيها قبل خروجها منها عام 495 هـ / 1102 م (33) . وكذلك كما حدث في ثورة أهل قرطبة عام 515 هـ / 1121 م عندما تدافع الناس على قصر حاكم قرطبة الأمير أبي يحيى بن رواده ، الأمر الذي انتهى بنهب القصر واحرقه . إضافة إلى قصور المرابطين في تلك الثورة (34) .

3 - المواد المستخدمة في البناء

من المعلوم أن المادة الأولية التي استخدمها الانسان في عملية البناء هي الطوب (35) والحجر في أي بقعة من بقاع الأرض وعلى امتداد العصور التاريخية . وهذا ينطبق على عصر دولتي المرابطين والمؤحدين موضوع الدراسة إضافة إلى بعض المواد الأخرى . هذا ما سيعرض له بشكل موجز لا يخل بالمضمون .

استخدم الأندلسيون في عصر دولتي المرابطين والمؤحدين في تشييد القصور والدور الفخمة الطوب والحجر كما ذكر أعلاه إضافة إلى الجيار (36) وكذلك الحصى (37) والرمل (38) لا سيما في بناء الأسوار (39) .

أما أرض القاعات فكانت تبنى بملاط (40) خلط بالزيت ليكتسب فيما يبدو لمعاناً وقوة (41) . ودلت الحفائر أن الغرف كانت مجصّصة من الداخل ، مبلّطة بقطع من الحجر (42) الصلب الضخم على شكل بلاطات رقيقة .

أما أحواض المياه فهي من الرخام (43) لا سيما الرخام الأبيض (44) . من الأهمية بمكان القول إن القصور الأندلسية كانت تتبع نظامين .

• الأول: هو نظام القاعات الموزعة حول فراغ مركزي يشغله الصحن الداخلي.

• الثاني: نظام القاعات التي تتكون من بلاطات عمودية على الجدار الذي يتوسطه عرش الحكم . وتفصل بين هذه البلاطات صفوف من الأعمدة . وكانت هذه النظم المعمارية مثلاً احتذته قصور المؤحدين .

بينما تميّزت جدران القصور بتقانة البناء بالحجر المصقول واكتست بكسوات حجرية وجصية دقيقة .

أما بيوت العامة فكان يستخدم في بنائها القراميد (45) والأجر (46) والطوب بعد أن يبيّض ، وكذلك الجبس والرماد والجير (47) وانتشرت كسوة الجدران بالزخارف الجصية لا سيما في مباني المؤحدين في إشبيلية ومالقة وقرطبة (48) .

4 - خصائصها العمرانية

قدّم حسن علي حسن وصفاً لبعض خصائص العمران المرابطي فقال : ((وقد امتازت مباني المرابطين بالفخامة والقوة والاتساع مع الإقلال من الزخرفة وهذا يتماشى مع المبدأ الديني الذي نشأوا عليه مع ميلهم إلى البساطة)) (49) ، بينما ذهب إبراهيم حركات إلى أن المرابطين ”عناو بنصر القوة والمناعة في مبانيهم قبل عنصر الفن والزخرفة (50)“. أما يوسف أشباح فرأى أن ملوك المرابطين أولوا عناية ببناء القصور الشاسعة وكانوا يراعون في جميع منشآتهم العناصر الضرورية قبل عناصر الفخامة والجمال وقد أنشأوا مع ذلك بعض الأبنية من المرمر ذات حدائق غنّاء (51).

بالمقابل عرض فرانسيسكو بيدال كاستور وصفاً للفن المعماري المؤحدي فقال : ((وفيما يخص الفن المعماري المؤحدي فقد تميّز باهتمامه بالبناء الشاهق وقلة الزخارف ، لكن دون المساس بتناسقه الإجمالي ، ... وعلى الرغم من أن هذا الفن تخلّى في الأخير عن بساطته الصارمة ليلجأ إلى استعمال الأشكال الزخرفية ... إلا أن عظمة البناءات تُبيّن في ذات الوقت قوّة ومثانة الدولة المؤحدية)) (52).

استناداً إلى ما تقدّم ، يمكن القول أن قصور المرابطين والمؤحدين كانت بمثابة قلاع مشيّدة ، محاطة بجدران عالية ، فريدة بمساكنها المنبسطة .

وقد كشفت بعض المصادر عن عدد من الخصائص التي ميّزت القصور والدور أهمها :

1. فخامة البناء : اهتم المرابطون والمؤحدون ببناء القصور الفخمة الخاصة بهم ومن الأمثلة على ذلك على سبيل المثال قصر علي بن يوسف في إشبيلية (53)
2. التناسق التام في الخارج سواء في سور القصور أو مداخلها وتوزيع غرفها كما هي الحال في قصر منتقوط في سهل مرسية ، ويعتبر تصميم هذا القصر الأنموذج الأول الذي احتذاه المؤحدون في قصورهم في إشبيلية وقرطبة ومالقة (54) .

3. الحدائق : تميّزت قصور المرابطين والمؤحدين بكثرة الحدائق الملحقة بها لتزيين ساحاتها ، وقد ورد الكثير منها في المصادر التي أرّخت لتاريخ المغرب والأندلس ، وكان للحدائق العربية في المغرب والأندلس صفات اختلفت عنها لأنها أنشئت على أسس علمية وهندسية ، من ذلك أنها كانت تشغل الفناء الداخلي للقصر أو دار السكن ، وتحتوي على شرفات مكشوفة يصعد إليها ببضع درجات ، كما تحتوي على قنوات مكسوة بالقيشاني تخترق المحور الأوسط للفناء ، وكانت هذه القنوات تغذي المسطحات المائية في الحدائق كالبرك والبحيرات والنافورات . وقد تعاطى المهندسون مع المسطحات المائية بدقة ، فاختلف توزيعها وحجمها حسب ما اقتضاه المبنى وغدت كمرآة عاكسة لخضرة الحديقة وألوان البناء التي يغلب عليها اللون الأحمر . وكما هو وارد في النصوص التاريخية حول الحدائق بأنها كانت مغروسة بأشجار الليمون والبرتقال والأزهار ، وهذا ما تميّزت به ضواحي قرطبة، لا سيّما منية الزبير المنسوبة إلى الأمير ” الزبير بن عمر المثلث ” صاحب قرطبة (55) ، وكذلك تميّزت إشبيلية ببساتينها الملحقة بالقصور ، بعد أن أصبحت قاعدة ملك بني عبّاد وبعد أن صيّرهما المصامدة منزلاً لهم أيام كونهم بالأندلس (56) .

ما يلفت الانتباه أن هذه البساتين الملحقة بالقصور عُرسّت بأشجار الزيتون والأعناب والكمثرى والإجاص المسمى بالعبر والتفاح (57) .

وقد عرفت مالقة بأن سهلها قصور وبساتين (58) ، والأمر نفسه في مريبطر حيث الحدائق الغناء التي تحيط بقصر أبي عيسى بن ليون (59) (60) .

من الأهمية بمكان القول إن منازل العامة حاكت قصور الطبقة الحاكمة ، ففي صحن الدار كانت تزرع شجرة أو أكثر كما هو حال منازل مالقة التي تمتاز بأشجارها (61) ، وكذلك في إشبيلية حيث وجدت دور تنمو بها أشجار مخضرة على الدوام (62) .

4. إضافة إلى ذلك تميّزت القصور بوجود أنابيب من الرصاص ومسارب وذلك لرفع المياه إلى القصور (63) . وقد حرص الخلفاء على إيصال المياه إلى قصورهم وأوكلوا الأمر إلى مهندسين تعاملوا مع الخطة بذكاء وفطنة . وخير دليل على ذلك المهمة التي أقيمت على عاتق المهندس الحاج يعيش المالقي الذي عمل على تتبع جسر روماني قديم للمياه والحفر حتى اهتدى إلى أصله قرب قلعة ، فأصلحه وبعد ذلك أمر الخليفة بإخراجه إلى داخل إشبيلية وإلى قصور بني عبّاد لتعم الفائدة وينتفع الناس من مياهه في شربهم ومرافقهم ، ثم أمر ببناء محبس للمياه في حارة ميور وتقابلها اليوم حارة الماء (64) .

أما بيوت العامة فامتازت بوجود آبار ضمن محيطها كما هو حال منازل مالقة، نظراً لافتقارها إلى المياه الجارية (65) .

5. إلى جانب هذه الخصائص تميزت القصور باحتوائها على صحن يتوسطها . من الأمثلة على ذلك على سبيل المثال لا الحصر ، قصر منتقوط في سهل مرسية (66) .
- ويعتبر الصحن جزء رئيسي في كل دور الأمراء والعامّة كذلك ، وفيه تقوم المرأة بأعمالها المنزلية ، ويقضي السكان جزءاً كبيراً من حياتهم العائلية ، كما أنه المكان الذي يلهو ضمن محيطه الأطفال ، وبه تزرع الأشجار ، وقد بدأ ظهور الصحن قبل المرابطين لكنه انتشر على عهدهم في الأبنية (67) . بأشكالها الهندسية المستطيلة والمربعة (68)
6. أمّا الأسوار فهي من الخصائص التي تميّزت بها القصور والدور (69) أي دور الأمراء والمنازل الصغيرة حيث تحيط بالمباني (70) .
7. ما يميّز هذه النماذج العمرانية أيضاً وجود البحيرة ، والحرص على تشييدها وسط صحن القصر . والدليل على ذلك ما أمر به أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن حيث أصدر قراراً أثناء مقامه في إشبيلية بأن تخط بحيرة في الجنة المنسوبة لابن مسلمة القرطبي (71) .
- أمّا في منازل العامة ففي وسط الصحن كان يوجد بركة ماء أو حوض يعمل على إنعاش الجو وتجميل المنظر ، فضلاً عن كونها وعاء لحفظ الماء للحياة المنزلية ، وكلما كان الصحن كبيراً ازداد حجم بركته (72) .
- وقد حرص مصممو البرك على أن يبقى الماء متجدداً متدفقاً فيها . أما في الأحواض فكانت سرعة التدفق والتجدد أقل حركة كي تبدو ساكنة وربما كان تبادل الماء داخل الأحواض يتم بسرعة يتساوى فيها التدفق والتصريف كي لا يشعر الناظر إليها بتبدد الصور المنعكسة على سطح الماء الذي يشغل مركزاً تناظرياً للصور الجميلة من تشكيلات النباتات والزخارف النباتية بما حوت من أوراق مختلفة وزهور متنوعة ومسطحات متباينة ، ويقدم كثيراً من التباين تحت ضوء الشمس وتحت الظلال .
8. وتعدّ النوافير من أبرز ما يميّز معظم النماذج العمرانية الأندلسية ، فقد عمل العرب في الأندلس على تزويد قصورهم ودورهم وحدائقهم ومساجدهم بأنواع (73) مختلفة من النوافير بسبب أهميتها ، فهي أحد عناصر الجذب في الحدائق بما تضيفه من صور رائعة تحدثها أشكال الماء الذي تقذف به من فوهات وأصوات تساقط المياه على الأحواض والبرك، كما تظهر أهميتها في تلطيف الهواء وتعديل الحرارة في محيطها برذاذ الماء المتطاير منها . وقد حرص المهندس على تصميم النوافير بشكل يتلاءم مع لون البركة أو الحوض المحيط بها ، فكانت تبنى من الحجارة والرخام ، وبعضها كانت تكسى بطبقة سميقة من الخزف القاشاني الملون بأشكال مختلفة لزيادة جماليتها ، وكانت أكثر الألوان استعمالاً في الأندلس اللون الأزرق الفاتح أو خليط الأزرق والأخضر.

9. تميّزت المباني السكنية بالبساطة ، وهذه ميزة اتسمت بها عمائرهم ، فقد وجدت نماذج لأشد المنازل تواضعاً في العصر المرابطي والمؤحدي في مالقة ، فبعض الدور كان صغيراً يتكون من دهليز يستوي فيه الباب الخارجي والداخلي متواجهين او متجانبيين وصحن مربع ومرحاض صغير (74) .

10. شيدت بعض القصور في سفوح الجبال ، واشتهرت بأنها قصور بيض لا سيما في مالقة (75).
11. توزعت قصور المؤحدين في إشبيلية في القصبتين (76) التي أقامهما ” أبو يعقوب يوسف ” الداخلية وتضم قصور بني عبّاد وما ألحق بها من قصور المؤحدين داخل محيط المدينة . أما القصبية الخارجية فقد أقيمت خارج باب الكحل (77). وبني ” علي بن يوسف بن تاشفين“ قصبية عظيمة منيعة في شاطبة بالإضافة إلى ما فيها من قصاب (78) .

تجدد الإشارة إلى أن القصاب وجدت في المدن الأندلسية وغالباً ما كانت تستند إلى جزء من أسوار المدينة ليسهل على من فيها الفرار حين الغزو ، وكانت في مكان منيع غالباً كان طبيعياً يساعدها في المقاومة، وكانت بعض المدن تشتمل على أكثر من قصبية ، وكنت القصاب تحتوي على مسجد (79)، وتزود بالمياه لمعيشة من فيها.

5 - عناصرها الإنشائية

الأنماط المعمارية الأندلسية هي أحد النماذج العمرانية الإسلامية ، تضم العديد من العناصر التي بها يمتاز البناء ، ويزهو ، ويصبح أكثر كفاءة من الناحية العملية ، وقد أبدع المعمارون في تصميمها ، وأولوها عناية خاصة ، وهي عناصر مشتركة في الغالب بين مختلف الأبنية الإسلامية المنتشرة في كافة أصقاع الأرض ، لذا لن تتم الإشارة إلى هذه العناصر ولكن سيكون الحديث حول عناصر اشتهرت بها قصور المرابطين والمؤحدين منها:

1. استخدام طريقتين في عمائرهم . وهما طريقة الحصن وطريقة الصرح .
- طريقة الحصن: وهي عبارة عن مباني ذات موقع استراتيجي محاطة بجدران منيعة ومصممة لمقاومة أي هجوم .

- أمّا طريقة الصرح : عبارة عن مباني تتكون من برجين عاليين عريضين، كل منهما مدبب ويعلوه إفريز متصل بجزء أقل ارتفاعاً من البرجين يحيط بالمدخل بينهما ، وتشكل بشكل عام حوالي نصف ارتفاع الصرح (80) ، وهذا النموذج من العمارة تمثّل في قصور إشبيلية .

2. الجوسق : هو من العناصر الإنشائية التي عرفت في عصر المرابطين والمؤحدين، وهو عبارة عن قصور صغيرة ، وهذا النموذج وجد في قصر منتقوط الذي تميّز بوجود جوسقان

مربعان بارزان يمهدان لجوسقي بهو السباع بغرناطة . ويتقاطع ممشيان يؤلفان محوريّ البناء على شكل متعامد وتمتلئ المستطيلات الناشئة عن هذا التقاطع بأنواع من الأشجار مع وجود زخارف سداسية وثمانية (81) .

3. اشتهرت قصور المرابطين والمؤحدين باحتوائها على مجالس مفروشة بالرخام الأبيض (82) . من الأمثلة على ذلك على سبيل المثال لا الحصر قصر أبي عيسى بن لبون في مريبطر فني قصره مجلس مشرف (83) .

هذه المجالس في القصور تخصص عادة لاستقبال الضيوف ، وللاستماع للشكاوى والبتّ فيها . والأمر نفسه بالنسبة للدور و منازل بيوت العامة ، فمجالسهم هي المكان الذي تجتمع فيه العائلة .

4. أقام المرابطون والمؤحدون بعض القصور فوق الأقواس ، لا سيما تلك التي أنشئت فوق متن الأنهار . وهذا ما تميّز به قصر أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن (84) .

5. استخدم المرابطون والمؤحدون نظام العتبة في تسقيف قصورهم (85) . أمّا دور العامة عبارة عن مساكن بسيطة تحتوي على طابقين ، طابق سفلي وآخر علوي يتم الوصول إليها عن طريق سلالم ضيقة عالية ، يحتوي الطابق العلوي على غرف النساء والحياة الخاصة ، والغرف مزوّدة بمنافذ صغيرة تسمح بوصول الهواء والضوء .

وبعض الدور احتوى على قاعة وبجانها مخدع صغير ، وحمّام صغير ، والبعض الآخر تكوّنت من دهليز بسبب مساحتها الضيقة ، ومنها اشتمل على ممرات ذات أعمدة تؤدي إلى مختلف الحجرات (86) .

6 - الزخرفة

تأنق المرابطون في تشييد القصور والمجالس والمنيات والبساتين ، وتقنن المهندسون في زخرفة هذه القصور ومختلف البناءات حتى بدت الأندلس في أواخر العصر المرابطي زاخرة بمظاهر حياة الترف والبدخ وعاشوا فيها حياة حافلة باللهو .

بلغ الفنانون غاية في التزيين والحشو والزخرفة ، فقد استخدموا العقود المتقاطعة والمتشابكة التي يظهر فيها التوريقات المحتشدة والمتداخلة إلى حدّ من التعقيد يستحيل معه المرء أن يتقصى امتداد خطوط العقود . إذ هي تتداخل وتتشابك في ما بينها بطريقة تلفت الأنظار ، وكسوا الجدران بكسوات حجرية وجصية رقيقة نحتت فيها توريقات قوامها ورقة الأكنتس ثلاثية الفصوص في صور شتى ، كما كسبت عضادات (87) الأبواب بكسوة رخامية تزدان بزخارف نباتية مورقة ومحفورة حفرًا يبرز التباين بين الظل والضوء . هذا

النوع من الزخرفة عُرف في إشبيلية ومالقة وقرطبة (88) .
 وقد عُرف من الزخارف كذلك المراوح النخلية المصبّعة والمختمة والتي ترجع في أصولها إلى عصر الخلافة وملوك الطوائف ، ورسوم هندسية تشتمل على أوراق نباتية في لون أصفر وخطوط حمراء يميل لونها إلى الصفرة في تجصيص أبيض ، وقد وجد مثل هذه الزخارف في المرية (89) .
 إضافةً إلى ذلك ، اشتهرت المباني في عصر المرابطين والمؤحدين بأنها زيّت بمجموعة من النافورات والتماثيل (90) .

الخاتمة :

استناداً إلى ما تقدّم يمكن القول أن الهدف من هذا البحث هو تسليط الضوء على المساكن الأندلسية في عصر المرابطين والمؤحدين ، حيث أكدت المصادر التاريخية أن المنشآت السكنية في القصور والدور التي ورثها ولاية هذين العصرين ، لم يضاف إليها الجديد ، وإن أضيف شيء فقد تمثّل في صيانة بعضها أو تجديدها والحفاظ عليها. وما أضيف من جديد لم يكن سوى إنشاءات كان لفن المعمار الأندلسي دوراً كبيراً في التأثير في تشييدها وكذلك لفن المعماري المغربي الذي عرف في عصر المرابطين والمؤحدين ، حيث امتزجا لينتجا خليطاً من الطابع المغاربي الذي كان متأثراً بالطابع البربري البيزنطي ، والأندلسي العربي ، فإذا بالقصور وكأنّها قلاع محصّنة . وكان أول من بدأ عملية المزج يوسف بن تاشفين الذي اعتمد على أمهر الصنّاع في قرطبة، وخير مثال على هذه المنشآت كانت مجموعة قصور البحيرة ، وقصور منتقوطة وغير ذلك من قصور الأمراء التي لم يُبق منها الزمن على أي شيء منها . إضافةً إلى ذلك تطرق البحث إلى المواد المستخدمة في تشييد المساكن وعناصرها المعمارية وخصائصها ، وكذلك بعض أنواع الزخارف التي عرفتها القصور في عصر المرابطين والمؤحدين .
 في المقابل كان الحديث كذلك عن أنموذج آخر من المساكن الا وهي دور العمّامة والفقراء التي تميّزت بالبساطة .

الهوامش

- 1 (ابن عبدون : رسالة في القضاء والحسبة ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة ، 1955 م ، 34 ، علي ، حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1980 ، ص 37 .
- 2 (ابن عبدون : مصدر سابق ، ص 34 .
- 3 (العذري : نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1965 م . ص 85 .
- 4 (علي بن يوسف : هو علي بن يوسف بن تاشفين 476 هـ / 1083 م . اعتلى سدة حكم الدولة المرابطية بعد وفاة والده عام 500 هـ / 1106 م . سار على نهج والده بمواصلة الجهاد ، تميّز عهده بالاستقرار والعدل ، اتخذ إجراءات مهمّة تمثّلت بنقل الولاية وعزلهم ممن تبين فيهم تقصيراً أو فساداً وعرف عنه اهتمامه بالعلم والعلماء ، واهتم بتشديد المدارس والمساجد ويعتبر مسجد تلمسان أحد الآثار الشاهدة على عظمة المعمار المرابطي . ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال وإحسان عباس ، دار الثقافة ، ط 3 ، بيروت ، 1983 ، ج 4 ، ابن أبي زرع : الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ترجمة كارل يوحن تورنبرغ ، أو بسالة ، 1843 م . ص 106 .
- 5 (ابن خاقان : قلائد العقيان ، المطبعة الخديوية ، بولاق ، مصر ، 1866 م . ص 171 .
- 6 (سالم ، عبد العزيز . المساجد والقصور في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1986 م . ص 139 .
- 7 (ابن سعيد : المغرب في صلي المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 3 ، 1978 م . ج 1 ص 102 .
- 8 (ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثاني ، تحقيق عبد الهادي التازي ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 1 ، 1964 . ص 140 ، المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، من لدن فتح الأندلس إلى اخر عصر المؤحدين ، تحقيق محمد سعيد العريان ، الكتاب الثالث ، القاهرة 1963 . ص 282 .
- 9 (المراكشي : مصدر سابق ، ص 459 .
- 10 (أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن 533 - 580 هـ / 1139 - 1184 م . هو ثاني خلفاء الدولة الموحّدية حكم بلاد المغرب والأندلس بين 1163 حتى 1184 م . شيّد الجامع الكبير في

إشبيلية ، وجامع الكتبية في مراكش وصومعة حسان في الرباط. كان أديباً حافظاً للقرآن ، شديد الفصاحة باللغة العربية ، اعتنى بالجيش وقواها حتى أنه ألّف رسالة مشهورة في فضل الجهاد في سبيل الله ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج 21 ، مؤسسة الرسالة للنشر ط 13 ، بيروت ، 1985 . ص 312

(11) ابن صاحب الصلاة : مصدر سابق .

(12) لمّا توفي عبد المؤمن كُتبت وفاته وقتاً ، واستأثر ولده السيد أبو حفص بتدبير الأمور ، وبادر إلى تنفيذ وصيّة أبيه في عقد البيعة بالخلافة لأخيه يوسف ، وكان قد قدم من قرطبة ، استجابة لدعوة أبيه وبقي إلى جانبه حتى توفي ، عنان ، محمد عبد الله : دولة الإسلام في الأندلس ، مكتبة الخانجي القاهرة ، 1997 ج 3 ، ص 395 .

(13) ابن صاحب الصلاة : مصدر سابق ، ص 464 .

(14) المصدر السابق ، ص 235 .

(15) المنصور المؤحدي 554 – 595 هـ / 1160 – 1199 م . تولى الحكم بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن فحكم دولة المؤحدين خمس عشرة سنة من سنة 580 هـ / 1184 م . حتى سنة 595 هـ / 1199 م . وكان أقوى شخصية في تاريخ دولة المؤحدين ، حارب الخمر ، أحرق كتب الفلسفة – اهتم بالطب والهندسة ، أكمل إنشاء مدينة الرباط التي كان قد اختطها ورسم حدودها أبو يوسف ، وسماها رباط الفتح ، ابن عذاري : البيان ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ج 3 ، دار الثقافة بيروت ، 1983 م . ص 170 وما بعدها .

(16) المراكشي : مصدر سابق ص 370 .

(17) أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن ، أحد الولاة المؤحدين .

(18) المقرئ : نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، 1968 م . ج 1 ، ص 470 .

(19) المراكشي : مصدر سابق ، ص 370 .

(20) ابن الخطيب : . مشاهدات لسان الدين الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، تحقيق أحمد مختار العبادي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1983 . ص 60 – 63 .

(21) مريبتر Sagunto : معنى اللفظ الأسوار القديمة ، وتقع شمال بلنسية ، بها بقايا مسرح روماني ، أرسلان ، شكيب : الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ج 3 ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1358 هـ ، ص 36 .

(22) ابن بسم : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت 1978 . ت 3 ، ج 1 ، ص 156 .

- 23) بلباس ، ليو بولدو توريس : الفن المرابطي والمؤحدي ، ترجمة سيد غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1976 م . ص 34 - 35 .
- 24) فون ، شاك : الفن العربي في اسبانيا وصقلية ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، 1985 م . ص 64 .
- 25) بلباس : الأبنية الإسبانية ، معهد الدراسات الإسلامية ، م 1 ، 1953 ، ص 122 - 123 .
- 26) المرية Almeria : مدينة إسبانية أندلسية ، تقع جنوب شرق إسبانيا على البحر المتوسط . اشتهرت بصناعة الأقمشة خاصة الحريرية فكان فيها أيام المرابطين لنسج الحرير ثمانمائة نول . وللحلل النفيسة والديجاج الفاخر ألف نول ، وللأسقلاطون كذلك ، وللثياب المرجانية كذلك ، وللأصفهانية مثل ذلك ، والعتابي والمعاجر الموحشة والستور المكلفة . كما كانت تصنع بها الأدوات من النحاس والحديد والزرجاج ، ووصفت بانها قيسارية الأندلس ودار صناعتها وكانت صناعاتها تصدر إلى المشرق . أما الأسقلاطون فهي كلمة مشتقة من cycle وهو نسيج من الحرير مطرز بالذهب كان معروفاً في بلاد اليونان ، واشتهرت بصناعته بغداد وهو بالإسبانية ciclaton . سالم ، عبد العزيز تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، قاعدة أسطول الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، 1984 م ، ص 157 - 158 .
- الثياب الجرجانية والأصفهانية : هما نوعان من النسيج ذاعت شهرتهما في أصفهان وجرجان وإليهما تنسب الثياب . سالم ، عبد العزيز ، المرجع السابق . ص 158 .
- العتابي : نوع من المنسوجات الحريرية اختصت بصناعته بغداد ، ونسب إلى محلها المعروفة باسم العتابية . سالم ، عبد العزيز ، المرجع السابق . ص 158 .
- المعاجز : قماش من الحرير شفاف ، كانت تتخذها النساء لتغطية وجوههن أو لشد رؤوسهن . سالم ، عبد العزيز ، المرجع السابق . ص 158 .
- الستور : من المنسوجات الحريرية الخفيفة الرقيقة ، تزدان بزخارف نباتية وأزهار تشبه الأكاليل ، من هنا كانت تسميتها بالستور المكلفة ، سالم ، عبد العزيز ، المرجع السابق . ص 158 .
- حول هذا الموضوع راجع الإدريس : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نسترد دي غويه ودوزي ليون ، 1968 ، ص 197 ، مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد 1983 م . ج 1 ، ص 42 ، 77 .
- 27) مورينو : ما نويل غوميت . الفن الإسلامي في اسبانيا ، ترجمة لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر . د. ت. ص 320 - 322 .
- 28) ابن عبدون : مصدر سابق ، ص 34 .

- (29) المصدر السابق ، ص 35 - 37 - 38 .
- (30) يابسة : Ibiza : هي ثالث وأصغر جزيرة في الأندلس الشرقية بعد ميورقة ومنورقة اشتهرت بأشجار الصنوبر حتى سميت جزيرة الصنوبر ، كثيرة الثمار والزرع . الحميري : كتاب صفة جزيرة الأندلس ، دار الجبل ، بيروت ، ط 2 ، 1988 ، ص 198 .
- (31) ميورقة Mallorca: هي جزيرة في البحر المتوسط ، فتحها المسلمون عام 195 هـ ، وتغلب عليها الاسبان سنة 626 هـ ، المقري : أحمد بن محمد التلمساني ، ت 1041 هـ / 1631 م . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب ، ط 1 ، دار الكتب العلمية، بيروت 1998 م . ج 1 ص 131 ، 133 ، 166 .
- (32) ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك . تاريخ الأندلس ، قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1971 م . ص 122 - 124 .
- (33) ابن بسام : مصدر سابق ق 3 ، ج 1 ، ص 101 .
- (34) ابن القطان : نظم الجمان ، تحقيق محمود علي مكي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، دت ، ص 23 .
- (35) الطوب : هو قطع على شكل متوازي المستطيلات ، ويعد من الصلصال والماء ويستخدم في بناء جدران الأبنية ما بين الأعمدة ، كما يوجد نوع منه يستخدم لبناء السقوف إلى جانب الحديد والخرسانة (أي الباطون) وهي من أهم المواد المستخدمة في البناء في الوقت الحالي . وتشكل مونة الخرسانة من الرمل والاسمنت والزلط الحمصاني .
- (36) الجيار = الجير : هو مادة رابطة يتم الحصول عليها نتيجة للحرق ، وكذلك التحول اللاصق للحجر الجيري والطباشير ، فضلاً عن غيرها من الصخور المغنيسية الجيرية ، وهذه المادة قد تكون في عدة أشكال منها المطرقة والمسحوق، وهي مادة بيضاء اللون تحتوي على بنية بلورية ، ابن صاحب الصلاة مصدر سابق ، ص 140 .
- (37) الحصى : يفرش أسفل البلاط في الأبنية للحصول على سطوح مستوية ، كما يستخدم كمية بسيطة منه في خليط الخرسانة لزيادة تماسكها مع الحديد .
- (38) الرمل : هو مسحوق الحجارة ويُخلط مع الاسمنت والماء لتشكيل الخرسانة.
- (39) ابن صاحب الصلاة مصدر سابق ، ص 464
- (40) الملاط Argarmasa : هو مزيج من الجير والرمل وقطع الحجارة الصغيرة ويعرف بالطابية ، مورينو : مرجع سابق ، ص 490 .
- (41) بلباس : الفن المرابطي والمؤحدي ، ص 32 .

- (42) مؤنس : صورة الأندلس ، مجلة كلية الآداب (جامعة الإسكندرية) م 14 ، 1960 م .
- (43) العذري : مصدر سابق ، ص 85 .
- (44) شاك ، فون : مرجع سابق ، ص 64 .
- (45) القراميد Tejo : نوع من الفخار أو الطوب الذي يسقف الهيكل المسنم للبناء . وقد انتشرت صناعة القراميد في بلاد المغرب ومنها إلى الأندلس ومصر، وتعرف باسم ”الزليزلى“ وهو لفظ قريب من كلمة ”زليجي“ المغربية الاسبانية ، وكلمة A Zuli jos الاسبانية ، وكلمة Zellijes المغربية . مرزوق ، محمد عبد العزيز : قصر الحمراء ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المكتبة الثقافية ، العدد 91 ، مصر ، 1963 ، ص 35 – 36 .
- (46) الأجر : من أهم مواد البناء التي استخدمت في العمارة الإسلامية ، خاصة في مصر والعراق وبلاد المغرب العربي ، حيث يندر وجود الخشب والحجر . ويعرف في العراق باسم الطابوق ، وفي مصر باسم الطوب الأحمر ، وهو يستخدم في بناء الجدران الحاملة أو كأكثاف أو في بناء القباب والأقبية ، ويساعد على توفير عزل حراري جيد للفراغات الداخلية بالمبنى بسبب سماكته .
- (47) ابن عيرون : مصدر سابق ، ص 34 ، 37 .
- (48) علام ، نعمت : فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 4 ، 1989 م . ص 265 .
- (49) حسن ، علي : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين والمؤحدين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1980 م ، ط 1 ، ص 376 .
- (50) حركات ، إبراهيم : المغرب عبر التاريخ ، دار الرشد الحديثة ، الدار البيضاء ، 2000 م . ج 1 ، ص 221 – 225 .
- (51) أشباح ، يوسف : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والمؤحدين ، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 2 ، 1996 ، ج 2 ، ص 251 ، 253 .
- (52) بيدال ، كاستور فرانسيسكو : المرابطون والمؤحدون في الأندلس والمغرب ، مؤسسة التراث الأندلسي ، غرناطة ، كانون الثاني ، 2004 م . ص 86 .
- (53) ابن خاقان : مصدر سابق ، ص 171 .
- (54) بلباس : الفن المرابطي والمؤحدي ، ص 30 .
- (55) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج 1 ، ص 102 .
- (56) المراكشي : مصدر سابق ، ص 459 .
- (57) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ، ص 467 .
- (58) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ، ص 60 – 63 .

59 (أبي عيسى بن لبون : ذو الوزارتين هو لبون بن عبد العزيز بن لبون ، رأس بمربيطر من أعمال بلنسية ثم تخلّى عنها لأبي مروان عبد الملك بن رزين صاحب شنتمرية الشرق أيام تغلب رزريق المعروف بالقنبيطور على بلنسية . ابن الأبار ، الحلة السيرا ، القاهرة ، 1372 ، ج 2 ، ص 111 .

60 (ابن بسّام : مصدر سابق ، ق 3 ، ج 1 ، ص 105 .

61 (بلباس : البنية الاسبانية ، م 1 ، ص 122 - 128 .

62 (شاك ، فون : مرجع سابق ، ص 64 .

63 (الشكمة ، مصطفى : الأدب الأندلسي بموضوعاته وفتونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 6 ، 1986 ، ص 38 .

64 (ابن صاحب الصلاة مصدر سابق ، ص 468 - 469 .

65 (بلباس : البنية الاسبانية ، م 1 ، ص 122 - 128 .

66 (بلباس : الفن المرابطي والمؤحدي ، ص 30 .

67 (بلباس : البنية الاسبانية ، م 1 ، ص 122 - 128 .

68 (مورينو ، ما نويل غومث : مرجع سابق ، ص 333 - 336 .

69 (ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ، ص 467 .

70 (شاك ، فون : مرجع سابق ، ص 64 .

71 (سالم ، عبد العزيز : تصور إشبيلية ، مجلّة عالم الفكر ، م 15 ، 1984 .

72 (بلباس : البنية الاسبانية ، م 1 ، ص 122 - 128 .

73 (اختلف أنموذج النافورة في الأندلس داخل القصور والدور والحدائق والمساجد وخارجها بسبب المصدر المائي وغزارته وطريقة صنع النافورة ، وتبعاً لذلك كانت النافورات عامودية وكروية ومخرّوطة وهرمية . ويمكن الإشارة إلى عدد من النوافير التي كانت شائعة في الأندلس :

1. برك منفردة ذات نوافير بطبقتين .

2. برك سطحية منفردة ذات نوافير مركزية وجانبية تصبّ فيها .

3. برك جدارية ذات نافورة تصبّ في حوض مائي .

4. نوافير مركبة في أفواه تماثيل وأشكال مختلفة من التزيينات والزخارف .

5. أحواض مائية منفردة مزوّدة بنوافير على شكل سباع حجرية .

6. أحواض مائية منفردة بنوافير جانبية تفصلها بركة صغيرة مزود بنافورة قليلة الارتفاع .

74 (بلباس : الفن المرابطي والمؤحدي ، ص 34 - 35 .

75 (ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ، ص 60 - 63 .

- 76 (القسبة : هي القلعة وتسمى بالأسنة الأندلسيين Alcazaba . مركز المدينة وتشمل القصور ودواوين الإدارة ، فمنها تدار الأعمال الإدارية في المدينة وفيها يقيم الوالي الذي يشرف على مدينته وما فيها من أعمال إدارية . العمري : وصف أفريقية والمغرب والأندلس أواسط القرن الثامن الهجري ، مقتطف من كتاب ” مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ” نشر حسن حسن عبد الوهاب ، مطبعة النهضة ، تونس، دت ، ص 46 . المقرئ : مصدر سابق ج 1 ، ص 163 . مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ج 1 ، ص 77 .
- 77 (ابن صاحب الصلاة مصدر سابق ، ص 235 .
- 78 (مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ج 1 ، ص 74 .
- 79 (ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ، ص 158 .
- 80 (ريسلر ، جاك : الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دت ، ص 271 .
- 81 (بلباس : الفن المرابطي والمؤحدي ، ص 30 .
- 82 (العذري : مصدر سابق ، ص 85 .
- 83 (ابن بسام : مصدر سابق ، ت 3 ، ج 1 ، ص 105 .
- 84 (المقرئ : نفح الطيب ، ج 1 ، ص 470 .
- 85 (المراكشي : مصدر سابق ، ص 370 .
- 86 (بلباس : الفن المرابطي والمؤحدي ، ص 34 - 35 . شك ، فون : مرجع سابق ، ص 64 .
- 87 (عضادة الباب : دعامة الباب (أحياناً هي الجزء الرئيسي من إطار الباب) والعضادة تحمل ثقل الباب .
- 88 (علام ، نعمت : مرجع سابق ، ص 265 .
- 89 (مورينو : مرجع سابق ، ص 220 - 222 .
- 90 (ابن سعيد : رايات المبرزين ، ص 225 .

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر

- ابن بسام : أبو الحسن علي الشنتريني ، ت 542 هـ / 1147 م . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت 1978 .
- ابن حيان : أبو مروان ، ت 469 هـ / 1076 م . المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983 .

- ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد ، ت 535 هـ / 1134 م . فلائذ العقيان، المطبعة الخديوية، بولاق ، مصر ، 1866 .
- ابن الخطيب : لسان الدين ، ت 776 هـ / 1274 م . مشاهدات لسان الدين الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله) ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1983 .
- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، ت 740 هـ / 1374 م . سير أعلام النبلاء ، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1983 - 1985 .
- ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله ، ت 726 هـ / 1325 م . الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ترجمة كارل يوحن تورنبرغ ، أو بسالة ، 1843 م .
- ابي سعيد : علي بن موسى ، ت 685 هـ / 1286 م . رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 3 ، 1978 م .
- ابن صاحب الصلاة : عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي، ت 594 هـ / 1197 م . تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثاني ، تحقيق عبد الهادي التازي ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 1 ، 1964 .
- ابن عبدون : محمد بن احمد التجيبي . رسالة في القضاء والحسبة ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة ، 1995 م .
- العذري : أبو العباس أحمد بن عمر بن أسس المعروف بالدلائي ، ت 478 هـ / 1085 م . نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتبويب الآثار والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1965 م .
- ابن القطان : ابن أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي عاش في القرن 7 هـ / 13 م . نظم الجمان ، تحقيق محمود علي مكي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، د.ت.
- ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك . تاريخ الأندلس ، قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1971 م .
- المراكشي : عبد الواحد ، ت 467 هـ / 1249 م . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، من لدن فتح الأندلس الى اخر عصر الموحدين ، تحقيق محمد سعيد العريان ، الكتاب الثالث ، القاهرة 1963 .

- المقرئ : أحمد بن محمد التلمساني ، ت 1041 هـ / 1631 م . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، 1968 م .
- مجهول : وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، تحقيق لويس سيكودي لوثينا ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1961 م .

فهرس المراجع

- بلباس : ليو بولدو توريس . الفن المرابطي والمؤحدي ، ترجمة سيد غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1976 م .
- ريسلر ، جاك : الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون ، الدار المصرية للتأليف والترجمة د.ت .
- سالم : السيد عبد العزيز . المساجد والقصور في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1986 م .
- شاك ، فون : الفن العربي في إسبانيا وصقلية ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، 1985 م .
- الشكعة ، مصطفى : الأدب الأندلسي ، موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين، بيروت ط 1 ، 1986 م .
- علام : نعمت إسماعيل ، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 4 ، 1989 م .
- مؤنس : حسين ، صورة الأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م 14 ، 1960 م .
- مورينو : ما نويل غوميت . الفن الإسلامي في إسبانيا ، ترجمة لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر . د.ت .

بحثاً عن أصول القهر والإستعباد

يبدو أن المفكر السوري الحلبي عبد الرحمن الكواكبي (1855-1902) قد حاز قصب السبق عربياً في الكلام عن الحكم الجائر، الذي أخذ اسم "الإستبداد"، فكتب مؤلفه الشهير "طبائع الإستبداد ومصارع الاستعباد" (1900) وفي التمهيد يروي أنه حين نزل أرض المحروسة في العام 1900، وجد سراة القوم في مصر كما في سائر المشرق خائضين في المسألة الإجتماعية، وفي أسباب الإنحطاط، وكل له مذهبه في تشخيص الداء، وهو بعد معاناة طويلة وتدبر في المسألة، وجد "أن أصل هذا الداء هو الإستبداد السياسي، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية"، وأراد من كتابه في شكل عام "بيان طبائع الإستبداد وما يفعل، وتشخيص مصارع الإستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه"، من دون أن يعني حكومة بعينها، وكله أمل في فتح "باب صغير من أسوار الإستبداد، عسى الزمن يوسعه".

وأدرج السيد الفُراتي مؤلفه هذا في باب السياسة التي يُعرفها بأنها "إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة"، ويعتبر أن أول مباحثها الإستبداد، أي "التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى"، ويقول: "وإني أرى أن المتكلم في الاستبداد عليه أن يلاحظ تعريف وتشخيص "ما هو الاستبداد؟ ما سببه؟ ما أعراضه؟ ما سيره؟ ما إنذاره؟ ما دواؤه؟" وكلُّ موضوع من ذلك يتحمّل تفصيلات كثيرة، وينطوي على مباحث شتى من أمهاتها: ما هي طبائع الاستبداد؟ لماذا يكون المستبدُّ شديد الخوف؟

لماذا يستولي الجبن على رعية المستبد؟ ما تأثير الاستبداد على الدين؟ على العلم؟ على المجد؟ على المال؟ على الأخلاق؟ على الترقّي؟ على التربية؟ على العمران؟ مَنْ هم أعوان المستبد؟ هل يُتحمّل الاستبداد؟ كيف يكون التّخلص من الاستبداد؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد؟“.

التوتاليتاريا موضوعاً للدرس

لقد شهد القرن العشرين المنصرم أنماطاً جديدة من الحكم كلفت العالم حروباً وبشاعات، وكان على الباحثين والمفكرين إعمال الذهن في أصول ومنابع هذه الأنظمة التي آلت في نهاية المطاف الى الإنكسار والفضل بعد أن كبدت البشرية أثمناً باهظاً. وقد اختار الباحث اللبناني في ميدان الفلسفة السياسية، د. حسن علي يونس، الحضر في طبقات ”التوتاليتاريا“، وقد اعتمد مصطلح ”القهر والاستعباد السياسي“ (بيروت، دار المحجة البيضاء، 2018، في 522 صفحة) مرادفاً لها. والبداية عنده من فهمه للنظام السياسي، فلا يجده منفصلاً عن البنى الاجتماعية والثقافية السائدة، فالرابط يظهر له وثيقاً معها، وفي ظنه أن القهر والاستعباد غير بعيدين من النظرة الى الإنسان، وهو يعتمد في مقارباته فرضيات يصوغها كالتالي: ظاهرة ”التوتاليتاريا“، ظاهرة اجتماعية تجد جذورها في ثقافة المجتمع السائدة ونظام العلاقات التراتبية بين أفرادها ومكانة الإنسان، وأخيراً في النزوع العدواني نحو العنف والتدمير. وما يعني الباحث هو الإنسان وحاله في ظل كافة أنظمة القهر والاستعباد الساعية لطمس قيمته الوجودية وسحق كرامته.

كارل بوبر ناقد التاريخانية

ولهذا الغرض ركز في شكل أساس على المُفكرين الذين جهدوا في محاولة فهم النظام التوتاليتاري، وفي مقدمهم الفيلسوف النمساوي - البريطاني كارل بوبر ((K. Popper 1994 - 1902)) الذي حاول في ”المجتمع المفتوح واعدائه“ (1945) فهم ظاهرة التوتاليتاريا، ومن الصفحات الأولى لمؤلفه رأها تنتمي لتراث قديم كما هي حديثة في راهن أيامه، بمعنى أنه اعتبرها ”كونية“، وجد بدايتها مع أفلاطون في ”الجمهورية“، حيث عده مُفسِداً لمفهوم العدالة، كما انتقد هيغل (1831 - 1770) (W. Hegel) بوصفه ”أحد الذين مهدوا الطريق فلسفياً للقومية التوسعية“، ومن ثم تناول ماركس، والى اعجابه وافتتانه به إلا أنه انتقد منهجيته واعتبره مُجسداً للنزعة التاريخانية (l’historicisme) التي زعم بوبر أنها ”الأساس الجوهرية للتوتاليتاريا“. يقول بوبر: ”لماذا إذن أهاجم

ماركس على الرغم من فضائله؟ كان ماركس، في ما أعتقد، نبياً اختصَّ بمسار التاريخ، ولم تصدُق نبوءاته. ولكن هذه ليست تهمته الرئيسية، فالأهم من ذلك أنه غرَّزَ بأعدادٍ من خيرة العقول إلى الاعتقاد بأنَّ التنبؤ التاريخي هو الطريقة العلمية لمقاربة المشكلات الاجتماعية. فماركس مسؤول عن التأثير المخرب الذي يحدثه المذهب الفكري التاريخاني داخل صفوف أولئك الذين يودون نصرة قضية المجتمع المفتوح.

ويفسر بوبر ما يقصده بالتاريخانية: "أعني بالمذهب التاريخي طريقةً في معالجة العلوم الاجتماعية تفترض أن التنبؤ التاريخي هو غايتها الرئيسية، وتفترض أن هذه الغاية يمكن الوصول إليها بالكشف عن "الإيقاعات" أو "الأنماط" أو "القوانين" أو "الاتجاهات" التي يسير التطور التاريخي وفقاً لها."

من أمثلة الاعتقادات التاريخانية التي يقدمها :

- اعتقاد يهود العهد القديم في رسالة الشعب المختار.
- اعتقاد المسيحيين الأوائل في حتمية اهتداء الجموع البشرية متبوعاً بـ "المجيء الثاني".
- اعتقاد بعض الرومان بأن قدرَ روما أن تحكم العالم.
- اعتقاد التحرريين في عصر التنوير بحتمية التقدم البشري.
- اعتقاد كثير من الاشتراكيين بحتمية الاشتراكية.
- اعتقاد هتلر في تأسيس رايخ الألف عام.

وقرر كاتب "فقر التاريخانية" (1944) أن الطابع التوتاليتاري الذي تتسم به العقائد السياسية للفاشية والنازية نابع من فلسفتها في التاريخ.

وقد حدد نصير الديمقراطية لنفسه مطلباً رئيساً طوال حياته، كما يقول يونس، وهو واجب الحضارة الإنسانية، أي "استئصال العنف من المجتمعات البشرية"، وكان فيلسوف العقلانية حريصاً على حرية الإنسان ودوره المميّز في الوجود، وينقل الباحث عنه قوله في "أسطورة الإطار" (1994) (وهو عبارة عن عدة دراسات مجموعة في كتاب): "إن الحرية هي إحدى القيم العظمى التي يمكن للحياة أن تهينا إياها".

ويرى يونس أن بوبر أهمل الجانب العملي في نظريات التاريخانيين المنتقدين من جانبه، الجانب الذي يبعدهم عن التكاسل ويجعلهم يأخذون أحلامهم ورغباتهم على محمل الجد، ويزعم الباحث ألا قيمة "لأي فلسفة مهما بلغت من الإتساق والتركيب الجمالي إذا لم تستحث الإنسان على صنع حياته بنفسه وتستثير همته الى العمل من أجل ذاته وأجل مجتمعه"، وبالتالي يرى إن بوبر كان مُبالغاً في هجومه على التاريخانية وشخصياتها الكبيرة.

كما ينتقد الكاتب تركيز بوبر على مبدأ الحرية التي يتغنى الغرب بها الى حد القداسة، ويرى إن للحياة معان كثيرة لا يجوز التفاوضي عنها مثل "العدل والمساواة والتسامح والتعاطف مع الآخرين..."، هذا ولم تكن الديمقراطية نفسها حصناً متيناً أمام قيام الأنظمة الشمولية وبروز شخصيات مثل هتلر وموسوليني، ويأخذ عليه "عدم تبصّره بالإختلاف الجوهرى بين الأنظمة الديمقراطية والديكتاتورية"، لأن ذلك يُلغى عملياً "وجوب الحديث عن أسس مسؤولة عن نشوء التوتاليتاريا أو الديمقراطية على حد سواء، ولا يوافقه كذلك في ايلائه أهمية كبرى لدور المؤسسات في الوقوف بوجه القهر والإستعباد، إذ في قدرتها أن تخدم في الإتجاهين، ويتوجب عليها، في رأي يونس، أن تلتزم بمبدأ الحرية الفردية، ويتحقق هدف المؤسسات في اتخاذها "المجتمع المحلي أساساً لها والقوى الفاعلة غير الحكومية، الى دور الدولة في تحقيق التكامل والإنسجام".

أرندت والشر الجذري

أخضعت حنه أرندت بدورها (1975 - 1906) التوتاليتاريا للفحص والنقد في مؤلفها الشهير "أسس التوتاليتاريا" (1951) (The Origins of Totalitarianism) هذا النمط الفريد من السلطة (بخلاف رأي بوبر) والخارج عن التصنيفات الكلاسيكية المعروفة حول أنظمة الحكم، وما يثير اهتمامها أكثر فيها استهدافها الطبيعة البشرية في ذاتها، وهو ما تسميه "الشر المطلق" أو "الجذري"، ويعتبر يونس إن أخطر شروطها يكمن في تخفيها و"تبدل وجهها الى ما لا نهاية"، كما تعتبره أرندت نظاماً آثماً . هذا، ويمتلك الكاتب الجرأة الكافية لينتقد وجهة نظر الفيلسوفة الألمانية - الأميركية الدارسة للظاهرة بعياد "كأن التوتاليتاريا مادة جامدة لا حياة فيها يمكن دراستها تماماً كما يدرس الفيزيائي أو الكيميائي موادهما في المختبر"، بحسب ما يكتب، ويعتبر إسهام أرندت الأساسي في تظهيرها لمسألة الشر السياسي المعقدة، ولا سيّما في ظل غياب الفضاء العام والقوانين الفاعلة وضعف الضوابط الأخلاقية. ولهذا كان موقفها في محاكمة "أيخمان" في القدس (1961)، ذلك الموظف في آلة الحرب الألمانية، مُحاولاً لفهم تغلغل هذا الشر والعنف في عقول البشر، لا بوصفه سلوكاً فردياً وإنما جزءاً من علاقات اجتماعية. إذ حوّل هتلر الشعب الألماني "الى مجتمع حربيّ خلق أساساً متيناً لتكاثر وتنامي الإستعداد للإجرام والتعود عيه، وأضفى عليه طابعاً عمومياً أكسبه غطاءً شرعياً"، وترى الى افتقاد "أيخمان" الى ضمير فردي يردعه عن ارتكاب الشر. وهنا يجد الكاتب ضعفاً في فهمها هذا، أي في معارفها المتعلقة بالكائن البشري، وأواليات اقدمه على سلوك ما

أو احجامة عنه، ويعتبر إنه كان الأولى بها ”أن تعلم وجود الضمير الفاعل لدى كل إنسان سوي“، وهو ينتقد فصلها بين السياسة والأخلاق واهتمامها بما يجري في الخارج بين الأفراد، أي بين المؤسسات التي ينشؤونها، وليس في إرادة الفرد، وعند يونس الأهم هو ”إضفاء القيمة الاعتبارية الإيجابية التي تسمح بقبول كل انسان لكل انسان آخر بوصفه غاية في ذاته، ينتج عنها منطقياً الإيمان بتساوي قيمتهم الاعتبارية وضرورة الإتفاق والتفاهم والثقة المتبادلة“.

ويرى الكاتب إن نظرتها للأخلاق تنطوي على تناقض، فهي تهوّن من دور الأخلاق الشخصية، في حين لا ينبغي الإستخفاف بالفرد كفرد، وهي نفسها تأخذ مثلاً لها الفيلسوف اليوناني، سقراط، المتمسك بالفضية، والسياسي الفرنسي كليمنصو ((Georges Clemenceau 1841 – 1929)) صاحب مقولة: “إن من انتهك حق كل انسان بريء فقد انتهك حقوق البشر كافة” (ترداد للمقولة المعروفة في الحديث ”من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً“).

وفي المقام الأخير، يرى يونس ومن خلال العرض التفصيلي لموقف كل من بوبر وأرندت الى النقص في نظرتهم حول حقيقة التوتاليتاريا، الى خلطهما بين الفلسفة والأيدولوجيا. موقف الكاتب حول القهر والإستعباد السياسي أو السلطة الكلية أنها: ”تستمد جذورها من تربة الحياة الإجتماعية وبنائها التنظيمية ومكوناتها الثقافية وقيمتها الأنطولوجية، بيد أن ذلك وحده غير كاف للتفسير، فلا بد من النظر في ”النظام التراتبي“ في العلاقات الإجتماعية.

وعليه، يعلق يونس أهمية كبيرة على المشاركة الشعبية في الحياة السياسية، ويُشدّد على القيم الإنسانية الإيجابية لأنها تشكل العائق الأبرز بإزاء الغلو والتعصّب، وهو يُعطي للفرد وكرامته وحقوقه الموقع الأثير في النظام السياسي لأنه الغاية والأساس.

أثر المدرسة في التربية الأخلاقية عند التلاميذ

ملخص البحث

هدف هذا البحث للتعرف إلى دور المدرسة في تفعيل التربية الأخلاقية لدى التلاميذ، والأساليب المتبعة في سبيل تحقيق هذا الهدف، واستخدم البحث المنهج الوصفي في دراسة وتحليل هذه الظاهرة التربوية.

وقد توصلت الدراسة إلى نتائج أهمها وجوب تبني سياسات تربوية تولي اهتماماً بالغاً بالموضوع الأخلاقي، وتنشئة جيل متحضّر، إذ إنّ الأخلاق هي من أهم أسس التنشئة، فلا مجتمع من دون تربية أخلاقية. كما توصلت الدراسة إلى ضرورة تأهيل المعلمين للقيام بأنشطة تختصّ بالمجال التربوي الأخلاقي، إضافةً إلى العمل على وضع مناهج تربوية تراعي احترام المبادئ والقيم، وتحفّز التلاميذ على تطبيق السلوكيات الإيجابية، وتعزّهم بحقوقهم وواجباتهم تجاه الآخر وتجاه المجتمع، وأنّه لا يمكن لدولة أن تنهض على أسس سليمة، إلا بوجود مواطنين صالحين. كما خلصت الدراسة إلى الحاجة الملحة لإعطاء مادة التربية الدينية أهمية كبرى، وجعلها مادة أساسية في المدارس.

الكلمات المفتاحية: المدرسة - التربية - الأخلاق - التربية الأخلاقية.

Abstract

The aim of this research is to identify the role of the school in activating moral education among students, and the methods used to achieve this goal. The research used the descriptive approach in studying and analyzing this educational phenomenon.

The study reached results, the most important of which is the necessity of adopting educational policies that pay great attention to the moral issue, and raising a civilized generation, as morals are one the most important foundations of upbringing, and there is no society without moral education.

The study also concluded the need to quality teachers to carry out activities related to the moral educational field, in addition to working to develop educational curricula that take into account respect for principals and value, motivate students to apply positive behaviors, and inform them of their rights and duties towards others and towards society, and that a state cannot rise on sound foundations. Unless there are good citizens. The study also concluded the urgent need to give the religious education subject great importance and make it basic subject in schools.

Keywords: School-Education- Ethics- Moral education.

المقدمة

يعدُّ التعليم من إحدى المهن الهامة التي تستوجب قيام أسس ومبادئ يُعتمد عليها في وضع المناهج، وهو سبيل التنمية في الحياة، إذ تعتمد التنمية الاجتماعية بشكل كبير على الجوانب التعليمية والتربوية. كما تعدّ القيم من أهم السلوكيات التي ينتهجها الأفراد والجماعات؛ فالمجتمع بلا قيم هو مجتمع بلا هوية.

ولما كانت المدرسة مؤسسة اجتماعية متخصصة، وتمثل مكاناً مقدّساً إلى جانب المسجد والكتاب، وكانت تمثل جزءاً هاماً، ووسيلة من وسائل تمرير المنظومة الأخلاقية بما تنتجه من إشعاع علمي وأخلاقي، وبما تفرسه في الأطفال من قيم، ومبادئ، وتهذيب للسلوك فهي تؤدي دوراً هاماً في ترسيخ القيم التربوية (محمود، 1992، ص 416). فالمدرسة هي مؤسسة من مؤسسات التنشئة الاجتماعية، أوجدها المجتمع لتحقيق أهدافه، وتجسيد غاياته

من خلال برامجها المعدّة، ومضامينها التي تحتوي نشاطات تعليمية متنوعة، فهي جزءٌ لا يتجزأ من المجتمع؛ تتأثر بثقافته، وقيمه، ومعتقداته، ومبادئه، وأفكاره التي يؤمن بها، وفي نفس الوقت تؤثر فيه. وهناك عدد من العوامل التي من شأنها الإسهام والعمل على تنمية القيم لدى الطلاب في المجتمع؛ منها: التربية، ويقع عبءٌ كبيرٌ على المدارس في العملية التربوية، بالمشاركة مع الأسر من خلال التربية على القيم الفاضلة، كذلك التعليم؛ إذ يعمل على غرس القيم الفاضلة لديهم.

وتؤدّي المدرسة رسالتها من خلال المناهج التعليمية، حيث هي أدواتها لبناء الفرد وتنشئته تنشئةً سويةً، وتكوين جيل المستقبل عماد الأمة، وعنوان قوتها، وسبيل نهضتها ومجدها للالتحاق بركب الأمم المتقدّمة، وصون هويّتها، والحفاظ على ثقافتها من كلّ دخیل، ولا سبيل إلى ذلك إلا من خلال تضمين المناهج التعليمية منظومةً من القيم التي تمنع الفرد والمجتمع على حدٍّ سواء من الانحراف.

كما أنّ التربية الأخلاقية هي تنشئة متكاملة للفرد والمجتمع في ضوء المبادئ الدنيوية، والأعراف الشاملة، فهي لا تقتصر على دينٍ من دینٍ آخر، أو زمنٍ من دینٍ آخر، والجميع يدرك أنّ مساعدة الفرد هي فضيلة، وإيذاءه هو الخطأ والرذيلة، وقد وردت الكثير من الأحاديث عن الأنبياء الكرام (ص) تختصّ بمكارم الأخلاق، وحسن التربية.

الإشكالية

صحيح أنّ الجهات التربوية المختصة في الدولة تولي موضوع التربية اهتمامًا بالغًا، وصحيح أنّ المدرسة هي البيت الثاني للطلاب، ومنها يتعلمون الكثير من القيم، إلا أنّها ومع الدور الكبير الذي تؤديه في مجال التربية والأخلاق، لا تستطيع أن تمنع التلاميذ من التأثير بالشارع أو المجتمع وما فيه من أفاضٍ نابية، وتصرفات غير أخلاقية في كثير من الأحيان. إنّ ابتعاد المدرسة من دورها في توعية طلابها، وتصلها من مسؤولياتها الأخلاقية والتربوية، وعدم اهتمامها بالتربية الوطنية والدنيوية، تسهم دورًا في تدمير التلاميذ على المستوى الأخلاقي، الأمر الذي دفعنا للقيام بهذا البحث، لتسليط الضوء على هذه القضية الحساسة. وفي هذا الإطار، ثمة أسئلة عدّة وجب طرحها، وهي على الشكل الآتي:

— ما أهميّة التربية الأخلاقية في المدارس؟ وكيف تتبدّى مظاهرها؟

— كيف تؤثر المدرسة في توعية التلاميذ على الأخلاق؟

— ما الأساليب المتبعة في هذا المجال؟

المنهج

استخدم البحث المنهج الوصفي الذي يهتم بتحليل الوقائع، ويقوم بتفسيرها، واستخلاص النتائج، والتنبؤ للمستقبل.

الفرضيات

- للتربية الأخلاقية أهمية كبرى في المدارس، وتأثير كبير في سلوك التلاميذ.
- للمدرسة دور هامّ وفعال في مجال التربية الأخلاقية.
- من الممكن للأساليب الحديثة أن تكرّس مبدأ التربية الأخلاقية، وترفع من مستواها في المدارس والمؤسسات التربوية.

الأهداف

- يهدف البحث الحالي إلى:
- التعرف إلى مفهومي المدرسة والتربية الأخلاقية.
- الاطلاع على دور كل من المدرسة، والمعلم، والمناهج التربوية في تكريس التربية الأخلاقية لدى التلاميذ.
- التعرف إلى الأساليب المتبعة من قبل المدارس في موضوع التربية.

أولاً: تعريف مصطلحات البحث

1 - المدرسة

— المدرسة لغةً: المدرسة هي اسم مكان من فعل دَرَسَ على وزن فَعَلَ. والمُدْرَس هو اسم فاعل، وهو المدرّس للفقهِ (Marrocco & Mattei, 2009, p: 53-74)، وفي لسان العرب "المدرّاس هو البيت الذي يُدرّس فيه القرآن" (ابن منظور، 2003).

— المدرسة اصطلاحاً: المدرسة هي المؤسسة الاجتماعية الرسمية التي تقوم بوظيفة التربية، ونقل الثقافة المتطورة، وتوفير الظروف المناسبة للنموّ جسمياً، وعقلياً، وانفعاليّاً، واجتماعيّاً، والوظيفة الاجتماعية الهامة للمؤسسة هي استمرار ثقافة المجتمع، والتيسر على الأطفال في تمثّل القيم والاتجاهات الخاصة بالمجتمع، وتدريبهم على أساليب السلوك التي يرضيها هذا المجتمع (السيد، 1999).

2 - التربية

- التربية لغةً: جاء في لسان العرب لابن منظور: ربا، يربو، بمعنى زاد ونما {فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} [الحج: 5]. إن كلمة تربية مشتقة من الفعل الماضي المجرد "ربا"، ومضارعه "يربو"، وهي تتضمن معنى النمو والزيادة العينية. ويمكن أن يكون اشتقاقها من الفعل الماضي "رَبَى"، ومضارعه "يربي"، وهي تحتمل معنى تغذي وترعرع، وقد تعني عملية إيصال الشيء المرابي إلى كماله (ابن منظور، 1990، ص 1545).

- أمّا التربية اصطلاحاً: ورد في "الصحاح" في اللغة والعلوم أنّ التربية هي تنمية الوظائف الجسميّة، والعقليّة، والخلقيّة كي تبلغ كمالها عن طريق التدريب والتثقيف. وهي عملية هادفة، لها أغراضها، وأهدافها، وغاياتها، وهي تقتضي خطاً ووسائل، تنتقل من النّاشئ من طورٍ إلى طور، ومن مرحلةٍ إلى مرحلةٍ أخرى. أمّا التربية بالمعنى الواسع، فهي تتضمن كلّ عملية تساعد على تشكيل عقل الفرد، وخلقها، وجسمه باستثناء ما قد يتدخل في هذا التشكيل من عمليّات تكوينيّة أو وراثيّة.

3 - الأخلاق

- الأخلاق لغةً: جمع الخُلُق والخُلُق أي: السّجّية والطّبيعة، يقال خلق حسن وخليقة، وهي ما خلق عليه من طبيعته، ويمثّل الخلق الصّورة الباطنيّة للإنسان، والتي هي عبارة عن نفسه وأوصافها، ومعانيها المختصّة بها؛ فخصّ الخلق بالقوى والسّجّايا المدركة بالبصيرة. قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4]، بينما خصّ الخلق بالهيئات، والأشكال، والصّور المدركة بالبصر. قال تعالى: { خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخُلُقُ عَلَيْهِمْ } [الرعد: 16]، فالخلق يمثّل الصّور الظاهريّة للإنسان، وأصل الخلق: التقدير المستقيم، خلق الخياط الثوب قدره قبل القطع، وعليه التقدير الحاصل في ضبط الصّورة الظاهريّة للإنسان يقال له الخلق، وأمّا التقدير الحاصل في الصّورة الباطنيّة للإنسان فيقال له الخُلُق (الخرسان، 2014، ص 9).

- الأخلاق اصطلاحاً: الخُلُق والخُلُق في اصطلاح علماء الأخلاق هو: "حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويّة". كما عرّفه ابن مسكويه في كتابه (تهذيب الأخلاق). وعرّفه ابن سينا، بقوله: ملكة يصدر بها عن النفس أفعال ما بسهولة من غير تقدم رويّة. والخلق: ملكة في النفس تحصل من تكرّر الأفعال الصّادرة من المرء على وجه يبلغ درجة، يحصل منه الفعل بسهولة كالكرم، فإنّه لا يكون خلقه للإنسان إلّا بعد أن يتكرّر منه فعل العطاء بغير بدل حتّى يحصل منه الفعل بسهولة من غير تكلف.

والملكة هي كيفية نفسانية بطيئة الزوال، بينما الحال هي كيفية نفسانية سريعة الزوال. اتفق ابن مسكويه وابن سينا في أنّ الخلق كيفية، وهيئة راسخة تخصّ النفس، واختلفا في درجة زواله عنها إن كانت بطيئة أم سريعة.

ولعلّ الاختلاف نجم عن لحاظ تمكّن الخلق في النفس؛ فإن كان في أول درجات التمكن فيها بحيث يزول سريعاً، كمن يتدرّب على فعل الكرم وحسن الظنّ بالآخرين فإنه يزول بسرعة في الأيام الأولى فيكون حالاً، بينما مع تقادم الأيام وتوالي التمرين، وكثرة الممارسة يترسّخ لديه هذا الفعل حتّى يصبح ملكة .

- الأخلاق والتربية في الإسلام: إنّ الأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان في حالة تصدر عنه الأخلاق الحسنة، ويمتنع معها عن الأخلاق الذميمة بنحو آلي وشكلٍ سلس، وذلك من خلال التدريب والتعوّد على ممارسة الأفعال الحسنة، وترك الأفعال القبيحة.

ومن المعلوم إنّ التربية الإسلامية تهتمّ بالإنسان من حيث جعله إنساناً متكاملًا روحاً وبدناً، لذا نجد التربية الإسلامية تشمل التربية الدنيوية، والخلقية، والعلمية، والبدنية، وسائر النواحي. وذلك لأنّ الإسلام نفسه يمثل بلوغ الكمال الديني فهو خاتم الأديان وأكملها... قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3]. فالعلاقة بين الأخلاق والتربية في الإسلام تمثّل ترابطاً؛ فلا تربية من دون أخلاق، بل إنّ تقويم الأخلاق من مهامّ التربية الإسلامية، فالأخلاق الإسلامية تمثّل التربية الخلقية، والتي هي من فروع التربية الإسلامية (الخرسان، ص 24).

ثانياً: تعريف التربية الأخلاقية

هي مجموعة من القيم الموجهة لسلوك الطفل لتحقيق أهدافه في الحياة (يالجن، 2002، ص 54).

وتعرّف الموسوعة البريطانية التربية الأخلاقية بقولها: إنّها تعني ما هو جيّد وقبيح، وما هو صحيح وخاطئ (الشهري، 2020، ص 15).

ويعرّفها الغزال بأنّها: عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصوّر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية (العزام وآخرون، 2014، ص 264-245).

ثالثاً: دور المدرسة في تفعيل التربية الأخلاقية

تتعدّد أدوار المدرسة في التربية، ومن أمثلتها ما يأتي (يحياوي، 2014، ص 69-68):
- إحداث التكيّف الاجتماعي: تقوم المدرسة بإيجاد درجة عالية من المرونة للتعامل مع

المستجدات، والمتغيرات، وبالتالي تنمية أنماط سلوكية جديدة تتلاءم معها.

- تحقيق التقارب والتوازن بين الطبقات: حيث تقوم المدرسة بتحرير كل فرد من الانطواء داخل جماعته ليدخل في معترك الحياة في البيئة الأوسع.

- تنمية مهارات سلوكية جديدة: فلا تقتصر وظيفة المدرسة على الجوانب المعرفية أو التعليمية، بل تمتد وظيفتها إلى الجوانب الشخصية والاجتماعية للتلاميذ، وتربي فيهم العادات والقيم السوية.

- تنمية مهارات الابتكار والإبداع: عن طريق إثارة ميول، واهتمامات، ورغبات التلاميذ بالأنشطة المتعددة.

- تلقين القيم والمبادئ الأخلاقية: وذلك من خلال إبراز النماذج الطيبة للتلاميذ، ومن خلال الأنشطة، والمنهج، والمعلم القدوة.

رابعاً: دور المعلم في تفعيل التربية الأخلاقية في المدرسة

يحتل المعلم صدارة القوى المؤثرة في التلاميذ، لأنه يشكل أنموذجاً حياً مؤثراً بينهم، وهو يعد بمنزلة القدوة في التربية الأخلاقية، وله دور كبير في غرس القيم الأخلاقية.

وللمعلم دور هام، وضروري لتقويم المعوج من السلوك، وغرس القيم، والفضيلة، والخير في نفوس التلاميذ، وهنا يجب أن يكون المعلم قدوة ومثالاً للأخلاق أمام طلابه، ومعدداً إعداداً لائقاً بمهمة الأنبياء والمرسلين، مدركاً للمسؤولية التي تقع على عاتقه، وهي تنمية وإعداد عقليات وشخصيات أجيال المستقبل (الهندي، 2001، ص 5).

لا يمكن لأي حضارة أن تتحقق إلا بالتعليم، وذلك من خلال مناهج واضحة، ورسالة سامية، ومبادئ وقيم ثابتة. لذلك دعا التربويون وأهل الاختصاص إلى بناء الأجيال على التمسك بالقيم الفاضلة، من دون التفريط فيها، وتحسينهم من كل ما يهدد ملكة الفهم المعتدل لديهم، ومع عظمة المهمة تأتي عظمة "المهنة"؛ فتربية النشء تبرز بجلاء دور المعلم ومكانته في المجتمعات ورفقيها.

والتربية والتعليم منحت المعلم صفة "القائد"، ووضعت على عرش "القدوة" لطريقته المثلى في تنمية القيم الأخلاقية. فالجميع بدءاً من الأسرة وصولاً إلى المجتمع بأسره، ينشد الهمة، ويعلق الآمال على المعلم الذي يرويه جسر الخلاص للعبور بأولادهم إلى تحقيق الأهداف السلوكية والمعرفية. ولذلك ترى القيادات التربوية أنه من المستحيل تحقيق أي إنجاز بمعزل عن "التربية الأخلاقية"، ويرون أنه حتى إذا تحقق أي نجاح تعليمي من دون الأخلاق، فإنه لا يستمر.

ومن الأمثلة على دور المعلم الناجح في تعزيز التربية الأخلاقية، ما يأتي (محمود، 2023):

- إيصال المعلومة إلى الطلاب، مرتبطة بغرس القيم والأخلاق التربوية لدى الطالب.
- لا يكتفي بشرح المقررات والمواد، بل يحرص على استخراج من عمق المواد التعليمية أخلاقيات يمارسها الطالب، ويطبّقها في حياته.
- يستعرض أمام طلابه مجموعة من القيم في المجتمع، كشواهد ونماذج حيّة، ويبدأ بالتحليل، فينقد منها ما يستحقّ النقد، ويشيد بما يستحقّ الإشادة، ثمّ يرغبهم في جميلها، ويحذّر من آثار قبيحها.
- يغرس القيم بالرعاية، والتوجيه، والإرشاد، ويفعلّ وظيفته الوقائية، ليواجه مع طلابه طوفان الغزو الأخلاقي والفكري.
- البحث والتّقيب عن كلّ وسيلة من شأنها أن تفعلّ قيمة الوظيفة التربوية والأخلاقية.
- يبتكر مواقف تربوية وتعليمية ليضع الجانب الأخلاقي مع الموقف التعليمي، والأنشطة الاجتماعية في قالب إبداعيّ حتّى تكون لدى الطالب استجابة عالية.
- البدء بعملية التحفيز والتشجيع لكلّ سلوكٍ حسنٍ يقوم به الطالب، في جوّ من الحماس، والنشاط، والعمل المتواصل والدؤوب.

خامساً: دور المناهج التعليمية في تعزيز التربية الأخلاقية

تتمثّل أهميّة المناهج التعليمية في أنّها وسيلة المجتمع لتسجيد أهدافه، والحفاظ على تراثه، وتاريخه، والتّمكن لفلسفته التربوية، وتحقيق تطلّعاته، وصون شخصيته، والتّشبّث بعاداته وتقاليده، ومعتقداته وقيمه، كما أنّها أداة المدرسة في بناء جيل المستقبل عماد الأمة، وعنوان نهضتها وتقدّمها، حيث يمثّل الجيل الكفؤ المنتج والقويم أهمّ ثروة في كلّ مجتمع وهي الثروة البشرية، "والثروة البشرية لا تنمى إلاّ عن طريق أداة رئيسة هي التربية - من خلال مناهج التعليم - التي تعدّ بغير منازع محور التّقدّم، وحجر الزاوية في كلّ تطوّر وإصلاح. وأيّ إصلاح أو تغيير لا يستند إلى التربية لا يلبث أن يزول أو يضمحل" (حسن، 2001، ص 12).

وقد أثبتت الكثير من الدراسات التربوية الحديثة فاعليّة تضمين التربية الأخلاقية في المناهج الدراسية في جميع مراحل التعليم بشكلٍ تكامليّ بأسلوبه الأفقيّ والرّاسي، والاهتمام كذلك بتضمين الأنشطة التربوية والعلمية التي تهدف إلى إكساب التلاميذ القيم الأخلاقية السّامية، وتساعد على الحدّ من المشكلات والجرائم الأخلاقية التي يقعون بها، وتزيد من استعدادهم للتعاون، وتعميق احترام حقوق الآخرين في نفوسهم، مع مراعاة مستوى التّمو الأخلاقي، والبدني، والنّفسي للتلاميذ (القميزي، 2006).

- الأساليب المتبعة للتربية الأخلاقية

تعدّ التربية الأخلاقية جزءاً هاماً لا ينفصل عن التربية الدينية، إذ تمتاز التربية الدينية بكثيرٍ من ميزات التربية الحديثة في شموليّة النظرة إلى التربية كعملية ونتيجة معاً. وهناك الكثير من الأساليب التي تتبعها المدارس في التوجّه إلى طلابها، من أجل إعلاء شأن التربية الأخلاقية عندهم. ومن هذه الأساليب، الآتي:

1 - أسلوب الموعظة الحسنة: وهو من أكثر الأساليب تغطيةً للمواقف التربوية، ولا يكاد يخلو موقف تربويّ من الموعظ، والنصائح، والإرشادات. والكتب السماوية المباركة مليئة بالموعظ، والنصائح، والإرشادات التي تهدف إلى تربية الإنسان الصالح، التربية الشاملة ليكون صالحاً في ذاته ولذاته، وصالحاً لغيره من جميع أفراد الجنس البشري والحياة بأكملها (القاضي، 2011، ص 172).

قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل: 125].

وقال: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 138]

يقول السيد المسيح (ع) لتلامذته: "إن لم يزد بركم عن برّ العشارين والكتبة، لت تدخلوا ملكوت السموات"

2 - أسلوب القدوة: وأثر القدوة عامٌّ يشمل جميع الناس على مختلف مستوياتهم، فإمكان كل امرئ أن يحاكي فعل غيره، ويقلده، ولو لم يفهمه، ومن هنا تأتي أهميّة القدوة بالنسبة إلى الأطفال، وأهميّة الصّحة والأصدقاء (الصّعدي، 2017، ص 415).

3 - أسلوب الحوار: يتضمّن أسلوب الحوار والمناقشة ضرورة تعريف النّشء بالأساس العقلاني والمنطقي لأيّ قضية مطروحة أمامهم، وألا يردّدوا المعلومات ترديداً أعمى من دون فهم مضمونها الحقيقي، أو من دون إدراك ارتباطها بواقعهم الفردي، والاجتماعي، كما يجب أن تتاح لهم الفرصة للمناقشة الجادة البناءة التي تحلّل أبعاد الموضوع المطروح، وتلقي الضوء على أبعاده المختلفة (مرسي، 1982، ص 125).

ويستفيد معلّم المدرسة من أسلوب الحوار والمناقشة من خلال:

- شدّ انتباه التلاميذ بطرح الأسئلة عليهم، واستثارة العقل والتفكير بما يناسب نموهم.
- تعويد التلاميذ على إبداء آرائهم بكلّ حرّية.
- حثّ التلاميذ على العمل من أجل التوصل للحلول من وجهة نظرهم.
- إكساب التلاميذ بالثقة بالنفس.
- تشجيع التلاميذ على البحث، والتنقيب، وإيجاد البدائل.

سادساً: المعوقات التي تحول دون تحقيق المدرسة لدورها في تفعيل التربية الأخلاقية (يحياوي، 2014، ص 69)

- عزلة المدرسة عن مجريات الواقع الاجتماعي الفعلي في المجتمع.
- عدم التخطيط والاستعداد للمستقبل، إذ تعاني المدرسة من العديد المشكلات الجزئية، وتغفل عن الاستعداد للمستقبل.
- اتساع دائرة الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع، وتزايد متطلبات هذه الأنشطة من المهارات والخبرات.
- إهمال مادة التربية الدينية، وعدم التمسك بالقيم والمبادئ الأخلاقية، مما أدى إلى انتشار العديد من السلوكيات الخاطئة بين التلاميذ.
- عدم تدريب المعلمين في داخل المدرسة على التعامل الأخلاقي الرافي للتلاميذ، ومراقبتهم، ومتابعتهم أدى إلى الكثير من المشكلات، منها افتقاد القدوة الطيبة بين التلاميذ.
- عدم التواصل البناء بين الأسرة والمدرسة، والالتزام بأدوار وأتفاقيات مشتركة لضبط سلوكيات التلاميذ، ومتابعتهم أخلاقياً وعلمياً.
- ابتعاد المدرسة من أساليب الثواب والعقاب، أدى إلى حدوث حالة من الانفلات الأخلاقي في داخل المدرسة.

سابعاً: التربية والأخلاق عند هاربرت سبنسر

- يعدّ سبنسر أحد أهم علماء الاجتماع الذين أولوا أهمية كبيرة للأخلاق، فقد وضع الكثير من النظريات في هذا الشأن، إضافة إلى تأليفه الكثير من الكتب التي لا علاقة بالقيم، والأخلاق، والتربية، والمجتمع.
- لاحظ سبنسر أنّ الناس قد اكتسبوا الضبط الأخلاقي من خلال ثلاث طرائق تربيوية؛ أولها عن طريق الرّادع والخوف الديني، وثانيها عن طريق الرّادع والخوف السياسي، أمّا ثالثها فهو الرّادع أو الخوف الاجتماعي. وهذه الطرائق الثلاث ستدفع الإنسان بشكل صارم إلى إخضاع رغباته الأنية في سبيل المسرات المستقبلية. فإنّ امتناع أي شخص عن القيام بشيء تدعوه رغبته الأنية أو العابرة إلى القيام به خوفاً من أن يتعرض بعد ذلك إلى عقوبة سياسية، أو انتقام إلهي، أو نبذ اجتماعي (Spencer, 1986, p:116).
- لقد نقد سبنسر أفكار التربية الأخلاقية التي كانت رائجة في عصره، إذ نادى بأهمية اهتمام أولياء الأمور والمدرّسين بالجانب النفسي للأولاد في عملية التربية الأخلاقية، لأنّ

جهل هؤلاء بالجانب النفسي أدى إلى فشلهم في تهذيب التلاميذ. وقد وضع سبنسر قواعد عدة ساعدت الأهل والمعلمين على كيفية التعامل مع الأولاد وتهذيب سلوكهم، وتربيتهم على الأخلاق الحميدة، وذلك من خلال التعامل معهم برفق وهدوء، إذ قال: "افتح في تربية أخلاق الطفل بالسياسة الرفقة، والخطة الوسطى، ولا تولع بالجهد العنيف، والمذهب الأسمى، واعلم أن المرتبة العالية في معارج الأخلاق لا تبلغ إلا بالأناة والرفق، فإنك إذا علمت ذلك كنت ملياً أن تخرج من صدرك ما لا يزال يبدو لك من عيوب الوليد، وأن تقل من وعيدك، وتلين من قسوتك عليه، واعلم أن من أنجح وسائل تهذيب الطفل أن تعدل به من طرائق الاستبداد الذي يحدث في النفوس الطيبة خشوع الدلة، وفي الأبية شغب المخالطة" (سبنسر، 2015، ص 109).

إذاً، من خلال ما تقدّم، سعى سبنسر إلى القول بضرورة التعامل مع الأولاد بطريقة سلسلة ولبقة، تتميز بالأسلوب الهادئ، وتهذيب أخلاقهم بالحسنى، وعدم استخدام أسلوب القسوة والاستبداد، لأنّ الخوف يحوّل التلميذ إلى فرد ضعيف الشخصية، وهذا ما لا يناسب التربية في المجتمعات. كما شجّع سبنسر الأهل والمعلمين على تقوية شخصية الطفل وتعريفه بذاته، وسؤاله عن رأيه ورغباته، والهدف من ذلك هو الدفع بالعملية التربوية إلى اتجاه يجعل السلوك الأخلاقي سلوكاً واقعياً وطبيعياً من دون تصنع، أي أن تصبح الأخلاق فعلاً مكرساً وموجوداً بشكلٍ طبيعيّ لدى كلّ تلميذ.

الخاتمة

إنّ المدرسة هي شريكة الأهل في تنمية القيم لدى الأولاد، وهي المكان الأمثل الذي يستطيع تغذية التربية الأخلاقية بشكل كبير وفعال؛ فالتربية الأخلاقية في المدرسة من شأنها تأسيس التلاميذ ليصبحوا مواطنين صالحين ومدركين لحقوقهم وواجباتهم، الأمر الذي ينعكس إيجاباً على المجتمع والدولة ككل.

إنّ العملية التعليمية التي تهدف إلى إكساب التلاميذ العلم والمعرفة، لا ينبغي لها أن تنفصل عن التربية الأخلاقية، لأنّ هذين العنصرين يكملان بعضهما البعض. لذلك، فمن واجب المدرسة أن تضطلع بهذا الدور، وتزيد من اهتمامها في المجال الأخلاقي من خلال اتباع سياسات تربوية قائمة على توعية التلاميذ بأهمية الأخلاق في قيام مجتمع منضبط وذو قيم، إضافة إلى وجوب إيلاء مادة التربية الدينية مكانة مهمة في المناهج التربوية، وعدها مادة أساسية وليس احتسابها مادة فرعية من دون علامات، وتأهيل المعلمين بشكل كبير من أجل تمكينهم من التركيز على الجانب الأخلاقي في شرحهم أمام التلاميذ،

ويتحقق ذلك عبر تطبيق أنشطة معينة تُعنى بموضوعات التربية والأخلاق. لا يمكن للتربية الأخلاقية لدى التلاميذ من أن تتحقق إلا بقيام المدرسة بواجباتها على هذا الصعيد، والعمل لتحقيق هذا الهدف لا بدّ أن يتمّ بالتنسيق بين الإدارة والمعلمين والأهل، لأنّ أدوارهم محورية في حياة الأولاد، إذ لا تستطيع الكتب والمقرّرات الدّراسية القيام بهذا الدور، لأنّها مهمتها تقتصر على تنمية المعارف في عقول التلاميذ. ولا نغفل دور الدولة والحكومة، فالسياسات التربوية الموضوعية من قبل وزارة التربية في المناهج لها دور كبير في هذا المضمار، لأنّ رقيّ المجتمعات وتطوّرها يبدأ من الأسرة، فالمدرسة، فالمجتمع، فالدولة من خلال سياساتها القائمة، وقوانينها المطبّقة. إذًا، لكي نوجد مواطنًا صالحًا في المستقبل، لا بدّ من أن نحسن الزرع في بداية المشوار الدّراسي، أي أن نعمل على تطبيق المبادئ الأخلاقية السليمة في المدارس، حتّى نحصد ثمرة هذا الزرع تربيةً، وأخلاقًا، وعلمًا نافعًا.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- ابن منظور، محمد بن مكرم (1990). لسان العرب (لا. ط). لبنان: دار صادر.
- _____ (2003). لسان العرب (لا. ط). لبنان: دار صادر.
- الخرسان، محمد هادي (2014). محاضرات في علم الأخلاق (ط2). كربلاء: دار الكفيل للطباعة والنشر.
- سبنسر، هاربرت (2015). التربية (لا. ط)، تر: محمد الشباعي. القاهرة: مؤسسة الهداوي للنشر والتوزيع.
- السيّد، عبد العاطي (1999). الإنسان والبيئة (ط1). الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- الشّهري، خالد عبد الله فايز (2020). دور المنهج المدرسي في تعزيز التربية الأخلاقية. مجلة القراءة والمعرفة. كلية التربية، جامعة عين شمس.
- الصّعيدي، فواز بن مبارك (2017). دور التربية الإسلامية في تعديل بعض السلوكيات الخاطئة لدى الأسرة المسلمة. مجلة كلية التربية (175). جامعة الأزهر.
- العزّام، محمد نايل وآخرون (2014). التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي. مجلة المنارة للبحوث والدّراسات (20)، 1.

- القاضي، سعيد إسماعيل (2011). أصول التربية الإسلامية (لا. ط). القاهرة: عالم الكتب.
- القميري، حمد بن عبد الله (2006). فاعلية التربية الأخلاقية في المناهج الدراسية. صحيفة الجزيرة السعودية (12489).
- محمود، علي عبد الحليم (1992). تربية النشء المسلم (ط2). مصر: دار الوفاء للطباعة.
- محمود، إيمان (آب، 2023). دور المعلم في عرس القيم الأخلاقية. تم الاسترجاع من: <http://www.almrsal.com>
- محمد حسن، طالب (2001). مستوى القيم التربوية لدى طلبة الصف الثاني عشر في المدارس الثانوية في محافظة نابلس. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.
- مرسى، محمد منير (1982). التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية. القاهرة: عالم الكتب.
- الهندي، سهيل أحمد (2001). دور المعلم في تنمية بعض القيم الاجتماعية لطلبة الصف الثاني عشر بمحافظات غزة من وجهة نظرهم. رسالة ماجستير. الجامعة الإسلامية، فلسطين.
- يالجن، مقدار (2002). التربية الأخلاقية الإسلامية (لا. ط). المملكة العربية السعودية: عالم الكتب.
- يحيى، نجاة (2014). المدرسة وتعاضل دورها في المجتمع المعاصر. مجلة العلوم الإنسانية (37). جامعة بسكرة، الجزائر.

المراجع الأجنبية

- Marroco, Bilal & Mattei Luca (2009). “La madrasa yusufiyya en epoca andalusium: dialogo entre fuentes arabes escritas y arqueologicas”. Arqueologia y territorio medieval (16), pp: 53-74.
- Spencer, Herbert (1986). “The principle of ethics”. New York. D. Appleleon and company (1).

مسرحية جورج خبار «مش مختلفين» مقاربة سوسولوجية تحليلية وصفية

مايا إبراهيم حداد

ملخص البحث:

أعتقد أنّ مسرحيات الفنّان اللبناني «جورج خبار»، إلى جانب مسرحيات فنّانين آخرين وهم كُثُرٌ، من أبرز الأعمال المسرحية الكوميديّة في لبنان. ولقد لفتني تناوله مواضيع الكوميديّة الاجتماعيّة المتنوّعة، بطريقة مترقّعة راقية، من دون أن يهبط الى مستوى التفاهة والإسفاف في التعبير، مستخدماً الأسلوب الهزلي في المسرحيات، لتحقيق أهداف محددة. وهكذا فهو لم يعتمد أشكالاً وسلوكيات منحرفة في كتاباته بغية إضحاك الناس، كالإيحاء الجنسي والقبلات والاستهزاء بالدين وتناول المخدّرات، بل كان راقياً في التعاطي مع المشكلات الوطنيّة والاجتماعيّة وإظهار المشاهد بثوب كوميدي فضفاض. وهذا ما جعلني أحاول أن أسحب أطرافاً من حبل أفكاره المتخمّرة بواقعه المعاش وأزمات طفولته. ولقد وجدت فيه ذلك المناضل المحب لوطنه ولهويّته اللبنانيّة والعربيّة، وبخاصّة في مسرحياته الكوميديّة. والهدف من دراستي هذه هو تحليل نص مسرحي حديث والكشف عن مدى قدرة نصوص جورج خبار، على الإجابة عن التساؤلات الآتية:

ما مدى غنى سيناريو نصّ جورج خبار، وإلى أيّ مدى هو ملتزمٌ بنقل صورة واضحة عن الواقع اللبناني الاجتماعي في هذه المسرحيّة الأنفة الذكر؟

جامعة الروح القدس

الكسليك

إشراف: د. جوزيف

شريم

سنسعى في هذا البحث الى تحليل السيناريو النصي، وسوف يقتصر بحثنا على ذلك، من دون التطرق الى أمور أخرى كالإخراج والتمثيل. سنكتفي بتحديد عناصر النص المسرحي وتحليلها أي بما يسميه البعض بالبناء الدرامي، لتبيان مدى اهتمامه بالخلفية الاجتماعية التي انطلق منها النص، بغية تفسير الأيديولوجيا الاجتماعية التي بنيت عليها المسرحية، وبالتالي ما يتعلّق بالقضايا الفكرية التي يطرحها النص، ذلك أنّ «النص يُطلعنا على كلّ نية من نوايا الكاتب ويدعنا نواجه معاناته بشكلٍ موضوعيٍّ مستمدٍّ من تربته».

ولتحقيق أهداف البحث اعتمدنا على المنهج التحليلي الوصفي، كي نقارب العناصر النصية وندرس جزئياتها بدقّة، بهدف فهم بعض القضايا المطروحة وإبرازها، ورصد المعاني والرسائل بعمق وشمولية، وكذلك العلاقات القائمة بين هياكل المسرحية وهياكل المجتمع الذي يتجذّر فيه هذا العمل.

سنقوم إذًا بتفكيك النص المسرحي وتحليله للوصول الى الانعكاسات القائمة بين النص الأدبي، وقضايا الواقع الاجتماعي الخارجة عنه، بهدف معرفة المشكلة الاجتماعية التي تناولها هذا النص، وكيفية انعكاسها داخل السيناريو، والكشف عن الموضوعات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية الأخرى، لإبراز علاقة النص بقضايا المجتمع، وانعكاس قضايا المجتمع على النص.

وقد قسّم البحث إلى ثلاثة أقسام، بالإضافة إلى الخلاصة.

القسم الأوّل: سيرة جورج خبز الذاتية ونتاجه المسرحي:

تناقست الألقاب حول اسمه؛ الدكتور والممثل والكوميدي والشاعر والملحن والكاتب والمخرج والمنتج...

وتزاحم الناس على حضور مسرحياته، من جميع المراحل العمرية: الطفل والمراهق والشباب و الكهل....

هو من أضحكنا في قمة حزننا ويأسنا، وبحث عن الرجاء والأمل في يأسنا، فسحبنا معه الى عالم من الضحك الصادق، حيث أرانا الحياة من زاوية جديدة مليئة بالأمل، وزرع في نفوسنا الفرح والإيمان بوطن جميل ينعم فيه أبناءه بالعيش المشترك ...

ولد في الخامس من تشرين الثاني سنة 1976 في البترون، في كنف عائلة من

الفنانين، فوالده الممثل اللبناني جورج خبز الأب. وأمّه الممثلة اللبنانية أوديت عطية. تلقى علومه الابتدائية والثانوية في مدرسة القليبين الأقدسين في البترون، ثم انتقل الى جامعة الروح القدس الكسليك، حيث درس العلوم الموسيقية من جهة، والمسرح من جهة أخرى، ليتخصّص أخيراً بما سمّاه المسرح الكوميدي.

عمل لسنوات طويلة على خشبة المسرح، وشارك في الكثير من المسلسلات الدرامية والكوميديّة، مثل: طالبين القرب، نساء في العاصفة، سنابل الحب، عبود وعبود، الى يارا، القناع، تقريباً قصّة حب، النار بالنار...

طرق باب المسرح من بابه الصعب، أعني من باب المسرح الكوميدي والهزلي الساخر. فقد أغنى المسرح اللبناني بالكثير من المسرحيات الكوميديّة التي أدخل إليها لوحات غنائية مدعّمة بأفكاره الاجتماعية والثقافية. وتميّزت لوحاته الغنائية بالأسلوب السهل، والعذوبة وبراعة التعبير.

من أشهر المسرحيات التي كتبها:

«مصيبة جديدة»، «كذاب كبير»، «هلق وقتا»، «عالمطريق»، «البروفسور»، «مطلوب»، «الأول بالصف»، «مش مختلفين»، «ناطرينو»، «ورا الباب»، «مع الوقت يمكن»، «بالكواليس»، «إلا إذا»، «إلا إذا تغيّر شي»، «يوميات مسرحجي»، «رفقا»، «وخيال صحرا»...

استطاع «جورج خبز» أن يمزج بين الكوميديا والفكاهة من جهة والقضايا الاجتماعية والسياسية والإنسانية من جهة أخرى، ما جعل مسرحياته غنيّة بالمعاني ومؤثّرة في الوقت نفسه.

القسم الثاني: عناصر النصّ المسرحي:

في هذا القسم من الدراسة، سنقوم بتحليل النصّ المسرحي، وتفكيك عناصره الأولى بهدف تفسيره، وكشف معانيه، قبل التوصل في القسم الثالث الى تقييم مدى التزام الكاتب بقضايا المجتمع.

تتميّز الكتابة المسرحية بكونها شكلاً من أشكال التعبير، وترتكز على بنية درامية مميزة، ومن خلالها يستمدّ النصّ المسرحي شرعيّته الفنيّة وقوّته. «فالنصّ هو العمود الفقريّ للعرض المسرحي، ولا أمل من إقامة عرض مسرحي ناجح ما لم يحسن اختيار النصّ الذي يحوي مقوّمات النجاح، رغم أهميّة الإخراج والتّمثيل وباقي عناصر العرض المسرحي».

ما هي إذاً أهم العناصر الذي ارتكز إليها هذا النص المسرحي؟

أ-العنوان:

عنوان المسرحية «مش مختلفين»، في هذا الأسلوب البسيط وغير المعقد، يحتوي على تراكيب محورية تجذب الانتباه، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقضية الأساسية التي يعالجها هذا النص المسرحي وهي التعصب الديني. وهو يعكس كذلك الصراع العام والطابع الاجتماعي لهذا العمل، ما يساهم في تطوير رؤية المسرحية بشكل عام.

ب-الفكرة:

تسيطر على المسرحية فكرة رئيسة واحدة وهي التعصب الطائفي، وتتفرع منها أفكار فرعية تصبّ كلها في خدمة الفكرة الرئيسية. وقد صاغ جورج خبز أفكاره في إطار جديد، وقال هزلي كوميدي، ما يضيف سحراً الى المسرحية.

ج-الموضوع:

عالم قيّد أفكاره الديانات والطوائف، والتقاليد البالية، تطوّرت أحداث القصة. في الجوامع والكنائس، وفي جميع الامكنة والمناطق المختلفة، وصلت أحداث القصة الى ذروتها...

انطلقت مواضيع المسرحية من حياة الإنسان اللبناني ومدى تفهم جورج خبز له، ولمعاناته، فسعى الى إظهار بعض الأفكار الإصلاحية، في محاولة منه تقويم الاعوجاج المسيطر على مجتمعا. وهذه المسرحية هي ابنة الواقع، تدور أحداثها حول شاب اسمه «علي» هو بطل المسرحية، وهو مهندس اتصالات، وفتاة اسمها «كريستينا» وهي طالبة دكتوراه في الموسيقى. يقع هذان الشابان في الحب في لندن بالرغم من الاختلاف الديني: «علي» مسلم شيعي من البقاع، و«كريستينا» مسيحية من الروم الأورثوذكس. بعد أن تخمّر حبهما قرّرا العودة الى لبنان لبناء عائلة مثالية تكون رمزاً للوحدة الوطنية في وطن العيش المشترك. وهنا كانت عقدة المسرحية في كيفية إقناع أهل «علي» المسلم وأهل «كريستينا» المسيحية بهذه العلاقة، وبمباركة حبهما.

وهكذا تتدرج الأحداث وتتوالد. ومع أن «علي» كان مقتنعاً في لندن بأنّ الحب لا يعرف ديناً، اضطر إلى أن يكذب على أهله عندما سألوه عن ديانة حبيبته، فأسمها «ليلي» أمامهم كي لا تتكشف كذبه. بالمقابل كذبت «كريستينا» على أهلها المتعصبين لديانتهم

وقالت إن حبيبها اورثوذكسي واسمه «أليكس». وتمّ عرض الأحداث بشكل كوميدي يمزج بين السخرية والجدية، ليتحوّل الى مواضيع اجتماعية وفلسفية عميقة تدور حول الهوية الوطنية والانقسامات الطائفية .

ومن صراع داخلي في نفسية الكاتب يتصاعد التوتر، ما يعكس الهوة الكبيرة في التعصّب الديني. فقد نسي الحبيبان أنّهما جاءا من لندن لمحاربة التعصّب الديني تحت شعار العلمانية والإنسانية، واعتبرا أن هذا التعصّب ليس إلاّ تمسكاً بالجذور. وساهمت معرفة الأهل بحقيقة وديانة الشخص الآخر وديانته في وصول الصراع الى ذروته. والذروة في السيناريو هي «العقدة الدرامية الرئيسية الأخيرة...والسمة الأولى في الذروة هي وضع البطل والبطل المضاد في مواجهة لا رحمة فيها».

وتأثّر الحبيبين برأي الأهل يعتبر بداية السقوط، حيث تواجه كريستينا حبيبها بالحقيقة الواقعية أي أنّها لن تستطيع أن تستمرّ في هذه العلاقة التي بُنيت على الكذب، وستغادر البلد، عائدة الى لندن وتاركة وراءها حبيباً مغرماً مريضاً بحبها، غير قادر على نسيانها.

د-الشخصيات:

الشخصيات هي الأساس الذي تقوم عليه المسرحية. وما يهّمنا في هذا القسم هو المواقف والتصرفات التي صدرت عن الشخصيات والتي ساهمت في إبراز الأحداث والمعاني التي أسهمت في بناء العمل الدرامي. و«لعلّ رسم الشخصيات هو أهم عنصر من عناصر الدراما، وهو الضمانة لنجاح الكاتب، ولتمكّنه الفني والإنساني».

تنطلق شخصيات هذه المسرحية من خلفيات ثقافية ودينية وسياسية متنوّعة. وقد نجح الكاتب في تجسيد الصراع بين هذه الشخصيات عبر تفاعلات حوارية كوميدية ، وفي إظهار تأثير البيئة في تشكيل هوية الشخصية. وانتقى أبطاله من واقع الحياة اللبنانية، وعليه يمكننا تقسيم الشخصيات الى شخصيات رئيسة وشخصيات ثانوية.

الشخصيات الرئيسية هي : «علي» و«كريستينا».

الشخصيات الثانوية: أصدقاء «علي»، وأهل «علي» و«كريستينا».

دور «علي» في هذه المسرحية، محوريّ أساسي، وحوله تجري الأحداث، وهو الشخصية البطل، والشخصية المحرّكة للأحداث أكثر من باقي الشخصيات. وكانت مشكلته الأساس هي الحبّ. حاجة هذا الشخص الماسّة الى الحب هي العامل الأساس الذي حبكت

حوله المسرحية بجميع تشعباتها وأحداثها، والعثرات التي حالت دون تحقيق الهدف منذ البداية، وردود فعل الشخصيات الأخرى، وسائر الانعكاسات التي كوّنت فضاء المسرحية. وعندما تعرّف على كريستينا وأحبّها ظنّ أنّه حقّق هدفه، وسيعيش أياماً سعيدة معها. لكنّ هذه العلاقة لم تحقّق له إلاّ المشاكل العائلية والنفسية. وبقي «علي» حتّى المشهد الأخير من المسرحية غير مقتنع بأن حبيبته لم تعد موجودة إلاّ في خياله، وهو يرفض التعايش مع الواقع.

يمكننا القول إنّ العائق الأساس الذي منع البطل من تحقيق هدفه هو «التعصّب الديني» وهذه هي الفكرة الرئيسة التي تدور حولها المسرحية.

أمّا شخصية كريستينا فهي محرّكة للأحداث، ومهمّة جدّاً في النص المسرحي. إنّها الشخصية التي تلقي بالحجر في مياه الدراما الراكدة، فتحرك الأحداث وتساهم في بناء العمل الدرامي. شخصية «كريستينا» هي الهدف الذي كان يسعى «علي» إلى الوصول إليه. لكنّ هذه الشخصية كانت بحاجة للاقتناع أكثر بأن الحب لا يعرف الدين. وكانت بحاجة إلى الإيمان بأنّها قادرة فعلاً على تغيير الواقع. لكن التعصّب الديني المتغلغل في باطنها منعها من التمسك بحبّها، واختيار الانسحاب والهروب بدل التحدي والمواجهة.

بالنسبة إلى شخصيات أهل «علي» وأهل «كريستينا» فهدفها واحد في تعميق مضمون العمل المسرحي، وفي إظهار صراع البطل الداخلي، وتحدياته الخارجية. وهذه الشخصيات هي أساس الصراع الطائفي الذي يعيشه الأبطال، ومصدر الصراعات الجانبية، والذي يؤدي بدوره إلى تصاعد التوترات بين الشخصيات.

أمّا أصدقاء «علي»، فيبرز دورهم في خلق بيئة واقعية للمسرحية، ما يجعل الأحداث والمواقف أكثر إقناعاً. إضافة إلى دور أخلاقي إنساني في تقديم الدعم العاطفي لصديقهم «علي»، وذلك عبر الاستماع إلى قصّته عدّة مرّات، فهم مدركون أنّ هذا الاستماع يمنح الشخص الذي يُعاني، شعوراً بالراحة. وهم أيضاً متفهمون لمشاعر «علي» ومتعاطفون معه. ونراهم في المشهد الأخير يساهمون في تقديم النصح والإرشاد لصديقهم «علي»، لتشجيعه ومساعدته على رؤية الوضع بشكل أكثر وضوحاً، ولتحفيزه على التخلّص من مشكلته.

ه- الحوار:

يعتبر الحوار من أهمّ سيمات العمل الدرامي. وكما نعلم أنّ القصة تعتمد على السرد والوصف، لكنّ المسرحية تعتمد بصورة أساسية على الحوار الذي يُعدّ وسيلتها الأولى والأهمّ على الإطلاق. ويُعدّ الحوار المسرحي وسيلة للتخاطب والتفاهم بين الشخصيات، وهو يعدّ عنصراً هاماً في النصّ يستخدمه المؤلف في عرض الأحداث وتطوير الشخصيات، وشرح الفكرة العامّة للنصّ، وهو أداة البناء العام للشكل المسرحي.

تسمّ مسرحية «مش مختلفين»، بالحوار السريع، الذي يعطي المسرحية طابعاً حيويّاً ونشطاً، ويجعل العرض أكثر إمتاعاً وديناميكية وحيوية للجمهور ممّا يمنع الركود والضجر. وتتميّز المسرحية بالكثير من الحوارات الذكية والممتعة، والتي تحتوي على عبارات ساخرة ومواقف طريفة تسهم في تعزيز الفكاهة، وتصبّ كلّها في إيصال صورة واقعية واضحة للفساد الاجتماعي والتعصّب الديني في المجتمع اللبناني.

«روزي: ها االي

جميع الأصدقاء: روززيبيني اشتقناك

روزي: وأنا كمان

روزي: طلال اشتقنا ولووو، قدي قلي ما شفنتك؟!

طلال: اي والله اشتقنا يا روزي

لقيتي صفة؟

روزي: برمت الحّي أربع مرّات، آخر شي اعطينا للفالي تبع المطعم ع راس الشارع، مع 10.000 وعونيات بالطابلو...»

هذا الحوار يسلط الضوء على مشكلة «الصفة» التي يعانيها معظم الشعب اللبناني، في هذا البلد المزدهم بالسيارات.

...«علي: ما حدا يتعاطى معي منكرز محروق سلافي

طلال: خير انشالله

علي: خيي أنا ما بعرف سوق يا الناس كلاً ما بتعرف تسوق.

طلال: الناس كلا بما فيهن انت ما بيعرفو يسوقو

علي: بيكسرو عليك وبقلك انتبه يا حمار، بدوبل عنك هو وبقلك زيح يا حيوان، بكون رح يدهورك هو بسبلك وبسمك اسم من مشتقات الحيوان. وإذا واقف عالإشارة الحمرا بزمرلك شو اوتوستراد بيك؟

يا خيي ما بيصير، شو هاللغة هاي بين بعضنا ؟ وين الإحترام؟ صاير كل شي بالعكس المخالف بآنب القانوني وأصغر كلمة يا حمار.

طلال: بسيطة خيي علي

علي: لا مش بسيطة. صايرة الدني سايبه والناس بلا تهذيب. كل تشبيهاتنا لبعضنا أو لحالنا تشبيهه بالحيوان

طلال: إنو مش غلط

علي: شو ما عملنا منيح أو عاطل منشبه بعضنا بالحيوانات. مثلاً: طرقو الضرب هالحمار، بيشتغل مثل الجحش، يفلح مثل الفدان، بياكل مثل الغول، صاير قد الفيل، نصحانة مثل البقرة، قاعد بالزاوية مثل الصوص، مثل القملة المفروكة، بميت لون مثل الحربية، مسمه مثل الحية، عنيد مثل التيس، جبان مثل البسين، سريع مثل الأرنب، بعّر مثل الثور، ما بوشي مثل القرد...»

هذا الحوار يسلط لنا الضوء على أخلاق بعض اللبنانيين المخالفين للقوانين، فالمخالف في هذا البلد يؤنّب من يحترم القانون، ويشبّهه بالحيوان.

«كريستينا: قربي عرفك عليه

أم كريستينا: قبل!!! اوعا يكون موراني هاهاهاه!!!

كريستينا: لأ

أم كريستينا: sure???

كريستينا: شو بكي مامي صايرة أضرب من عمّو مارون كل عمرك بتنتقديهن إنن متعصبين عم عملي أضرب متن».

من يتأمل في هذا الحوار ويستقطب أبعاده الظاهرة والمخفية، يرى بوضوح التعصّب الديني المتفشّي في لبنان، فأمّ «كريستينا» أرادت أولاً أن تتأكد من أن صديق ابنتها هو من طائفها هي قبل أن تعرّف إليه. فانتمائه الطائفيّ أولى بالاهتمام من أخلاقه ومستواه العلمي، وللأسف نرى دائماً هذا التعصّب الديني في حياتنا اليومية.

ولم يعتمد جورج خبز في تقطيع مسرحيته الفصول، إنما اعتمد شكل التقطيع الى مشاهد، فيطول المشهد أو يقصر تبعاً لما يقتضي الحوار ومجرى الأحداث، وقد أدرج تسع لوحات غنائية بين هذه المشاهد الحوارية، ساهمت كلها في إثراء العمل المسرحي، وساعدت في الكشف عن الجوانب العميقة للشخصيات. وهذه الفواصل الغنائية سمحت للجمهور باستيعاب الأفكار السابقة والاستعداد للجزء اللاحق من المسرحية. و«مهمة القصيدة الغنائية هي أن تطلعك على وجدان شاعر معين وتصبّ في نفسك أحاسيسه».

تمكّن «جورج خبز» عن طريق حواراته البسيطة، والواضحة، والقريبة من واقع الحياة الاجتماعية اليومية التي يعيشها الجمهور من ضبط إيقاع النص، وإيصال الأفكار بأقل عدد من الكلمات، وهذا يعتبر عاملاً مهماً من عوامل تسريع الإيقاع، وتطوير الأحداث، كي لا يشعر المشاهد بالملل.

القسم الثالث: البعد الاجتماعي والديني

ليست مسرحية «مش مختلفين» مجرد عرض درامي، بل هي أداة نقد اجتماعي وديني. بفضل الحوار بين الشخصيات، وعليه يتضح أن الكاتب يهدف الى تسليط الضوء على أبعاد وطنية ودينية مختلفة داخل هذا النص المسرحي، وقد نقلها لنا عن طريق الحوار بين شخصيات المسرحية. فما هي أبرز القيم التي نادى بها وقد عكستها شخصياتها؟

أ مجموعة القيم الوطنية:

ونقصد بها تلك التي تتعلق بحب الوطن، وهي كثيرة في هذا النص المسرحي، ولم يُترك للمشاهد عناء اكتشافها بنفسه، بل ذُكرت واضحة على لسان شخصيات المسرحية، التي اشتاقت الى «العجقة ولفوضى، وللمياه المقطوعة، للكهربا المقطوعة، للطرقا المقطوعة وللنصابين»، وكذلك الى «الانسانية الممنوعة والحريات المقبوعة وللسرقات المقشوعة».

حبّها لوطنها جعلها تشناق الى الفساد المتفشي والفوضى المنتشرة في لبنان. وإبراز بشاعة الضدّ أحياناً يشير الى الحب الصادق والإرادة القوية في التمسك بالوطن والمحافظة عليه، ومحاولة النهوض به الى المكان الذي يليق به. ” إنّ وطننا محتاج الى مؤمنين، الى أنصار ومجاهدين، وإن قلت لي لا تتشاءم أجيبك: صدقت كلنا مؤمنون، ولكن الأوطان كالأديان تحتاج الى تعاليم، فأين تكون هذه التعاليم؟».

وتحمّلت هذه الشخصيات المهانة والإذلال في سبيل الوطن، ولتحقيق سلامة بلادها والحفاظ عليها، بهدف تغيير الظروف وقلبها باتجاه رفع المهانة. فاشتياقهم «للكهربا المقطوعة»، والإنسانية الممنوعة... والسرفقات المقشوعة...» ليست إلا محاولة لتغيير الظروف والنهوض بالوطن.

ب- مجموعة القيم الاجتماعية والأخلاقية:

نعني بها مجموعة القيم التي تدعو الى التمسك بالأخلاق الكريمة والخصال الحميدة التي يتحلّى بها أفراد المجتمع. وقد أدرك «جورج خبز» أهمية القيم الاجتماعية والأخلاقية في حياة الإنسان. فما هي أبرز القيم التي حاول الكاتب إظهارها في هذه المسرحية؟

الصدقة: يؤدّي أصدقاء «علي» دوراً بارزاً في حياته، فهم يقدمون له الدعم العاطفي والنفسي الذي قد يساعده على تجاوز مشكلته، وتقبّل حقيقة خروج «كريستينا» من حياته. وهذا الدعم الكبير جعله يشعر بأنّ له مكانة كبيرة في حياة أصدقائه، وأنّه لا يواجه تحديات بمفرده. فهو مقتنع بأن: «اذا رفقتي ما بدن يتحملوني مين بدو يتحملني». وفي نهاية المسرحية يقدم الأصدقاء نصائح ل«علي»، ويساعدونه على المضيّ قدماً بثقة وأمل جديدين.

رضى الوالدين: يعتبر رضا الوالدين من أهم القيم في الحياة، وهي من القيم المشتركة بين جميع الديانات. وهذه القيمة تقود الفرد الى بركة الحياة والتوفيق في الأعمال. ف«كريستينا» المسيحية كانت مصرّة على القيام بكلّ ما يُرضي أهلها، لدرجة أنّها تخلّت عن حبيبها كي تكون أمّها المتعصبة لمذهبها راضية عنها. و«علي» المسلم اضطرّ إلى أن يكذب بشأن حقيقة حبيبته، فقط لإرضاء والديه، «ما بدي إكسر خاطر أهلي بها لأخرة».

الحب الصادق: ينقل لنا الكاتب صورة الحب الصادق الذي حاول أن يتحدى المجتمع. فحبّ «علي» لحبيبته، حجب عن أذنه كلام الناس، وهو بنظره، «مرحلة مغناطيسية بتخليك تكبّ ذبذبات ايجابية يميناً ويساراً، بتصير محبّ مسامح عطوف،... وذهنك بصير صافي».

وبعدما استسلمت «كريستينا» لواقع الحال اللبناني، وأخذت قرارها بالابتعاد عن «علي»، لم يستطع هو أن ينزعها من تفكيره، وبقيت جليسة قلبه وعقله، حتى أصابته بالجنون.

الحفاظ على العادات والتقاليد: تختلف هذه العادات من منطقة الى أخرى. وتشكّل جزءاً أساسياً من الهوية الوطنية في كلّ منطقة. بعض المناطق «ما عندن بنات تتوظف بشهادتها»، وبالمقابل في مناطق اخرى نرى أنّ «كريستينا» سافرت الى لندن لإكمال دراستها.

كما تطرّق عدّه مرّات في المسرحية الى موضوع السلاح المتقلّت خصوصاً في المناسبات، الذي يُعتبر في بعض المناطق، من «موايز الاستقبال الحار».

المرأة: ظهرت في هذه المسرحية صورة المرأة اللبانية الشريفة والأصيلة التي بقيت محافظة على شرفها على الرغم من سفرها الى الخارج، والتزمت بالمحافظة على صورتها الاجتماعية بحسب المعايير التي تربّت عليها، ورفضت هذه المرأة التمادي في العلاقة قبل الزواج وقبل أن تكّل حبها بموافقة الوالدين. استطاعت هذه المرأة القويّة أن تبقي على التوازن بين الحفاظ على هويتها الثقافية والدينية، وبين التأقلم مع التحوّلات وإغراءات الحياة التي قد تطرأ عليها في بيئات مختلفة.

ج- التعصّب الديني:

تعدّ هذه المسرحية من أهمّ الأعمال التي تناولت قضية التعصّب الديني في لبنان. فتقدّم حوارات جريئة بين شخصيات تنتمي الى خلفيات ثقافية ودينية مختلفة. وبالرغم من جميع الاختلافات المذهبية والدينية يسعى النصّ الى إثبات أنّ الحبّ يتجاوز جميع الفروقات التي يفرضها الواقع الاجتماعي.

لكنّ النهاية كانت بعكس توقّعاتنا إذ انتصر التعصّب الديني على الحب، وبقي «علي» يصارع مخلفات الحب المحفور في عقله وقلبه.

وكما رأينا، فإنّ أبعاد التعصّب الديني منتشرة في كلّ مشهد من مشاهد المسرحية. عندما زار «علي» والديه في الضيعة، أوّل سؤال كان: «من وين؟»... «شو إسم؟»... «مثنى؟؟...».

رأينا كذلك تعصّب والدة «كريستينا» لمذهبها، وأوّل سؤال سألته عن «علي»، «المهم ما يكون موراني». وهكذا يبدو واضحاً رفضها لأيّ فكر أو معتقد مختلف عن دينها، معتبرة أنّ دينها هو الحقّ المطلق.

«ديمي» صديق «كريستينا» هو كذلك متعصب لمذهبه الأرثوذكسي، وعندما علم أن «كريستينا» على علاقة حبّ بشخص جديد، سألها فوراً «أورتودكس؟!». وعندما حاول إقناع «كريستينا» بالارتباط به، هذا كان رأيه: «بعدين ما بتطلعي برّات الطايفة بتضلك أورتودكس ع راس السطح، وما بتخسر الطايفة طاقة مثل كريستينا».

ليس تطرّق «جورج خبز» للتعصّب الديني في المسرحية إلاّ محاولة منه تحديّ المجتمع، ومحاولة تقبّل الآخر بعيداً من انتمائه الديني، بهدف تعزيز التفاهم والاحترام والتعايش السلمي بين جميع الطوائف، لأنّه كان متيقناً بفضل ثقافته الخاصّة ومعرفته الشاملة من أنّ هذا التعصّب يؤثّر سلباً في تطوّر المجتمع اللبناني. «يجب أن نتوحّد حول محبة الوطن، كفى دويلات طائفية وتقسيم للوطن». جورج خبز مجلة الشبكة.

الخلاصة والاستنتاجات:

هذه المسرحية هي ابنة الواقع اللبناني، بجميع أبعاده ورموزه وتناقضاته. وقد طرح فيها الكاتب المسألة الاجتماعية بجميع ملابسها وطروحاتها الفكرية، محاولاً وضع الحلول لها. ولا نبالغ إذا قلنا: إن فن المسرحية هو أكثر فنون الأدب حاجة الى نضج الملكة، وسعة التجربة، والقدرة على التركيز، والإحاطة بمشاكل الحياة والإنسان».

وهذا ما جعله يقف بوجه التيار الجارف الذي يغذي التعصب الديني، والهدف هو إظهار وجه لبنان وجماله، هذا الذي يعيش فيه أبنائه بمحبة وسلام على الرغم من تعددية الطوائف واختلاف التقاليد والعادات.

جمع بين سطور مسرحياته رموزاً متنوعة ومختلفة، فبرزت مشاعر وأفكار مختلفة في شخصيات أبطاله، في خضمّ الأوضاع الصعبة التي يعيشها لبنان، وبالتالي فإنّ الرسائل التي يرسلها عبر أبطاله، تنطلق من ذاتيته، وتحكي عن آرائه.

برع في تضمين الحوار بعض النكت، ليضفي فرحاً ومرحاً على سامعيه. وأجاد في استخدام الكلام الملائم لكل شخصيّة من شخصيات المسرحية، بقدر ما برع في وضعها في الأجواء المناسبة لإبراز إنفعالاتها عن طريق حوار عفويّ صادق يجسّد الواقع اللبناني أصدق تجسيد.

وكلماته ليست نثراً مرصفاً، ولا شعراً منظماً إنّما هي قبل كل شيء روح مرحة، صادقة ووفية بحبّها للوطن، باحثة وجامعة بين سطورها جميع أنواع الفساد والتعدديات التي تمنعنا

من النهوض بالوطن. هذه الكلمات وضعيتها أمام علاقة جدلية وتناقضية، بين واقع الحياة التي نعيشها والحياة الخيالية التي يحلم كل لبناني أن يعيشها. القصة عنده لا تقف عند حدود عرض الأحداث للوصول الى الذروة، إنما هو قد ألبسها قناعاً جميلاً يقربها من روح الهزل والفكاهة، بهدف التسلية، من دون خدش الحياء او اسفاف في التعبير، بطريقةٍ عفيفة راقية، ودون أن يهبط الى مستوى التفاهة. فكان مؤدّباً وقتناً في عرضه. واستطاع بفضل الكوميديا والفكاهة والدراما أن يوصل رسائله المبطنة بغطاء الكوميديا السوداء الى الجمهور، بطريقة فنيّة تلامس القلوب والعقول، وبأسلوب بسيط، وأفكار جذابة.

أكد أن المسرحية هي مرآة واقعية لحياة جميع اللبنانيين، وتعبّر بصدق وواقعية عن معاناتهم وطموحاتهم، ونضالهم المستمر في سبيل إقامة وطن يعيش فيه جميع أبنائه على اختلاف طوائفهم بسلام وتعاون ومحبة، مؤكداً أن اختلافاتنا ليست سوى قشور خارجية، لأن ما يجمعنا أكثر بكثير مما يفرقنا.

وهكذا تكون قد اجتمعت القيم الدرامية الجمالية من جهة، والقيم الاجتماعية والأخلاقية من جهة أخرى لتخلق عملاً متكاملًا فيه الإقناع وفيه الإمتاع لتحقيق الهدف الأسمى، ونقل صورة حقيقية واضحة عن حياة المجتمع اللبناني.

«خايف تخلص الدني ويا وطني منستحي فيك. أن سألوني انت مين؟ بقلن شيعي أو كاتوليك، سنّي درزي ماروني، أرمني أو سرياني، اورتودكس بروتستنت، علوي أو علماني، بعرف عن حالي بطايفة وبنسى قلن لبناني.»

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- خبز، جورج، مش مختلفين، المسرحية الكاملة، you tube، 5ك1، 2019.
- 2- البشتاوي، يحيى سليم، منهجية الإخراج المسرحي، الأكاديميون للنشر والتوزيع، 2014.
- 3- العشماوي، محمد زكي: دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار الشروق، 1994م.
- 4- بعلي، حفاوي، أربعون عاماً على خشبة مسرح الهواة في الجزائر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، دار هومة للنشر، ط1، 2002.

- 5- عصمت، رياض: البطل التراجيدي في المسرح العالمي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1980.
- 6- عبود، مارون، مؤلفات مارون عبود في النقد الاجتماعي، المجلد الثالث، دار الثقافة، بيروت،
- 7- حاوي، إيليا، سلسلة أعلام المسرح الغربي، شكسبير الأول، ج5، منشورات دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت-لبنان، 1980.
- 8- هارو، فرانك، فنّ كتابة السيناريو، منشورات وزارة الثقافة-المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2013.

- (1) - إيليا حاوي، سلسلة أعلام المسرح الغربي - شكسبير الأول، ص6.
- (2) - حفناوي بعلي، أربعون عاماً على خشبة مسرح الهواة في الجزائر، ص08.
- (3) - فرانك هارو، فنّ كتابة السيناريو، ترجمة رانيا قرداحي، ص 071.
- (4) - رياض عصمت، البطل التراجيدي في المسرح العالمي، ص7.
- (5) - يحيى سليم البشتاوي، منهجية الإخراج المسرحي، ص94.
- (6) - محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، ص24.
- (7) - مارون عبود، مؤلفات مارون عبود في النقد الاجتماعي، ص41.
- (8) - محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، ص14.

تحديات العلاقة بين السعودية وقطر: تنافس على النفوذ والمصالح

محمد إبراهيم عاصي

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث إشكالية قديمة متجددة، بدأت منذ تأسيس قطر ورغبة السعودية بضمها على قاعدة الأصول السكانية، فسكان قطر هم أساساً من قبيلة نجد السعودية. تفاقم الصراع على الحدود، خاصة بعد اكتشاف النفط وظهور أهميته الاقتصادية والسياسية على مستوى العالم. وقد حاولنا في بحثنا هذا تسليط الضوء على تحديات العلاقة بين قطر والسعودية ضمن ثلاثة عناوين كبرى عالجت أوجه الاختلافات والتشابهات بين الدولتين وأسباب التوتر في العلاقة بينهما، وتطور العلاقات عبر التاريخ إلى يومنا هذا بقيت قطر تدور في المحور السعودي حتى العام 1995 عندما قام الشيخ حمد بالانقلاب على والده، وازعاً سياسة خارجية مستقلة عن السعودية، ليحوّل قطر إلى لاعب إقليمي كبير، الأمر الذي أثار استياء المملكة، فقطر انتقلت من موقع التابع إلى موقع المنافس في الإقليم. اعتبرت قطر الربيع العربي فرصة للتأثير وزيادة النفوذ في الإقليم والعالم، وقد توحدت الرؤى السياسية حول موضوع البحرين وسوريا بينما اختلفت في مصر وليبيا. قطر تتبنى الفكر الإخواني، أما السعودية فتتبنى الفكر الوهابي، وفي هذا السياق دعمت قطر الإخوان المسلمين في مصر وحالياً في سوريا في تحالف مع تركيا، كما أنها تتمايز عن موقف المملكة

باحث دكتوراه،

علاقات دولية،

الجامعة الإسلامية

في لبنان

فيما يخص النظرة إلى إيران وحركات المقاومة في لبنان وفلسطين، الأمر الذي يناقض مواقف المملكة المعروفة بتشددها ضد الإخوان وإيران. عدا عن الصراع القائم والدائم بين قناة الجزيرة القطرية والعربية السعودية وبالرغم من الاختلاف يسعى الطرفان دائماً لضبط النفس، خاصة أن كلاهما يدور في الفلك الأمريكي.

أخيراً، لا يمكن تطبيع العلاقات القطرية السعودية، وسيستمر النزاع بين الدولتين وتباين الرؤى المستقبلية للمنطقة ويبقى ضابط الإيقاع الأمريكي هو الذي يقرر في المستقبل من سيلعب الدور الأكبر في الإقليم، قطر أم السعودية.

الكلمات المفتاحية:

قطر، السعودية، النفوذ، الصراع الإقليمي، مجلس التعاون الخليجي.

Défis la relation entre l'Arabie saoudite et le Qatar: concurrence pour l'influence et les intérêts

Résumé de la recherche

Cette recherche aborde la problématique des relations entre le Qatar et l'Arabie Saoudite, une question ancienne et récurrente. Elle commence avec la fondation du Qatar et le désir de l'Arabie Saoudite de l'annexer, en raison des origines démographiques communes, notamment que les habitants du Qatar proviennent en grande majorité de la tribu Najd en Arabie Saoudite.

Le conflit frontalier s'est intensifié, surtout après la découverte du pétrole, ce qui a renforcé l'importance économique et politique du pétrole à l'échelle mondiale. La recherche examine les défis de la relation entre les deux pays sous trois angles : les aspects de divergence et de convergence, les raisons des tensions, et l'évolution de leurs relations à travers l'histoire jusqu'à aujourd'hui.

Le Qatar est resté sous l'influence de l'Arabie Saoudite jusqu'en 1995, lorsque le Cheikh Hamad a renversé son père et instauré une politique étrangère indépendante. Cela a transformé le Qatar en un acteur régional majeur, ce qui a provoqué le mécontentement de l'Arabie Saoudite, qui a vu cette évolution comme une rivalité croissante.

Le Qatar a utilisé le printemps arabe comme une opportunité pour exercer son influence, s'alignant avec l'Arabie Saoudite sur des questions comme celle de Bahreïn et de la Syrie, mais divergant sur des sujets comme l'Égypte et la Libye. De plus, le Qatar adopte l'idéologie des Frères musulmans en Égypte et en coopération avec la Turquie, une position opposée à celle de l'Arabie Saoudite, qui reste fermement contre les Frères musulmans et l'Iran.

Bien que les deux pays soient en conflit, notamment à travers leurs chaînes de télévision, Al Jazeera pour le Qatar et Al Arabiya pour l'Arabie Saoudite, ils continuent de faire preuve de retenue, tout en étant tous deux dans l'orbite américaine. Enfin, bien qu'une normalisation des relations semble impossible, la recherche suggère que le conflit entre les deux pays persistera. L'arbitre américain pourrait jouer un rôle décisif dans l'avenir de la région, déterminant si le Qatar ou l'Arabie Saoudite aura le rôle prépondérant.

Mots-clés: Qatar ، Saoudite، L'influence، Le Conflit régional، le Conseil de coopération du Golfe

مقدمة:

منذ تأسيسها، شهدت قطر صراعاً مستمراً مع السعودية. بعض أوجه هذا الصراع كان عقائدياً، والآخر يتعلق بالنفوذ في المنطقة، حيث كانت الخلافات تظهر أحياناً ثم تتلاشى، قبل أن تعود للظهور مرة أخرى. وتعود جذور هذه الخلافات إلى أوائل القرن العشرين، عندما كانت السعودية تسعى إلى إقناع بريطانيا بضمّ قطر إليها، متذرة بأن معظم القبائل هناك تنتمي أصولها إلى السعودية.

أول نزاع حدودي بين السعودية وقطر ظهر بعد استقلال الأخيرة عام 1971، حيث زادت أهمية النفط على الساحة العالمية، مما دفع كلتا الدولتين إلى تحديد وترسيم حدودهما من أجل استغلال الامتيازات البترولية التي باتت تفرض نفسها. ويعود السبب وراء ذلك إلى الموقف السيء الذي اتخذته بريطانيا عندما كانت قطر تحت الحماية البريطانية عام 1868 حيث قامت الأخيرة بتحديد جغرافية قطر خلال حقبة السلطنة العثمانية عام 1913، ضمن إطار لعبة المصالح الدولية. ومنذ ذلك الحين بدأت أزمة حقيقية بين الدولتين تسببت بالكثير من المشكلات فيما يتعلق بترسيم الحدود، خصوصاً بعد اكتشاف

النفط. وقد استخدمت كل من الدولتين الوسائل المتاحة لتبرير وجهة نظرها، والتغلب على الدولة الأخرى، خاصة في لعبة النفوذ الإقليمية والدولية.

لقد تراكمت الملفات الخلافية والتي لم تحسم بين البلدين ابتداءً من حادثة مركز الخنوس للحدود عام 1992، إلى المحاولة الانقلابية ضد الأمير حمد بن خليفة آل ثاني والتي اتهمت على أثرها السعودية بتدبير الانقلاب، وصولاً إلى القمة الخليجية عام 1996 عندما اختارت القمة مرشح السعودية جميل إبراهيم الحجيلان أميناً عاماً بدلاً من مرشح قطر عبد الرحمن العطية، ومنذ ولادة الربيع العربي وتمويل قطر في بعض الأحيان الموجات الثورية، لا سيما حركة الإخوان المسلمين، في حين عارضت المملكة العربية السعودية ذلك مفضلة الحفاظ على نفس أنظمة الحكم في الدول العربية. إضافة إلى ذلك، دعمت قطر نظام الإخوان المسلمين فيما حاولت السعودية دعم أحزاب أخرى، وقد حافظت قناة الجزيرة القطرية نسبياً على العلاقات مع تركيا وإيران لأنهم مع الإخوان، فيما تحاول السعودية الحد من نفوذ إيران في المنطقة وتحاول القضاء على الجماعات المتشددة التي تدعمها.

كذلك، فإنه منذ انهيار نظام بشار الأسد في سوريا، فإن الدور القطري هناك يتفوق على السعودي. وكانت الأزمة بين الدولتين تصاعدت حين قامت السعودية وبعض الدول بقطع العلاقات الدبلوماسية مع قطر ومنعت قطر من استعمال مجالها الجوي وطرقها البحرية، كما قامت السعودية بمحاصرة قطر براً.

وعلى الرغم من أن العلاقات بين البلدين مرّت بأزمات سياسية خطيرة، إلا أنهما حافظتا على قدر كبير من ضبط النفس، وقد أعادت السعودية والدول المقاطعة فتح الحدود البحرية والبرية والجوية مع قطر، وبدأت عملية المصالحة عام 2021 خلال قمة دول مجلس التعاون الخليجي في محافظة العلا، لأن قطر عضو في مجلس التعاون الخليجي الذي تهيمن عليه السعودية، كما أنها على توافق تام مع السعودية في مسألة البحرين، وبعض القضايا في المنطقة العربية كإسقاط نظام الأسد مثلاً. هذا وتحاول قطر تحسين علاقاتها مع السعودية من أجل أن تخدم مصالحها السياسية والاقتصادية في المنطقة والعالم.

إن هذه المعطيات تدفعنا إلى التساؤل عن دور قطر، الدولة الصغيرة التي لا تملك مقومات عظيمة، وكيف تمكنت من ممارسة سياسة خارجية نشطة وفرض نفسها طرفاً أساسياً في السياسات الإقليمية؟ كيف تحولت خلال العقد الأول من القرن الواحد والعشرين من دولة صغيرة إلى إحدى القوى الإقليمية الفاعلة في الشرق الأوسط؟

وبالنسبة للملكة العربية السعودية، ما الذي دفع بها إلى ترك الساحة لدولة منافسة لها في الخليج وهي الأكبر على مستوى السكان والمساحة؟ ما الذي يدفع السعودية إلى دعم الليبراليين في مصر ضد الإخوان المسلمين، علماً أنّ الإسلاميين أقرب إليها، ولماذا اعتبرتهم خطراً؟ وما الذي دفع قطر والسعودية إلى اتخاذ قرار بالتوافق على إسقاط نظام الأسد في سوريا؟

سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال معالجة الموضوع بطريقة علمية تحليلية عبر تقسيم الموضوع إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الاختلافات والتشابهات بين قطر والمملكة.

القسم الثاني: أسباب التوتر في العلاقات القطرية السعودية.

القسم الثالث: تطور العلاقات القطرية السعودية عبر التاريخ حتى الوقت الحاضر.

القسم الأول: الاختلافات والتشابهات بين قطر والمملكة

تأتي السعودية من حيث المساحة في المرتبة الثانية على مستوى العالم العربي بعد الجزائر، ويبلغ عدد سكانها عام 2025 وفق مصلحة الإحصاءات السعودية الرسمية 37.6 مليون نسمة⁽¹⁾. أما قطر فهي دولة صغيرة عدد سكانها لا يتجاوز 3.115.8 مليون نسمة⁽²⁾ ومساحتها توازي مساحة جزيرة كورسيكا في فرنسا، ولا تعتمد أي نظام ديمقراطي تمثيلي، إلا أن قطر توزع الثروات بشكل أفضل للحصول على طاعة المواطنين، أما في السعودية فلا يزال هناك فروقات طبقية كبيرة مع اتساع طبقة الفقراء رغم ثروات الدولة الهائلة⁽³⁾.

عقائدياً، السعودية هي دولة إسلامية تعتمد الفكر الوهابي، أما قطر فتعتمد مذهب أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان (أي المذهب الحنفي)⁽⁴⁾.

بعد أحداث الربيع العربي، سعت المملكة العربية السعودية إلى إنهاء نفوذ الإخوان المسلمين، وهذا الموقف نابع من الاختلاف الجوهرى في تفسير وتطبيق الإسلام بين الطرفين. فمؤسسة جماعة الإخوان المسلمين وعلى رأسهم حسن البنا وسيّد قطب، وكانوا يطمعون إلى إعادة نظام الخلافة الإسلامية. وهذا التوجه يعبر من وجهة نظر السعودية تهديداً مباشراً لنظام الحكم الملكي المطلق، ليس فقط في المملكة العربية السعودية، بل أيضاً في دول الخليج الأخرى مثل الكويت والبحرين وبالتالي فإن هذا الاختلاف الأيديولوجي والسياسي يعدّ أحد الأسباب الرئيسة للخلاف بين السعودية وجماعة الإخوان المسلمين.

إن مقارنة قطر تختلف عن السعودية فهي أكثر انفتاحاً وتدعم الإخوان المسلمين بالمال والسياسة ربما من أجل خلق «إسلام بديل» عن «الإسلام السعودي».

وهي تهدف بتحالفها مع الإخوان المسلمين إلى تغيير قواعد اللعبة لصالحها، وإعادة نفوذها في المنطقة، وفي جامعة الدول العربية، خاصة في ظل التقارب بين تركيا والإخوان المسلمين في الدول العربية، علماً أن الأمير تميم حافظ على مسافة من الإخوان بعد حصول الانقلاب في مصر⁽⁵⁾.

وقد ترجم الخلاف على المحطات الإعلامية ولا سيما الجزيرة التابعة لقطر والعربية التابعة للسعودية من خلال التجاذب الكبير والتحليلات المختلفة بما يخص الموضوع المصري وسائر ملفات المنطقة.

أما فيما يخص الإرهاب، فقد اتهمت السعودية دولة قطر برعاية الإرهاب المتمثل «بتنظيم القاعدة وجبهة النصرة» الناشطة في سوريا، على الرغم من أن السعودية فعلت الشيء نفسه من خلال تمويلها للجماعات والوكلاء في سوريا والعراق.

لقد صرّح روبرت غيتس^(*) في مايو 2017 قائلاً: إن قطر تدعم الإرهاب من خلال تمويل بعض الجماعات مثل حماس وطلالiban والقاعدة⁽⁶⁾.

تضم قطر أكبر قاعدة أميركية في الشرق وهي قاعدة العديد الجوية، والسعودية أيضاً تضم عدداً من القواعد وكلا البلدين يعتبران شريكاً استراتيجياً للولايات المتحدة الأمريكية.

أما في موضوع البحرين، فقد اتفقت قطر والسعودية على مساعدة البحرين في تدعيم النظام عندما قامت المظاهرات الشعبية، وقمع النظام البحريني المعارضة الشعبية والشيعية، كذلك، فإنّ تحالفاً سعودياً قطرياً نشأ ضد إيران التي تنازع قطر على بعض حقول الغاز علماً أن العلاقة البحرينية القطرية لم تصل إلى حدّ القطيعة على غرار ما حصل في العلاقة السعودية الإيرانية.

إذن، صحيح أن النظامين في قطر والسعودية هما ملكيان مطلقان، لهما طابع ريعي بترولي، لكن الدولتين تختلفان من حيث المساحة والسكان والأيدولوجية الدينية. ولا بد من القول هنا أن الدول العربية الصغيرة منذ استقلالها كانت تلحق بالدول العربية الكبرى كمصر وسوريا والسعودية وهذا كان حال قطر، خاصة بعد تأسيس مجلس التعاون الخليجي الذي لم يشكل وحدة متكاملة بين دول الخليج وإنما جاء رداً على طموحات إقليمية من جهة العراق وإيران خصوصاً مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران عام 1979.

بقيت قطر تدور في المحور السعودي حتى 1995 عندما قام الشيخ حمد بالانقلاب على

والده، أخذاً منحاً طموح، واضعاً سياسة خارجية مستقلة عن السعودية ليحول قطر إلى لاعب إقليمي كبير في السياسات الإقليمية.

القسم الثاني: أسباب التوتر في العلاقات القطرية السعودية

أطاح الأمير محمد بن خليفة آل ثاني بوالده عام 1995 وتولى الحكم في قطر وسعى إلى تحويل الإمارة الصغيرة وإعادة تقديمها كلاعب مؤثر على الساحتين العربية والدولية. هذه الخطوة أثارت استياء المملكة العربية السعودية، التي تعتبر القوة المهيمنة في مجال التعاون الخليجي، وتلعب دوراً إقليمياً كبيراً دون منافسة، وهو الدور الذي كانت قطر تسعى لمنافستها عليه. بالإضافة إلى ذلك، اعتبرت السعودية انقلاب أمير على والده سابقة خطيرة في هذه الدول الملكية مما قد يهدد عرش المملكة.

وفي محاولة منها لتعزيز دورها وتثبيتته، سعت قطر في العام 2001 للاستفادة من أحداث 11 أيلول (سبتمبر)، بعد أن حاولت واشنطن الابتعاد قليلاً عن السعودية، التي كان العدد الأكبر من منفذي الهجمات على البرجين من مواطنيها. فقامت أميركا بنقل القيادة المركزية لها من السعودية إلى قطر.

وبدأت قطر تتمايز عن السعودية بمواقف عديدة، على سبيل المثال: عندما وقفت إلى جانب لبنان خاصة في إعادة الإعمار، عندما اعتدت إسرائيل على لبنان والمقاومة⁽⁷⁾، وفي اليمن عام 2009، وفي مصر عام 2011 من خلال دعم قطر للإخوان المسلمين في الوقت الذي كانت فيه السعودية على خلاف معهم، وتتنظر نظرة الريبة والحذر لوصولهم إلى السلطة وكان الدليل على ذلك دعمها للرئيس المصري الحالي عبد الفتاح السيسي وتأييدها لانقلابه ودعمه بالمال⁽⁸⁾.

وفي الموضوع السوري، اتفق البلدان على إسقاط نظام الرئيس السوري بشار الأسد ودعم الثورة والمعارضة ومواجهة طهران ومشروعها النووي ونفوذها في الخليج العربي، إلا أن التجاذب كان موجوداً ولم يكن ظاهراً خاصة أن تحالفاً قطرياً تركيا كان قائماً بالفعل في سوريا من خلال دعم الإخوان المسلمين والدائرين في فلكنهم.

الهدف من هذا التفاهم، وإن كان سياسياً، إلا أن له بعداً اقتصادياً أيضاً. فالدولتان كانتا تريدان مدّ خطوط أنابيب الغاز من سوريا إلى تركيا وصولاً إلى أوروبا، وهذا الأمر لن يحصل دون سقوط الأسد المدعوم روسياً، ولأن روسيا مستاءة من هذا المشروع الذي سينافس الغاز الروسي، لذلك دعمت روسيا بشار الأسد بكل قواها، فهو البوابة الأولى التي تلج منها روسيا إلى الشرق الأوسط وهو الحليف الأول ومن خلاله تستطيع روسيا مواجهة المشروع القطري - التركي⁽⁹⁾.

راهنّت السعودية على القوى الإسلامية الأخرى (المتطرفين والتكفيريين) والذين نشهد اليوم إنكفاءهم عكس الدور القطري التركي الذي أوصل أحمد الشرع إلى سدة الرئاسة في سوريا. وقد أشار المحلل السعودي آل عاتي إلى «أن التحرك السعودي السريع جاء جزء منه إلى ان سوريا عليها الحذر من الهيمنة التركية»، وقد أضاف «تركيا بذلك جهوداً كبيرة لمساعدة السوريين لكن أيضاً سيادة واستقرار سوريا مسؤولية عربية في ظل مرحلة تعافي الدولة السورية»⁽¹⁰⁾.

إن الصراع على النفوذ بين قطر والسعودية سيستمر، طالما أن هناك تنافس في موضوع الغاز والبتروول والبتروودولار، حتى لو اتحدا ضد إيران والشيعية، فإن التنافس بينهما باقٍ، لأن السعودية تنظر بعين الارتياب إلى الدور الكبير الذي تلعبه دولة صغيرة يمكن أن يؤثر على استقرار السعودية واستمرار العائلة المالكة، وهو الهم الأساسي لملوك السعودية. من هنا نفهم التوجه الملكي لدعم وحماية أنظمة مشابهة سلطوية توتاليتارية، وعلى عداوة دائمة لكل ما هو ثوري تحرري⁽¹¹⁾.

بالرغم من المصالح المشتركة من أجل استقرار الخليج، فقد زاد العداء والحذر والتباين بين قطر والسعودية في المواقف التي تخص المرحلة الانتقالية في بعض الدول العربية، وهي مرشحة للزيادة في ظل الحكم الجديد في سوريا والهيمنة التركية القطرية التي دفعت السعودية للتدخل بشكل فوري في لبنان بعد قطيعة طويلة. لقد أعطت قطر للإخوان ما قيمته 7 مليار دولار، بينما سارعت السعودية لدعم الجيش المصري بـ 12 مليار دولار. إنه صراع سياسي وأمني وعسكري. إن تراكم الخلافات على الرغم من قيام قطر بالعديد من المحاولات لإظهار الإرادة الطيبة من الأمير تميم تجاه السعودية والزيارات، ستؤدي إلى استمرار الحرب الباردة على النفوذ في الإقليم ولن تغفر السعودية لقطر منافستها على زعامة المنطقة.

القسم الثالث: تطور العلاقات القطرية السعودية عبر التاريخ حتى وقتنا الحاضر:
 اتسمت العلاقات السعودية القطرية حتى أواخر القرن العشرين وإلى حين تولي الأمير حمد بن خليفة آل ثاني الحكم في قطر، كانت قطر تعتمد مواقف السعودية نفسها في سياستها الخارجية وكلا البلدين ينتقدان بشدة نظام الجمهورية الإسلامية في إيران، وتعتبر الدولتان قطر والسعودية من المؤسسين الستة لمجلس التعاون الخليجي في العام 1981. وما زالت قطر تحافظ على توافيقها مع المملكة في العديد من القضايا مثل المشاركة في التدخل الذي قادته السعودية في البحرين عام 2011 والمشاركة في التدخل العسكري

الذي تقوده المملكة في اليمن عام 2015، واستدعاء سفيرها في طهران بهجوم عام 2016 على البعثات الدبلوماسية السعودية في إيران حتى اندلاع الأزمة الدبلوماسية مع قطر عام 2017، لم يكن هناك أي تعاون من أي نوع بين البلدين⁽¹²⁾.

كما أنّ العلاقات الاجتماعية بين البلدين كانت جيدة دائماً، بسبب تقارب النسيج الاجتماعي بين السعودية والقطريين وهناك قبائل قريبة جداً من بعضها على الحدود بين البلدين. فأصول قبائل قطر تعود إلى نجد في المملكة العربية السعودية. إلا أنه في السياسة هناك محاولات دائمة إلى إعادة الاعتبار إلى علاقة الإخوة - الأعداء⁽¹³⁾.

تدرك قطر أهمية العلاقات الاقتصادية مع المملكة السعودية التي تخدم قطر في أحيان كثيرة، فعودة الأمور إلى الاستقرار، سيجعل قطر قادرة على تنفيذ مشاريعها مع الدول الخليجية الأخرى، مثل أنبوب غاز للكويت عبر السعودية، وغير ذلك من المشروعات التي تعتبر قطر بحاجة إليها، خاصة أنها تشهد نهضة عمرانية كبيرة، وطفرة اقتصادية ضخمة⁽¹⁴⁾.

على المستوى السياسي، تعتبر قطر أن السعودية دولة مهمة إقليمياً، وهي حليفة واشنطن وعلى رأس مجلس التعاون الخليجي، لذلك كانت قطر دائماً تحاول إعادة العلاقات إلى طبيعتها مع السعودية، وقد تأكد ذلك من خلال الزيارات المتكررة للسعودية من قبل حاكم قطر: الأمير حمد والوزير حمد⁽¹⁵⁾. وقد تحدثت الصحف القطرية عن أن القيادة القطرية الجديدة تعهدت بدعم الدور السعودي الكامل في سوريا، وأن أية علاقة لها مع المجموعات المتشددة الناشطة في سوريا التي تعمل على تحويل وجهة الصراع إلى حرب أهلية لاعتبارات دينية وطائفية قد توقفت⁽¹⁶⁾.

مورست ضغوط أميركية وأوروبية موسست على قطر، دفعت بها للتخلي عن أي دور في الملف السوري لفترة طويلة، خاصة فيما يتعلق بإدارة الحوارات مع مختلف الفصائل المعارضة السورية، ومحاولة فرض الإخوان المسلمين قيادة مؤسسة المعارضة. وتمّ بالتوازي الاتفاق على أن تتولى السعودية مهمة التنسيق بين المعارضة وبين الدول الغربية المؤثرة في الملف السوري⁽¹⁷⁾.

لقد صرّح الوزير القطري محمد بن جاسم مراراً: «نحن نكرّر دائماً أن المملكة هي الشقيقة الكبرى وأن اعتمادنا في مجلس التعاون الخليجي على السعودية التي هي العمود الفقري هو فعل إيمان، لأن السعودية دولة مهمة في المنطقة»⁽¹⁸⁾. كذلك جاءت زيارة الأمير تميم في عيد الفطر لتعزيز التعاون بين البلدين. وقد عملت الكويت خلال لقاء القمة في الكويت عام 2013 على إذابة الجليد بين الدولتين، فجمعت في قمة مصغرة

الملك السعودي والأمير القطري برعاية أمير الكويت، واستعرضوا القضايا الإقليمية والدولية، وكيفية الرد على مفاوضات إيران مع القوى الغربية⁽¹⁹⁾.

ومنذ ذلك الوقت، والعلاقات بين البلدين تشهد تحسناً تأكد من خلال التنسيق الدائم والتشاور بين الأمير تميم والملك عبد الله، وقد تحدثت الصحف القطرية عن أن العلاقات السعودية القطرية تشكل بعداً استراتيجياً مهماً لا يمكن المساومة عليه أو التفريط به⁽²⁰⁾. ظلت الأمور تسير على هذا النحو حتى القطيعة الكاملة وفرض الحصار من قبل السعودية والإمارات والبحرين ومصر علاقاتها مع قطر في الخامس من حزيران عام 2017، وقد أعربت الخارجية القطرية عن أسفها واستغرابها الشديد من قرار دول في مجلس التعاون الخليجي، في الوقت الذي قامت فيه تركيا بالمصادقة على اتفاقية بشأن تعزيز التعاون العسكري مع قطر⁽²¹⁾.

لقد أتى هذا التصعيد على خلفية محاولة إسكات قناة الجزيرة، وقد تعددت الوساطات لإنهاء هذه الأزمة وكان التأثير الأقصى لواشنطن عندما حمل وزير الخارجية الأميركية مايك بامبيو رسالة إلى السعودية تطالبها بإنهاء الحصار الذي تفرضه بمعية الإمارات والبحرين ومصر على قطر⁽²²⁾.

سعت قطر خلال العام الأول للحصار الاقتصادي للعمل على امتصاص الصدمة وتنويع الشركات التجارية، ثم تعزيز النمو الاقتصادي، وصولاً إلى السعي لتعزيز الصناعة الداخلية وتنويع الاستثمار. ويشير تقرير التنافسية العالمي الصادر عن المعهد الدولي للتنمية (IMD) عام 2018 بعد مرور عام على الحصار الاقتصادي، إلى أن الاقتصاد القطري، تبوأ المركز الخامس عالمياً من بين 63 دولة معظمها من الدول المتقدمة، وذلك في محور الأداء الاقتصادي ما يعكس الأداء القوي وقدرته على تجاوز الأزمة⁽²³⁾.

لقد نجحت قطر في التعايش مع الحالة الجديدة وانتصرت في معركة الحفاظ على السيادة واستقلال قراراتها السياسي والدبلوماسي والاقتصادي والإعلامي. ويمكن القول أن هذه الأزمة ساهمت في توسيع شبكة علاقات قطر الإقليمية والدولية وتكثيف الحضور الفاعل على الساحة الدولية.

في الرابع من يناير عام 2021 أُعلن عن فتح الأجواء بين قطر والسعودية، كما أُعلن أن أمير قطر سيتراًس وفد بلاده في قمة الخليج بالسعودية وقد صدر بيان عقب القمة يعلن انتهاء الأزمة وعودة العلاقات⁽²⁴⁾.

تتعلق العلاقات بين البلدين من أساسها التاريخي القائم على البعدين العربي والإسلامي، ولا بد من الإشارة إلى أن وصول الشيخ تميم إلى سدة الحكم في قطر لاقته السعودية

بالإيجاب والارتياح، فهو كان على رأس لجنة العلاقات القطرية السعودية، وكان يعمل على تسوية للخلافات مع السعودية التي رأت فيه أملاً لعودة دورها إلى المنطقة وعودة قطر إلى حجمها في مجلس التعاون الخليجي.

يمكننا القول: إن الأزمات السياسية أرخت بظلالها على مجلس التعاون الخليجي، ويبدو أن المتغيرات الإقليمية والدولية الخاصة اليوم ابتداءً من سوريا إلى لبنان والوضع الإقليمي المتوتر بين إيران ودول المنطقة ستفتح باباً للاحتمالات العديدة.

الخاتمة:

يوجد خطان من السلوك السياسي تجاه القضايا العربية خاصة في موضوع الربيع العربي، الخط الأول تمثله السعودية ومن معها من دول الخليج وآخر تتزعمه قطر مدعومة من تركيا، ولكل طرف موقفه المختلف عن الآخر، علماً أنهما يتوحدان في مواقف أخرى. فالدولتان معاً في قمع معارضة الشعب البحريني وحق الشعب في تقرير مصيره وهم معاً في إسقاط نظام الأسد في سوريا ومع حق الشعب في الديمقراطية والتغيير ولو كان ذلك يقتضي التعامل مع التكفير والإرهاب الذي قتل الشعبين السوري واللبناني. لكنهما اختلفا في المواقف بالنسبة للأحداث في مصر واليمن وليبيا وحالياً في سوريا بعد النجاح في إسقاط النظام حيث نرى تبايناً خفياً وصراعاً على النفوذ في سوريا بين قطر والسعودية ولو أن هذا الخلاف لم يظهر إلى السطح حالياً ولم يتفاقم ليصبح على مستوى أزمة على غرار أزمات سابقة تم ذكرها. كما أننا نلاحظ تقدماً ق طرياً على النفوذ السعودي في سوريا تحاول السعودية تعويضه من خلال البوابة اللبنانية، فقد شهدنا تدخلاً سعودياً حديثاً على مستوى رئاسة الجمهورية والحكومة بعد قطيعة مع لبنان استمرت طويلاً.

في مصر، اعتمدت مقاربة قطر على سياسة الأبواب المفتوحة مع الإخوان المسلمين عبر الدعم المالي، أما السعودية فقد اعتمدت في مقاربتها على الحصار الأمني والسياسي والملاحقات.

لقد وجدت قطر في الربيع العربي فرصة كبيرة لتوسعة دورها في المنطقة والعالم ولمقارعة الدور والنفوذ السعودي فقد دعمت قطر المجموعات المسلحة المتحالفة مع القاعدة في مالي كما دعمت الثوار في ليبيا.

يمكن القول أن غياب الأنظمة السياسية العلمانية، وال فراغ الذي خلفته مصر بعد دخولها في صلح مع إسرائيل وتوقيعها لاتفاقية كامب ديفيد، إضافة إلى وجود الأنظمة القمعية

والمتمسطة على الشعوب، كلها أسباب أدت إلى نهضة الحركات الإسلامية، وبروز تنظيم الإخوان المسلمين خاصة في مصر وتونس، الأمر الذي خلق حالة من التجاذب والعداء بهدف الهيمنة على الشارع العربي، بين قطر والسعودية.

لقد حاولت كل من الدولتين التأثير على مجرى الأحداث في دول الربيع العربي، كل حسب مصالحه ونفوذه، على مبدأ إبعاد شبح الثورات (عدا حالة سوريا) حيث تجتمع الدولتان على البعد عن الديمقراطية في نظامها السياسي وعن المؤسسات وحرية الشعوب علماً أن الدولة القطرية تظهر بشكل انفتاحي أكثر من السعودية التي تحاول الحفاظ على التراث السني المتمزمت فهي تعتبر نفسها قلعة الإسلام وقائد مجلس التعاون الخليجي. أما قطر، ومن خلال قناة الجزيرة، ودعمها لمراكز الأبحاث في فتحاول الظهور بشكل الدولة المنفتحة على العالم وأنها تشكل الاعتدال العربي. فالأمير والوزير، والدولة والبترو دولار وحجم الاستثمار في العالم والفائض المالي، كلها عوامل دفعت بقطر لصعود سلم النفوذ في المنطقة.

بعد إزاحة "الحمدين" الأمير والوزير، وتولي الشيخ تميم خلافة والده، شهدت العلاقات بين البلدين تطورات إيجابية حاولت اتخاذ اتجاه التطبيع، ورغبة كل من الطرفين بطي صفحة أزمات الماضي الخلافية، وإقامة علاقات قائمة على التعاون والتنسيق لنبذ أزمة الـ 2017 ومقاطعة السعودية والحصار وحتى بعد انتهاء هذه الأزمة، فإننا نرى أن العلاقة لن تصل إلى حدود التطابق الكامل من وجهات النظر، فلكل دولة خصوصية معينة تسعى للحفاظ عليها ومصالحها الاقتصادية وحساباتها الاستراتيجية والمصالح الجيوسياسية. فقد تتفق الدولتان على الموقف من إيران والبحرين وعلى إسقاط الأسد ولكنهما تختلفان في قضايا إقليمية ودولية أخرى. وفي واقعنا الراهن نرى أن قطر والسعودية اتفقتا على إسقاط الأسد ولكن التركة السورية سوف تترك بذوراً للخلاف والصراع على النفوذ قد يظهر أكثر مع الآتي من الأيام، ويبقى الأمريكي هو المقرر من الذي سيلعب الدور الأكبر في المنطقة قطر أم السعودية؟

لائحة المراجع

- 1- مصلحة الإحصاءات السعودية: <http://com.argaam.com> . تاريخ الدخول 1/4/2025.
- 2- التعداد السكاني في قطر عام 2025: www.net.populationpyramid.com تاريخ الدخول 1/4/2025.
- 3-Brigette Dumontien AtlasduGolf -RFI-PUPS, 2011,PARIS, P9.

- 4 - معلومات عامة، سفارة قطر في دوشنبة: <https://dushanbe.embassy.qa>
- 5- العربية نت net.alarabiya.www تاريخ الدخول 1/4/2025.
- 6- روبرت غيتس: رئيس وكالة الاستخبارات المركزية ووزير الدفاع السابق.
- 7- ويكيبيديا: ar.wikipedia.org/wiki - صراع السعودية وقطر - بالوكالة تاريخ الدخول 1/4/2025.
- 8- الصحف اللبنانية - السفير والأخبار الصادر في 14 آب 2006.
- 9- ميدل إيست أون لاين تاريخ الدخول 2/4/2025: <https://middle-east-online.com>
- 10-Nicolas Beau: le villain petit Qatar Fayord-2013 paris
- 11- محمد الصباغ، رسالتان في اختيار السعودية كأول وجهة للإدارة السورية، تاريخ النشر 2 يناير 2025، <https://com.alhurra.www/2025/01/02/arabia-saudi/> تاريخ الدخول 5/4/2025.
- 12-Oliviewr Dalage: Geopolotique l'arabie saudite. Ed complex paris 2006.
- 13- ويكيبيديا: <https://wiki.org.wikipedia.ar/> تاريخ الدخول 1/4/2025.
- 14- الأضواء نت: com.ladwaa/ تاريخ الدخول 1/4/2025.
- 15- ويكيبيديا، مصدر سابق، تاريخ الدخول 1/4/2025.
- 16- العربية نت، مصدر سابق، تاريخ الدخول 2/4/2025، تقرير نشر في 15 آذار 2013.
- 17- عكاظ: sa.com.okaz.www تاريخ الدخول 2/4/2025.
- 18- مصدر سابق ميدل إيست أون لاين، تاريخ الدخول 2/4/2025.
- 19- جريدة الأنباء الكويتية.
- 20- جريدة الحياة في 23/11/2013.
- 21 - عكاظ في 10 شباط 2014.
- 22 - الجزيرة نت: net.aljazeera.www/ ، حصار قطر - أين وصل، تاريخ الدخول 2/4/2025.
- 23 - الجزيرة نت، المصدر نفسه.
- 24 - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، عام على الأزمة الخليجية: كيف نجحت قطر في هزيمة الحصار؟ تحليل نشر في 4 يونيو 2018. org.dohaimstitee.www/ تاريخ الدخول 2/4/2025.
- 25 - ويكيبيديا، مصدر سابق، الأزمة الدبلوماسية مع قطر.

المحاكمة الغيابية

باحثة لبنانية

المستخلص

شكّلت المحاكمة الغيابية أداة قانونية تمّ اللجوء إليها في حالات متنوعة عبر التاريخ. ومن أبرز هذه الحالات محاكمة نورمبرغ والمحكمة الخاصة بلبنان التي تجسّد واقع المحاكمة الغيابية بين الماضي والحاضر. وعلى الرغم من أهمية هذه المحاكمة كوسيلة لتحقيق العدالة، إلا أنها تبقى محكومة بضرورة تحقيق التوازن الدقيق بين مصلحة المجتمع الذي يعني له بشدّة مبدأ الاستقرار ومكافحة الجريمة وبين ضمان حقوق المدعى عليه وخاصة حق الدفاع المقدس. وهذا يتطلب إلتزاماً صارماً بتطبيق الإجراءات القانونية والضمانات التي تكفل عدالة المحاكمة إلى جانب الأمر المهم جداً الذي يتمحور حول ويتمثل بتطوير وتعديل التشريعات لاسيما العربية ومواكبتها لحقوق الإنسان والمبادئ العالمية للمحاكمات ذلك أن المدعى عليه كما المجني عليه بالدرجة الأولى هو إنسان له حقوقه وظروفه الاجتماعية التي حدثت به الى ارتكاب الجرم من وجهة النظر الحديثة للمحاكمات الغيابية.

Abstract

Trials in absentia have been a legal practice that has been resorted to in various cases, most prominent of the cases are the Nuremberg and the Special Tribunal for Lebanon, which demonstrate the reality of trials in absentia between the past and the future. Despite the importance of this trial as a means of achieving justice, it remains governed by the necessity to achieve a delicate balance between the interest of society, which means too much to it the principle of stability and combating injustice, and guaranteeing the rights of the defendant. This requires a sincere commitment to implementing legal procedures, the guarantees that ensure a fair trial, in addition to the very important matter that revolves around and is demonstrated in developing and amending legislations especially the Arab countries' legislations and keeping it in line with human rights and the international principles of trials, since the defendant, like the victim in the first place, is a human being with rights and specific social circumstances that motivated him to commit the crime from the point of view of the new vision about the trials in absentia.

المحاكمة الغيابية بين الماضي والحاضر والتعديلات التشريعية الواجبة شكّلت المحاكمة الغيابية أداة قانونية تم اللجوء إليها في حالات متنوعة عبر التاريخ. ومن أبرز هذه الحالات محاكمة نورمبرغ التي أقيمت من أجل محاكمة مرتكبي جرائم الحرب العالمية الثانية، والمحاكمة الخاصة بلبنان التي أنشئت من أجل محاكمة مرتكبي جريمة إغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري. وعلى الرغم من إختلاف السياق التاريخي والقانوني إلا أن المحاکمتين تشترك في إعتمادها نظام المحاكمة الغيابية مع إختلافات جوهرية في الإجراءات والأهداف.

أولاً: الإطار التاريخي والقانوني

أنشئت محاكمة نورمبرغ بعد الحرب العالمية الثانية لمحاكمة كبار المسؤولين النازيين عن جرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية وإعتمدت المحكمة على ميثاق نورمبرغ الذي صاغه الحلفاء لتحديد الجرائم وقواعد المحاكمة. وقد تمت

محاكمة بعض القادة النازيين غيابياً مثل مارتن بورمان، بسبب وفاتهم أو إختفائهم خلال إنعقاد المحاكمات.

بينما المحكمة الخاصة بلبنان، أنشئت بموجب قرار مجلس الأمن الدولي 7571 للتحقيق في إغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري عام 5002 وسلسلة من الجرائم المرتبطة بهذه الجريمة، واعتمدت المحكمة على مزيج من القانون اللبناني والقانون الدولي، وهي تعتبر محاكمة إمتازت بالسماح بمحاكمة المتهمين غيابياً إذا تعذر القبض عليهم.

أما الفروقات بين محكمة نورمبرغ والمحكمة الخاصة بلبنان فقد تجسّدت بالتالي:

(1) التبليغ، ففي محاكمة نورمبرغ لم تكن هناك آلية تبليغ شخصية للمتهمين الغائبين، بل إعتمدت المحكمة على الإعلان العام بينما في المحكمة الخاصة بلبنان تطلبت المحكمة إجراءات دقيقة لإثبات أن المتهم قد تمّ إبلاغه شخصياً أو بوسائل بديلة كالإعلانات العامة.

(2) التمثيل القانوني، في محاكمة نورمبرغ لم تفرض المحكمة تعيين محامين عن المتهمين الغائبين أما في المحكمة الخاصة بلبنان فقد تم تعيين محامين للدفاع عن المتهمين الغائبين لضمان تمثيلهم قانونياً.

(3) الإستئناف، ففي محاكمة نورمبرغ لم تمنح الأحكام الغيابية حق الطعن أو إعادة المحاكمة، بينما في المحكمة الخاصة بلبنان فقد منح المحكوم عليهم الغائبين حق الاعتراض وطلب إعادة المحاكمة عند ظهورهم أو إثبات عدم علمهم بالمحاكمة.

ثانياً: الأهداف والسياقات السياسية

تلخصت الأهداف في محاكمة نورمبرغ في عملية إثبات وتوثيق الجرائم النازية ومحاسبة المسؤولين عنها ووضع وتثبيت قواعد جديدة للقانون الدولي. أما في المحكمة الخاصة بلبنان فقد كانت الأهداف تتمحور حول تحقيق العدالة لضحايا الإغتيالات وتعزيز مكافحة محاولات الإفلات من العقاب.

أما السياق السياسي في محاكمة نورمبرغ فقد إرتبطت المحاكمة بتأسيس النظام الدولي الجديد بعد الحرب العالمية الثانية وتحديد مسؤولية قادة الحروب. بينما في المحكمة الخاصة بلبنان فقد عملت المحكمة ضمن بيئة سياسية مشحونة في لبنان وتخللها إتهامات بتسييس المحكمة وتأثيرها على السيادة اللبنانية.

ثالثاً: التحديات والنقد

لقد طالت كلا المحكمتين في الماضي والحاضر إنتقادات عدة من بينها أنه إعتبرت بعض الأطراف أن المحاكمات كانت "عدالة المنتصر" حيث خلت من الحيادية ولم تشمل جرائم الحلفاء في محاكمة نورمبرغ بينما وجهت إنتقادات لغياب المتهمين في المحكمة الخاصة بلبنان مما أثر على مصداقية الأحكام وبما فيه النقد الذي طال مسألة التكلفة الباهظة للمحكمة.

أما بالنسبة للتحديات ففي محاكمة نورمبرغ جعل غياب بعد المتهمين المحاكمات الغيابية أقل تأثيراً في ترسيخ مفهوم العدالة. بينما في المحكمة الخاصة بلبنان فكان هناك تحدي لتأمين التوازن بين تحقيق العدالة وإقتناع الرأي العام المحلي والدولي بنزاهة وعدالة ومصداقية الإجراءات.

إلا أنه من الواضح من خلال إعتقاد أحكام القانون اللبناني أن المحكمة الخاصة بلبنان قد قدمت ضمانات أوسع لحقوق المتهمين، ومراعاة القانون الدولي في آن معاً. ففي القانون اللبناني نظم قانون أصول المحاكمات الجزائية اللبناني مسألة المحاكمة الغيابية وفي هذا الإطار نرى أنه ميّز بشكل رئيسي بين حالتين قانونيتين:

الحالة الأولى هي محاكمة المدعى عليه غير المبلغ قانوناً حيث تتم محاكمته غيابياً بعد تعذر تبليغه بسبب غيابه أو تعذر العثور عليه أو على سكنه الأخير فيبلغ تبليغاً إستثنائياً. والحالة الثانية هي محاكمة المدعى عليه المبلغ قانوناً بالصورة الغيابية بعد تبليغه قانونياً ولكنه إختار بإرادته عدم المثل أمام المحكمة. ففي هذه الحالة فقط لا تعاد عملية التبليغ مرة ثانية ولا يبلّغ تبليغاً إستثنائياً، ما يتيح للمحكمة مباشرة اجراءات المحاكمة الغيابية دون تعطيل العدالة.

فلقد تبنى المشرع اللبناني نظام المحاكمة الغيابية لعدة أسباب من أبرزها، ضمان إستمرارية العدالة تجنباً لتأخير المحاكمات وإطالة أمد النزاعات القانونية، مكافحة التهرب من العدالة لمواجهة نجاح بعض المدعى عليهم بالتملص من المحاكمة، وحماية حقوق الضحايا وضمان وصولهم إلى العدالة دون تأخير.

إلا أن ما أثر أيضاً على حالة المحكمة الخاصة بلبنان هو أيضاً التحديات والمخاوف التي واجهت المحاكمة الغيابية عامةً ومن بينها غياب ضمانات حقوق الدفاع، فقد يحرم المدعى عليه الغائب من فرصة تقديم دفاعه أو الطعن في الأدلة المقدمة ضده، إشكاليات التبليغ، ففي بعض الحالات، يثار الجدل حول مدى صحة إجراءات التبليغ، مما يفتح المجال للطعن في شرعية اجراءات المحاكمة، إضعاف ثقة الجمهور بالقضاء، فقد

تعتبر الأحكام الغيابية أقل مصداقية، خاصة إذا لم تمنح المحكوم عليه فرصة عادلة لإعادة المحاكمة. ولكن في المقابل كان هناك ضمانات في القانون اللبناني إستفادت منها المحكمة الخاصة بلبنان ومنها حق الطعن وإعادة المحاكمة، حيث يسمح القانون المعتمد للمحكوم عليه غيابياً الاعتراض على الحكم وطلب إعادة المحاكمة عند حضوره أو عند تقديمه أدلة تثبت عدم علمه بالمحاكمة، إجراءات التبليغ الصارمة، حيث يلزم القانون باتباع إجراءات دقيقة لضمان وصول التبليغ إلى المتهم، وتوكيل محام، ففي حالة غياب المدعى عليه يسمح القانون اللبناني في حالات محددة بتعيين محام له لضمان تمثيله في المحاكمة.

إنطلاقاً من كل التحديات والانتقادات والمخاوف عامة فلا بدّ من تعديلات تشريعية يتم إدخالها على المحاكمة الغيابية خاصة في الدول العربية لكي تحاكي النظرة الحديثة للمحاكمات عالمياً ولا سيما الإعلانات والمواثيق الدولية. فالمحاكمة الغيابية لا بدّ منها لكونها أداة مهمة لضمان إستمرار العدالة في حالات عدم حضور المدعى عليه. ولكن الإشكالية تكمن في آلية التطبيق في بعض التشريعات العربية مما يطرح علامات إستفهام حول مدى تحقيقها لمبادئ العدالة وضمان حقوق الدفاع. فلا بدّ من الموازنة بين مكافحة الإفلات من العقاب وضمان حقوق المدعى عليهم وذلك من خلال إدخال تعديلات تشريعية تساهم في تحقيق هذا الهدف. ومن أهم هذه التعديلات ما يطال إجراءات التبليغ والاختيار، ففي العديد من الدول العربية قد تكون إجراءات التبليغ غير كافية أو عامة مثل حالة الاكتفاء بالإعلان في الصحف أو من خلال الجهات الإدارية مما قد ينتج عنه عدم علم المدعى عليه بالمحاكمة. لذلك لا بدّ من إعتناء وسائل تبليغ حديثة مثل الرسائل النصية أو البريد الإلكتروني إلى جانب التبليغ بورقة رسمية وفقاً للنصوص القانونية الحاضرة. إضافة إلى توفير آلية توثق إستلام المدعى عليه التبليغ والتشديد على التبليغ لغير المقيمين في البلد حيث تتم إجراءات التبليغ عبر القنوات الدبلوماسية.

أما التعديل الثاني فيجب أن يطال ضمان تمثيل المدعى عليه الغائب تمثيلاً قانونياً فعلاً. ففي بعض التشريعات قد يتم تعيين محام بشكل صوري للمدعى عليه الغائب أو منع تعيين محام له. مما يدفعنا للقول بوجوب إلزام المحاكم بتوفير محامين للمدعى عليهم الغائبين وأن تضمن حصول المحامي على جميع الوثائق والأدلة المتعلقة بالدعوى وتمكين المحامي من المشاركة بفعالية في المحاكمة كأنه يمثل مدعى عليه حاضر.

ثالثاً: لا بدّ من وجوب توفير حق الاعتراض وإعادة المحاكمة

نرى أن بعض التشريعات تضع قيوداً صارمة على حق المدعى عليه الغائب في الاعتراض وإعادة المحاكمة مما يحرمه من فرصة الدفاع عن نفسه. لذلك يجب منح المدعى عليه قانوناً الحق في طلب إعادة المحاكمة عند ثبوت عدم علمه بالإجراءات وتحديد فترة زمنية معقولة للطعن أو الاعتراض على الحكم. وكذلك السماح بإعادة نظر الدعوى عند وجود ظروف وأدلة تؤكد إنتهاك حقوق المدعى عليه.

رابعاً، إقرار ضمانات لشفافية الإجراءات لمنع التشكيك في مصداقية المحاكمة خاصة عند إرتباطها بقضايا سياسية أو أمنية. فلا بدّ من توافر إمكانية توثيق مثل هذه المحاكمات الغيابية بالكامل من خلال التسجيلات الصوتية والمرئية وإتاحة المحاكمات العلنية وإشراك منظمات حقوق الإنسان أو ممثلي المجتمع المدني لمراقبة نزاهة الإجراءات.

خامساً، لا بدّ من تقنين الحالات التي تجيز المحاكمة الغيابية حيث لا تكون محددة بوضوح الحالات الجائز فيها إتباع هذه الإجراءات الغيابية منعاً لإساءة إستعمالها والتعسف باللجوء إليها. مما يعني حصر المحاكمة الغيابية في حالات محددة مثل إمتناع المدعى عليه عن الحضور رغم تبليغه أو تعمد الهروب، واشتراط قرار قضائي معلل تعليلاً إستثنائياً للسماح بالمحاكمة الغيابية واستبعاد هذه الأخيرة في القضايا التي تتطلب حضور المدعى عليه بشكل مباشر.

سادساً، تعزيز الرقابة القضائية على الأحكام الغيابية مما يتطلب إنشاء آلية رقابة تتيح مراجعة الأحكام الغيابية من قبل هيئة قضائية عليا للتأكد من التزامها بنصوص القانون وفرض شرط موافقة هيئة متعددة القضاة على الأحكام الصادرة في القضايا الخطيرة وإلزام المحاكم بتقديم مبررات معلّلة لكل حكم غيابي.

سابعاً، وأخيراً تحديث القوانين بما يتماشى مع المعايير الدولية لحقوق الإنسان والمحاكمات العادلة، أي تماشي القوانين المحلية مع المواثيق الدولية كالعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية ومراعاة المعايير الدولية للمحاكم الدولية كالمحكمة الجنائية الدولية.

تشكل المحاكمة الغيابية وسيلة هامة لتحقيق العدالة لكنها تبقى محكومة بضرورة تحقيق التوازن بين مصلحة المجتمع في مكافحة الجريمة وضمان حقوق المدعى عليه. لذلك لا بدّ من تطوير المحاكمة الغيابية في التشريعات العربية من خلال تعزيز ضمانات حقوق الدفاع والشفافية بما يتوافق مع المعايير الدولية. من

خلال إدخال التعديلات التشريعية مما يتطلب إلزاماً صارماً بتطبيق الإجراءات القانونية والضمانات لتعزيز ثقة المجتمع بالنظام القضائي وضمان احترام حقوق الإنسان.

لائحة المراجع العربية:

- 1- مصطفى العوجي، دروس في أصول المحاكمات الجزائية، منشورات الحلبي الحقوقية، 5102.
- 2- أحمد فتحي سرور، الوسيط في الإجراءات الجنائية، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، 6102.
- 3- حاتم بكار، حماية حق المتهم في محاكمة عادلة - دراسة تحليلية تأهيلية إنتقالية مقارنة في ضوء التشريعات الجنائية المصرية الفرنسية الإنجليزية الأمريكية والشريعة الإسلامية، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، دون تاريخ نشر.
- 4- الياس أبو عيد، أصول المحاكمات الجزائية بين النص والاجتهاد والفقه، دراسة مقارنة، المجلد الأول القاضي المنفرد الجزائي، الجزء السادس، المواد 051 إلى 081، منشورات الحلبي الحقوقية، الطبعة الأولى، 0102.
- 5- دليل المحاكمة العادلة، منظمة العفو الدولية، الطبعة الثانية.
- 6- وزير العدل اللبناني إبراهيم نجار، التحقيق في إغتيال الحريري بات في مرحلة متقدمة، النهار، بيروت، غنوة غازي، 0102/3/13.
- 7- رالف رياشي، إعتقاد المحكمة الدولية نظام المحاكمة الغيابية خروج عن مسار المحاكم الدولية الأخرى، ليبانون فايز، 0102/5/51.

لائحة المراجع الاجنبية:

- 8- www.noor-book.com
- 9- https://news.un.org
- 10- European Convention on Human Rights
- 11- Rome statute of the International Criminal Court
- 12- International Covenant on Civil and Political Rights
- 13- https://stl-tsl.org
- 14- or.wikipedia.org
- 15- www.stringfixer.com
- 16- www.hrw.org
- 17- www.un.org
- 18- www.asser.nl
- 19- Otto Triffterer, eid, Commentary on the Rome statute of the International Criminal Court, observers' Notes. Article by Article, (Baden-Baden: Nomos Verlagsgesellschaft, 1999).
- 20- Trials in absentia and International Criminal Justice, Coalition for the ICC.org, oct, 5, 2016.

ارهاصات التفكيك في الفكر العربي

طالب

المقدمة

لطالما شكلت العلاقة بين اللغة والمعنى محور اهتمام الفلاسفة والألسنيين على مر العصور. فكان البحث عن ثبات اللغة ركيزة المناهج التقليدية إلى أن ظهرت مقاربات في الفكر الحديث تسعى إلى تفكيك اللغة والمعنى والنص، فتهتم هذه المقاربات الحديثة بسيولة الدلالة وتحول المعنى وعدم ثباتها. يعد التفكيك من أبرز المذاهب الفلسفية التي قلبت مفاهيم المعنى واللغة والتأويل أيضاً، فكانت الفلسفة الغربية الحديثة مرمي التفكيكية التي أصابتها في صميمها. قدّم جاك دريدا (1930-2004) نقداً جذرياً للميتافيزيقا الغربية وقام بزعزعة المعاني التي تفترض ثباتها، مشيراً إلى صيرورة تأجيل المعنى وتفسيرها وفق السياق وفقدان جوهرها الثابت.

في المقلب الآخر، لم تغب استراتيجية تفكيك المعنى في التراث العربي التي تعاملت مع ثبات المعنى وقضايا الدلالة والتأويل بشكل يتقاطع في بعض جوانبه من مقاولات التفكيك الدردي. فتجد عند ابن جني (1002-941) وعبد القاهر الجرجاني (1078-1009) ارهاصات الفكر التفكيكي وإن كانت تطال اللغة بشكلها المباشر. هذا ونرى أن ابن جني وضع في كتابه الخصائص تصوراً للغة بوصفها ظاهرة مرنة ومتبدلة تستند إلى السياق، في حين يؤكد الجرجاني على أن المعنى ليس قائماً بذاته بل يتجلى من خلال علاقات الكلمات داخل النظم.

تهدف هذه المقالة إلى تحليل أفكار ابن جني والجرجاني حول

اللغة والدلالة والتأويل، ومقارنتها مع المفاهيم الأساسية في التفكيك الديردي، سعياً إلى الإجابة عن السؤال التالي: إلى أي مدى يمكن اعتبار أفكار هذين المفكرين إرهاصات مبكرة لمفهوم التفكيك؟

التفكيك عند جاك دريدا والتقاطعات العربية

انتقد جاك دريدا الذي يعد أحد أبرز المفكرين الذين أحدثوا تغييراً في فهم اللغة والمعنى وضرب المفاهيم التقليدية التي تجد في اللغة ثباتاً يعكس الحقيقة. فيعتبر أن المعاني تتحول وتبدل وتنشأ في صلب البنية اللغوية الذي يتحكم في اتجاهها السياق والعلامات اللغوية والعلاقات النصية. وفقاً لهذا المنظور، يمكننا القول أن المعنى لا يكون حاضراً في المعنى الظاهر للكلمات، بل هو في حالة تأجيل دائم، وهو ما يطلق عليه دريدا «الإختلاف والتأجيل Diff'rance». كما أن المعنى يصبح ضمن احتمالات عديدة ويجعل قراءة النص أمراً مستحيلًا. لا يقف دريدا عند هذا الحد، حيث يعتبر هذا النقد للمعنى والدلالة في خلفيته الفكرية، ضرباً للمركزية اللوغوسية يطال من خلاله قلب مسلمات جوهر الفكر الغربي الحديث، ويسهل الطريق لقراءات جديدة للنصوص إن كان في الأدب والفكر والفلسفة والنص الديني. يقول دريدا: «إن المعنى ليس حاضراً أبداً في ذاته، بل هو في حالة تأجيل مستمر، ولا يمكن تثبيته داخل علامة لغوية واحدة، إذ إنه يتشكل عبر سلسلة لا نهائية من الإحالات والعلاقات النصية التي تؤجل اكتماله. (دريدا، الكتابة والاختلاف، 2000، صفحة 51)

من هنا نلاحظ بعض التقاطعات مع الفكر اللغوي في الفلسفة العربية ويتجلى ذلك مع أعمال ابن جني وعبد القاهر الجرجاني. قدم ابن جني في كتابه «الخصائص» تصوراً للدلالة، قلب بها نمطية النص الأدبي في اللغة العربية. فلا تمتلك المعاني، بحسب ابن جني، جوهرًا ثابتاً بل هي في تغير مستمر تبعاً لاستخدامها ضمن سياقات مختلفة. نستطيع القول أن هذا التقاطع مع التفكيك الديردي حول انزلاق المعنى وعدم ثباته؛ بالإضافة إلى مفهوم المجاز الذي يعكس تصوراً بأن الدلالة ليست بشكلها المباشر بل تخضع لحركتها وتبدلاتها الدائمة، يدل على قصور في أي محاولة لحصر المعنى ضمن إطار مغلق، هي ضرباً من الوهم في ثبات المعنى.

من جهة أخرى، يقدم الجرجاني تصوراً آخرًا نستطيع مقارنته مع مشروع دريدا التفكيكي. فيؤكد الجرجاني على أن المعنى لا يستمد قيمته الدلالية من الكلمات المفردة بحد ذاتها، بل من خلال علاقاتها داخل الجملة والنص. حيث أن الدلالة لا تقتصر على الألفاظ

بذاتها، بل تتجاوز الكلمات الفردية ضمن شبكة علاقات يحددها النص في سياقه. فالمعنى بحسب الجرجاني ليس كياناً مستقلاً يستمد من خلال الكلمات بل ينبثق أو يولد عن سياق تشابكي داخل البنية اللغوية كسياق متكامل، ما يفتح النص أيضاً على إمكانيات لا محدودة من التأويل.

لذلك تطرح إعادة قراءة أعمال ابن جني والجرجاني تساؤلات أساسية حول إمكانية اعتبار المشروع الدردي مشروعاً غريباً صرفاً أم يمكننا النظر إليه بوصفه امتداداً لارهاصات عربية مبكرة. كما تتيح لنا هذه القراءة التساؤل حول طبيعة اللغة والمعنى في الفكر العربي، وتكشف عن إمكانيات نقدية للتراث اللغوي والنقدي حول طبيعة الدلالة والتأويل في الأدب والفكر والفلسفة. بالطبع، هذه المقاربة لا تختزل الفكر العربي ضمن مشروع تفكيكي فقط، بل هي محاولة في إثراء النقاش في طبيعة اللغة والمعنى والدلالة ومحاولة لفتح آفاقاً بين طبيعة العلاقة الشائكة ما بين التراث النقدي والفلسفة المعاصرة.

الـ (Différance) وتأجيل المعنى

يلعب مفهوم Différance الذي ابتكره دريدا دوراً محورياً في فهم طبيعة العلاقة بين اللغة والمعنى. ولعل ما يميز هذا المفهوم في مشروعه التفكيكي هو حمله على الجمع بين مفهومي الاختلاف والتأجيل. تأخذنا سلسلة الاختلافات للكلمات التي تتبين من خلال مقاراناتها مع كلمات أخرى إلى معاني مختلفة وفهم جديد لسياق النص. إذ يؤجل المعنى نفسه عبر الإحتمالات المتعددة في بنية اللغة حيث لا يقدم المعنى بشكله النهائي من خلال وضوح المفردات، بل بواسطة المعاني المختلفة للكلمة الواحدة.

فالمقصود إذًا بالاختلاف هو ليس ثبات المعنى، إذ يتحدد فقط من خلال الفروق بين الكلمات أو الرموز اللغوية. على سبيل المثال، لا تظهر معاني الكلمة أو الجملة بشكلها المنفرد أو المستقل، بل تستند على سلسلة اختلافات عن كلمات أو معانٍ أخرى. فالكلمات لا تتضمن معناها بشكلها الداخلي؛ هي تستمد معناها من علاقات بكلمات أخرى في لعبة الكلمات. فإذا نظرنا إلى كلمات كـ «الحب، والكره»، يمكننا أن نفهم هذه الكلمات من خلال الاختلاف فيما بينها، وكذلك من خلال التأثير الذي تولده كلمات أخرى كـ «عاطفة» و«علاقة» و«انفعالات» و«مشاعر». هذا ما يدل على أن المعنى لا ينبثق بمعزل عن كلمات أخرى في السياق اللغوي. أما التأجيل فيشير إلى أن المعنى لا يحضر بشكله النهائي في اللحظة التي يتفاعل فيه مع الكلمة. بمعنى آخر، يتأجل معنى الكلمة إلى كلمة أخرى

وكلما تعمقنا في معنى الجمل والنصوص نكتشف أن المعنى في حالة تأجيل مستمر إلى لا محدوديته. بمعنى آخر أيضاً، هناك حاجة إلى مزيد من التفسير وإلى فهم مؤجل بحسب ربطها في سياقات أخرى. وبذلك يطرح جوهر المشروع التفكيكي الدريدي تصوراً في لانهائية المعنى داخل النص أو اللغة. وبالتالي يعتبر المعنى غير قابل للثبات أو التحديد؛ على العكس من ذلك هو في حالة انفتاح دائم على تفسيرات جديدة.

إن طرح دريدا لمفهوم الـ *Différance* في اللغة يخلخل المقولات التقليدية الكلاسيكية حول المعنى واللغة، وأن المعنى يتشكل عبر شبكة معقدة من الاختلافات المتبادلة بين الكلمات. وبذلك يكون دريدا وضع المدماك الأول في الفلسفة المعاصرة للإطاحة بالمركزية أو اللوغوسية أو الثبات. وإذا أردنا التوسع في هذا المفهوم في سياق الفكر العربي لوجدنا كيف أن ابن جني في تفسيره للغة والعلاقة بين الألفاظ والمعاني، طرح تساؤلات مشابهة ولكن في سياق مختلف.

يتطرق ابن جني في كتابه الخصائص إلى مسألة الترادف والفرق بين الكلمات ذات المعنى المتقارب الذي يتقاطع مع تصور دريدا للـ «الاختلاف». إذ يعتبر ابن جني أن اللغة ليست مجرد تراصف للألفاظ، ولكن هي شبكة مترابطة من الفروقات التي تظهر المعنى عبر سياقها.

إلى جانب ذلك، يمكن ربط مفهوم الاختلاف مع السابق في تحديد المعنى عند الجرجاني. إذ يشير الجرجاني إلى أهمية السياق ودوره في تحديد المعنى ودور التأويل في فهم النصوص. وإن كان الجرجاني لم يستخدم مصطلحات التفكيك الدريدي الحديثة إلا أنه استبطن بعضاً منها في أهمية السياق النصي.

التفكيك كإعادة تقييم للغة:

يمثل الـ *“Différance”* تحولاً كبيراً في كيفية فهم المعنى، إنه لا نهائي أو ثابت بل يتغير ويتطور بناءً على التفاعل مع سياقات أخرى. وبهذا يكون هذا المفهوم بمثابة الـ «التفكيك» للمفاهيم الثابتة والجامدة والتأكيد على تعددية المعنى. يقول دريدا: «المعنى لا يوجد كجوهر مستقل في النصوص، بل يتولد من خلال شبكة من العلاقات التي لا تستقر أبداً، مما يجعل القراءة عملية غير نهائية تتحدى أي محاولة لتثبيت الدلالة». (دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 158)

وبالتالي يمكننا القول أن مفهوم الـ *“Différance”* لا يقتصر على فلسفة اللغة بحسب دريدا، بل يتجاوز ذلك ليشمل إعادة تقييم لكيفية فهمنا للعالم من خلال اللغة. يبقى

النص بما يحتوي من معاني في حالة انفتاح دائم على التأويل والتفسير، فبقدر ما يتم فهمه من كلمات بقدر ما تتبدل الإحالات في النصوص والسياقات. في هذا السياق، يقول دريدا: «لا يمكن للنص أن يُختزل إلى معنى واحد أو تأويل نهائي، لأن كل قراءة جديدة تغير مساره، مما يجعل التأويل عملية غير متناهية». (دريدا، هومش الفلسفة، 2019، صفحة 58)

على الرغم من أهمية مفهوم الـ "Différance" من حيث النقد اللغوي، إلا أنه يفضح تعالي الفكر الغربي الذي يرى ثبات المعنى بشكل قاطع. وبالتالي يكون دريدا قد سار على خطى نيتشه في هدم القيم الغربية الحديثة. في هذا السياق تصبح التفكيكية بمثابة مطرقة تهدم القراءات التقليدية للنصوص وتكشف طبقات متعددة من المعنى والتأويل. هو مطرقة تحليلية لنبش معاني النصوص والتفاعلات اللغوية وهو الذي يتيح لنا المسار الأكثر عمقاً لإمكانات جديدة لفهم العلاقة بين الكلمات والمعاني في جميع سياقاتها سواء كانت أدبية أو فلسفية أو دينية. ولكن، إلى أي مدى يمكن موازاة هذا المفهوم مع تلك التي طرحها كل من ابن جني والجرجاني؟

نقد الأضداد الثنائية في ضوء التفكيك وعلاقته بابن جني والجرجاني
يقودنا هذا التساؤل إلى نقد الأضداد الثنائية Binary oppositions التي قام دريدا بتفكيكها في مشروعه الفلسفي. فالمنظومات الفكرية الغربية بدءاً من أفلاطون وحتى البنيوية، قامت على أساس ثنائيات متعارضة ك الوجود والعدم، الجوهر والعرض، العقل والجسد، الكلام والكتابة، المركز والهامش. يقول في هذا السياق: «الميتافيزيقا الغربية مبنية على مركزية الحضور، حيث يتم دائماً تفضيل أصل ما، مركز ما، وجود متعال، ويتم ترسيخ ذلك عبر ثنائيات مثل الكلام/الكتابة، الجوهر/العرض، المركز/الهامش. لكن هذه البنية تنهار عندما نكشف أن المعنى لا يستقر في أي من القطبين، بل هو دائم الانزياح». (دريدا، هومش الفلسفة، 2019، صفحة 121)

انطلاقاً من هذا النص، هناك ثمة تفوقاً أو هيمنة لأحد هذين الطرفين على الآخر، حيث يمنح أحد هذين النقيضين قيمة أعلى وبالتالي ينظر للنقيض الآخر بشكل أدنى. يزعم دريدا هذا الترتيب ويظهر أن هذه الثنائيات ليست مطلقة، بل تقوم على آليات لغوية وتاريخية تتسم بعدم ثباتها ولا استقرارها وعدم تماسكها كما يظن. يقول دريدا في موضع آخر: «الثنائيات الميتافيزيقية ليست مجرد مفاهيم بريئة، بل تعمل دائماً في إطار تراتبية تجعل أحد طرفي الثنائية مهيمناً على الآخر. لكن بمجرد أن نبدأ في تفكيك

هذه البنية، ندرك أن كل طرف يحتاج إلى الآخر ليتموضع، مما يكشف هشاشتها وعدم استقرارها». (دريدا، الكتابة والاختلاف، 2000، صفحة 78)

إذًا، لا تقوم اللغة على ثنائيات مغلقة ومستقرة؛ على العكس من ذلك إنها تقوم على اختلافات وتأجيلات تجعل من المعنى في صيرورة انفتاح. كان ينظر إلى الكلام باعتباره أصل اللغة وأرقى أشكالها، وكانت الكتابة مجرد وسيلة أو مرآة تعكس هذا الكلام، إلا أن دريدا يرفض هذا الترتيب معتبرًا أن الكتابة نظام أو نسق مستقل يمتلك بنيته الخاصة. زد على ذلك، تظهر الكتابة بشكل فاضح هشاشة العلاقة بين العلامات اللغوية ومعانيها. فتكشف الكتابة عن تأجيل المعنى بدلًا عن تقديمه بشكل مباشر.

مقارنة مع التراث العربي، نلاحظ الارهاصات المبكرة لنقد الأضداد الثنائية في أعمال كل من ابن جني والجرجاني. فعلى الرغم من اختلافات السياقات والمناهج التحليلية، قدم كلاهما رؤية معقدة للغة، وأسس لفهم ديناميكي للمعنى والعلاقة بين اللفظ والدلالة. يتناول ابن جني في الخصائص مسألة العلاقة بين الألفاظ والدلالة من منظور لغوي تحليلي ويتساءل عن ثبات هذه العلاقة. فيرفض التطابق الجوهرى بين الألفاظ والمعنى وهو ما يطلق عليه بـ «الترادف»، فاللغة ليست انعكاسًا مباشرًا للمعنى، وبالتالي تتشكل اللغة عبر عمليات دلالية تجعل تلك العلاقة متغيرة وغير مستقرة. يقول ابن جني: «أعلم أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف... اللفظ يعطي صورة تقريبية للمعنى، لكنه لا يطابقه تمامًا، إذ قد تختلف دلالة اللفظ تبعًا للسياق والمقام». (جني، دون تاريخ، الصفحات 34-33)

تتقاطع هذه الرؤية مع التفكيك الدردي مؤكدًا على أن المعنى ليس جوهرًا مستقلًا يمكن استدعاؤه من خلال اللفظ وحده، بل يؤكد على أن الدلالة تتحقق عبر نظام لغوي معقد يتأثر بالسياق والاستعمال. ولكن ما هي رؤية ابن جني في تصور الترادف؟ إذًا، لا يهدف دريدا إلى قلب تلك الثنائيات التقليدية فحسب، بل ما يرنو إليه هو كشف هشاشتها وإثبات أن تلك الثنائية تقوم أحجها على الأخرى فلا يمكن أن يوجد دون الآخر. بمعنى آخر، لا يمكن أن نعي الكلام دون الكتابة، ولا المعنى دون السياق، ولا الجوهر دون العرض. فكل ثنائية تحاول فرض نوع من الاستقرار، لكنها في الواقع تخضع لعمليات تأجيل واختلاف تجعلها غير مستقرة. وهذا ما نجده عند كل من ابن جني والجرجاني حيث يرفضان المعنى القائم بذاته أو يمكن لوجوده وحضوره أن ينفصل عن البنية اللغوية. على العكس من ذلك، فالمعنى ليس كيانًا مستقلًا أو ثابتًا؛ هو نتاج عملية تأويلية ديناميكية تعتمد على السياق والعلاقات النصية. في هذا المعنى يمكن لنا طرح رؤية ابن جني:

«الأصل في اللغة أن تكون على التحوير والتغيير، وأن لا يلزم حال واحدة، لأن ذلك شأنها في كل شيء». (جني، دون تاريخ، صفحة 33) أما الجرجاني فيقول: «واعلم أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، وإنما يقع التفاضل بينهما في ملاءمة معنى اللفظ لمعنى الذي يليه، وشدة اقتضائه له، وصحة التشابه بينهما». (الجرجاني، دون تاريخ، صفحة 99)

الترادف عند ابن جني والتفكيك عند دريدا: نحو قراءة مقارنة

تتيح لنا دراسة طبيعة العلاقة بين مفهوم الترادف عند ابن جني ومفهوم التفكيك عند دريدا تساؤلات حول كيفية فهم اللغة والمعنى. ففي حين يتناول ابن جني الترادف كظاهرة لغوية تثير إشكاليات في العلاقة بين اللفظ والمعنى، يسعى دريدا بالمقابل إلى تفكيك أي افتراض مسبق حول ثبات المعنى ذاته. يتناول ابن جني مصطلح الترادف في كتابه الخصائص رافضاً الترادف المطلق ومعتبراً أن كل لفظ له دلالة خاصة تميزه عن غيره، حتى وإن بدا أنه يشير إلى نفس المعنى. يقول: «وأما اختلاف اللفظين والمعنى واحد، فغير متيقن، وذلك لأنك لا تكاد تجد لفظتين يجريان على معنى واحد من كل وجه، حتى يكون استعمالهما في جميع مواضعهما واحداً، بل تجد بينهما فرقاً من بعض الوجوه». (جني، دون تاريخ، صفحة 46) وبذلك، يكون المعنى متغيراً بحسب البنية النصية والمواضع المختلفة، وهو ما يقترب من بعض جوانب الرؤية التفكيكية عند دريدا، رغم اختلاف الأساس الفلسفي لكل منهما.

وفي تضاد مع ابن جني، لم يكن اهتمام دريدا منصباً على ظاهرة الترادف بحد ذاتها، بل على الافتراضات الفلسفية التي تقوم عليها فكرة أن المعنى ثابت أو متطابق مع اللفظ. وهنا يأتي مفهومه الشهير الـ *Différance*، الذي يعني كما أشرنا سابقاً، أن المعنى دائماً مؤجل وغير قابل للحضور التام، لأنه يعتمد على شبكة لا نهائية من الإحالات اللغوية. يقول دريدا: «لا يمكن للفظ أن يكون له معنى واحد ثابت، بل إن المعنى يتولد من خلال الاختلاف بين الكلمات ومن خلال تأجيل الدلالة». (دريدا، الكتابة والاختلاف، 2000، صفحة 76).

لم ينظر ابن جني إلى اللغة من منظور تفكيكي بالمعنى الدرديدي، إلا أن بعض جوانب تحليله للترادف والدلالة قد تتقاطع مع أفكار دريدا حول اللغة والمعنى. فيشكك ابن جني من خلال تحليله الدقيق للعلاقة بين اللفظ والمعنى في إمكانية وجود تطابق مطلق بينهما، حيث يرى أن كل لفظ يحمل دلالة خاصة به، حتى وإن كان يشترك مع غيره في بعض

الجوانب. يتقاطع هذا مع نقد دريدا لفكرة «الحضور التام للمعنى»، حيث يعتبر أن المعنى ليس جوهرًا مستقلًا يمكن استدعاؤه من خلال اللفظ وحده، بل هو متولد عن شبكة من الاختلافات والتأجيلات اللغوية.

إضافة إلى ذلك، يؤكد ابن جني على أهمية السياق في تحديد المعنى، حيث يرى أن الدلالة ليست ثابتة أو مستقلة، بل تتغير بتغير الاستعمال وظروف الخطاب. وهو ما يتشابه مع التفكيكية التي ترى أن المعنى لا يوجد ككيان مكتمل داخل النص، بل يتحدد عبر العلاقات النصية والتاريخية المتشابكة. وأخيرًا، رغم أن ابن جني كان يسعى إلى ضبط الدلالة اللغوية عبر التحليل النحوي والصرفي، إلا أن تحليله كشف عن إمكانات التعدد الدلالي في اللغة. فحينما نفي فكرة الترادف المطلق، كان يعترف ضمنيًا بوجود مستويات متعددة من المعاني التي تتغير وفق السياق. هذه الرؤية، وإن لم تكن تفكيكية بالمعنى الفلسفي، إلا أنها تشترك مع دريدا في رفض الأحادية الدلالية وفي التأكيد على أن المعنى ليس معطًى جاهزًا بل نتاج عملية تأويلية معقدة. كما سنجد تقاربًا في الرؤية بين مفهوم الاشتقاق والتغير الدلالي عند ابن جني مع مفهوم الـ "Diff'rance" عند دريدا. فتكتسب الألفاظ بحسب ابن جني معاني جديدة عبر الاستعمال ووفق السياق التاريخي والاجتماعي. كما يرى أن الألفاظ يمكن أن تكون مشتقة من أصل مشترك، لكن مع تحول في المعنى وفقًا لاختلاف الصياغة والتركيب، مما يجعل المعنى ليس وحدة صلبة، بل شبكة من الفروق الدلالية المتحركة. يقول في الخصائص: «إن الألفاظ قد تتحد في جذرها الاشتقائي، لكنها قد تختلف في دلالاتها تبعًا للاستعمال والتغيرات الصوتية والمعنوية». (جني، دون تاريخ، صفحة 49) وهذا ما نجده في رؤية دريدا الذي يرى أن المعنى ليس جوهريًا أو ثابتًا بل يتشكل عبر اختلافاته وإرجاءاته داخل النظام اللغوي. وعلى الرغم من وجود تقاطعات بين تحليل ابن جني للغة والتفكيكية الدريدية، إلا أننا نستشف اختلافات جوهرية بينهما، سواء على مستوى الغاية من الدراسة اللغوية أو في النظر إلى الحقيقة والمعنى، أو حتى في المنهجية المعتمدة في التحليل. فما هي وجوه الاختلاف بين رؤية كل منهما؟

يهتم ابن جني في فهم بنية اللغة العربية وإثبات نظامها الدقيق، إذ كان يسعى إلى إظهار القوانين التي تحكم العلاقات بين الألفاظ والمعاني ضمن نسق متماسك. أما هدف دريدا الأساسي يكمن في زعزعة مفهوم النظام اللغوي ذاته والتشكيك في استقراره، فيرى أن أي نظام لغوي يقوم على تناقضات داخلية تؤدي إلى انزياح المعنى وتأجيله باستمرار. يؤمن ابن جني بإمكانية الوصول إلى معنى محدد، وهذا ما يدل على نظرته للحقيقة والمعنى

رغم إدراكه لتعقيد العلاقة بين الألفاظ والمعاني. على النقيض من ذلك، يرى دريدا أن المعنى ليس مستقرًا أبدًا، بل هو متحرك ومتولد باستمرار داخل النصوص، ولا يمكن الإمساك به بشكل نهائي، لأن أي محاولة لتحديده ستؤدي إلى تأجيله ضمن شبكة من العلاقات النصية غير القابلة للحسم. أما على مستوى المنهجية، فقد اعتمد ابن جني في تحليله اللغوي على قواعد النحو والصرف، محاولاً وضع أطر منطقية لفهم تشكل المعاني ضمن اللغة العربية. أما دريدا، فقد اعتمد على التفكيك النصي والفلسفي، حيث كان يسعى إلى كشف التناقضات الداخلية في الخطابات الفلسفية والأدبية، محاولاً إظهار أن اللغة ليست كياناً متماسكاً، بل هي فضاء متحرك مليء بالاختلافات والتأجيلات الدلالية. من هنا يمكننا القول أن الكلمات، بحسب ابن جني، تكتسب دلالات جديدة عبر تطورها الزمني، هذا التطور لا يخضع لقواعد جامدة أو صارمة بقدر ما هي إلا نتيجة تراكم استخداماتها. تتوافق هذه الرؤية مع منظور دريدا حول أن المعنى ليس حاضراً بشكل كامل في أي لحظة من لحظات اللغة بل هو في تأجيل مستمر بسبب طبيعة النظام اللغوي ذاته.

وعليه، بينما كان مشروع ابن جني مشروعاً لغوياً تحليلياً يسعى لضبط آليات الدلالة في اللغة العربية، فإن مشروع دريدا كان فلسفياً نقدياً يسعى إلى هدم الافتراضات المسبقة حول اللغة والمعنى والحقيقة، وهو ما يجعل من التفكيكية الدرديدية امتداداً أكثر جذرية في التشكيك بقدرة اللغة على تثبيت أي دلالة نهائية.

الجرجاني ومفهوم النظم

من جهة أخرى، يؤسس الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز نظريته حول النظم، معتبراً أن المعنى لا يوجد في الكلمات بحد ذاتها وبمفردها، بل يتشكل من خلال العلاقات النحوية والتركيبية داخل الجملة أو السياق النصي. «إن الألفاظ وحدها لا تدل على المعاني، وإنما دلالتها تأتي من النظم والتأليف». (الجرجاني، دون تاريخ، صفحة 55) يتشابه هذا الموقف للجرجاني مع موقف دريدا في نقده لثنائية «الكلمة والمعنى» حيث يشير إلى أن الدلالة هي نتاج علاقات معقدة داخل بنية النص، معتبراً أنه لا يمكن تحديد المعنى بشكل نهائي بل يتولد من خلال التفاعل بين التركيب النحوي والسياق التأويلي. يقول الجرجاني: «واعلم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض». (الجرجاني، دون تاريخ، صفحة 47)

لا نبخس إن قلنا نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني واحدة من أهم النظريات

اللغوية في التراث العربي. قدّم الجرجاني تصوراً سبق فيه زمنه حول العلاقة بين اللفظ والمعنى مشدداً على أن المعنى لا يوجد في الكلمات بحد ذاتها، بل في كيفية انتظامها داخل الجملة والنص. في حين قدّم جاك دريدا في التفكيكية منظوراً يقوم على زعزعة الافتراضات حول ثبات المعنى، مؤكداً أن الدلالة ليست مستقرة، بل هي نتاج شبكة من العلاقات التي تؤدي إلى اختلاف وتأجيل دائم للمعنى. وعلى الرغم من اختلاف السياقات الفكرية لكل من الجرجاني ودريدا، يمكن إيجاد نقاط تقاطع بينهما، كما يمكن الوقوف على الفروقات الجوهرية التي تفصل بين مقاربتيهما للغة والمعنى.

يتشابه المبدأ الأساسي في تصور الجرجاني مع رؤية دريدا في أن المعنى ليس جاهزاً أو مستقلاً بذاته. فيرى الجرجاني أن الكلمة لا تحمل دلالتها بشكل منفصل عن السياق أو التركيب الذي تدرج فيه. يقول: «إن الألفاظ لا تعطي معانيها إلا من خلال النظم، فالمفردات وحدها لا تكفي لتشكيل الدلالة». (الجرجاني، دون تاريخ) وهذا ما يدل على أن المعنى لا يتحقق إلا في نظام لغوي متشابك. يتقاطع هذا الطرح مع رؤية دريدا في نقده لـ «حضور المعنى» في اللفظ ذاته. من هنا نرى دريدا يؤكد على أن المعنى لا يحضر مباشرة،

بل ينشأ من ضمن شبكة العلاقات النصية التي تؤدي بدورها إلى انزياح دلالي مستمر. كما يؤكد الجرجاني على أهمية السياق في تشكيل الدلالة. إذ تتغير المعاني وفقاً لتموضع الكلمات ذاتها في سياق الجملة. يقول في هذا الصدد: «موضع الكلمة من الجملة هو الذي يحدد معناها، وليس معناها الذاتي» (الجرجاني، دون تاريخ). يتلاقى هذا التصور مع رؤية دريدا حين اعتبر أن السياق ليس إطاراً مغلقاً وثابتاً، بل يتمتع بديناميكية يؤثر في إنتاج المعنى وتأجيله بشكل مستمر. وعلى الرغم من ضمنية فكرة لانهائية المعنى، إلا أننا قد نراها في تحليله لكيفية نشوء الدلالة من التفاعل بين العناصر اللغوية. وبالطبع فإنها تؤدي إلى مستويات أو طبقات متعددة من الفهم والتفسير. بالتالي لم تصل رؤية الجرجاني إلى ما أشار إليه دريدا في عملية «تأجيل المعنى» كما هي عند دريدا، إلا أنها تتقاطع معه في أن المعنى ليس ثابتاً بل هو في حالة انفتاح دائم على قراءات متعددة. على الرغم من تلك التقاطعات في رؤية كل من الجرجاني ودريدا إلا أننا نلاحظ اختلافات جوهرية فيما بينهما. فأين تكمن تلك الاختلافات؟

على مستوى التحليل اللغوي، يسعى الجرجاني إلى ضبط نظام اللغة العربية وإثبات أن جمال البيان العربي قائم على النظم الدقيق للعناصر اللغوية، بينما كان دريدا يسعى إلى زعزعة أي نظام لغوي ثابت، معتبراً أن كل محاولة لتأسيس نظام متماسك تكشف تناقضاتها الداخلية.

أما على مستوى الحقيقة والمعنى، فيرى الجرجاني أن المعنى يمكن الوصول إليه من خلال دراسة كيفية انتظام الكلمات داخل الجملة، بينما يذهب دريدا إلى أبعد من ذلك، مؤكداً أن المعنى مؤجل دائماً بفعل سلسلة الاختلافات النصية التي لا تنتهي، ما يجعل الوصول إلى دلالة نهائية أمراً مستحيلاً.

وعلى مستوى المنهجية وظف فالجرجاني التحليل النحوي والبلاغي لفهم تشكّل المعاني في اللغة العربية، بينما لجأ دريدا إلى التفكيك النصي والفلسفي، وهو منهج يقوم على الكشف عن التناقضات الداخلية في الخطاب، مما يؤدي إلى زعزعة ثبات البنى اللغوية والفكرية.

في النهاية، يمكن القول إن الجرجاني يقدم رغم عدم انتمائه إلى التفكيكية، نموذجاً مبكراً لفهم اللغة يقوم على العلاقات النصية والسياقية، لكنه ظل مؤمناً بإمكانية الوصول إلى المعنى من خلال دراسة النظم. أما دريدا، كان أكثر راديكالية، حيث يذهب إلى أقصى مدى في التشكيك بجوهر اللغة وثبات الدلالة، معتبراً أن المعنى دائم التأجيل، ولا يمكن الإمساك به في صورة نهائية. وبهذا، فإن العلاقة بين الجرجاني ودريدا ليست علاقة تطابق أو استمرارية، بل هي علاقة تقاطع في بعض الجوانب واختلاف جوهري في الأهداف والنتائج.

هل يمكن للتراث العربي أن يكون مصدراً لتطوير التفكيك؟

على الرغم من التشابه الجلي بين أفكار ابن جني وعبد القاهر الجرجاني من جهة، وطروحات جاك دريدا من جهة أخرى، إلا أن هناك فروقاً جوهرية تجعل مشروع كل منهم ينتمي إلى سياق فكري ومنهجي مختلف. يسعى كل من ابن جني والجرجاني إلى فهم كيفية تشكل المعنى في اللغة العربية، ولكن بالمقابل يسعى دريدا إلى مشروع تفكيكي فلسفي يهدف إلى زعزعة أسس الفكر الغربي. فلم يكن هدف ابن جني والجرجاني تقويض أسس اللغة أو التشكيك في وجود المعنى، بل كانا يحاولان توضيح آليات إنتاج الدلالة داخل النظام اللغوي العربي، أما دريدا، فقد اتخذ مساراً أكثر راديكالية، حيث لم يكتف بتحليل كيفية إنتاج المعنى، بل أكد أن المعنى نفسه يظل دائماً في حالة تأجيل مستمر، مما يعني أنه لا يمكن الإمساك به بشكل نهائي.

يكن أحد الفروق الأساسية بين المنهجين في نظرتهم إلى الحقيقة اللغوية. فابن جني والجرجاني، رغم نقدهما للطرح التقليدي الذي يفترض ثبات العلاقة بين اللفظ والمعنى، لم يشككا في إمكانية الوصول إلى المعنى، بل سعيا إلى تفسير كيفية تشكله في سياق

الجملة والنظم. أما دريدا، فقد تجاوز هذا الإطار، معتبراً أن المعنى ليس فقط متغيراً وفق السياق، بل هو مؤجل دائماً، وغير قابل للتحديد بشكل نهائي، لأنه ينشأ من شبكة علاقات لغوية لا نهائية تتداخل مع بعضها البعض. إن هذا الاختلاف الجوهرى بين مقارنة ابن جني والجرجاني التي تركز على تحليل الظاهرة اللغوية، ومقاربة دريدا التي تهدف إلى زعزعة فكرة المعنى المستقر، يكشف أن التشابه بين هؤلاء المفكرين يظل على مستوى التحليل اللغوي، لكنه لا يمتد إلى المستوى الفلسفي العميق الذي ينتمي إليه التفكيك الدريدي.

كما يظهر الفرق بوضوح في المنهجية المتبعة. فقد اعتمد ابن جني والجرجاني على تحليل النصوص وفق قواعد النحو والصرف، محاولين استنباط القوانين التي تحكم تشكل الدلالة داخل اللغة العربية. أما دريدا، فقد استند إلى منهج تفكيكي يقوم على كشف التناقضات الداخلية في الخطابات، من خلال تحليل النصوص الفلسفية والأدبية بغرض إظهار عدم استقرار المعاني التي تقدمها. كان تفكيك دريدا محاولة لكشف هشاشة البنى الفكرية التي تأسست عليها الفلسفة الغربية، بينما كان مشروع ابن جني والجرجاني سعياً لفهم اللغة وتطوير نظرية في الدلالة داخل نسقها المعرفي.

على الرغم من التشابه في المنهج، وإن اختلفت الرؤى والسياقات الفلسفية، بين كل من ابن جني والجرجاني ومفاهيم دريدا، إلا أننا لا يمكن القول بأن كليهما قدما تفكيكية بالمعنى الداريدى الصرف. لكننا نستطيع القول أنهما أسسا نقداً مبكراً لثبات المعنى وهو أحد الأسس التي قام عليها التفكيك. لا يمكننا اعتبار الفكر العربي المبكر تفكيكياً بالمعنى الدريدي إلا أنه كان يحمل ملامح نقدية للمعنى ولعلاقة اللفظ بالدلالة. بيد أننا يمكن تطوير قراءة حديثة للتراث اللغوي تنطلق من مفاهيم دريدية كالاختلاف والمعنى والتأجيل وصولاً إلى العلاقة بين اللغة والسلطة. بعبارة أخرى، يمكننا أن نستلهم من الفكر العربي التراثي رؤية جديدة لإعادة التفكير في المفاهيم التفكيكية ذاتها وتطويرها. إن إعادة قراءة ابن جني والجرجاني في ضوء النقد التفكيكي تفتح المجال أمام تأصيل رؤية جديدة للفكر العربي، رؤية تبتعد عن القراءات التقليدية التي تعتبر اللغة كياناً مغلقاً، وتقترب أكثر من اللغة بوصفها مجالاً متحركاً يتشكل عبر الفروق الدلالية والتفاعل المستمر مع السياق.

نحو تفكيك عربي حديث: إمكاناته وحدوده

إذا كان التفكيك عند جاك دريدا قد انطلق من نقد الميتافيزيقا الغربية، وخصوصاً

مركزية "اللوغوس" (Logocentrism) التي تقوم على افتراض أن العقل والكلام والمعنى المستقل يشكلون جوهر الفكر، فإن السؤال الذي يمكن طرحه، هل يمكن الحديث عن تفكيك عربي حديث؟ وهل يمتلك الفكر العربي عناصر يمكن أن تتطور إلى مشروع تفكيكي يتناسب مع خصوصياته؟

البنية النصية بين التأصيل والتفكيك

من أبرز العناصر التي يمكن أن تشكل جسراً بين التفكيك الديردي والفكر العربي هي البنية النصية، سواء في الدراسات اللغوية أو التأويلية. فمنذ ابن جني وعبد القاهر الجرجاني، ظهر وعي بأن المعنى ليس جوهرًا ثابتًا بل هو علاقة دلالية تتشكل داخل النص. لكن في مقابل التفكيك الذي يسعى إلى زعزعة المعنى وإبقائه في حالة تأجيل دائم، كان هدف اللغويين العرب هو ضبط هذه العلاقات وفهم نظامها، لا إنكارها أو تفكيكها بشكل جذري.

رغم ذلك، يمكن القول إن القراءة التفكيكية يمكن أن تنطلق من مقاربات تأويلية في الفكر العربي، خاصة في التراث الصوفي والبلاغي. مثلًا، نجد عند ابن عربي تأويلًا مفتوحًا للنصوص، حيث تصبح المعاني غير نهائية وتتعدد بحسب السياقات والتجربة الروحية للمتلقي، وهو ما يمكن اعتباره ضربًا من التفكيك المبكر لثبات الدلالة. كذلك نجد في نظرية النظم عند الجرجاني فكرة قريبة من التفكيك، حيث يركز على العلاقات الداخلية للنص بدلًا من النظر إلى الكلمات ككيانات ذات معنى مستقل.

كما نلاحظ أيضًا في الفكر العربي المعاصر، محاولات لتطوير مقاربة تفكيكية، لكن مع اختلاف الأهداف والمنهجيات. فمثلًا، نجد عند علي حرب نقدًا للأسس الفكرية للثقافة العربية، حيث يعتبر أن الحقيقة ليست كيانًا مطلقًا بل هي بناء متحول ومتعدد. يتلاقى هذا مع فكرة دريدا حول لا نهائية المعنى، لكنه يتخذ طابعًا نقديًا يهدف إلى تفكيك الأيديولوجيات التقليدية بدلًا من التركيز على النصوص وحدها. أما عبد الله العروي، فقد قدم تفكيكًا تاريخيًا للخطابات الأيديولوجية العربية، موضحًا كيف تشكلت مفاهيم مثل الحداثة والتقليد من خلال تفاعل النصوص والأحداث التاريخية.

لكن الإشكالية التي تطرح هنا، هل يمكن للفكر العربي أن يتبنى التفكيك دون أن يقع في القطيعة التامة مع مفاهيم الحقيقة والمعنى؟ ففي حين أن التفكيك الغربي جاء استجابة لنقد العقلانية والميتافيزيقا، نجد أن الفكر العربي لا يزال في جزء منه يبحث عن مشروع تأسيسي، سواء على المستوى الفلسفي أو السياسي. لذلك، فإن تطوير تفكيك عربي حديث

لا ينبغي أن يقتصر على استنساخ التفكيك الدريدي، بل يمكن أن يتخذ مساراً يجمع بين نقد المركزية المعرفية وبين الإبقاء على أفق التأويل والبحث عن المعنى. وإذا كان دريدا قد ركز على النصوص الفلسفية والأدبية الغربية، فإن التفكيك العربي يمكن أن يتجه إلى إعادة قراءة التراث من الداخل. وهذا ما بدأه بعض المفكرين مثل طه عبد الرحمن، الذي مارس نقداً جذرياً للحدائثة الغربية، لكنه انطلق من أدوات تأويلية مختلفة، مما جعل مشروعه أقرب إلى التفكيك الإسلامي منه إلى التفكيك الدريدي. كذلك يمكن استثمار التراث اللغوي في إنتاج قراءة نقدية للنصوص العربية القديمة، بحيث يتم تفكيك البنى التقليدية لفهم المعنى في البلاغة والتفسير والفقهاء، وطرح قراءات جديدة تتجاوز الفهم الحرفي للنصوص.

إلا أن الإشكالية الكبرى التي تواجه أي محاولة لتطوير تفكيك عربي هي أن الفكر العربي لا يزال مرتبطاً بمفاهيم الحقيقة والمعنى بشكل جوهري، سواء على المستوى الديني أو الفلسفي. في حين أن دريدا كان يسعى إلى إظهار استحالة الوصول إلى المعنى النهائي، فإن الفكر العربي، حتى في لحظاته النقدية، لا يزال يبحث عن تأويل أعمق بدلاً من نفي أو نقد المعنى بالكامل. لذلك، فإن التفكيك العربي إن تحقق، قد يكون أكثر ميلاً إلى التأويل منه إلى الهدم، بحيث لا يهدف إلى زعزعة المعنى بل إلى إعادة قراءته من داخل النصوص وبنياتها العميقة.

نحو مشروع تفكيكي عربي

أخيراً، لا يمكن إنكار وجود عناصر تفكيكية في الفكر العربي، سواء في التراث اللغوي أو النقدي أو التأويلي، لكن المسألة ليست مجرد إيجاد تشابهات، بل في كيفية تطوير منهج تفكيكي يتناسب مع السياق العربي. ربما يكون التفكيك العربي مشروعاً يقوم على قراءة نقدية للنصوص، لكنه لا يذهب إلى حد نفي إمكانية التأويل أو البحث عن معنى.

لا يتطلب أي تطوير لرؤية تفكيكية عربية حديثة إلى الاستفادة من الأدوات النقدية الحديثة فقط، بل أيضاً العودة إلى النصوص التراثية برؤية جديدة، تسمح بتفكيك الأنساق الفكرية التقليدية، دون أن يؤدي ذلك إلى إنكار أهمية البحث عن المعنى والتأويل. بهذا الشكل، يمكن أن يصبح التفكيك العربي جسراً بين التراث والمعاصرة، وبين النقد والتأويل، بدلاً من أن يكون مجرد استنساخ لنموذج غربي لا يتلاءم بالضرورة مع الخصائص الفكرية العربية.

لا يمكن للتفكيك في السياق العربي أن يكون مجرد استنساخ للنموذج الغربي، لأنه نشأ في بيئة فكرية مختلفة بطورها التاريخية والثقافية. لذلك، فإن أي تطوير لرؤية تفكيكية

عربية حديثة يجب أن يقوم على ركيزتين أساسيتين:

- الاستفادة من الأدوات النقدية الحديثة مثل التفكيك الدريدي، ونظريات الخطاب، والسيميائيات، والتحليل البنيوي، مع مراعاة أنها نشأت في سياقات فلسفية مختلفة تستدعي إعادة توطينها وفق الخصوصيات الفكرية العربية.
- العودة إلى النصوص التراثية برؤية جديدة، بحيث يتم تفكيك الأنساق الفكرية التقليدية التي كانت تعتبر مسلمات غير قابلة للنقد. وهنا، لا يعني التفكيك مجرد الهدم، بل إعادة قراءة هذه النصوص في ضوء إشكاليات الحاضر، مع إبراز تنوع القراءات الممكنة.

فغالبًا ما يتسم التفكيك في الفكر الغربي بإقصاء البحث عن المعنى النهائي، إذ ينصبّ على زعزعة البنى اللغوية والتاريخية للنصوص، مما يجعلها مفتوحة على احتمالات تأويلية غير محدودة. أما في السياق العربي، فإن التفكيك يجب أن يأخذ بعين الاعتبار البعد التأويلي الذي ظل حاضرًا في الفكر العربي-الإسلامي، خاصة في مدارس الفقه والكلام والتصوف والفلسفة. وعليه، قد يجوز أن يكون التفكيك وسيلة لتحرير النصوص من القراءات الجامدة، لكنه لا ينبغي أن يقع في فخ العبثية أو الفوضى التأويلية. بل يمكن أن يكون جسرًا بين النقد والتأويل، بحيث يسمح بتفكيك البنى السلطوية في الخطاب دون إنكار الحاجة إلى إعادة تأويل المعاني في ضوء السياق الجديد.

فإذا كان الفكر الغربي قد نشأ على قطيعة مع الماضي في كثير من الأحيان، فإن الفكر العربي لا يزال يتفاعل مع تراثه بطرق مختلفة. من هنا، يمكن للتفكيك العربي أن يكون مشروعًا نقديًا مزدوجًا:

من جهة يعمل على تفكيك التصورات الجامدة للتراث، التي تحول دون فهمه في أبعاده التاريخية والمتعددة. ومن جهة أخرى، يسعى لنقد الحداثة الغربية ذاتها، من خلال مساءلة مفاهيمها وأطرها النظرية، بدلًا من مجرد تبنيها دون تفكير.

بهذا الشكل، لا يصبح التفكيك مجرد استنساخ لنموذج دريدا أو غيره، بل يتحول إلى مشروع نقدي يتفاعل مع الأسئلة الفكرية المحلية بقدر ما يستفيد من الأدوات النقدية العالمية. ولا يمكن أن يكون التفكيك العربي مجرد إعادة إنتاج لمنهجيات نقدية نشأت في سياقات ثقافية مغايرة. بل يجب أن يكون تفكيكًا نابغًا من صلب الإشكاليات الفكرية العربية، ومنفتحًا على الأسئلة الفلسفية واللغوية التي طرحتها المدارس الفكرية في تاريخ الفكر العربي والإسلامي. مثلًا، يمكن الاستفادة من مفاهيم مثل القراءة المتعددة للنصوص في الفكر الأصولي، أو البنية العميقة للخطاب في التصوف والفكر الفلسفي،

وإعادة توظيفها في سياق تفكيكي حديث. بذلك، يصبح التفكيك العربي أداة نقدية تمكّن من مساءلة النصوص والخطابات التقليدية، لكنه لا ينفي أهمية التأويل والبحث عن المعنى. بل يتحول إلى جسر يربط بين التراث والمعاصرة، وبين النقد والتأويل، وبين الفهم والتجاوز، في إطار مشروع فكري يسعى إلى بناء رؤية عربية حديثة دون الوقوع في فخ التقليد الأعمى للنماذج الغربية.

المراجع

- الجرجاني، ع. (دون تاريخ). دلائل الإعجاز. (م. م. شاكر، Ed). القاهرة.
 جني، ا. (دون تاريخ). الخصائص (Vol. 3). (م. ع. النجار، Ed). القاهرة: دار الكتب المصرية.
 دريدا، ج. (2000). الكتابة والاختلاف (الطبعة الثانية ed). (ج. كاظم، Trans). دار البيضاء: دار توبقال للنشر.
 دريدا، ج. (2008). في علم الكتابة (الطبعة الثانية ed). (أ. مغيث، Trans). القاهرة: المركز القومي للترجمة.
 دريدا، ج. (2019). هوامش الفلسفة. (م. طلبة، Trans). بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

الهوامش

- 1- جاك دريدا (0391 - 4002) فيلسوف وناقد أدب فرنسي ولد في مدينة الأبيار بالجزائر وتوفي في باريس. يعتبر جاك دريدا أول من استخدم مفهوم التفكيك من خلال زاوية فلسفية، حيث قام بإعادة صياغته وتوظيفه انطلاقاً من جذوره الفلسفية. التفكيك في نظر جاك دريدا هو تطبيق نصي غايته هو توضيح الثراء الطبيعي الذي تتميز به اللغة ويحمله المعنى. فاللغة والمعنى حسب دريدا عالمان شاسعان ينبضان بالحياة والتجدد؛ في ما يلي نعرض أهم سمات التفكيكية عند الفيلسوف والمفكر جاك دريدا.
- 2- أبو الفتح عثمان بن جني المشهور بـ "ابن جني"، عالم نحوي كبير، ولد بالموصل عام 149 وتوفي في بغداد عام 2001. يعد ابن جني عالم بارع وإمام نابغ من أئمة النحو الكبار، لم يسبق له مثيل في علوم اللغة العربية كلّها في صوتها ونحوها وصرفها وفقها وما يتصل بها لفظياً ومعنوياً ودلاليّاً بجانب حدقه التام في علوم الدين والكلام، وكفاه فخراً وعلواً إذ يقول فيه المتنبّي "هو أعرف بشعري منّي".
- 3- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني. وُلِدَ وتوفي في جرجان، وكان يحكي عنه كثيراً، لأنه لم يلق شيخاً مشهوراً في العربية غيره لعدم خروجه من

جرجان في طلب العلم. يعد عبد القاهر واحداً من الذين تفخر بهم الحضارة الإسلامية في مجال الدرس اللغوي والبلاغي، إذ تقف مؤلفاته شامخة حتى اليوم أمام أحدث الدراسات اللغوية، ويعد كتابه دلائل الإعجاز قمة تلك المؤلفات؛ حيث توصل فيه إلى نظريته الشهيرة التي عرفت باسم نظرية التعليق أو نظرية النظم، التي سبق بها عصره، وما زالت تبهر الباحثين المعاصرين، وتقف نداً قوياً لنظريات اللغويين الغربيين في العصر الحديث. أراد عبد القاهر بكتابه دلائل الإعجاز أن يرد على من كانوا يرجعون إعجاز القرآن إلى الألفاظ، ورفض أن يكون الإعجاز راجعاً إلى المفردات أو حتى معانيها؛ أو جريانها وسهولتها وعدوبتها وعدم ثقلها على الألسنة. كما رفض أن يكون الإعجاز راجعاً إلى الاستعارات أو المجازات أو الفواصل أو الإيجاز، وإنما رد إعجاز القرآن إلى حسن النظم. ومجمل نظريته أنه لا اعتداد بمعاني الكلمات المفردة إن لم تنتظم في سياق تركيبى، وهو ما يعرف بالنحو، فهو يرى أن الدلالة المعجمية معروفة لمعظم أهل اللغة ولكن دلالة اللفظة التي تكتسبها خلال نظمها في سياق تركيبى هي التي يسعى إليها مستخدم اللغة، لاختلاف دلالة اللفظة تبعاً للتركيب النحوي الذي تنتظم فيه، والمواضع المختلفة التي تحتلها في السياقات الناتجة عن أصل سياقي واحد.

4- يعد مصطلح *Différance* عند جاك دريدا أحد المفاهيم المفتاحية في استراتيجيته التفكيكية، وهو تلاعب لغوي يجمع بين كلمتي "difference" (الاختلاف) و"deferral" (الإرجاء). يشير هذا المفهوم إلى أن المعنى في اللغة لا يكون ثابتاً أو حاضراً بشكل مباشر، بل يتشكل باستمرار من خلال الاختلاف بين العلامات اللغوية ومن خلال تأجيل الحضور التام للمعنى.

5- المقصود بالترادف هو وجود ألفاظ متعددة لمعنى واحد.

الخصائص الأسلوبية في شعر أحمد فؤاد نجم

غيد توفيق الدهيبي

الملخص:

يتناول هذا البحث "الخصائص الأسلوبية في شعر أحمد فؤاد نجم" بعض الجوانب الفنية والأسلوبية التي تميز كتابات نجم وقصائده. كما يسلط الضوء على شهرته في استخدام الألفاظ الصادقة والبسيطة والعفوية، التي تعكس مشاعره الداخلية ومكنونات وهويته المتمردة على السلطة الغاشمة، المفعمة بروح المقاومة. يركز البحث بشكل أساسي على كيفية منح نجم شعره طابعاً فريداً من خلال استخدام كلمات بسيطة تحمل معانٍ عميقة، ما يتيح للقارئ فرصة التفاعل مع نصوصه بشكل قريب منه، ويشبهه.

كما يتناول البحث تحليل استخدام الضديّات في شعر أحمد فؤاد نجم، حيث يعكس الصراع الداخلي والخارجي الذي يعيشه، مثل أيّ إنسان عربي، ما يؤكّد قيمة نصوصه ويعمّق دلالاتها ويعزّزها. ويبرز البحث أيضاً دور التكرار كأداة أسلوبية تؤكد المعنى، ما يسهم في إيصال الرسالة بشكل أقوى بالإضافة إلى خلق تأثيرات إيقاعية في ذهن القارئ.

من خلال هذه الجوانب الأسلوبية، يوضح البحث كيف يمكن للشعر أن يكون وسيلة فعّالة لتصوير الاحتجاجات الفكرية والاجتماعية والسياسية، وكلّ ما يشغل الفرد، مع الحفاظ على أصالته في التعبير عن مشاعر الفقراء والمضطهدين. كما يبرز بوضوح كيف تمكّن أحمد فؤاد نجم من استخدام الأدوات الشعرية بأسلوب مبتكر ليعكس الواقع الاجتماعي والسياسي بطريقة فنية مميزة كان لها ولا يزال صدى عند الإنسان العربي الذي يردّد أشعاره وكلماته إلى يومنا هذا.

Abstract:

This research, “Stylistic characteristics in the poetry of Ahmed Fouad Negm” examines some of the artistic and stylistic aspects that distinguish Negm’s writings and poems. It also highlights his reputation for using honest, simple, and spontaneous expressions, which reflect his inner feelings and the depths of his rebellious identity against oppressive authority, imbued with a spirit of resistance. The research focuses primarily on how Negm gives his poetry a unique character using simple words that carry profound meanings, allowing the reader to interact with his texts in a way that is close to him and resembles him.

The research also analyzes the use of antitheses in Ahmed Fouad Negm’s poetry, which reflects the internal and external conflict he experiences, like any Arab, affirming the value of his texts, deepening, and enhancing their meanings. The research also highlights the role of repetition as a stylistic tool that emphasizes meaning, contributing to a more powerful message and creating rhythmic effects in the reader’s mind.

Through these stylistic aspects, the research demonstrates how poetry can effectively depict intellectual, social, and political protests, as well as all that concerns the individual while maintaining its authenticity in expressing the feelings of the poor and oppressed. It also clearly highlights how Ahmed Fouad Negm was able to use poetic tools innovatively to reflect social and political reality in a distinctive artistic manner that resonated with the Arab people, who recite his poems and words to this day.

المقدمة:

تعرّض المجتمع الذي عاش فيه الشعر العربي وعبر عنه، لتغيّرات حضارية كبرى، فكان من الطبيعي أن يتغيّر الشعر أيضاً، وأن يواكب ويلائم بين المراحل الحضارية المتعاقبة، ذلك لأنّ الصلة وثيقة بين الفنّ على اختلاف أشكاله ومضامينه، وبين حاجات المجتمع وقيمه. شهد الشعر العربي مرحلتين كبيرتين، مرحلة البداية القائمة على الحياة الرعوية والنظام القبلي، ثمّ مرحلة التحضير حيث الاستقرار وقيام المدن الكبرى والازدهار العمراني والثقافي. هذا الانتقال، ستخرج اللغة العربية معه بدون أوني شكّ وخاصة مع الفتوحات الإسلامية الكبرى، من جزيرة العرب، إلى عالم فسيح رحب متعدّد الأجناس ومتنوّع الثقافات واللغات. وقد استطاعت اللغة العربية أن تكون لغة الثقافة في ذلك العالم الفسيح، وان تحلّ محلّ اللغات القديمة (يونانية - سريانية - فارسية...).

كما استطاعت من خلال الترجمة أن تستوعب هذه اللغات، وأن تتيح تزاوجاً خصباً بين مختلف التيارات الثقافية والعقليات المتعدّدة، وهذا التزاوج ظهر جلياً في الشعر العربي. وعبر هذه الفترات المتعاقبة، كان لا بدّ أن يظهر بجانب المجتمع المثقّف الذي يصطنع اللغة العربية، مجتمع شعبي يستخدم اللهجات العامية في التعبير عن الذات، وأن يكون له تراث شعبي يشتمل على فنون كثيرة من قول وتعبير.

فكان إلى جانب هذا المجتمع المثقّف الملمّ بالكتابة والقراءة، مجتمع آخر هو مجتمع العامّة، الذي يعتمد على الكلمة المسموعة. وكان لهذا المجتمع أغانيه الشعبية وشعراؤه الذين ينظّمون باللغة العامية، وما زالوا حتى عصرنا هذا؛ ومن هؤلاء الشاعر المصري الراحل أحمد فؤاد نجم.

فهل تمكّن هذا الشعر العامي من بلوغ الهدف مقارنة لما بلغه الشعر الفصيح بشتّى أنواعه وأبوابه؟ أم أنّه تخطّاه؟ وإلى أيّ مدى استطاعت اللهجة والكلمة العامية أن ترسم أو تعبّر عن المجتمع وقضاياها العالقة خاصة؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات سنعتمد المنهج الأسلوبي. أحمد فؤاد نجم (1929 - 2013) ولد في قرية (كفرا بو نجم) بمدينة (أبو حماد محافظة الشرقية)، أحد أهمّ شعراء العامية في مصر، واسم بارز في الفنّ والشعر العربي. لقّب بـ "الفاجومي المصري" بسبب سجنه لعدّة مرّات. ويتوافق اسمه مع ملّحن ومغنّ هو الشيخ إمام، حيث تتلازم أشعار نجم مع غناء إمام، لتعبّر عن روح الاحتجاج الجماهيري الذي بدأ بعد نكسة 1967. وفي عام 2007 اختارته المجموعة العربية في صندوق مكافحة الفقر التابع للأمم المتحدة، سفيراً للفقر.

يقول نجم: " كانت أهمّ قراءاتي في ذلك التاريخ عام 1947، عندما اشتركت مع الألاف

في المظاهرات، هي رواية الأمّ لمكسيم خوركي، وهي مرتبطة بذهني ببداية وعبي الحقيقي والعلمي بحقائق هذا العالم، والأسباب الموضوعية لقسوته ومرارته، ولم أكن قد كتبت شعراً حقيقياً حتى ذلك الحين، وإنما كانت أغاني عاطفية تدور في إطار الهجر والبعد، ومشكلات الحبّ الإذاعية، التي لم تنته حتى الآن. وكنت في ذلك الحين أحبّ ابنة عمتي وأتمناها، لكنّ الوضع الطبقي حال دون إتمام الزواج لأنهم أغنياء“. (الحرّة، 2022).

اشتغل نجم عاملاً في السكّة الحديدية في الفترة ما بين 1951 و1956، ومن ثمّ نقل إلى وزارة الشؤون الاجتماعية بعد أن تعلّم درساً مهماً، كما يقول، ”أنّ القضية الوطنية لا تنفصل عن القضية الاجتماعية، كان هؤلاء الكبار منهمكين في نهب الورش، بينما يموت الفقراء كلّ يوم، دفاعاً عن مصر“. (الحرّة، 2022).

ومن ذلك الوقت كان ينظّم الأشعار باللهجة العامية المصرية، دفاعاً عن الشعب المصري المقهور خاصة والشعب العربي عامّة. لا يخاف من أحد ولا يساوم أحداً، بدءاً من جمال عبد الناصر حتى السادات وحتى الرئيس مبارك، ومن شدّة حقد وكره السياسيين له، سمّاه الرئيس أنور السادات ”الشاعر البذيء“، (الحرّة، 2022). على غرار ما قال عنه الشاعر الفرنسي لويس أروغان: ”إنّ فيه قوّة تسقط الأسوار“، كما أسماه الدكتور علي الراعي ”شاعر البندقية“. (المطلب، 1994، صفحة 185)

إنّ أيّ دراسة علمية تستدعي التنظير لها للشروع في التطبيق عليها، بغية الكشف عن خباياها ورصد محتوياتها، والدعوة إلى ترسيخها.

والأسلوبية واحدة من العلوم التي تبحث في ميدان اللّغة، لأنّها تكشف من المدلولات الجمالية في النص، وذلك

عن طريق النفاذ إلى مضمونه وتجزئة عناصره، فالتحليل الأسلوبي يسهم بقدر كبير في إبراز وجهة نظر الشاعر وميوله وأفكاره ولامح تفكيره، وتحيلنا إلى ما وراء الألفاظ والسياق من مغزى ومعنى ينطوي عليه النصّ.

وقد احتلت الدراسات الأسلوبية مكانة متميزة في الدراسات النقدية المعاصرة، إذ ”يقوم كثير من هذه الدراسات على تحليل الأعمال الأدبية واكتشاف قيمتها الجمالية والفنية انطلاقاً من شكلها اللغوي“. (درويش، 1998، صفحة 13)

وبما أنّ معرفة حياة الشاعر وسيرته تساعد كل فهم أشعاره، فقد اكتفينا بكتابة موجزة عن حياته.

1- حياته الشخصية وسيرته:

لقد كان زمنٌ يُنظر فيه إلى اللغة في العمل الأدبي بوصفها أداة يقول بها الكاتب أو يكتب، فكره وموضوعه، ويقول آخر، لقد كان زمن ينظر فيه إلى اللغة بوصفها مخلوقاً ثابتاً، لا يتكلم بنفسه عن شيء، ولكن يتكلم المبدع به عن شيء.

إنّ هذا المنظور إلى اللغة قد تغيّر، لا يفعل تغيير أفكار الكاتب والمبدع ذاتياً، ولكن بفعل ذاتية اللغة نفسها، "ذلك أنّ اللغة عبر معايشة الكائن كوّنت حالة إدراكها الخاص، فصار ينظر إليها على أنّها خالقة لموضوعها ومبدعة له. وأنّ هذا ليجعلنا نرى فيها ما لم نكن نراه بأعيننا الخاصة. فاللغة هي عين الإنسان إلى الوجود، وهي أيضاً طريقته في تركيب هذا الوجود وبنائه". (Guirard, 1972, pp. 5-6)

إنّ الأسلوب طريقة يستخدمها كلّ أديب ليظهر ما عنده من أفكار وتخيّلات، يوصلها إلى الناس، وقديماً قال بوفون Bouffon: "إنّ الأسلوب هو الرجل نفسه". (اسماعيل، 1955، صفحة 26) (Le style c'est l'homme).

فهل يصحّ هذا الحكم في شعر نجم؟ أم أنّه اعتمد أسلوباً مغايراً لشعره؟ إنّنا كي نتبيّن صدق حكم "بوفون"، يلزمنا أن نغوص في شعر نجم، حيث يبدو التشابه المعتمد في الموضوعات المختلفة، فتناوله للجوانب السياسيّة يعبر عنها بكلّ جرأة، والبحث في القضايا الاجتماعيّة يعبر عنها بكلّ منطق، وعاطفة، وسخرية يعرضها بكلّ ذكاء وفكر، لقد كانت همومه هموم الوطن والأمة، إذ تتفرّد لهجته بالغضب في تأمل الوطن وأحواله، فيحاول إثارة الشعب ضدّ كلّ الشعارات الفارغة والتي لم يجن منها الشعب سوى الخذلان والهزيمة.

2- الأسلوبية:

ترتبط الأسلوبية بالدراسات النقديّة والبلاغيّة واللغويّة ارتباطاً وثيقاً، وقد ظهرت على أنّها منتج نقدي في بدايات القرن العشرين، نتيجة تطور الدراسات اللغوية الحديثة وتطلق على هذا المصطلح في الفرنسية (La stylastique).

والأسلوبية علم يدرس اللغة ضمن نطاق الخطاب "لذلك كان موضوعها متعدّد المستويات ومتنوّع الاتجاهات". (هاف، 1985، صفحة 29). وباختصار فإنّ الأسلوبية هي "مجموعة الاجراءات التي ترتبط على نحو وثيق فيما بينها، بحيث تؤلّف نظاماً استشعارياً يتحسس البنى الأسلوبية في النص". (الناظم، 2002، صفحة 13).

ومن أبرز عناصر استراتيجيّة التحليل الأسلوبي هو التكرار:

2-أ- التكرار:

يعدّ التكرار من أهمّ العناصر التي اعتمد عليها التحليل الأسلوبي، وقد جاء تعريفه في اللغة كالاتي: "التكرار مصدر كَرَّرَ إذا رَدَّدَ وأعاد، فالكَرَّ، الرجوع، ويقال: كَرَّرَ الشيء تَكَريراً وتكراراً أعاده مرة بعد أخرى". (منظور، 1300) مادة كَرَّرَ. أمّا في الاصطلاح، فعلى الرغم من تباين نظرة العلماء إلى التكرار واختلافهم حوله، إلا أن رؤيتهم له ظلّت تصبّ في قالب واحد.

يذهب الشاعر من خلال التكرار إلى لفت انتباه القارئ لبعض العناصر ذات الأهمية، فتكون الكلمات المفاتيح

في القصيدة التي لا يمكن تجاوزها واغفالها في أثناء قراءة النصوص الشعرية، وقد يكون هذا التكرار مسلطاً على حرف أو كلمة أو جملة. وللتكرار في شعر نجم مزايا فنيّة وأسلوبية على مستوى التجربة والتعمّق في أغوار ودهاليز الحياة، إذ تعدّدت وظائفه بين التوكيد والايحاء وتركيب الصورة. لهذا تعدّدت الأنماط التكرارية في شعر نجم وفقاً للاتي:

2-1-ب- التكرار الصوتي:

يعدّ التكرار الصوتي من الأنماط التكرارية المنتشرة في الشعر وخاصة النثر والشعر العامي، ويتمثّل هذا "في تكرار حرف يهيمن صوتياً في بنية القصيدة أو المقطع". (الغرفي، 2000، صفحة 82)

نأخذ مثلاً قصيدة "في المعتقل" التي يتكرّر في معظمها حروف المدّ، كما لهذه الحروف من دلالة على الألم النفسي والقهر والظلم الذي يعيشه نجم، وحتى المجتمع المصري آنذاك، لا وبل الشعوب العربية كلّها.

يقول نجم في قصيدة "المعتقل" (نجم، 2005، صفحة 84):

في المعتقل يا سلام سلّم

موت واتألّم

لكن لمين راح نتظلم والكلّ كلاب

كلاب حراسه

وكلاب صيد

الكلب فيهم لا يميّز

وبضفر ونباب

فوق راس الشعب

يزرع فقلبه الخوف
من غير أسباب
وان حدّ بلضم
سيدنا يقول جرّيه يا كلاب
ع المعتقل
يرموه في الضيق
وإداره
شغلته التلفيق

2-1-ب - التكرار اللفظي:

يعدّ التكرار اللفظي نمطاً من الألفاظ التي اعتمدها الشعراء "وهو تكرار كلمة تستغرق المقطع أو القصيدة". (الغرفي، 2000، صفحة 82). وقد كرّر نجم اللفظة الواحدة على امتداد القصيدة، وبشكل متتالٍ عدّة مرّات ليصنع إيقاعاً موسيقياً. ولما لهذه الكلمة من أثر ورسالة يودّ تأديتها وتبليغها. يقول نجم في قصيدة "يا عرب" (نجم، 2005، صفحة 191):

يا عرب
يا عرب
يا عرب في أيّ مصر
يا عرب
يا عرب
اسمعوا صوت شعب مصر
يا عرب
يا عرب
يا عرب يا أهل مصر
اللي خانوا العهد بينا
واستباحوا كلّ حاجة
واستهانوا بالعروبة
واستكانوا للخواجه
مستحيل حيكونوا منّا
إحنا حاجة

وهمّ حاجة
 هم باعوا البندقية
 والوطن والجلابية
 واحنا أصحاب القضية
 احنا ما منبعش مصر
 يا عرب
 يا عرب
 سينا ولا يافا ولا حيفا ولا
 دير ياسين دول جدودنا
 ولا مين؟
 حقنا وحتما يعاد
 والبيان داه له معاد
 حيكون في مصر
 يا عرب
 يا عرب

على امتداد القصيدة يكرّر لفظة ”يا عرب“، فهو يدعو إلى توحد العرب في مواجهة الاحتلال وخاصة إسرائيل التي يدعمها الغرب كله، ونحن نبيع قضايانا. هذا الشعر العامي البسيط الذي يفهمه كل الشعب، لأبلغ وأفصح من الشعر الفصيح الذي لا يستسيغه إلا كل مثقف. فالكلمة ليست الأهم في توصيل الفكرة إنما الأسلوب. تكرار العبارة: ورد في بعض قصائد نجم تكرار حرفي لبعض العبارات ومن ذلك قصيدة ”الصمت“. (نجم، 2005، صفحة 447)

سكات سكات سكات سكات
 حواديت ورا السكات
 مليون كلان لكني
 أخرس من السكات
 سكات سكات سكات
 مات الكلام وبات
 جدار لألف دار
 يبادلوني السكات

سكات سكات سكات

لكن لسكاتنا معنى

أنطق من الكلام

وكلّ من سمعنا

يفهمنا بالتمام

سكات سكات سكات

لقد تكرّرت العبارة المؤلفة من ثلاث كلمات (سكات سكات سكات) على امتداد القصيدة، وليس وليد الصدفة.

بل هو دليل على صمت العرب وشعوبها من المحيط إلى الخليج وليس في مصر فقط. حتى صراخهم يكون في سكات، وفي هذا التكرار الملحّ، يتساءل إلى متى هذا السكات؟ إلى متى؟ ألا أن لهذا الجدار أن ينكسر!؟

3- الثنائيات الضدية:

هي طريقة اتخذها نجم ووظفها لإنشاء صور شعرية تصويرية، تحتّ القارئ العربي على متابعتها. فهي تظهر كمشهد تمثيلي، يترك الشاعر لكلماته المتناقضة مع الواقع أن تكشف ما يصوره من مفارقات. فالثنائيات تحكم الأدب الحديث وتحكم الحياة قبله، وتتجلى في الأدب الحديث بوصفها ثنائيات ضدية أو تكاملية.

يعتمد الفكر بعامة في نشاطه على الثنائيات الضدية. وحوار الحدود المتقابلة والمتباينة، وهو ما يسمّى بالفلسفة الجدلية أو الديالكتيك، فتجتمع في النفس البشرية ثنائيات ضدية يمكن عدّها كامنة في أغوار النفس البشرية، فالحياة غريزة واضحة الأثر في حركاتنا وسكناتنا، والموت غريزة ماثلة أمام أعيننا، والسواد والبياض موجودان جنباً إلى جنب في الحياة، فمظاهر الحياة كلّها نتيجة ذلك التجاذب بين قطبي هذه الثنائية.

تولّد الثنائيات الضدية فضاء مميّزاً للنصّ، إذ تجتمع جملة علاقات زمانية ومكانية، وفعليّة بأزمنة مختلفة، فتلتقي هذه العلاقات أكثر من محور. تلتقي وتتصادم وتتقاطع وتتوازي، فتغني النصّ وتعدّد إمكانيّة الدلالة فيه.

يقول نجم في قصيدة "همّا مين"

همّا مين

واحنا مين

هما الأمرا والسلاطين

واحنا الفقر والمحكومين
 همّا بلبسوا آخر موضة
 واحنا بنسكن سبعة ف أوضة
 همّا بياكلوا حمام وفراخ
 واحنا الفول
 همّا بيمشوا بطيّارات
 واحنا نموت بالاتوبيسات

هذه الثنائيات الضدية في هذه القصيدة وغيرها على طول قصائده، ما هي إلا صراع بين السلطة الحاكمة والشعب المظلوم المقهور، فبعد قيام ثورة يوليو ضدّ الملك فاروق، ملك مصر آنذاك، ظنّ الشعب بأنّه سيتحرّر من الظلم السائد في فترة الملك، إلا أنّ الوضع زاد سوءاً، وظلّ كما هو ولكن بتسمية مختلفة. والشعب أيّ شعب، في أيّ قطر، ليس يهوى الثورة على الحكام لمجرد الثورة، فهمّه الوحيد أن يعيش بحريّة وكرامة ويعبّر عمّا يريده بكلّ أمن وأمان، وهذا أقلّ حقوقه. وهو مسلوب منها، وعليه الخضوع والخنوع للسلطة في كلّ الأزمنة والعصور.

4- الصدق والعفوية:

لقد انتدب نجم نفسه لهمة إنسانية سامية تهدف إلى الثورة على الظلم والخوف والقمع، ورفض سرقة الشعوب وثرواتها، كلّ هذا عبّر عنه بلغة يعزفها على أوتار البساطة والعفوية والصدق. فهو يؤدّي هذه الرسالة تلبية لحاجة طبيعيّة فيه أولاً، وفي الإنسان بشكل عام ثانياً، فقد استطاع أن يعبّر عن هموم كلّ العطشى الباحثين عن رشفة من الحريّة. فيقول في قصيدة "ج نغني" (نجم، 2005، صفحة 24):

ما نبعث الكلمة بمية فضّة

والصوت شايل غنوتنا

هو احنا كده

وحّ نبقي كده

ماشيين عارفين مع مين

على مين

دايما واضحين مش بين دا و دا.

وبسبب صدقه وصدق كتاباته، كان السجن بيته ومسكنه، حيث اعتقل من قبل السلطات

مرّات عديدة. يقول في قصيدة "باحيك" (نجم، 2005، الصفحات 20-21)

في حبك يا مصر تهون السجون

والشجون والمواجع

ويغلى مع القهر حبك

يا مصر

لو تحبسوني ولو يشنقوني

ولو فكروا بالعذاب

يبعدوني

ح اقرب واقرب

ومش ممكن اهرب

الخاتمة:

صحيح أنّ شعر نجم قد كتب باللّهجة العامية، والمصريّة خاصّة، إلّا أنّنا لا ننكر عليه تفوّقه في هذا المضمار، وأنّه استطاع بألفاظه البسيطة الصادقة الشعبيّة أن يعبر عن مكنوناته ومكنونات شعب بأسره يعاني الاضطهاد والظلم والسجن. ويقف ضدّ سلطة حاكمة ظالمة مستبدّة. واستطاعت ألفاظه وتعابيره أن تكون لسان حال هذه الشعوب المقهورة.

رغم أنّ أحمد فؤاد نجم قد كتب بالعاميّة وللعاميّة، فإنّه من المؤكّد أنّ صفوة المثقّفين والكتّاب والأدباء قد قرأوا له، وسمعوه وكتبوا عنه. ونحن لسنا من دعاة العاميّة وخاصّة في فنون الأدب. لكنّ المكان والزمان والناس لهم الدور الرئيسي في اختيار لغة النصّ. وكيفيه فخراً وشهرةً أنّ أشعاره هي مادّة أساسيّة وسلاح أساسي للشعوب المناهضة للظلم أيّاً كان وأينما حلّ، والصغير والكبير والأمّي يردّد أشعاره إلى الآن، وخاصّة أنّ معظم أشعاره قد غنّاها الشيخ إمام، فنّان المظلومين والثوّار.

ونوصي في نهاية هذا البحث أن يدرس شعره من كافّة النواحي والزوايا، لما يحمل في طيّاته وحروفه من مظاهر ثورة وحرية، كلّ منّا هو بأمس الحاجة لها ولا يساوي شيئاً دونها. وفي الختام، نختم بمقولة للشاعر نجم -والتي كتبها باللّغة العاميّة-: " إنّ القصائد موجودة في هذا الديوان، تقدر سيادتكم تسمّيها الشعر الحرّ، وأنت مستريح البال والضمير، لأنّ الشعر حرّية، وكلّ واحد يسمّي شعره على هواه، لأنّ الشعر الحرّ هو اللّي يطلع من القلب عدل ويوصل للقلب عدل. والمسألة في رأيي لا تخرج عن مونها خلاف في وجهات النظر. أهلاً بأيّ خلاف في وجهات النظر، شرط إنّه يكون خالص لوجه الوطن،

لا تشوبه شائبة. لا بقعة نفض من جزيرة العرب ولا شبة نفاق لحاكم مستبدّ راكز على قلب شعبه بالحديد والنار والتلفزيون...“ (نجم، 2005، صفحة 8).

قائمة المصادر والمراجع

Guirard, p. (1972). la stylistique. paris: presses universitaires de France.

ابن منظور. (1300). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

أحمد درويش. (1998). دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث. القاهرة: دار الغريب للنشر والتوزيع.

أحمد فؤاد نجم. (2005). الاعمال الشعرية الكاملة . القاهرة: دار ميريت.

حسن الغرفي. (2000). حركية الإيقاع في الشعر العربي المعاصر. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

حسن الناظم. (2002). البنى الأسلوبية في أنشودة المطر للسياب. بيروت: المركز الثقافي العربي.

عز الدين اسماعيل. (1955). الأدب وفنونه. القاهرة: دار النشر المصرية.

كراهام هاف. (1985). الأسلوب والأسلوبية. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

محمد عبد المطلب. (1994). البلاغة والأسلوبية. القاهرة: دار نوبار.

وكبيديا، الموسوعة الحرّة. (2022).

الفلسفة والأيدولوجيا: علاقة ملتبسة

تمهيد

إنّ العلاقة بين الفلسفة والأيدولوجيا يمكن أن نشبهها بالمعادلة الهندسية التي تقول: «إنّ الخطين المتوازيين لا يلتقيان أبداً»، فإحدهما توازي الأخرى، تتقابلان، وتتواجهان، وتسيران متقابلتين بحيث لا يلتقيان إذا امتدتا، ولكن تلازمهما يشير إلى أنهما ليستا منفصلتين وفي الوقت نفسه ليستا متصلتين، مما يجعلنا في مواجهة علاقة ملتبسة، بينهما، أي الفلسفة والأيدولوجيا.

إنّ الإشكالية الأساس التي تواجه أي فلسفة هي إمكانية تحوّلها إلى حركة ثقافية أو عقيدة، يتولّد عنها شكل من أشكال النشاط العملي أو الإرادة. وقد نستعمل في هذا الصدد، كلمة أيدولوجيا، بوصفها تمثلاً للعالم، يتجلّى في الفن والقانون والنشاط الاقتصادي وكل أوجه الحياة الفردية والجماعية. صحيح أن الفلسفة منهج أصيل ومستقل من الفكر والعمل أيضاً، بحسب التعاليم الفلسفية، فرض نفسه على الإنسان قبل العلوم وسيظلّ بعدها قائماً، فيما لو ابتعلتها جميعاً هوة سحيقة بفعل بربرية مدمّرة⁽¹⁾ على حد قول كانط⁽¹⁾، فإنه من غير المنطقي الإدعاء أنّ هناك جوهرًا ثابتًا للفلسفة، أو أنّ الحقيقة الفلسفية راسخة منذ الأزل، معطاة ومنجزة على نحو تام، فلو أنها كذلك، لانتفى جوهر الوجود وسنّته ألا وهما التغيّر والحركة الدائمين، والعقل الانساني في علاقة تفاعلية مستمرة مع ما يحيطه من تغيّرات، يعمل على تفسير الظواهر ويبحث في سرّ وجوده وكيّنونته، ودهشته المترافقة بالأسئلة رحلة فكرية تكاد لا تنتهي، فكّلما وجد إجابة طُرحت أمامه إشكاليات يفرضها الواقع المتغيّر، كما لو أنه في مواجهة نواة ذرية غير

مستقرّة تتغيّر، حتى وإن لم يكن يوجد شيء خارج النواة يسبّب تغييره. فكما أنّ الحياة في حركة دائمة، كذلك الفكر الفلسفي وباقي العلوم فالثبات يعني الموت، وبالتالي موت العقل أي موت الانسان. لذا فالتراث الفلسفي الذي بات مأثوفاً لدينا، وفي متناول يدنا، لم يأت عفويًا، ولم يخرج فقط للتو، وإنّما هو نتاج فكري وتراكمات معرفية لجميع الأجيال السابقة المتوالية من الجنس البشري. وبالتالي فإننا ندين بما نحن عليه، الواقع الراهن للفلسفة، إلى ذلك الإرث التاريخي الذي يتخطى كلّ ما هو عابر ومحدّد، أو منجز. وهو لم يكن قطّ في يوم من الأيام إرثًا ثابتًا، في الكمّ والنوع، ولم يكن كذلك صنمًا حجريًا، صلبًا أو أيديولوجيا جامدة، ولكنه كان كائنًا حيًا ينمو ويتشكّل ويتضمّم.

إنطلاقًا ممّا تقدّم، نطرح إشكاليتنا التي يدور حولها هذا البحث. هل يمكن الفلسفة أن تكون مؤسسة للأيدولوجيا؟ أم أن الأيدولوجيا توسّلت الفلسفة لتبرّر شروط وجودها وشموليتها؟ وكيف يمكن تسويغ هذا اللا إنفصال، واللا إتصال في الوقت نفسه بين الفلسفة والأيدولوجيا؟ ولنجيب عن التساؤلات التي تطرحها إشكالية هذا البحث، لا بد أن نلجأ إلى تعريف كل من الفلسفة والأيدولوجيا.

تعريف الفلسفة:

لا يمكن أن نجد تعريفًا واحدًا للفلسفة، فكل فيلسوف أو مشتغل في الفلسفة لديه تعريفه الخاص المتوائم مع منهجية تفكيره ووجهة نظره إلى الوجود. غير أنه في إمكاننا الانطلاق من التعريف التقليدي الذي تعلّمناه في أولى خطواتنا في عوالم الفلسفة، ألا وهو أن الفلسفة بصفة عامة لفظ مشتق من اليونانية وأصله (فيلا - صوفيا)، ومعناه محبة الحكمة. ويطلق على العلم بحقائق الأشياء، والعمل بما هو أصلح. والصفات التي تتميز بها الفلسفة هي الشمول، والوحدة، والتعمّق في التفسير والتعليل، والبحث عن الأسباب القصوى والمبادئ الأولى، لذلك عرّفها أرسطو بقوله: إنها العلم بالأسباب القصوى، أو علم الوجود بما هو موجود، وعرّفها ابن سينا بقوله: إنها الوقوف على حقائق الأشياء كلها على قدر ما يمكن الإنسان أن يقف عليه. أما في العصور الحديثة فإن لفظ الفلسفة يطلق على دراسة المبادئ الأولى التي تتسرّ المعرفة تسييرًا عقليًا كفلسفة العلوم، وفلسفة الأخلاق، وفلسفة التاريخ وفلسفة الحقوق والفلسفة السياسية².

تعريف الأيدولوجيا:

تعدّدت تعريفات الأيدولوجيا، وكل منها تناولها من جانب أو أكثر. ولكن بالعودة إلى

أصلها نجد أن الأيدولوجيا هي أيضاً لفظ مشتق من اليونانية، (أيديا، وتعني فكرة) و(لوغوس، علم الخطاب). وبالعبيرية الأدلوجة، الفكرية³ وغالباً يستعمل هذا المصطلح بوصفه مفهوماً حديثاً، والتعريف الأكثر تكاملاً يحدّد الأيدولوجيا بأنها النسق الكلّي للأفكار والمعتقدات والاتجاهات العامة الكامنة في أنماط سلوكية معيّنة. وهي تساعد على تفسير الأسس الأخلاقية للفعل الواقعي، وتعمل على توجيهه. وللنسق المقدرّة على تبرير السلوك الشخصي، وإضفاء المشروعية على النظام القائم والدفاع عنه. فضلاً عن أن الأيدولوجيا أصبحت نسقاً قابلاً للتغير استجابة للتغيرات الراهنة والمتوقّعة، سواء كانت على المستوى المحلي أم العالمي.

أما ظهور مفهوم الأيدولوجيا وتطوّر دلالاته فقد نشأ في فرنسا غداة الثورة الفرنسية، على يد أنطوان ديستوت دي تراسي (Antoine Dustutt de Tracy) الفيلسوف وعالم الاقتصاد الفرنسي، فهو أول من استعمل هذا المصطلح في كتابه «مشروعات المبادئ الأيدولوجية» للدلالة على التحليل التجريبي للعقل البشري، التحليل الذي صاغه أستاذه كوندياك انطلاقاً من أن الإحساس هو أصل جميع الأفكار. وكان دي تراسي يتطلع إلى إقامة «علم الأفكار» على أسس ديكارتيّة، ليكون أساساً فلسفياً لساائر العلوم، وحدّده بقوله: «يمكن أن نسمي هذا العلم المقترح أيديولوجيا إذا نظرنا إلى محتواه، ونحواً عاماً إذا نظرنا إلى وسيلته، ومنطقاً إذا نظرنا إلى هدفه. وهدفه هو التوصل إلى التفكير السليم، وذلك بإصلاح المنطق وتحرير الفرد والمجتمع من الأفكار الموروثة التي تعكّر صفاء العقل وتمنعه من إظهار الحقيقة الواقعية على وجهها الصحيح». ⁴

وبالنسبة إلى لودفيغ فيورباخ، مؤلف كتاب «جوهر المسيحية»، فإنّ الأيدولوجية هي مجموعة متماسكة إلى حد ما من التمثّلات والقيم والمبادئ الأخلاقية التي يولّدها المجتمع. إنها تجلب الراحة للرجال الذين مرّقتهم صعوبات الحياة. ومن خلال أيديولوجيتهم، يترجم الأفراد حالتهم الاجتماعية وتطلّعاتهم. فالأيديولوجية ليست محايدة سياسياً، فهي تسعى إلى تحقيق هدف، حتى لو اذعت العكس، وهو ما يتوافق مع الدفاع عن مصالح الفئة الاجتماعية. هذا المصطلح أيديولوجيا، الذي ابتكره ديستوت دي تراسي عام 1796 لصياغة علم الأفكار بدلاً من علم النفس، والذي يشير إلى تيار فلسفي، فقد معناه الأولي في القرن التاسع عشر، حين استعمل كارل ماركس، كلمة أيديولوجيا للتنديد بالفلسفة المثالية لهيغل وأتباعه. فبالنسبة إليه، الأيدولوجية هي عكس الواقع، وهي الغموض الذي ترغب فيه الطبقة المهيمنة، والتي من خلال نشر معتقدات كاذبة بشكل أو بآخر، تضمن الحفاظ على السلطة. ولذلك فالأيديولوجيا في نظره عكس العلم. ولقد قام الماركسيون بتعميق

هذه الأطروحة في القرن العشرين. على سبيل المثال، يميز التوسير بين أجهزة الدولة القمعية (مثل الشرطة) وأجهزة الدولة الأيدولوجية (مثل المدرسة). لكن أليس انتقاد الأيدولوجيات في حد ذاته أيدولوجيا مما يجعل كل العلوم مستحيلة؟ إن الإيدولوجية، التي تم التقليل من شأنها باعتبارها «فكرة عن الآخر لا نلتزم بها» (ريموند آرون)، لا تشوه الواقع فحسب، بل تسمح أيضاً للسلطة بإضفاء الشرعية على نفسها وللأفراد بالاندماج في مصير مشترك. وهي بذلك تشكّل، مع اليوتوبيا، أحد قطبي المخيال الاجتماعي.

فهل هناك علاقة بين الفلسفة والأيدولوجيا؟

يتضح من تعريف الأيدولوجيا أنها كمفهوم هي ابتكار فلسفي، مما يتماهى مع مقولة جيل دولوز في تعريفه الفلسفة بأنها «إبداع المفاهيم»، ولكن هل يعني هذا أن الأيدولوجيا هي وليدة الفلسفة؟

إذا ما نظرنا في الفلسفة وتحديداً الفلسفة في مسارها السياسي نجد أنّ لها جانبان: الجانب التحليلي الميتا- سياسي والجانب المعياري. وهي في جانبها تدور حول أربعة أنواع من القضايا. النوع الأول هو ما يتعلّق بمفهوم الإلزام السياسي، فعند معالجة الفلسفة السياسيّة في جانبها التحليلي الخالص لهذا النوع من القضايا لا تستهدف الوصول إلى قضايا جوهرية بخصوص ما إذا كان الإلزام السياسي مشروعاً أم لا، إنّما تستهدف فقط طبيعة الإلزام السياسي، وما الذي يشكّل المكونات المنطقيّة لمفهوم السلطة السياسيّة، عامة. فمثلاً عند دراسة مفهوم الدولة على المستوى التحليلي والميتا- سياسي، لا بدّ أن ترتبط، على نحو أو آخر، بتحليل مفهوم الدولة ومحاولة فهم طبيعتها والكشف عن المكونات المنطقيّة أو الدلاليّة لهذا المفهوم. أما معالجة الفلسفة في جانبها المعياري لهذا النوع من القضايا، نجد أن اهتمامها بمفهوم الإلزام السياسي وطبيعته وما تستتبعه من اهتمام بمفهوم السلطة السياسيّة ومفهوم الدولة وعلاقة الأفراد بها، يستهدف في نهاية التحليل ليس تحقيق الفهم وحسب، بل الوصول إلى وضع أفضل لمعالجة قضيّة العلاقة بين الدولة والأفراد وتحديد المبادئ التي يجب أن يقوم عليه الإلزام السياسي والتي يجب أن يتقرّر بها حقّ الدولة في سنّ القوانين وخضوع أفراد المجتمع لها.⁵ أمّا النوع الثاني من القضايا التي تستأثر اهتمام الفلسفة، فيرتبط بالمفاهيم التي تُوظّف في تقويم المؤسّسات السياسيّة والإجتماعيّة. من هذه المفاهيم العدالة والمساواة ومفهوم الخير المشترك أو الخير العام ومفهوم الحرية والحقوق الإنسانية. هنا نجد في هذا النوع أن الفيلسوف ذا الإهتمامات الميتا- سياسية الخالصة لا يستهدف أكثر من تحليل هذه

المفاهيم لغرض الكشف عن طبيعتها وفهمها وجعل العلاقات التي قد تكون قائمة بينها أوضح، ومعرفة الشروط الضرورية لتطبيقها. أما الفيلسوف ذو الإهتمامات المعيارية، فإن القضية المركزيّة له هي القضية المتعلّقة بالأساس الذي يجب أن يقوم عليه تقويم المؤسسات السياسيّة والإجتماعيّة.⁶

والنوع الثالث من القضايا التي تستأثر باهتمام الفلسفة هو ما يرتبط بالمثل السياسيّة والإجتماعيّة. ويكون غرضها الأساسي في جانبها التحليلي الميتا - سياسي هو فهم طبيعة المثل السياسيّة والإجتماعيّة وطبيعة المعايير التي تخضع لها عملية تقويمها والمفاضلة بينها، وليس تسويغ مثال من بينها دون غيره. أمّا في جانبها المعياري فإنّها تهتمّ في المقام الأوّل بمسألة إيجاد المعيار المناسب الذي يمكن على أساسه تسويغ اختيار مثال من بين هذه المثل دون غيره، وللجوء إلى تبني مثال سياسي واجتماعي ما يؤدي إلى أسئلة تدور تدرّجاً حول القضايا المتعلّقة بإمكان تغيير المجتمع وكيفية تغييره حتى يقترب من المثل الذي يتبناه.⁽⁷⁾

هنا ننتقل إلى النوع الرابع من القضايا التي تعنى بها الفلسفة ، فالسؤال الرئيس في جانبها المعياري هو المتعلّق بتسويغ التغيير الإجتماعي، بينما يهدف الفيلسوف ذو الاهتمام التحليلي الميتا - سياسي إلى فهم طبيعة التغيير الإجتماعي فهمًا فلسفيًا، وليس فهمًا سوسولوجيًا أو تاريخيًا، وتحديد الشروط المفهوميّة التي يكون التغيير الإجتماعي بموجبها تغييرًا ثوريًا والفرق بينها وبين الشروط المفهوميّة التي لا يكون التغيير الاجتماعي بموجبها أكثر من تغيير إصلاحي. بمعنى آخر لا بد من أن نطلق من نظرية معيّنة في التغيير الاجتماعي. ولكن هذه النظرية ليست نظريّة علميّة خالصة، بل إنها على العموم نظريّة تدمج فيها العلوم الاجتماعية بفلسفة العلوم الاجتماعية.⁽⁸⁾

أمّا الأيدولوجيا فهي نوع من أنواع الفكر العقائدي، إلا أنّها أكثر تلك الأنواع ارتباطًا بالفكر التاريخي. إذ أنّ الحقائق الأساسيّة فيها حقائق اجتماعيّة. والحقائق الإجتماعيّة هي في أبعادها العميقة حقائق تاريخية. وهي أي الأيدولوجيا لا تهدف أصلاً إلى تنمية وتقدّم الوعي التاريخي النظري، بخلاف العلم والفلسفة اللذين يشكّلان النوعين الأوّلين في الفكر التاريخي، ولكنها مع ذلك تحتاج إلى وعي تاريخي نظري، وتتضمن بهذا القدر أو ذاك نظرة إلى التاريخ قائمة على بعض المعطيات العامة والأصول الفلسفية. ومن جهة ثانية فإنّ النظرة الأيدولوجية إلى التاريخ تعبّر عن تفكير الجماعة أو الشعب وتمتزج بحياة الجمهور أكثر من النظرة العلمية أو النظرة الفلسفية.

وهكذا فإن علاقة المجتمع بالأيدولوجيا، هي علاقة مبنية على مشاعر وأحاسيس ومقاييس سياسية أخلاقية. بينما علاقة الإنسان بالفلسفة هي علاقة مبنية على أسس فكرية خالصة. هكذا نفهم كيف أن إقبال الإنسان على الفلسفة يتم بدافع فكري و حاجة معرفية. لكن إقباله على الأيدولوجيا يتم بدوافع نفسية وولائية. فلا "يأتي الشيوعيون و الماركسيون إلى الماركسية كعلماء اجتماع، يحاولون الكشف عن تركيب المجتمع، أو عن حركته و منطقتها، إذ إنهم لو أتوا بهذه الصفة، لضاقوا، مثل غيرهم ذرعاً، في كلمة استمان، باعوجاج أفكارها، والتواء مبادئها، وبفكرها المتذبذب المجرد، و بإبهامها اللاضروري. ولكنهم يأتون إليها كمؤمنين يتشوقون إلى الإيمان بسنن العالم المخبوءة التي تعمل لمصلحتهم"⁽⁹⁾.

في الأيدولوجيا يتم الإنطلاق مما يتوهمه الناس عن وضعهم وأحوالهم وهو ما يعبرون عنه في أشكال وعي مختلفة، الجامع بينها كونها تزييف الواقع وتحجبه، وفي الغالب يتم الانطلاق من تلك الأوهام المتخيلة، وتفصيل الواقع على قياسها كي تتناسب معه، فليس الواقع هنا هو ما تكون تلك التصورات انعكاساً له، وإنما التصورات المتوهمه هي التي يصبّ الواقع في قالبها وتلونه بلونها، فتبدو تلك التصورات صانعة للواقع ومتحكّمة فيه، إنه يتبعها ولا تتبعه، وبذلك تنقلب الأدوار. فالأيدولوجيا التي هي انعكاس وهمي للواقع تصبح هي الأساس بينما يشغل الواقع موقع الانعكاس، يقول ماركس وأنجلز: إذا كان البشر وجميع علاقاتهم يبدون لنا في الأيدولوجيا بكاملها موضوعين رأساً على عقب كما في غرفة مظلمة، فإن هذه الظاهرة تنجم عن عمليات تطوّر حياتهم التاريخية تماماً كما أنّ انقلاب الأشياء على الشبكية ينجم عن عملية تطوّر حياتهم الفيزيائية بصورة مباشرة.⁽¹⁰⁾

وبحسب لويس ألتوسير فإنّ الفلسفة ليست علماً وليست أيدولوجيا، إنها نظرية للممارسة العمليّة، ووظيفتها رسم خطّ الفصل بين العلمي والأيدولوجي، وهي لا تهتمّ بالإجابة عن الأسئلة التي تخصّ الأصل والنهائية لأنها ليست أخلاقاً ولا ديناً، فتلك الأسئلة ذات طبيعة أيدولوجية وهي بالتالي غريبة عنها⁽¹¹⁾.

ولكن هناك بُعد آخر للأيدولوجيا وهو الذي سنركز عليه، وهو البعد المعرفي أو الإبستمولوجي، أي وظيفة الأيدولوجيا في تزييف الوعي وتقديم صورة مشوهة ومحرّفة عن الواقع. والحقيقة أن معظم الدراسات عن الأيدولوجيا تنقسم هذين القسمين: الأيدولوجيا باعتبارها خطاباً كليانياً Universalist يبرّر الوضع القائم ويضفي الشرعية عليه، والأيدولوجيا باعتبارها آلية في تزييف الوعي. وممّا لا شكّ فيه أنّ الأيدولوجيا سواء كانت خطاباً تبريرياً أم آلية مزيفة للوعي، تخدم أهدافاً واحدة، أي تثبيت الناس

على شكل معيّن من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وجعلهم يقتنعون بها ويتقبلونها. وفي أعمال ماركس نجد معالجة للأيدولوجيا بكلا المعنيين، فهو يعالجها باعتبارها خطأً تبريرياً في نقده للاقتصاد السياسي الكلاسيكي، ولليبرالية، وللطابع البورجوازي للدولة ومؤسسات المجتمع المدني. ويعالجها باعتبارها آلية لتزييف الوعي في نقده لصنمية السلع *Fetishism of Commodities*، وتشبّه العلاقات الاجتماعية *Reification* التي تظهر على أنها علاقات بين سلع تحكمها قوانين اقتصادية تعمل مثل القوانين الطبيعية من خلف الإرادة الإنسانية الواعية. وكذلك فعل جورج لوكاش نظر إلى الأيدولوجيا باعتبارها تزييفاً للوعي في مقاله الشهير «التشيؤ ووعي البروليتاريا» ضمن كتابه «التاريخ والوعي الطبقي». فالبروليتاريا عنده معرّضة للانخداع بالقيم والمثل البورجوازية وأنساقها الفكرية والاقتصادية، تماما مثل البورجوازية نفسها، وهذا الانخداع يسميه بالوعي الزائف

False Consciousness و الوعي المُشَيأ *Reified Consciousness*.⁽¹²⁾

إذن من أهم وظائف الأيدولوجيا، بحسب الماركسية، أنها تقلب العلاقات الحقيقية الموجودة في الواقع، فإذا كان هناك صراع أُلغته وعتّمت عليه وقدمت بدلا منه الوفاق والانسجام، وإذا كان هناك تناقض طبقي قدمته على أنه تعددية وليبرالية، وإذا كانت هناك شمولية قدمت هي التعدد والتنوع.

هذه النظرة إلى الأيدولوجيا لا تنفي القول إنّ في كل أيدولوجيا جانباً معرفياً، موضوعياً، وجانباً ذاتياً. الجانب الأول يعبر عادة عن الواقع الاجتماعي السياسي الثقافي بمعنى أنه نتيجة تحليل الواقع على هذه الدرجة أو تلك من الموضوعية والروح العلمية. أما الجانب الثاني فهو يعبر عن المصالح والرغبات والتطلّعات.

وهكذا عندما نعالج متغيّرات الفكر، فإنّما نعالجه إنطلاقاً من فلسفته، مستندين إلى لغة تاريخية وضعية، متجهين إلى تشخيص معطياته من دون مواقف مسبقة، فالوقائع والمعطيات تتخذ سمات تختلف عن تلك التي يمكن أن تتخذها في حال المقاربة المستندة إلى مواقف لا تاريخية.

بعد هذا العرض لمفهومي الفلسفة السياسية بجانبها التحليلي - الميتا - سياسي والمعياري، والأيدولوجيا، هل يمكن التمييز بين النظر الفلسفي والأيدولوجي؟

عن هذا السؤال يجيب ناصيف نصّار في كتابه الفلسفة في معركة الأيدولوجيا أنه في حقيقة الأمر لا يمكن إقامة ذلك التمييز بطريقة قاطعة قادرة على انتزاع إجماع دارسي السياسة، إذ أنه يفترض تصوّراً معيّناً للأيدولوجيا وتصوراً معيّناً للفلسفة، ولا يوجد حول هذين التصورين إجماع، أو شبه إجماع. وفي الواقع ليست النظرتان الفلسفية

والأيدولوجية إلى السياسة النظريتين الوحيديتين اللتين تبحثان في السياسة. بل هناك وجهات نظر أخرى عديدة تناولت موضوع السياسة كالوجهة الدينيّة والوجهة الحقوقيّة والوجهة السوسيولوجيّة والوجهة البيسكولوجيّة والوجهة العلميّة وغيرها. ولكل واحدة من هذه الوجهات خصائص وشروط ونتائج خاصة. ولكن الوجهتين الفلسفية والأيدولوجية أكثرها مثاراً للجدل وأشدّها توتراً في هذا العصر.⁽¹³⁾

إذاً يتحرّك الفكر الأيدولوجي، على مستوى، ويتحرّك الفكر الفلسفي على مستوى آخر. فعلى الرغم من كلّ أشكال التداخل بينهما، تتمحور السياسة الأيدولوجية حول جماعة تاريخيّة محدّدة وتنطلق منها، إذا انطلقت، إلى البشرية ككل وتضع تصوّرها للإنسان في خدمة الجماعة التي تعمل لها. أمّا الفلسفة فإنها تتخذ من الإنسان كموجود نوعي موضوعاً محورياً. وتنطلق منه، إذا انطلقت، لكي تطبع الموجود التاريخي المحدّد بطابع تصوّرها للإنسان بما هو إنسان. وفي هاتين الحركتين المختلفتين جوهراً والمتشابهتين ظاهراً، تكمن جدلية العلاقة بين الأيدولوجيا والفلسفة. فلا الفلسفة تتكرّر لواقع تعدّد الجماعات السياسيّة، ولا الأيدولوجيا تكرر الصفة الإنسانيّة التي تتجاوز الخصوصيات الجماعية. من هنا ينتج ما نلاحظه من مضمون فلسفي في الأيدولوجيا ومن طابع إلتزامي في الفلسفة. إلا أنّ الإختلاف في الموضوع الذي تعتبر السياسة فعلاً له يؤدي إلى تباين عميق بين خصائص الفكر الأيدولوجي والفكر الفلسفي. ولو كان الفكر الفلسفي فكراً موحداً منسجماً عبر تاريخ الفلسفة لأمكن تعداد خصائصه بعامة. ولكن الواقع هو أنّ الفلسفة جزء من كل، أي أنها تطبيق عام لمهّمة الفلسفة على الحياة. فالإختلاف بين الفلسفات تابع للإختلاف حول تصوّر مهّمة الفلسفة ومنهجها. ولذلك تواجه كل فلسفة طريقة التفكير الأيدولوجيّة بحسب ما ترسمه لنفسها من مجال ومهّمة.

هذا الالتباس في العلاقة بين الفلسفة والأيدولوجيا وكذلك الحال في ظل المآزق الأيدولوجية وتحدياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، فُرض على الإنسان المعاصر تشييد رؤية للعالم والحياة والوجود انبثقت عنها أنماط فكرية متعدّدة، تظهر مشتتة ومتنافرة أحياناً ومتماثلة ومتماسكة أحياناً أخرى. وفي كلا الحالين إنها رؤية تبدو في تشكّلها متأرجحة بين التمسك بالقديم المتملّ بالتراث وتراكماته الفلسفية والعقائدية والدينية من ناحية، والتوق إلى حداثة تعكس نزوع الانسان المعاصر إلى إبتكار أيدولوجيا تعكس أحواله ومشاكله الذاتية من ناحية أخرى. ولكن ليس التراث والحداثة وحدهما العنصرين المكوّنين لهذه الرؤية المتأرجحة، وإنما هناك المفهومات الوجودية التي تعكس ظروف

عيش الناس معاً وجهودهم الفردية والجماعية للسيطرة على هذه الظروف أو للتوافق معها، فضلاً عن محاولات الإنسان الفردية المتماسكة، للتفكير والحكم، ولكن بطريقة مفككة وعرضية تقتصر أحياناً إلى الوعي النقدي، وهذا يفسر معاناة الانسان منذ الأزل في كثير من الأحيان من تناقض بين موقفه الفكري ونمط سلوكه العملي .

هذا التباين بين الفكر والعمل أو بين رؤيتين شاملتين، رؤية يؤكد بها الفكر ، وأخرى يعكسها النشاط العملي قد يبدو خداعاً للنفس، لذا من الضرورة بمكان أن ينظم المرء أفكاره حول الحياة والعالم، على نحو منهجي ومتماسك ونقدي. وعلى هذا يمكن الادعاء بأن الفلسفة هي المبدأ الموجّه للإنسان في سلوكه إزاء العالم المحيط به، أي إنَّ اعتناقنا مبدأً موجّهاً إزاء الحياة معناه اعتناقنا لفلسفة ما، ما دامت المبادئ الكبرى ذات الطابع العام التي يقبلها الإنسان إمّا عن وعي وإمّا من دون وعي، هي التي تحدّد سلوكه في كافة المسائل التي تعترضه أثناء حياته.

وفي المقابل فإن المتأمل في عالمنا المعاصر يجد نفسه تائهاً في محيط من الأيدولوجيات المتصارعة والمهيمنة، على أنظمتها الإقتصادية والسياسية، وتركيباته الاجتماعية والثقافية، وإن أُعلنت نهاية الأيدولوجيا مع بزوغ الألفية الثالثة. فهل التزاحم الأيدولوجي الراهن سببه توقّف التساؤل الفلسفي؟

من المعلوم أن الدور الأول للفلسفة هو طرح الأسئلة حول طرق التفكير المختلفة وأهميتها. فكما تهتم الفلسفة بمجالها الخاص، ففي إمكانها الاهتمام أيضاً بالعلم والأيدولوجية والدين والميتافيزيقا وتحولات الفكر البشري عبر التاريخ. تهتم الفلسفة بالوحدة المطلقة للتنوع القائم في العالم، وهي تبرهن على هذه الحقيقة العامة في كل ما هو خاص ومتعيّن. حينما تتماهى مع واقع متقدّم وتتسبب إلى تاريخه، وتكون الفلسفة أكثر كمالاً في تطورها كلما كانت أشدّ التصاقاً بتاريخها. فالفلسفة نظام واحد وشامل من حيث نموها وسيورتها الداخلية، لكنّها تغدو حقيقة خاصة، ملموسة ومتعيّنة، لجهة تحقّقها الخارجي وانتمائها ظاهرياً إلى التاريخ. ونعني من منظور تطورها كظاهرة في الزمن، ويكون لها تاريخها الخاص. لذا فإننا سوف نستعرض لبعض الفلاسفة الذين نظروا في السياسية عبر التاريخ.

الفلسفة والأيدولوجيا بين أفلاطون وأرسطو

أفلاطون (427 ق.م. - 348 ق.م.)

ارتبط أصل الفلسفة الغربية بالفلسفة اليونانية، وتحديداً أفلاطون الذي كتب محاورتين أساسيتين في الفلسفة السياسية هما الجمهورية، والنواميس. إن الفكرة الأساس التي يدور حولها موضوع الجمهورية هي تحديد العدالة، فقد ارتبط هذا المفهوم لدى أفلاطون بالسياسية التي تعني بالنسبة إليه تحقيق الخير الأسمى في الدولة. ولاشك أن العدالة، كونها أرفع الفضائل، فهي من أهم تجليات الخير الأسمى في الدولة. لذا تتحوّل السياسة عنده إلى بحث نظري وعملي من أجل تحقيق العدالة في الدولة، كما تحوّلت الأخلاق عنده إلى بحث في كيفية تحقيق فضيلة العدالة في الفرد.

لقد عمد أفلاطون إلى تطبيق نظريته في النفس الانسانية على نظرياته السياسية. فكان أيدولوجياً للاحية تقديمه صورة كلية لمدينة مثالية ذات بنى اجتماعية وسياسية ووجودية تضمن صلاحية فكرة مجتمع المدينة الطبقي من خلال تقسيمه أهلها ثلاث طبقات استناداً إلى اختلاف استعداداتهم الفطرية، ليصل في الكتاب الرابع من الجمهورية إلى لبّ الموضوع الذي كانت كل أبحاثه السياسية السابقة ممهّدة له، ألا وهو تعريفه للعدالة، وتعني عنده أن يلتزم كل فرد بالمجال الذي حدّته له الطبيعة سلفاً. فالدولة في رأيه تكون عادلة إذا رضي الصانع والزارع بوضعه، ولم يحاول أن يمارس عملاً أرفع من ذلك الذي تؤهله له طبيعته، أي الاقتناع باللامساواة الطبيعية بينه وبين الآخرين. ويتمظهر خطاب أفلاطون الأيدولوجي حين يلجأ إلى الأساطير ليبّرر هذا التقسيم وليثبت في أذهان المواطنين. لهذا لم يعبأ بأحكام الآخرين على واقعية ما يقول. وهذا بالظبط ما قصده بول ريكور بالاستراتيجية الإيصالية للخطاب الأيدولوجي. وهي استراتيجية تقوم على نشاط مثلث الأضلع.

- الأول: قيادة الجهاز الأيدولوجي، واضع تلك الاستراتيجية، وهذا يتمثل بأفلاطون واضع الفكرة الكلية للمدينة المثالية.

- الثاني: اللغة الموصلة أو الموجّهة من أجل أن تكتمل جدلية التخاطب. وتتمثل في جمهورية أفلاطون بخطاب إقناع الجماهير بأسطورة الآلهة أرادت هذه العدالة.

- الثالث: وهو الحلقة الأخيرة في توليد العملية الإجمالية للخطاب الأيدولوجي والتي بها تتمّ الدورة الخطابية بإفهام المرسل إليه أي الجماهير فحو الرسالة. يتساءل كلكون محاور سقراط «ولكن كيف نتصرّف بحيث نجعل الحكام أنفسهم، ثم بقية المواطنين إن استطعنا يصدّقون أكذوبة مفيدة؟ لديك ما يبّرر خجلك من الكذبة التي كنت ستخبرنا

عنها». فيجيب أفلاطون على لسان سقراط: لا شكّ في ذلك، لكن استمع لبقية القصة، سنقول للمواطنين في قصتنا أنتم أخوة، والله شكلكم بطريقة متباينة...»¹⁴.

يتخلّى أفلاطون عن فكرة الدولة المثالية لاستحالة تحقيقها، ولامتناع الفيلسوف الحاكم نجد أنه في كتابه النواميس عدل عن الدولة التي تستير بنور العقل وحده، إلى الدولة التي تسترشد بالقوانين. وتغيّر خطابه الأيدولوجي - الفلسفي، فاختلفت عنده دولة النواميس عن دولة الجمهورية اختلافاً جذرياً سواء من حيث المواضيع أو من حيث الرؤيا السياسية العامة للكتاب، فمن الناحية الاجتماعية والاقتصادية نراه يتخلّى عن الشيوعية والشراكة في الأملاك والنساء وحافظ على مبدأ حق الملكية إلى حد ما رابطاً هذا الحق بوجود توزيع الثروة العامة توزيعاً متساوياً على جميع أفراد الدولة. وفي المقابل فإن ما يشترك فيه الكتابان هو ضرورة التربية تحت إشراف الدولة وضرورة الخضوع للآلهة والتمسك بأهداب الدين، لأن البشر هم ملك الآلهة، فالغاية الأولى من التربية هي غرس المبادئ الدينية في قلب الشبيبة، واعتبار الكفر جنائية لا تغتفر. أما من الناحية الأخلاقية نجده يعلن في النواميس سيادة مبدأ الاعتدال، بعد أن كانت العدالة الفضيلة الأولى في الجمهورية فهو لم ينكر أهمية العدالة، ولكنه لاحظ أن التحقيق الكامل للعدالة مستحيل، ذلك أن تطوّر البشرية يسير باتجاه مناقض للعدالة بعد أن كثرت الحاجات وتعددت المطالب وقد الانسان بساطته الفطرية¹⁵. لذا فإن الأساس الواقعي الذي تبنى عليه الدول هو الاعتدال.

أمّا الاختلاف الجذري بين المحاورتين أي الجمهورية والنواميس فهو الاختلاف الواضح من الناحية السياسية، فبينما نظر أفلاطون في الجمهورية الفلسفة السياسية في جانبها الميتا-سياسي، عاد ونظر في جانبها المعياري الواقعي في النواميس، فاستعاض عن الحكّام الفلاسفة بالحكّام المشرّعين، مع كل ما يستلزم ذلك من تشريعات مقننة ومؤسسات تشريعية وقضائية وغير ذلك من مختلف المؤسسات التي ترتبط بدولة القانون.

أرسطو (384 ق.م. - 322 ق.م.)

بينما كان أفلاطون بمثابة صوت المدينة - الدولة، الصغيرة، أثينا، الذي يدوي للمستقبل، كان أرسطو في خدمة فيليب المقدوني الذي استولى على اليونان كلّها باسم الوحدة، وجعله معلماً لابنه الذي أصبح فيما بعد الاسكندر الأكبر. والحقّ يمكن أن ننظر إلى فلسفة أرسطو التركيبية، وكأنها فلسفة تعكس رغبة الاسكندر التوحيدية. فإذا كان أفلاطون هو فيلسوف الفردية الأرستقراطية، فإنّ أرسطو كان بمثابة الفيلسوف الرسمي لإمبراطورية

أوتوقراطية، بينما تعكس فلسفته في شقها السياسي ذلك النظام الاجتماعي الذي خدمه والذي بدوره أسبغ عليه كل النعم¹⁶.

مع أرسطو لم تعد السياسة فكرًا مجردًا، بل أضاف إلى الفكر المجرد التجربة، بمعنى جعلها فكرًا مرتبطًا بمنهاج واقعي تجريبي، يعتمد على الملاحظة، ويستدل بالتجربة التاريخية، وبالظروف السياسية والاجتماعية القائمة، ثم يستعين بكل المعطيات العقلية والواقعية لمعالجة الظواهر السياسية.

ينطلق أرسطو في نظريته السياسية من أن النفس الإنسانية لا تختلف عن النفس الحيوانية بوظائفها السفلى من إحساس وذاكرة، وإنما بقدرتها على إدراك الصور المشتركة بين الأشياء المتجانسة والحقائق الخالدة من خلال الظواهر الطبيعية المتقلّبة. إن خاصية الإنسان في إدراك الصور المشتركة هي التي تمكّنه من معرفة الكليات والوصول إلى الحكمة. من هنا نشأت آراء أرسطو في الخلقية السياسية، وفي هذه النقطة، ينفصل أرسطو عن أستاذه أفلاطون، فهو لا يحتاج إلى عالم من الصور المجردة المتعالية على التجربة الحسيّة.

لم يكن أرسطو يهتم بالمثل العليا والمعايير فوق طور الإنسان. فهو كان يرى أن الإنسان الذي يحيا كإنسان والذي يحقق طبيعته الخاصّة سيكون في الوقت نفسه إنساناً صالحاً وسعيداً. كل مثل أعلى له أساس طبيعي، وكل شيء طبيعي له امتداد مثالي. على الإنسان أن يشبع احتياجاته بطريقة معقولة، مستعملاً ذكاه، إذ أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الإنسان أن يحقق السعادة التي يسعى إليها. أما الحياة الأخلاقية فهي عبارة عن عملية تمعّن واختيار، عملية دراسة العلاقة بين الوسائل والأهداف، وفوق كل شيء عملية توازن. والفضيلة تقوم على أساس الحكم الواضح وضبط النفس وتناسق الشهوة والجمال الفني للوسيلة. ليس الحق في الأخلاق ما يتفق ومثل أعلى معيّن في الخارج، بل أنه ما هو صحيح ومناسب، ما يعمل بأحسن طريقة للحصول على أحسن نتيجة ممكنة.

والحق، من ناحية أخرى، ثمرة المران قبل كل شيء. ونحن لا نتصرّف تصرفاً صحيحاً لأننا من الأفاضل، بل إننا نحصل على الفضيلة لأننا تعودنا أن نتصرّف تصرفات صحيحة. ولكن مثل هذه الفضيلة لا يمكن أن تتوصّل إليه في عزلة عن الآخرين. فالإنسان كائن لا يستطيع أن ينمّي إمكانياته إلا بالمشاركة في حياة الجماعة. وعليه فإن الهدف ليس تنظيم الحياة الفردية، بل إنه تنظيم الحياة الاجتماعية أيضاً، إذ أن الإنسان لا يجد نفسه إلا في المجتمع. وعند أرسطو الحياة الاجتماعية هي حياة المدينة - الدولة في أعلى صور تنظيمها. إنطلاقاً من هذه النظرة، فإن الخطوة الأولى التي يصبح فيها الإنسان إنساناً والتي يحقق فيها نفسه إنما هي الجماعة البدائية، التي لولاها لم حصل الإنسان على حاجياته الأولية.

وبديهي أن الفضيلة تكاد تكون غير ممكنة في هذا المستوى، فهي تتطلب قسطاً معقولاً من خيرات هذه الدنيا فالفقر يجعل الانسان منحطاً. إن الملكية تمنح الانسان ذلك القدر من التحرّر من الحاجة والبخل الذي يكون أساس الخلق اللطيف. لذلك فإنها، أي الملكية، في حاجة إلى قاعدة اقتصادية معيّنة، ألا وهي قاعدة الحياة المتطورة في المدن التي هي أيضاً أساس حياة التعاون الاجتماعي المتكامل، حياة تقدّم الفرص للإنسان. فلإنسان بجملته وظيفية ومن الضروري أن تحدّد، وللإنسان حياة نباتية، وحياة حاسة وحياة عقلية. وليست خاصية الإنسان أن يحيا حياة نباتية، لأنه يشترك بها مع النبات والحيوان، ولا حياة حاسة، لأن الحيوان يشاركه فيها، إنّما خاصته هي الحياة العقلية. ولن يقوم الإنسان بالوظيفة التي أعدّته طبيعته لها إلا إذا عاش عيشة عقلية. وهذه الحياة هي التي تقرضها علينا طبيعتنا الإنسانيّة، وهي التي توصلنا إلى بلوغ الخير المحض الذي هو السعادة.¹⁷

فكيف يستطيع أن يحيا الإنسان هذه السعادة؟

بحسب أرسطو فإننا في مرتبة عليا نرى الحياة النظرية، حياة عقل يفكر ويعقل ذاته. لكن هذه الحياة لا يبلغها إلا نخبة من الناس، لأنها تخضع لشروط خاصّة ليست في متناول الجميع. لكنّ ثمة مرتبة أخرى هي مرتبة الحياة المعتدلة التي يسوسها العقل، والتي يستطيع جميع الناس أن يعيشوها. وكل إنسان في حياته العملية معرّض للإفراط والتفريط، وكل فضيلة هي ذو وسط بين حدّين متقابلين، فالكرم وسط بين التبذير والشح، والشجاعة وسط بين التهور والجبين. والعاقل من تجنّب الطرفين وسار في الطريق الوسطى. هذه هي النقطة الارتكاز في المذهب الخلفي عند أرسطو. وهي تتعلّق بالفضائل الخلقية، وليس بالفضائل العقلية التي لا تفريط فيها، والتي يتحلّى بها الحكيم. والفضائل الخلقية لا تعدّ فضائل إلا إذا أصبحت فينا عادات. وعلى ضوء هذه النظرية يبني أرسطو آراءه السياسية التي تخالف آراء أفلاطون، فالملك والأسرة أمران ضروريان للإنسان. والعائلة كتلة اجتماعية لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونها. والدولة ضرورية لأن الإنسان حيوان اجتماعي لا سعادة له إلا بالحياة الاجتماعية. فعلى الدولة أن تؤمّن له الأملاك الضرورية والنشاط الذي يؤوّل به إلى السعادة. ومن واجبات الدولة أيضاً أن تتّمي في جميع أفرادها الشعور بالتوازن العقلي وإرادة الحصول على العقل السليم في الجسم السليم.¹⁸

من الواضح أن أرسطو سياسي عملي، فهو لا يبحث في المتعالي الذي يقف وراء الوقائع المجربة في الوجود الزمني إلا في القليل النادر. إنّ هذا الوجود في الزمان المحدّد، ليس سوى برهة متناهية من سيرورة دائمة ولامتناهية، ولحظة من لحظات الوعي التاريخي

بالتقدم، حيث تتوالد الفلسفة في دوائر الفكر وفي ثقافة شعب أو أمة قادرة على أن تحقق في ذاتها شمولية التقدم التاريخي حتى هذا الوقت، وتعبّر في ذاتها عن التقدم المتنامي للواقع الإنساني في شموليته.

الفلسفة السياسية ما بعد أفلاطون وأرسطو: إنزلاق أم تأسيس أيديولوجي
لقد نظر كل من أفلاطون وأرسطو في الاجتماع والدولة في عناصرهما والأصلية وفي كل صورهما وفكرا بمفاهيم العدالة والديمقراطية والدولة والعبودية بالبعدين الميتا-سياسي والمعياري في آن، فلم يستهدفا أكثر من تحليل هذه المفاهيم لغرض الكشف عن طبيعتها وفهمها، وجعل العلاقات التي قد تكون قائمة بينها أوضح، ومعرفة الشروط الضرورية لتطبيقها. أما في الجانب المعياري، فإن القضية المركزية بالنسبة إليهما كانت تلك المتعلقة بالأساس الذي يجب أن يقوم عليه تقويم المؤسسات السياسية والاجتماعية والتربوية. إنهما لم يؤسسا لأيدولوجيا بعينها ولكنهما، غاصا في الأيدولوجيا بمنظورهما أي كعلم الأفكار بحسب ترايسي وتزييف للواقع كما عرفها كارل ماركس، ويمكن الإدعاء أنهما عبدا الطريق للفكر المؤدلج، وقد بدا تأثيرهما في كل الفلسفات اللاحقة.

أ- الفلسفة الاسلامية

في كتابه «آراء المدينة الفاضلة» استلهم الفارابي مدينته الفاضلة من أفلاطون لا سيما في تشبيه المدينة بجسم الإنسان فقال «والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها تتميم حياة الحيوان، وعلى حفظها، وكما أنّ البدن أعضاؤه كلها مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى وفيها عضو رئيس وهو القلب...»¹⁹. ورغم هذا الميل الأفلاطوني فإن ربط الفارابي السياسة بالأخلاق دليل واضح على تأثره بأرسطو، الذي ربط بين الأخلاق والسياسة برباط وثيق، إلى حد أنه جعل الهدف الأول من قيام الدولة هدفاً أخلاقياً في المقام الأول. من هنا فقد اتسم فكره السياسي بالربط المحكم بين الأخلاق والسياسة، فالسياسة عنده لا تقوم إلا على أساس أخلاقي، أو بمعنى آخر لا يمكن دراسة الفكر السياسي عنده بمعزل عن الأخلاق.

أما ابن سينا فقد أسس السياسة على الوجود بمعنى أنه جعل السياسة مساوقة لطبيعة الموجودات ليس فقط من حيث كينونتها العادية، بل من حيث وجوب وجودها على المستوى الأخلاقي، فبدأ بسياسة المرء لما حوله ولنفسه لينتهي إلى رؤية شاملة تصدق على الحياة عامة. وكما الفارابي، ربط الشيخ الرئيس في كتابه «السياسة» بين الأخلاق والسياسة وكيفية تطبيق الأفراد لها في حياتهم اليومية، سياسة الرجل نفسه، و سياسة

الرجل دخله وخرجه، و سياسة الرجل أهله، و سياسة الرجل ولده، و سياسته خدمه»²⁰. لقد تكلم عن التفاوت بين الناس في الصفات والرُتب وهذا موقف يعبر عن نزعة واقعية صارمة، فهو يرى أن مساواة الناس لبعضهم البعض سوف يفضي إلى فسادهم وهلاكهم، لذلك جعلهم متفاوتين في الرتب، فمنهم الجاهل والعالم والغني والفقير والسيد والعبد. ففي هذا التنوع والتفاوت بين مراتب أفراد المجتمع تظهر العدالة الإلهية بأبهى صورها حيث يتحوّل المجتمع إلى هرم، تتضافر العناصر كلها من أجل تكوينه فلكل واحد دور يؤديه. وهذا الفهم يرجع إلى فلاسفة اليونان وبشكل خاص أفلاطون ونظريته حول الدولة. كما دمج ابن سينا فلسفته السياسية بخلفيته الطبية، رابطاً بين الحكمة والصحة العامة، حيث اعتبر السياسة الصحيحة جزءاً من علاج المجتمع، مما يجسد رؤية متكاملة للحياة الاجتماعية والسياسية.

فيما اختار ابن باجه الايبتسمولوجي هو نفسه المضمون الإيدولوجي لخطابه. فغير خفي أن المعالجة الباجية لإشكاليات العقل والتعقل في كتابه «تدبير المتوحد» تشي بهذا المضمون الإيدولوجي الثاوي في ثنايا خطابه الفلسفي. أمّا ابن رشد فقد عُني بتحليل واقعه السياسي و الاجتماعي، الأندلسي برؤى فلسفية، تنهل من مقاربة أرسطية، أسسها البرهان، كما تجلّى ذلك بأبهى تجلياته في كتابه «الضروري في السياسة»، الذي تضرغ فيه لتلخيص أقاويل أفلاطون في شأن مفهوم العدالة، كما وُجِدَتْ في كنف محاوره «الجمهورية»، و ما ميّز مشروعه الفكري / السياسي مقارنة بالأيدولوجيا السلطانية و الفقه السياسي، أنه قد عبّر عن رفضه المطلق لكل أنماط الاستبداد في عصره، و هذا راجع إلى انشغاله بمهمة إصلاحية في مجالي العقيدة و السياسة، بمنهج فلسفي و علمي، فكان كتابه في السياسة في إطار مشروعه الإصلاحي السياسي. ففيما أفلاطون قد أُحْبِطَ من فشل تحقيق مشروع المدينة الفاضلة في واقعه، نجد أن ابن رشد يرى ذلك ممكناً في ظل إحداث الشروط الموضوعية المناسبة لها، و من ثمة، فهو ينفي أن يتحوّل عقل الفيلسوف في مجال السياسة إلى طرف مستقيل.

ب - فلسفة العصور الوسطى

كان البحث الرئيس في فلسفة العصور الوسطى هو تماسك المعتقدات الموروثة من الفلسفة الكلاسيكية مع عقائد المسيحية، على الرغم من وجود مساهمات مهمة جداً من المعتقدات اليهودية والإسلامية. فكان من الطبيعي عند محاولة التوفيق بين المعتقدات الدينية المختلفة والفلسفة، البحث عن إجابات لأسئلة مثل طبيعة الله ، والعلاقة بين الإيمان والعقل ، وكذلك

التوفيق بين الإرادة الحرّة وعلم الألوهية المطلق، وموضوعات مثل السببيّة وحدود المعرفة. فقد كان محور الفكر عند «آباء الكنيسة»، و«السكولائيين» على حد سواء، هو العمل على التوفيق بين الفلسفة وتعاليم الكنيسة التي سعت إلى المحافظة على الوحدة العقائدية لجميع المؤمنين، وسعيها العنيد وراء عالم منظم، يتعدّى عالمنا هذا.

لقد كان كبار فلاسفة العصور الوسطى يعيشون باستمرار وسط قلق مخيف جعلهم مصرّين على تحقيق نظام عقلي وأخلاقي في الفكر والدين والفلسفة والمجتمع. فكان لكل من القديس أوغسطين وتوما الأكويني مثلاً نظرتهما المسيحية لمفهوم الدولة وما يتضمنه من مفاهيم العدالة والحق والمساواة.

في كتابه «مدينة الله» أراد القديس أوغسطين حثّ الناس على الدخول إلى مدينة الله فوضع الحب الصحيح معيار المشاركة فيها في مقابل الخطيئة الساكنة في المدينة الأرضية. أي أن يختار الانسان بين طريق الله الذي هو سعادة ومحبة وطريق الشيطان الذي هو شر وخطيئة، فالسعادة الحقيقية التي يسعى إليها الانسان لا يمكن إيجادها خارج مدينة الله التي أسسها المسيح. من هنا نجدّه وقد خصّص الكتب العشرة الأولى لـ «مدينة الله» بالكتابات الدفاعية المسيحية التقليدية، وبالمفاهيم البديلة للسعادة في التراث السياسي الروماني، وفي الفكر اليوناني خاصة الفلسفة الأفلاطونية المحدثة التي على الرغم من تأملها في الطبيعة الحقيقية للإله، فشلت في قبول وساطة المسيح المتجسد بدافع الكبرياء، وتحولت إلى وسطاء زائفين. وانتماء المرء إلى مدينة الله فقط إذا كان يوجّه حبه إلى الله حتى على حساب محبته لنفسه، وينتمي إلى المدينة الأرضية أو مدينة الشيطان فقط إذا ما جعل محبة الله تالية لمحبهته لنفسه²¹

ورغم نظرة الأكويني المتقدّمة في مفهوم الدولة والمواطن والملك، فإنه رأى أنه ما دامت المسائل الاقتصادية والسياسية في آخر الأمر مسائل أخلاقية، فإنّ من العدل أن يوضع الدين في مرتبة أعلى من مرتبة السياسة والصناعة، وأن تخضع الدولة في مسائل الأخلاق لرقابة الكنيسة وإرشادها. وكلما سمت أغراض السلطة ازداد نباهها، ويجب أن يخضع ملوك الأرض، الذين يهدون الناس إلى السعادة الدنيوية، لسلطان البابا الذي يهدي الناس إلى السعادة الأبدية. على أنه يجب أن تبقى الدولة صاحبة السلطان في الشؤون الدنيوية، غير أنّ من حق البابا في هذه الشؤون نفسها أن يتدخل إذا خالف الحكّام قواعد الأخلاق الصالحة أو تسبّبوا في الأضرار بشعوبهم إضراراً كان يُستطاع تجنبه. ما يعني أن السلطتين الدنيوية والدينية هما في قبضة الكنيسة، وبالتالي تحديد رؤية شاملة للعالم والحياة وبناء النظامين الأخلاقي والسياسي على أعمدة الدين لأجل تحقيق الوحدة العقائدية لجميع المؤمنين²².

لقد كان الهدف الأساس الذي سعى إليه السكولائيون المتأخرون هو التوفيق بين لاهوت الكنيسة والعقل الانساني بواسطة مذهب علمي، منطقي، أُجبرت فيه قوى العقل كلها أن تعلن ولاءها للكنيسة على أسس عقلية ومع ذلك، فقد كانت هذه العملية بمثابة الانعكاس الأيدولوجي للثورة الشاملة التي حدثت في موقف الانسان من العالم. لم يعد الانسان يضع العالم جانباً وكأنه سراب ، بل على العكس أصبحت مهمّة الكنيسة أن تردّ هذا العالم إلى الخير لأنها هي نفسها ليست إلا جزءاً من نظام الكون الأزلي الأبدي. لم تهدف إلى إعادة بناء العالم بشكل مثالي، بل عملت على الدفاع عن مجموعة من المعتقدات الجامدة المتعلقة بالانسان، بحالاته بعلاقاته، بواجباته، دفاعاً عقلياً. عندئذ كان لا بدّ توسّل فلسفة أرسطو لاتمام عملية بناء العقيدة هذه.

ج - عصر الأنوار : ثلاثية الفلسفة والأيدولوجيا والعلم

لقد أحدثت الانجازات العلمية ثورة فكرية في المجتمع الإنساني عمومًا فقد نقضت الموروثات الميتافيزيقة والدينية التي لم يكن من الممكن تجاوزها إلا مع التحوّل المنهجي الذي حدث في الفكر الغربي، وهو تحوّل يدخل في سياق ثورة معرفية أساسية تتمثّل في النظرة الجديدة إلى العالم المادي وقوانين حركته، فعكست تغييراً جذرياً في موقف الإنسان من الطبيعة، فهو لم يعد متفرّجاً لا حول ولا قوّة له، يفلسف ذلك الذي لا يستطيع تفسيره، ولم يعد يتحرّك في عالم لا يقع تحت سيطرته إلا إلى حد ضئيل. لقد قفز الإنسان فوق حدود سيطرته وراح يعمل انطلاقاً من ميثاق العقل العلمي، كي ينطلق بحريّة للسيطرة على الكون. وأقام التصرّو الجديد للكون بوصفه محكوماً بالقوانين الطبيعية، وتجرّد تماماً من الرمزية الأسطورية والدينية التي حملت الناس في ما مضى إلى البحث عن الكمال الإلهي والقصد الإلهي.

من أبرز خصائص عصر الأنوار إعادة اكتشاف الفرد وصحة الذاتية، مما كان له أثر ملحوظ على الفلسفة، وأدّى إلى ظهور شعور جديد بالمسؤولية الفردية كما أدّى إلى صياغة معايير إنسانية جديدة. لقد اقترنت بداية التساؤل والبحث، عصر تحطيم العقائد الجامدة والشك العميق، بمهمة إعادة اكتشاف العالم والقوانين التي تسيّره. فكانت ثورة كوبرنيكوس Copernicus الفلكية التي أثبت فيها أن الأرض ليست مركز الكون، ومن بعده غاليليه Galilei الذي أتى بعد مائة عام ليطوّر نظرية سلفه ويؤكد لا مركزية الأرض ودورانها حول الشمس، ثم ظهرت مبادئ نيوتن عام 1687. غيرت هذه

الاكتشافات النظرية إلى الكون وقدّمت الشروح العلمية الفيزيائية للنظام الطبيعي. وثار فرانسيس بيكون Francis Bacon (1516 – 1626) ضدّ المدرسية أو الاسكولائية وثار ضد تراث أفلاطون وأرسطو بأسره، ودعى إلى معرفة جديدة بالطبيعة تمنح الانسان سلطة فعلية عليها، فأسس للمعرفة العلمية المبنية فقط على الاستقراء والمراقبة الدقيقة للأحداث في الطبيعة. أما جيوفاني بيكو Giovanni Pico della Mirandola (1463–1494) رأى أن الانسان هو صانع تاريخه مرحلة مرحلة، ذلك التاريخ الذي منه تتكوّن معرفة الانسان، فالتاريخ عمل فني صنعه الانسان.

لقد أراد فلاسفة التنوير دراسة العالم الملموس وفحص كل شيء في ضوء العقل. الكلمة المفتاح لهؤلاء الفلاسفة هي «الفهم»، الذي يشير إلى قدرة الإنسان على المعرفة. هذه العقلانية قادتهم إلى تطوير التفكير العلماني، وأغلبهم ريبوبيون، أي يؤمنون بوجود إله خارج كل دين وينتقدون الخرافات والتعصب الديني.

من هنا اهتمت الفلسفة التنويرية بجميع مجالات المعرفة: فهي، أي المعرفة، موسوعية، همها موضوعان رئيسيان للدراسة هما العالم والإنسان. ولفهم الأول، لم يعد الأمر يتعلق بتطوير مقولات كلية تفسّر المرئي وغير المرئي، بل أصبح من الضروري، بطريقة أكثر تواضعاً، الملاحظة والقياس والوصف والتصنيف، وهذا يمثل انتصار العلوم التجريبية. هنا تطرح الأيدولوجيا عقيدة تقدّم نفسها كتفسير لحقائق العالم، البشرية وربما الطبيعية، وكتفسير لمعناها بالنسبة إلى الإنسان. ويستند هذا على المبادئ المذكورة على أنها مطلقة. ولذلك فهي تقدّم نفسها بشكل طبيعي تماماً، إما كبديل للعلم والفلسفة، أو كالمسيطر والمسيطر على كليهما. ولذلك فهي تشمل استخداماً معيناً للأساطير من ناحية، والتجارب الصوفية من ناحية أخرى.

في إنجلترا نجد أسلاف حركة التنوير، الفيلسوف جون لوك John Locke والفيزيائي الإنجليزي إسحاق نيوتن Issac Newton اعتقد الأول في أن الإنسان يتقدم بالتجربة، أمّا الثاني، وخلافاً لأسلافه، لا يبني دراساته على الحدس أو التجريد، بل على الملاحظة والقياس. هكذا يسلط الضوء على قانون الجاذبية العالمي. أما في فرنسا، فقد ازدهرت أفكار التنوير منذ بداية القرن الثامن عشر. فنجد مونتسكيو الذي انتقد الحكم المطلق، وأكد أن الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية هو وحده الذي يضمن

الحرية في الدولة. فيما أدان فولتير التعصب والممارسات القضائية المسيئة. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر جدد جان جاك روسو الفكر التنويري، فتخيّل مدينة مثالية، وطوّر فكرة الديمقراطية والعقد بين الحاكم وشعبه: العقد الاجتماعي. أمّا ديدرو فكان دوره الرئيسي في تنظيم الموسوعة وتصميمها.

رغم عدم اتفاق الفلاسفة دائماً على مفهوم واحد كلياني، فإن لديهم حس مشترك. إنهم المدافعون عن الحريات: الحرية الفردية، وحرية الفكر والتعبير، وأيضاً الحرية الاقتصادية. كما أنهم يعارضون تعسف السلطة. انتشرت هذه الأفكار في جميع أنحاء أوروبا في القرن الثامن عشر. وبالتالي لم تجدد فلسفة التنوير الأفكار فحسب، بل أبدعت أيضاً في شكل الكتابات. ولا تزال الكتابات الفلسفية تتخذ شكل الرسائل والحوارات، ولكنها تستثمر أيضاً في أشكال أدبية أخرى مثل القصائد والروايات والحكايات الفلسفية والمسرح وحتى الأوبرا.

إن ما نسميه «فلسفة التنوير» له اسم تقني: «النقد» الذي كان مفكره الرئيسي، إيمانويل كانط. في فرنسا، لم يكن هناك «فلاسفة التنوير» بالمعنى الدقيق للكلمة، بل كان هناك أيديولوجيون (روسو، مونتسكيو)، وموسوعيون (ديدرو، دالمبرت، إلخ) ومؤلفون منشورات (فولتير، دولباخ، ...). وبصرف النظر عن كانط، كل هذا لم يذهب في مهب الريح. فالنقد جزء من سلسلة الفكر الحديث: الإنسانية Humanisme في القرن السادس عشر (مونتين، لا بونتي، بيك دي لا ميراندولا، مارسيل فيتشينو، إلخ)، ثم العقلانية Rationalisme في القرن السابع عشر (جاليليو، لايبنتز، ديكارت، باسكال، سبينوزا، هوبز، نيوتن، ...)، ثم نقد القرن الثامن عشر (كانط، هيوم، لوك، ستيوارت ميل، ...)، ثم وضعية Empirisme القرن التاسع عشر (كونت، ويليام جيمس، ماركس، ...)، ... لنصل وفي نهاية المطاف، إلى عدمية Nihilisme القرن العشرين (كيركجارد، هوسرل، فيتجنشتاين، راسل، سارتر، فوكو، وغيرهم).

لقد انتشرت أفكار التنوير بشكل رئيسي بين نخبة البرجوازية والنبلاء، في الأكاديميات أو الصالونات الاجتماعية أو المحافل الماسونية. وإذا لم يكن فلاسفة عصر التنوير هم المبادرون للثورة الفرنسية، فإن أفكارهم موجودة في كل مكان في الخطب والمناظرات والنصوص القانونية للثورة، وبهذه الوسيلة، تنتشر اليوم في جزء كبير من الكوكب.

إذا يبدو جلياً أنه لا بد أن يكون العلم نشاطاً مجتمعياً شاملاً يشمل أنشطة الإنسان في كل مجالات حياته، وقيام منظومة معرفية، لإنتاج مفاهيم وفق الواقع الملموس، وسدّ الفجوة العلمية والتقنية وما دام الاحتكام إلى العقل هو الفيصل الأخير في كل الشؤون المعرفية، فإنّ استقلالية العقل، من الوجهة الاستيمولوجية، تعدّ تامة ومطلقة. فأين الأيدولوجيا من كل هذا؟.

إذا كان العلم مكرّساً لاكتشاف قوانين الطبيعة، فيجب علينا بالضرورة أن نعتبر أنه ينفلت من كل أيدولوجيا. وهذه الأخيرة هي في الواقع علم الأفكار القادمة من الدماغ البشري، وهو ينتج، عندما لا ينشأ عن اعتقاد خالص، عن تأثير الفلسفة والمذاهب السياسية أو الدينية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية. الكثير من المكونات التي تختلف بشكل كبير حسب المكان والزمان. ومع ذلك، فإن العلوم الطبيعية هي، في جوهرها، عالمية. ولذلك هناك اختلاف جوهري بين العلم والأيدولوجية. والدليل على ذلك هو نضال العديد من العلماء لرفض اكتشافات تقلب أيدولوجية عصرهم. اصطدم كوبرنيكوس بمركزية الشمس، وجيوردانو برونو بأفكاره حول الكون اللامتناهي والمتعدّد، وبالطبع غاليليه، وجهاً لوجه مع معتقدات القرنين السادس عشر والسابع عشر.

إذا كان العلم عالمي يتعارض مع الأيدولوجيات المحليّة والثقافية والمؤقتة، فكيف يمكن أن يجد نفسه حاملاً للأيدولوجيات؟
تكمّن الإجابة في رؤية أقل مثالية للعلم، وقبل كل شيء، من خلال تطوّره الأخير نحو ما نسميه بالعلم التكنولوجي. في الواقع، على الرغم من أنه لم يكن هناك المزيد من الباحثين على كوكبنا من قبل ولم يكن لديهم معاً هذا القدر من الموارد المالية تحت تصرفهم، فإننا نرى أن جزءاً متزايداً من عملهم يكرّس بشكل أكبر لتقدم المعرفة النزيهة. يبدو أن العلم يتأكل تدريجياً بسبب التكنولوجيا، أي من خلال تطبيق العلم على الاحتياجات المباشرة للإنسان. وهكذا، ينحرف العلم عن هدفه الأولي، ويصبح أكثر عرضة لإيدولوجيات المجتمع وأيدولوجيات رعايته: الحكومات أو الجيوش أو الصناعيين...

هذه المراحل المتعاقبة للفكر الحديث نفسه بُنيت على الفكرة المركزية للتقدم. وبما أن الحداثة أرادت رفض كل اللاهوت، وفي الوقت نفسه، كل الميتافيزيقا، فقد شعر الإنسان بالتحرّر، أو على الأقل، التحرّر من كل ما يتجاوزه سواء كان يسمى الله، أو

الطبيعة، أو الكون، ... لا يهم. لقد وضع الإنسان نفسه كمركز وهدف وقمة الكون بأكمله. لم تعد المشكلة بالنسبة إليه أن يجد مكانه الصحيح في نظام الواقع كما هو، وكما هو أي الانسان، محكومًا بمبدأ متعالٍ أو جوهري يمنحه معنى وقيمة. كانت المشكلة هي إخلاء الواقع، وإخراج النفس منه، والعيش «فوق الأرض»، وبناء مجتمع إنساني «مثالي»، تحرّر أخيرًا من هذا الواقع المرهق. عند مفترق الطرق هذا، فتح الموت المفترض للأنتولوجيا الأبواب على مصراعها أمام الأيدولوجيا. بعد أن تم إخلاء كل الميتافيزيقا إلى مرتبة «الثرثرة العقيمة». أصبح الإنسان أخيرًا قادرًا على التفكير في نفسه حصراً، دون عبء الواقع ومنطقه الكوني وقيوده الحيوية. شعر الإنسان بأنه «حر» و«متحرّر» من كل شيء: الأديان (بفضل الإلحاد)، والملوك (بفضل الديمقراطية)، وقوانين الطبيعة (بفضل التكنولوجيا). وقد ركز الأيدولوجيون - الذين طردوا الميتافيزيقيين - بشكل محموم على مسألة الحرية هذه.

بما أن أي طاعة لإله أو ملك أصبحت غير قابلة للتصوّر، فإن الواقع الإنساني القاسي سرعان ما تسبب في رد فعل عنيف رهيب. لقد صاغ القرن التاسع عشر ثلاث أيدولوجيات لا تزال مركزية حتى يومنا هذا من أجل الإجابة، بأضعف ما يمكن، على هذه الأسئلة التي يمكن اعتبارها حاسمة...

البرجوازية («الحق»): على الدولة أن توفر أكبر قدر ممكن من الرخاء، ثم يتم توزيعها بشكل عادل وفقاً لمزايا عمل كل شخص؛ وتحت هذا الشعار نجد المحافظة، والسيادة، والحمائية، والقومية، وما إلى ذلك.

الاشتراكية («اليسار»): على الدولة أن تؤمّن أكبر قدر من المساواة في صراع محموم ضد كل الخصوصيات، وضد كل الفردية، وضد كل التمايز (نحن عادة، ولكن بشكل خاطئ، نميز بين الاشتراكيات النازية والفاشية والشيوعية واليسارية). والثورية والشعبوية: هذه كلها وجوه للشمولية الخبيثة نفسها إلى حد ما.

الليبرالية: الليبرالية تحارب الدولة والدولتية، البرجوازية والاجتماعية، بكل أشكالها؛ لقد أدت إلى ظهور العديد من المدارس بدءاً من النقاوية اللاسلطوية لبرودون، إلى النقاوية الحرة لأوين، بما في ذلك التحررية لديفيد فريدمان والليبرالية الريادية لفريدريك فون هايك.

من بين هذه الأيدولوجيات الثلاث، تعتبر الإيدولوجيتان الأوليان ضارّتين بالمعنى البسيط، حيث تميل كل منهما إلى إطالة أمد المؤسسات المحترزة لحدّثة ميّنة بالفعل. وقد تبدو الليبرالية وحدها هي القادرة على التشكيك في كل هذه المؤسسات (بدءاً من

اليعاقبة والدولة الوطنية) وإطلاق النموذج الجديد الذي سيتعين عليه أن يحلّ محلّ النموذج السابق: النموذج المتأخر لعصر التنوير والعصر الحديث، النموذج المتأخر للصناعة الماليّة، والقوميّة الجغرافيّة، والدولانيّة الاجتماعيّة.

د_ الفلسفة والأيدولوجيا في المنظور الحداثوي 1- جورج لوكاش (1885-1971)

في كتابه «تحطيم العقل»، وهو عمله الرئيسي في النقد الأيدولوجي، يقدم جورج لوكاش تأويلاً اجتماعياً وتاريخياً واسعاً للفكر الغربي الحديث. بنى آراءه على أساس جيد، ويمكن منهجه التأويلي أن يكون مثمراً في فهم العلاقات المعقدة بين التاريخ والأيدولوجيا والفلسفة. فقد سعى لوكاش في نقد الأيدولوجي إلى تبيان الانعكاسات السلبية لبعض الاختيارات الاجتماعيّة التاريخيّة في داخل الخطاب الأيدولوجي. ظهر هذا الكتاب بعد الحرب العالميّة الثانيّة، ويمكن اعتباره وثيقة نظرية تاريخية وثقت الصراع الفكري المحتدم بين اليسار واليمين اللاعقلاني، وهي ثنائيّة فكرية حكمت سياسياً وأيدولوجياً مسار الفكر العالمي في الجزء الأوسع من القرن العشرين. كما هو أيضاً تحقيق تاريخي واسع في الأيدولوجية الألمانيّة، يهدف إلى إظهار الآثار الضارة للنهج الألماني الخاص على مستوى التأمّلات الفلسفيّة. يشير لوكاش بشكل خاص إلى واحدة من الأطروحات المفضّلة للثورة المحافظة، والتي تؤكد تفوق الفكر الألماني للتطور التاريخي مقارنة بالتشوهات والشذوذات في الديمقراطيات الغربيّة. فبدأ تجربة المسار الألماني على وجه التحديد، من خلال اقتراح إظهار العلاقة الوثيقة بين رفض أفكار الديمقراطية أو الاشتراكية وصعود قوة «اللاعقلانية» على أرض النظريات الفلسفيّة²³.

لقد هدف لوكاش إلى التمييز الدقيق بين المستويات المختلفة للتعبير الأيدولوجي، من خلال الفصل بين التطبيق العملي السياسي والتطبيق العملي الفلسفي. يتميّز الأوّل بتأثيره المباشر على آنية الحياة الاجتماعيّة، والثاني يقع على مستوى أعلى بكثير من الأسئلة التي تهتمّ بالبشرية في عالميتها. ولنأخذ شوبنهاور مثلاً، فإن آراء الفيلسوف المناهضة للجمهورية هي بالتأكيد انعكاس لموقفه السياسي، ولكن عند البحث في الجانب الأيدولوجي الأساسيّ لفكره على مستوى مفهومه الفلسفي، نجد أنه مسألة الكشف في ميتافيزيقا الإرادة عن استجابة الفيلسوف المتسامية للأسئلة التي يطرحها تاريخ عصره.

2 - مارتن هايديجر (1886-1976)

وإذا أخذنا كتابات هايديجر كمثال آخر، وحاولنا تحديد Grunderlebnis (التجربة المؤسّسة) للمفكر باعتبارها النواة الشجرية لفكره من خلال اختيار نصوص معيّنة حيث يسمح الفيلسوف للحركة الداخلية بالظهور بشكل أكثر وضوحًا من أي مكان آخر، الفكر هنا مبني على تجربة تاريخية واضحة المعالم. إنها مسألة رؤية كيف يستوعب المفكر هذه التجربة ويستبطنها، من خلال نقلها إلى عالمه المفاهيمي، والإنكار الذي يصاحبها، والتسامي الأنطولوجي الذي يحدث من خلال تحويل هذه العناصر إلى خياله الفلسفي. يتشكل الفكر الفلسفي كرحلة، نقطة انطلاقها هي Grunderlebnis ونقطة وصول النظريات الفلسفية ذات الطبيعة التأملية.

ففي المحاضرات التي ألقاها هايديجر قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، احتفل بالمهمة الخاصة للشعب الألماني في تاريخ العالم وتساءل عن طريق إن «الديمقراطيات الغربية» من خلال إدانتها للحتمية الوجودية للنزعة الأميركية والشيوعية، تقدم تأكيدًا للأطروحة، القائلة بأن الاشتراكية الوطنية هي نتيجة نهج خاص للفلسفة الألمانية، والتي تتميز على وجه التحديد بدحض المسار الديمقراطي. من هنا تبدو مواقف هايدجر بمثابة النهاية «النهائية» لتقليد ألماني طويل، افتتحت الرومانسية وواصله نيتشه وخلفاؤه، والذي رفض «الحداثة» باسم الفضائل الراسخة في الماضي، والتي سيكون الألمان هم الأوصياء عليها بحكم تفوقهم. وبالتالي تم تصنيف «الديونيزي» عند نيتشه أو اليونان ما قبل السقراطية عند هايدجر كمصادر لتجديد الروح الألمانية، نقيض «الأفكار الحديثة» والميتافيزيقا الغربية.

في رسالة إلى إليزابيث بلوخمان بتاريخ 12 سبتمبر 1929، أطلق هايدجر العنان لنفوره من عالم «الانشغال» و«التنظيم»، الذي يوصف بأنه «دائمة»، وهو أمر ضروري له. لتطبيق التأمل وحالة نعمة صلاة الليل (الكاملة، المكتملة) كترياق لرهبان دير بورون. يستحضر هايدجر جدلية فريدة من نوعها لليل والنهار، النهاري والليلي، لتمجيد «القوة الأسطورية والميتافيزيقية الأصلية للليل»، والتي تغرق في العدم، عالم النهار حيث الحياة اليومية المزدحمة. تعتبر هذه الرسالة شهادة قيّمة على الخلفية الاجتماعية التاريخية للفكر الهايدجري. هنا نجد ملخصًا للعديد من أفكاره: التنصل من «المعاصرين»، مدفوعًا بالدوار «الدوامي» للانشغال، وظهور العدم (الليل) الذي يقضي على عالم الشر، ويتخلى عن توجيه نور الخير، وعبادة اللحظة حيث يحدث التحول، الدعوة إلى طفرة تاريخية من شأنها أن تعيّر حالة الإنسان²⁴.

يمكننا أن نرى بوضوح أن عامل هذا التحوّل ليس بالنسبة إلى هيدجر تغييراً اجتماعياً تاريخياً، أو تحوّلًا في العلاقات الاجتماعية، بل تجربة ذات طبيعة شبه صوفية. نتذكر أيضًا أنه في الوجود والزمن Sein und Zeit، الشخصية الوصية لعالم الزيف، يمد الـ هذا (das Man) سيطرة المجهول باعتباره تحديداً أنطولوجياً للحالة الإنسانية. يدحض الفيلسوف صراحة أي محاولة للنسبية الاجتماعية التاريخية للـ هذا، من خلال الطعن الصريح في فكرة «التقدم»، وبشكل أكثر دقة إمكانية حدوث تجاوز اجتماعي تاريخي لعالم الانحلال والزيف. على العكس من ذلك، فهو يؤكد طابعها الوجودي البارز، أي أنها جوهرية للوجود الإنساني. وفي هذا التسامي الوجودي بالتحديد للسلبية الاجتماعية يكمن الجانب الأيدولوجي المحدد لفكر هايدجر.

ومع ذلك، يمكننا أن نتساءل عما إذا كان تصنيف لوكاش للفلسفة على أنها «أيدولوجية خالصة» (أيدولوجية الملكة) لا يحجب ما هو، في الأنظمة الفلسفية الكبرى، نتاج النشاط المعرفي البحث، نتيجة التأمل، دون اتصال واضح به أي غرض عملي، على أن يكون مفهومًا أن الأيدولوجية لها طابع عملي بارز، يتمثل في التدخل في صراعات العصر. فما يلفت النظر في علم المنطق لهيغل مثلا، هو في الواقع نوع من الموضوعية المفرطة لتسلسلاتها التأملية: إنها جدول الفئات التي تشكل العالم، دون أن يكون من الممكن اكتشاف أي انحرافات أيدولوجية. وهل مراعاة البعد التأملي المحض للنشاط الفلسفي يتعارض مع تعريف الفلسفة بأنها «أيدولوجية»؟

في مقال نشر عام 1959 في أرشيف الفلسفة، احتج بيير أوبينك على استيعاب الفلسفة في الأيدولوجيا، مجادلًا بأن المبدأ الأول هو البحث عن الحقيقة، في حين يرتبط الثاني بفئات «المصلحة» - فالأيدولوجية تعبر عن مصالح نظام ما، أو طبقة ما، أو «تشويه» وضع تاريخي معين من خلال تعميمه. احتفظ أوبينك من ماركس بشكل خاص بالدلالات التحقيرية لمفهوم الأيدولوجيا. «إن كلمة الأيدولوجيا - كما كتبت - ينطوي، فيما يتعلق بالفلسفة، على هذا الشك الأساسي بأنها ليست كما تدعي. الفلسفة تريد أن تكون مستقلة، لكن الأيدولوجيا تتضمن مكملًا يعكس تبعيتها: الفيلسوف يعتقد أنه فيلسوف، ويتعلم أنه منظر مثل هذا النظام أو مثل هذه الطبقة في «الفلسفة والأيدولوجية»، تحدث بيير أوبينك عن «تدهور الفكرة إلى أيدولوجية» كان اهتمامه هو رؤية إنشاء نوع من شرطة الأفكار، «مدرسة الشك» المسؤولة عن استكشاف «المصالح» الحزبية للغاية خارج الفلسفات²⁵.

ماذا يمكن أن يكون ردّ لوكاش على الاعتراضات من هذا النوع؟ لصياغته، يجب أن نأخذ في الاعتبار الدور الرئيسي الذي لعبته في تفكيره الأخير مفاهيم الجنس البشري (Men-schengattung) وخصوصية الجنس البشري (Gattungsmässigkeit). ويستمر في طرح فكرة أن الجنس البشري حقيقة ملموسة لا تقل في علم الجمال وفي علم الوجود عن الفرد أو الطبقة أو الأمة. إنه يكتنز مجموعة من الصفات التي تهم النوع البشري في عالميته. إن صيغة هوراس: «Tua causa agitur» تحريض قضيتك» تعمل على تحديد نطاق هذه الصفات التي تشكل التراث المثري دائماً للجنس البشري. الأيدولوجيات، بالمعنى الضيق للمصطلح، هي أدوات صاغها الخيال الاجتماعي لحل الصراعات ذات الطبيعة المجزأة أو الفردية أو الطبقية أو الوطنية. وكما قال سارتر، في أسئلة المنهج، إنها نتاج «رجال قرييين»²⁶. إن الأسئلة الوجودية التي تؤثر في الإنسان في عالميته، حسب لوكاش، تجد تعبيرها في الفلسفة العظيمة والفن العظيم: إن مهمة الفلسفة المهمة هي إثارة أسئلة تتعلق بمصير الإنسان في عالميته، في مرحلة معيّنة من التطور التاريخي.

لذلك يولي الفيلسوف الماركسي اهتماماً كبيراً في عمله للسياق الاجتماعي التاريخي للبيئات التأملية للفلسفة. ولا يوجد في نظره فيلسوف لا يهتم في جوهر فكره بالمسائل التاريخية الكبرى في عصره. وبينما يدافع بقوة عن نفسه من الشك بأنه قد يعتبر الفلاسفة «ناشطين سياسيين»، فهو يرى أنّ الحركة الداخلية لفكرهم لا يمكن فهمها خارج أسئلة التاريخ: فنظرياتهم التأملية تكثّف الإجابات على الأسئلة التي تثيرها الأزمات والتشنجات.

هـ- هل الأيدولوجيا فلسفة زائفة!

يرتكز نهج الأيدولوجيا على تعليمات بسيطة للغاية: وضع قوة العقل في خدمة التاريخ، وإدخال مفهوم الالتزام ونتيجته الطبيعية، أي الحكم، في تجربة المبادئ. باختصار، «فلسف بشكل مفيد». بل استعمل الفلسفة للعمل على انعطافات الواقع من أجل تدجين مجيئه، لرفع الأحداث الجارية إلى مستوى التوقعات. من هنا لا ينبغي البحث عن الطابع الأيدولوجي للفلسفة على مستوى الممارسة السياسية للمفكر بقدر ما يجب البحث عنه على مستوى مفهومه الفلسفي على وجه التحديد. إن عصر الأيدولوجيات يحدّد بدقة هذا العالم الفكري الذي بني على مفترق طرق الفلسفة بين التفكير والثيوديسيا Theodicy العلمانية، باختصار، في حركة غير مسبوقة

يمكن ملاحظتها حدث هذا حرفياً من خلال تفرد حقبة تبدأ بين الموسوعات والثورة الفرنسية، وتناوب كل من فولتير (1778)، وروسو (1778)، ودالمبرت (1783)، وديدرو (1784) على وضع أسس فلسفية لمفهوم الدولة الحديثة والانزلاق الفوضوي للتاريخ بعد عام 1789. وبشكل أكثر جوهرية، تشكل نمط من التفكير أحدث من خلاله مقطعاً حاسماً لفلسفة القرن العشرين من ميتافيزيقا الإنسانية إلى تحقيقها الاجتماعي والسياسي. إن الأيدولوجية شمولية، فهي لا تستهدف الظواهر المقيّدة والفكر الجزئي، بل تستهدف التجربة الإنسانية العالمية. فهي تقترح مبادئ عالمية تمنح قبلياً معنى مباشراً لكل جزء من التجربة. ولكن هذه المبادئ تحتوي، علناً أو سراً، على حوافز أو أوامر زجرية للعمل، أو على الأقل تقييمات أخلاقية. في حين أن الفلسفة تتيح دائماً تمييز اللحظة التفسيرية الخاصة بها من اللحظة التي يرسم فيها الفرد قواعد السلوك نيابة عنه. وعلى هذا النحو، فإنّ الفلسفة «ترك الأشياء كما هي». أمّا الأيدولوجيا، على العكس من ذلك، فإنها تقدم «أفكارها»، صراحة أو ضمناً، باعتبارها معايير ومبادئ يجب الالتزام بها.

ومن هذا المنظور، يمكن في كثير من الأحيان تفسير الأيدولوجيا على أنها تعبر بطريقة مقنّعة إلى حد ما، متخفية في صورة معرفة إيجابية أو متكررة في شكل انعكاس فلسفي، عن مصالح مجموعة أو فرد. فمنذ ماركس، تم التأكيد على هذه السمة الأخيرة في كثير من الأحيان باعتبارها تعريفاً للأيدولوجيا؛ ومع ذلك، يبدو هذا المنظور ثانوياً ومشتقاً.

من هنا جاء الالتباس الرئيس: التفكير الأيدولوجي لا يفكر بالمفاهيم بل بالأساطير والصور. بدلاً من تحديد العناصر المجردة لبناء نماذج مفاهيمية للظواهر، فإنها، أي الأيدولوجيا، تختار أجزاء ملموسة من الخبرة التي تجمعها في لوحات وقصص ذات معنى، قادرة على تحريك الخيال والعواطف بشكل مباشر. إنها تعطي تفسيراً للظواهر الفهم البديهي لهذه التمثيلات التصويرية.

والسمة الثانية، المرتبطة بالسابقة، هي أن الأيدولوجيا تظهر كإنتاج عضوي، على عكس العلم الذي هو العمل. وهذا لا يعني أن التعبير عن التشكيلات الأيدولوجية لا يمكن أن يكون نتيجة لتحليل داخلي ثانوي يمكن أن يشكّلها في أجهزة معقدة. ولكن يمكننا بالتأكيد أن نقول إن الأيدولوجيا لا تنجح إلى الحد الذي لا تدعو فيه إلى التشكيك في العلاقة بين الشكل والمضمون الناتج عن تجربة متجدّدة. إنها تمنح نفسها هذه العلاقة مرة واحدة وإلى الأبد، وربما لا تغير إلا الشكل الذي تعزله. فبينما يدعي وصف التجربة وحكمها، فإنها تخرج عن نطاق سيطرته بشكل أساسي.

خاتمة

أردنا أن نظهر العلاقة بين الأيدولوجيا والفلسفة باعتبارها علاقة مثيرة للارتباك. ولكننا في المقابل نود أن ندرك أن العنصر الأيدولوجي شرط ضروري لأي عمل فكري. الفلسفة، في حد ذاتها، ليست مذهب عمل. وبمجرد أن نستخلص العواقب العملية من المعارف التي تقدمها لنا، فلن نتمكن من تجنب مستوى الأيدولوجيا. إن المفاهيم والتفسيرات الفلسفية لم تؤثر في مصير البشر إلا من خلال تحولها، للأفضل وللأسوأ، إلى مذاهب إيدولوجية. لفك المعنى الأيدولوجي لفكر فلسفي ما، لا بد من تجاوز نظرياته التأملية، وإيجاد بؤرة خفية، تقع في الأعماق، في منطقة يتحقق فيها الارتباط بالواقع الاجتماعي التاريخي. إنها محاولة للكشف في «العالم المعيش» للمفكر، المكثف من تجاربه الاجتماعية التاريخية، عن بذور بنائه النظري.

قائمة المصادر والمراجع العربية

- 1- أرسطو، السياسية، ترجمة أحمد لطفي السيد، منشورات الجمل، بيروت، 2009، ص 100.
- 2- أفلاطون، المحاورات الكاملة: المجلد الأول، الجمهورية، الكتاب الثامن، ترجمة شوقي داود تراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص، 174.
- 3- البعلبكي منير، البعلبكي رمزي، المورد الحديث، ط. 1، بيروت، دار العلم للملايين، ص 567.
- 4- البيطار نديم، الأيدولوجية الإنقلابية، لاطبعة، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، 2000، ص، 8، 63، 64.
- 5- صليبا (جميل)، المعجم الفلسفي، لا طبعة، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، الجزء الثاني - 160.
- 6- غيث جيروم، أفلاطون، منشورات الجامعة اللبنانية، 1982، ص 165.
- 7- الفاخوري (حنّا)، الجّر (خليل)، تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب، الطبعة الأولى، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2002، ص. 95، 515، 608.
- 8- كسط عمانويل، نقد العقل المحض، ترجمة وتقديم موسى وهبة، الطبعة الأولى، بيروت: مشروع مطاع صفدي للينايع - II، مركز الإنماء القومي، 1988، ص. 33.
- 9- كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص، 25-53، 163-166.
- 10- لوكاش جورج، التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة حنّا الشاعر، الطبعة الأولى، بيروت: دار الأندلس، 1999 ص. 79-81.
- 11- لوكاش جورج، تحطيم العقل» الظاهرة الدولية، تاريخ ألمانيا، شيلنغ 7»، ج 1، ترجمة

- إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 17، 33 - 50.
- 12- لويس جون ، مدخل إلى الفلسفة. ترجمة أنور عبد الملك، الطبعة الرابعة، بيروت: دار الحقيقة، 1983، ، ص.35.
- 13- مجموعة مؤلفين، الفلسفة العربية المعاصرة «مواقف ودراسات»، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1988، ص. 278، 279.
- 14- ناصيف نصّار، الفلسفة في معركة الأيدولوجية، ، الطبعة الأولى، بيروت: دار الطليعة، 1980، ص. 248 - 249.

مصادر ومراجع باللغة الأجنبية

- 1- Jean.-Paul. Sartre, *Questions de méthode*, Paris, Gallimard, Idées, 1960, p. 14.
- 2- Martin Heidegger, *Correspondance d'Elisabeth Blochmann* (1918-1969), éditée par Joachim W. Storck, Marbach am Neckar, Deutsche Schillergesellschaft, Marbacher Bücher, 1989, pp. 31-33.
- 3- Pierre Aubenque, *Philosophie et idéologie*, Archives de Philosophie, Tome XII, Cahier IV, Octobre-Décembre 1959, p. 486.

Endnotes

- 1- عمانويل كانط، «نقد العقل المحض»، ص. 33.
- 2- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص 160.
- 3- منير البعلبكي، رمزي البعلبكي، المورد الحديث، قاموس إنكليزي عربي، ط. 1، بيروت، دار العلم للملايين، ص 567.
- 4 20 يوليو/تموز 1745 وتوفي في
- 9 مارس 1836 هو أرسطراطي تنويري فرنسي وفيلسوف صاغ مصطلح «إيدولوجيا» <https://ar.wikipedia.org/wiki>
- 5- عبد الكريم الجباعي <https://arab-ency.com.sy/ency/details/>
- 6 .278
- 7 .279
- 8 .279
- 9 .280
- 10 .8
- 11 .63
- 12 .64
- 13 .81 -79
- 14 .249 -248
- 15 .1994، ص، 174.
- 16 .165
- 17 .35
- 18 .95
- 19 2009، ص 100.
- 20 .515
- 21 .608
- 22 .53 -25
- 23 .163-166
- 24 - 12ص، 17، 33 -50.
- 25 M. Heidegger, Correspondance d'Elisabeth Blochmann (1918-1969), 1989, pp. 31-33

تأثير التكنولوجيا الرقمية على العملية الديمقراطية دراسة في دور وسائل التواصل الاجتماعي لتشكيل الرأي العام والانتخابات

داليدا بيطار

المقدمة

يشهد العالم اليوم تحولات متسارعة في طبيعة التفاعل بين المجتمعات والأنظمة السياسية، حيث لم تعد العمليات السياسية محصورة في الأطر التقليدية، بل باتت تتأثر بعوامل اجتماعية وتكنولوجية مستجدة. ومع صعود التقنيات الرقمية، ولا سيما وسائل التواصل الاجتماعي، تغيرت آليات تشكيل الرأي العام، وظهرت أنماط جديدة من المشاركة السياسية لم تكن مألوفة في العقود السابقة. وفي هذا السياق، يُصبح من الضروري تحليل مدى تأثير هذه التحولات على الأنظمة السياسية والعملية الديمقراطية، خصوصاً مع تزايد الاعتماد على الأدوات الرقمية في الحملات الانتخابية، واتساع دور البيانات الضخمة والخوارزميات في التوجيه السياسي.

إن التطور التكنولوجي، خصوصاً مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، أحدث تغييرات جذرية في عملية صنع القرار السياسي وفي آليات المشاركة الديمقراطية، حيث باتت هذه الوسائل تؤثر على تشكيل الرأي العام، وحشد الدعم السياسي، وحتى في توجيه الحملات الانتخابية وصياغة السياسات العامة. وقد أصبحت الحملات الانتخابية الرقمية أحد أبرز مظاهر هذا التأثير، حيث تُوظف البيانات الضخمة والخوارزميات المتقدمة في استهداف الناخبين والتأثير على قراراتهم الانتخابية، مما يثير العديد من التساؤلات حول شفافية العملية الديمقراطية ومدى عدالتها.

ومن هنا، تبرز إشكالية هذا البحث في تحليل مدى تأثير التحولات الرقمية على الممارسة السياسية، من خلال دراسة دور وسائل التواصل الاجتماعي في تشكيل التوجهات السياسية، والتأثير على سلوك الناخبين، ومدى قدرة الأنظمة السياسية على ضبط هذه الأدوات وضمان عدم تحولها إلى أداة للتلاعب بالرأي العام. وتتمثل أهمية البحث في تقديم فهم معمق للعلاقة بين التكنولوجيا والسياسة، من خلال تحليل النماذج المختلفة التي شهدتها الدول في هذا المجال، مع التركيز على تأثير هذه العوامل في الدول الديمقراطية والأنظمة الهجينة على حد سواء.

وانطلاقاً من ذلك، يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي في دراسة الظاهرة، إلى جانب المنهج المقارن لتحليل تجارب دولية مختلفة، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، حيث لعبت وسائل التواصل الاجتماعي دوراً حاسماً في الانتخابات الرئاسية، مما أثار نقاشات حول تأثير المعلومات المضللة، والتلاعب الرقمي، وتهديد الخصوصية. كما يعتمد البحث على مجموعة من الدراسات السابقة التي تناولت العلاقة بين التكنولوجيا والعملية السياسية، ومن أبرزها دراسة كاستلز (2009) حول تأثير الإعلام الرقمي على الأنظمة السياسية، ودراسة هاوارد (2010) التي بحثت في استخدام البيانات الضخمة في الحملات الانتخابية.

وفي ضوء ذلك، يتوزع البحث على فصلين أساسيين: يتناول الفصل الأول الإطار النظري، من خلال تحديد المفاهيم والمصطلحات الأساسية المتعلقة بالموضوع، فيما يركز الفصل الثاني على تحليل تجارب دولية، مع دراسة حالة الانتخابات الأمريكية كنموذج بارز لتأثير التكنولوجيا على العملية الديمقراطية، مع الاستناد إلى البيانات والإحصائيات.

الفصل الأول: الإطار المفاهيمي للإعلام وتأثيراته

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مفهوم الإعلام الرقمي وعلاقته بالاستقرار السياسي.

المبحث الثاني: عصر ما بعد الحقيقة وتأثير الإعلام على الديمقراطية.

المبحث الأول: مفهوم الإعلام الرقمي وعلاقته بالاستقرار السياسي

يعدّ مفهوم الإعلام الرقمي تطوراً نوعياً في بنية الاتصال الجماهيري، حيث دمج بين التكنولوجيا والاتصال، مما سمح بإنتاج المحتوى وتوزيعه بشكل تفاعلي وفوري⁽¹⁾. ويُنظر إليه كأداة مؤثرة في تشكيل الرأي العام وتعزيز أو زعزعة الاستقرار السياسي، نظراً لقدرته على تجاوز الرقابة التقليدية وبيث الرسائل على نطاق واسع⁽²⁾.

الفرع الأول: تعريف الإعلام الرقمي لغة واصطلاحاً

شهد المشهد الإعلامي تحوّلاً جذرياً في ظل الثورة الرقمية، حيث انتقل من نموذج تقليدي أحادي الاتجاه إلى نموذج تفاعلي ومتعدد الوسائط، ممّا أدى إلى إعادة صياغة مفاهيم الإعلام وأدواره⁽³⁾. وأصبح الإعلام الرقمي من أبرز سمات العصر الحديث، لما يتمتع به من خصائص فورية وعالمية وتشاركية، غيّرت ليس فقط طبيعة التواصل بل أيضاً بنيته الاجتماعية والسياسية⁽⁴⁾.

1- الإعلام الرقمي

الإعلام الرقمي يشير إلى الوسائل الإعلامية التي تعتمد على التكنولوجيات الرقمية لتقديم المعلومات والبيانات. تشمل هذه الوسائل الإنترنت، منصات التواصل الاجتماعي، الأخبار الإلكترونية، والمدونات. تمتاز هذه الوسائل بسرعة الانتشار والتفاعل المباشر مع الجمهور. يمكن تعريف الإعلام الرقمي بأنه الوسيلة التي تتيح للأفراد الحصول على الأخبار والمعلومات بسهولة وبسرعة من خلال الأجهزة الرقمية⁽⁵⁾.

الإعلام الرقمي هو أحد أبرز التحولات التكنولوجية التي أثرت بشكل مباشر على النظم السياسية والاجتماعية، إذ أدى الانتشار الواسع للإنترنت ومنصات التواصل الاجتماعي إلى إحداث تغييرات جوهرية في عمليات الاتصال السياسي والتفاعل بين الحكومات والمواطنين. يتميز الإعلام الرقمي بقدرته على تجاوز الوسائل التقليدية في نشر المعلومات، مما أتاح للأفراد فرصاً غير مسبوقة للمشاركة السياسية والتأثير على الرأي العام⁽⁶⁾. وتتمثل أبرز خصائص الإعلام الرقمي في سرعة نقل الأخبار، وإمكانية التفاعل

المباشر مع الأحداث السياسية، إضافة إلى سهولة الوصول إلى مصادر المعلومات، مما جعله أحد الأدوات الأساسية في تكوين الوعي السياسي والتأثير على القرارات الحكومية. وعلى الرغم من هذه الإيجابيات، فإن الإعلام الرقمي أتاح أيضًا بيئة خصبة لانتشار الأخبار الكاذبة والدعاية السياسية الموجهة، مما قد يسهم في تضليل الجمهور والتأثير على الاستقرار السياسي. فقد أشار الزهراني إلى أن الاستخدام غير المنظم للإعلام الرقمي قد يؤدي إلى خلق حالة من الفوضى المعلوماتية، مما يُضعف من قدرة الحكومات على التواصل الفعال مع مواطنيها ويعزز مناخ عدم الثقة في المؤسسات الرسمية⁽⁷⁾. من ناحية أخرى، ساهم الإعلام الرقمي في تعزيز الديمقراطية عبر تمكين المواطنين من التعبير عن آرائهم بحرية والمشاركة في الحملات الانتخابية والاحتجاجات الشعبية، حيث كشفت الدراسة أن وسائل التواصل الاجتماعي لعبت دورًا رئيسيًا في تنظيم المظاهرات والحركات السياسية في العديد من الدول، مما ساهم في إعادة تشكيل المشهد السياسي⁽⁸⁾. لذا، فإن العلاقة بين الإعلام الرقمي والاستقرار السياسي تبقى معقدة، حيث يعتمد تأثيره على مدى قدرة الأنظمة السياسية على تنظيمه وتوجيهه بطريقة تخدم المصلحة العامة دون تقييد حرية التعبير.

الفرع الثاني: علاقات الإعلام الرقمي ودوره السياسي

أصبح الإعلام الرقمي فاعلاً محورياً في تشكيل العلاقات السياسية داخل الدولة، إذ لم يعد مجرد وسيلة لنقل المعلومات، بل تحول إلى أداة للتأثير في اتجاهات الرأي العام وصياغة الأجندات السياسية⁽⁹⁾. ومن خلال قدرته على الانتشار السريع والتفاعل المباشر، بات يلعب دوراً حاسماً في تعزيز الاستقرار السياسي أو تهديده، بحسب طبيعة استخدامه ومضامينه⁽¹⁰⁾.

أ- الإعلام الرقمي والاستقرار السياسي

الإعلام الرقمي يلعب دوراً حاسماً في تعزيز أو تقويض الاستقرار السياسي. من خلال الإعلام الرقمي، يمكن للحكومات والأحزاب السياسية التأثير على الرأي العام والتأثير في الانتخابات والمشاركة السياسية. لكن في الوقت نفسه، يمكن أن يسهم الإعلام الرقمي في خلق بيئة من عدم الاستقرار السياسي من خلال نشر المعلومات المغلوطة أو تسييس الإعلام بشكل متطرف. يُعدّ التأثير السلبي للإعلام الرقمي على الاستقرار السياسي ظاهراً في حالات عدة، حيث يساهم في إشعال الاحتجاجات والثورات أو نشر الأخبار المزيفة التي تؤثر في القرار السياسي للناخبين⁽¹¹⁾.

يلعب الإعلام الرقمي دوراً محورياً في تشكيل الاستقرار السياسي، إذ يتداخل تأثيره مع مختلف جوانب العملية السياسية، من تعزيز الشفافية والمشاركة السياسية إلى زعزعة الاستقرار عبر نشر المعلومات المضللة. فمن ناحية إيجابية، يساهم الإعلام الرقمي في تمكين المواطنين من الوصول إلى المعلومات وتعزيز المساءلة، حيث تتيح منصات مثل فيسبوك وتويتر مساحة للنقاش العام، مما يرفع من مستوى الوعي السياسي ويساهم في بناء مجتمعات أكثر شفافية⁽¹²⁾. كما يُستخدم الإعلام الرقمي كأداة لتمكين المجتمع المدني، إذ يساعد على تنظيم الحملات السياسية وتعزيز التواصل بين الحكومات والمواطنين، مما يؤدي إلى زيادة شرعية الأنظمة السياسية. في المقابل، يشكل انتشار الأخبار المزيفة عبر الإعلام الرقمي تهديداً للاستقرار السياسي، حيث تُستغل هذه المنصات في نشر معلومات مغرضة تؤدي إلى استقطاب المجتمعات وتقويض الثقة في المؤسسات الرسمية⁽¹³⁾. وقد كشفت دراسات عديدة أن التضليل الإعلامي يمكن أن يؤثر بشكل مباشر على توجهات الناخبين ويؤدي إلى تأجيج الصراعات السياسية، مما يُسهم في زعزعة الاستقرار الاجتماعي والسياسي. لذا، يتطلب تحقيق التوازن بين الفوائد والمخاطر تطوير آليات رقابية فعالة لمكافحة المعلومات المضللة، بالإضافة إلى تعزيز الثقافة الإعلامية لدى المواطنين، حيث أظهرت الأبحاث أن تحسين الوعي الإعلامي يحد من التأثيرات السلبية للإعلام الرقمي ويعزز ثقة الجمهور بالمؤسسات، مما يساهم في استقرار الأنظمة السياسية⁽¹⁴⁾.

ب- الإعلام الرقمي والديمقراطية

الديمقراطية تتطلب بيئة من المعلومات الحرة والمتنوعة، ويُعتبر الإعلام الرقمي أداة أساسية لضمان ذلك. من خلال منصات مثل فيسبوك وتويتر ويوتيوب، يمكن للمواطنين أن يكونوا جزءاً من الحوار السياسي ويساهموا في نشر المعلومات. ومع ذلك، يمكن أن يعزز الإعلام الرقمي أيضاً من الاستقطاب السياسي، مما يؤدي إلى تراجع الديمقراطية، خاصة عندما تروج وسائل الإعلام لمعلومات مضللة أو تعتمد على الأخبار المزيفة⁽¹⁵⁾. تتطلب الديمقراطية بيئة معلوماتية حرة وشفافة تتيح للمواطنين الوصول إلى المعلومات دون قيود، وهو ما يوفره الإعلام الرقمي عبر تسهيل تدفق الأخبار والمعلومات، مما يساهم في تشكيل رأي عام مستنير وتعزيز المشاركة السياسية. فالإعلام الرقمي، من خلال شبكات التواصل الاجتماعي والمنصات الإخبارية الإلكترونية، مكن الأفراد من التفاعل مع القضايا العامة⁽¹⁶⁾. والمساهمة في النقاشات السياسية، والمشاركة في عمليات

صنع القرار بطريقة غير مسبوقه. كما أن هذه المنصات توفر فضاءً مفتوحاً للأحزاب السياسية والمجتمع المدني لنشر برامجهم وأفكارهم، مما يساهم في خلق تعددية سياسية تعزز من جودة الأنظمة الديمقراطية. وتشير دراسات حديثة إلى أن الحملات السياسية أصبحت تعتمد بشكل متزايد على الإعلام الرقمي في الوصول إلى الناخبين وتحفيزهم على المشاركة في الانتخابات، حيث أظهرت دراسة أجراها حسن أن الحملات الانتخابية في الدول الديمقراطية باتت تعتمد بنسبة تتجاوز 70% على وسائل التواصل الاجتماعي للوصول إلى الجماهير والتأثير في توجهاتهم السياسية⁽¹⁷⁾.

ورغم هذه الإيجابيات، فإن الإعلام الرقمي يشكل أيضاً تحديات للديمقراطية، حيث يمكن أن يتحول إلى أداة لنشر الأخبار الزائفة والتلاعب بالمعلومات، مما قد يؤثر على نزاهة العمليات الانتخابية ويخلق بيئة سياسية مشوهة. فقد شهدت العديد من الدول حملات تضليل منظمة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، هدفت إلى التأثير على خيارات الناخبين من خلال نشر معلومات مغلوطة أو مضللة، وهو ما أضعف الثقة بالمؤسسات الديمقراطية⁽¹⁸⁾. ولعل أبرز مثال على ذلك التدخلات الأجنبية في الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 2016، حيث تم استخدام منصات مثل فيسبوك وتويتر للتأثير على الرأي العام من خلال نشر محتوى مضلل واستهداف فئات معينة من الناخبين بإعلانات سياسية مشوهة. كما أن الخوارزميات التي تعتمد على هذه المنصات غالباً ما تؤدي إلى تعزيز الانقسامات السياسية من خلال إنشاء "فقاعات معلوماتية"، حيث يتعرض المستخدمون فقط للمحتوى الذي يؤكد وجهات نظرهم الحالية، مما يضعف من التنوع في الخطاب الديمقراطي⁽¹⁹⁾.

لذلك، فإن العلاقة بين الإعلام الرقمي والديمقراطية تظل إشكالية مزدوجة، فهي من جهة وسيلة لتعزيز الشفافية والمشاركة السياسية، ومن جهة أخرى أداة يمكن أن تُستغل لتقويض العمليات الديمقراطية عبر التضليل المعلوماتي. وتتمثل الاستجابة الفعالة لهذه التحديات في تطوير سياسات تنظيمية تضمن حماية حرية التعبير مع فرض ضوابط على حملات التضليل الإعلامي، إضافةً إلى تعزيز الوعي الإعلامي بين المواطنين لتمكينهم من التحقق من صحة المعلومات وتقادي التلاعب الرقمي⁽²⁰⁾.

المبحث الثاني: عصر ما بعد الحقيقة وتأثير الإعلام على الديمقراطية

شهد الخطاب الإعلامي تحولات جذرية مع صعود ما يُعرف بـ "عصر ما بعد الحقيقة"، حيث لم تُعد الحقيقة الموضوعية المعيار الأساسي في تشكيل القنوات العامة، بل باتت العواطف والانحيازات الفردية تهيمن على إدراك الناس للواقع.⁽¹²⁾ وفي هذا السياق، أصبح الإعلام الرقمي ساحة خصبة لتداول المعلومات المضلّة، ما أحدث آثاراً عميقة على الممارسة الديمقراطية ومصداقية النقاش العام⁽²²⁾.

الفرع الأول: تعريف عصر ما بعد الحقيقة والإعلام

عرّفت قواميس أوكسفورد (Oxford Dictionaries, 2016) مصطلح "ما بعد الحقيقة" بأنه يدل على الظروف التي تصبح فيها الحقائق الموضوعية أقل تأثيراً في تشكيل الرأي العام مقارنة بالمشاعر والمعتقدات الشخصية⁽²³⁾. يُعزى ذلك إلى التغيرات التكنولوجية والإعلامية، حيث أتاحت وسائل التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية بيئة يمكن فيها للمعلومات غير الدقيقة أن تنتشر بسرعة كبيرة، دون رقابة صارمة أو تحقق من صحتها، كما يُعرّف لي ماكنتاير (مرحلة ما بعد الحقيقة بأنها ثقافة سياسية يتم فيها تأطير النقاشات عبر الاعتماد على المشاعر والانفعالات بدلاً من الحقائق الموضوعية، مع تجاهل التصحيحات المبنية على الأدلة⁽²⁴⁾).²⁵

ومن هذا المنطلق، لم يعد تقييم صحة المعلومات يعتمد فقط على أدلة موضوعية، بل أصبح متأثراً بميول الأفراد ومعتقداتهم المسبقة، مما أدى إلى انتشار ما يُعرف بـ "الحقائق البديلة" أو "الحقيقة الانتقائية" التي تستخدم لخدمة أجندات سياسية أو اجتماعية معينة⁽²⁶⁾.

ويمكن فهم عصر ما بعد الحقيقة على أنه نتاج مشترك لعدة عوامل، من بينها الاستقطاب السياسي المتزايد، وغياب الثقة في المؤسسات التقليدية، والتلاعب الإعلامي المدروس، حيث يتم استخدام المعلومات كأداة للتأثير بدلاً من نقل الواقع بموضوعية⁽¹⁾. في هذا السياق، لم يعد الإعلام مجرد ناقل للمعلومات، بل أصبح لاعباً رئيسياً في تشكيل الحقيقة نفسها، مما يثير تساؤلات حول مستقبل الممارسات الديمقراطية وإمكانية الوصول إلى وحي جمعي قائم على الحقائق بدلاً من العواطف والانحيازات الشخصية.

كما ساهمت وسائل الإعلام الاجتماعية في تفعيل عصر ما بعد الحقيقة. فمع انتشار منصات مثل فيسبوك وتويتر، أصبح من السهل نشر الأخبار المزيفة. لا تعتمد الأخبار المزيفة فقط على الأفكار الخاطئة، بل على مشاعر الجمهور وميولهم، مما يعزز من الاستقطاب السياسي والتمييز في المجتمعات. يمكن للرسائل العاطفية والخوف والتحيز

أن تؤثر بشكل كبير على تصورات الأفراد حول الأحداث السياسية والاجتماعية، وهو ما يجعل الإعلام في عصر ما بعد الحقيقة أكثر تأثيرًا من الحقائق نفسها^(١).

الإعلام الرقمي والديمقراطية

تتطلب الديمقراطية بيئة معلوماتية حرة وشفافة تتيح للمواطنين الوصول إلى المعلومات دون قيود، وهو ما يوفره الإعلام الرقمي عبر تسهيل تدفق الأخبار والمعلومات، مما يساهم في تشكيل رأي عام مستنير وتعزيز المشاركة السياسية.

فالإعلام الرقمي، من خلال شبكات التواصل الاجتماعي والمنصات الإخبارية الإلكترونية، مكّن الأفراد من التفاعل مع القضايا العامة، والمساهمة في النقاشات السياسية، والمشاركة في عمليات صنع القرار بطريقة غير مسبقة^(٢)، كما أن هذه المنصات توفر فضاءً مفتوحًا للأحزاب السياسية والمجتمع المدني لنشر برامجهم وأفكارهم، مما يساهم في خلق تعددية سياسية تعزز من جودة الأنظمة الديمقراطية. وتشير دراسات حديثة إلى أن الحملات السياسية أصبحت تعتمد بشكل متزايد على الإعلام الرقمي في الوصول إلى الناخبين وتحفيزهم على المشاركة في الانتخابات، حيث أظهرت دراسة أجريت أن الحملات الانتخابية في الدول الديمقراطية باتت تعتمد بنسبة تتجاوز 70% على وسائل التواصل الاجتماعي للوصول إلى الجماهير والتأثير في توجهاتهم السياسية^(٣).

ورغم هذه الإيجابيات، فإن الإعلام الرقمي يشكل أيضًا تحديات للديمقراطية، حيث يمكن أن يتحول إلى أداة لنشر الأخبار الزائفة والتلاعب بالمعلومات، مما قد يؤثر على نزاهة العمليات الانتخابية ويخلق بيئة سياسية مشوهة. فقد شهدت العديد من الدول حملات تضليل منظمة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، هدفت إلى التأثير على خيارات الناخبين من خلال نشر معلومات مغلوطة أو مضللة، وهو ما أضعف الثقة بالمؤسسات الديمقراطية^(٤). ولعل أبرز مثال على ذلك التدخلات الأجنبية في الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 2016، حيث تم استخدام منصات مثل فيسبوك وتويتر للتأثير على الرأي العام من خلال نشر محتوى مضلل واستهداف فئات معينة من الناخبين بإعلانات سياسية مشوهة. كما أن الخوارزميات التي تعتمد على هذه المنصات غالبًا ما تؤدي إلى تعزيز الانقسامات السياسية من خلال إنشاء "فقاعات معلوماتية"، حيث يتعرض المستخدمون فقط للمحتوى الذي يؤكد وجهات نظرهم الحالية، مما يضعف من التنوع في الخطاب الديمقراطي^(٥).

لذلك، فإن العلاقة بين الإعلام الرقمي والديمقراطية تظل إشكالية مزدوجة، فهي من جهة وسيلة لتعزيز الشفافية والمشاركة السياسية، ومن جهة أخرى أداة يمكن أن تُستغل لتقويض العمليات

الديمقراطية عبر التضليل المعلوماتي. وتتمثل الاستجابة الفعالة لهذه التحديات في تطوير سياسات تنظيمية تضمن حماية حرية التعبير مع فرض ضوابط على حملات التضليل الإعلامي، إضافةً إلى تعزيز الوعي الإعلامي بين المواطنين لتمكينهم من التحقق من صحة المعلومات وتفادي التلاعب الرقمي^(١).

الفرع الثاني: أبعاد عصر ما بعد الحقيقة في السياسة

على المستوى السياسي، يعتبر "عصر ما بعد الحقيقة" تحديًا كبيرًا. فالسياسيون لا يتعاملون دائمًا مع الحقائق بل مع مشاعر الجماهير، وفي هذه البيئة، يمكن للمعلومات المضللة أن تتحول إلى أداة قوية للتأثير على الناخبين وصياغة السياسات العامة.

في هذا السياق، يصبح من الصعب على الناخبين التمييز بين الحقيقة والخداع، مما يقلل من جودة الديمقراطية ويقوض الاستقرار السياسي^(٢). وعليه فقد أدى ظهور عصر ما بعد الحقيقة إلى تغييرات جوهرية في المشهد السياسي العالمي؛ بحيث أصبح من الصعب التمييز بين الحقائق والمعلومات المضللة، مما أثر بشكل مباشر على عمليات صنع القرار، والاستقرار السياسي، وتوجهات الناخبين. وتتمثل أبرز أبعاد عصر ما بعد الحقيقة في السياسة في ثلاثة نقاط رئيسية: تراجع دور الحقائق في الخطاب السياسي، صعود الشعبية، واستقطاب المجتمعات.

أ- تراجع دور الحقائق في الخطاب السياسي

أحد أبرز ملامح السياسة في عصر ما بعد الحقيقة هو تراجع أهمية الوقائع والبيانات الموثوقة لصالح الخطاب العاطفي والشعارات الشعبية. لم تعد الحجج السياسية تعتمد بالضرورة على الأدلة والإحصاءات، بل باتت تُصاغ بطريقة تخاطب المشاعر، ما يجعل الجماهير أكثر قابلية لتصديق المعلومات التي تتماشى مع قناعاتهم المسبقة^(٣). على سبيل المثال، خلال الحملات الانتخابية، يتم التلاعب بالمعلومات الاقتصادية والاجتماعية لإقناع الناخبين بمواقف معينة، حتى لو كانت تلك المعلومات غير دقيقة أو مبالغًا فيها.

وقد أدى هذا الاتجاه إلى بروز "الحقائق البديلة"، حيث يتم تقديم بيانات متناقضة حول القضايا السياسية الكبرى، مثل تغير المناخ، أو الهجرة، أو الأمن القومي، مما يضعف قدرة المواطنين على اتخاذ قرارات مبنية على معلومات دقيقة^(٤). هذا الوضع يجعل من الصعب التوصل إلى توافق سياسي حول القضايا الرئيسية، حيث يعتمد كل طرف على روايته الخاصة للتحقق.

ب- صعود الشعبوية وتوظيف الأخبار المضللة

في ظل تراجع الثقة في المؤسسات الإعلامية التقليدية، استغل السياسيون الشعبويون هذه الأزمة لتعزيز نفوذاتهم السياسية. الشعبوية في عصر ما بعد الحقيقة تعتمد بشكل كبير على استخدام الرسائل البسيطة والمثيرة التي تشد انتباه الجماهير، وتستغل المخاوف والمشاعر السلبية لتوجيه الرأي العام نحو قضايا معينة. في هذا السياق، تُعتبر وسائل الإعلام الرقمية، وخصوصًا منصات التواصل الاجتماعي، المكان المثالي لنشر الرسائل الشعبوية التي تثير القلق حول قضايا مثل الهجرة أو الإرهاب، حيث يتسارع انتشار هذه المعلومات بشكل غير مسبوق^(٥).

مثال على ذلك هو استخدام الأخبار المضللة في الحملة الانتخابية الأمريكية لعام 2016، حيث تم استغلال المعلومات المغلوطة والمشاعر المعادية للمهاجرين واللاجئين لإشغال الرأي العام ضد سياسات الهجرة. تم نشر هذه المعلومات عبر منصات التواصل الاجتماعي بكثافة، مما ساهم في تصعيد المواقف السياسية وظهور خطاب شعبي، حيث اعتمد العديد من السياسيين على هذا الخطاب لتوجيه الجمهور، متجاهلين الحقائق التي تدحض هذه الادعاءات^(٦).

هذا الاتجاه في السياسة يمكن أن يؤدي إلى تعزيز الاستقطاب الاجتماعي والسياسي، حيث يصبح النقاش العام أقل استنادًا إلى الحقائق الموضوعية وأكثر استنادًا إلى مشاعر ومعتقدات الأفراد. في كثير من الحالات، يمكن أن يؤدي هذا إلى خلق مجتمعات منقسمة بشكل حاد حول القضايا السياسية الكبرى، مما يعوق الحوار المدني ويزيد من التوترات السياسية.

ج- استقطاب المجتمعات وتزايد الانقسامات

أحد الأبعاد الأخرى التي تبرز في السياسة في عصر ما بعد الحقيقة هو الاستقطاب المجتمعي المتزايد. في ظل الاعتماد على الرسائل العاطفية والمعلومات المضللة، أصبحت المجتمعات أكثر انقسامًا، حيث يتزايد الاختلاف بين الفئات السياسية المختلفة، ويصعب التوصل إلى توافق أو حوار بناء بين الأفراد من مختلف الاتجاهات السياسية^(٧).

أظهرت الكثير من الدراسات أن منصات التواصل الاجتماعي تشجع على تشكيل "فقاعات معلومات" (Echo Chambers)؛ حيث يتم تداول المعلومات فقط بين الأشخاص الذين يشتركون في نفس المعتقدات والأيدولوجيات. هذا النوع من الانعزال الإعلامي يساهم في زيادة الاستقطاب السياسي، حيث يصبح كل طرف في المجتمع معزولاً في فقاعة معلوماته الخاصة، مما يزيد من صعوبة التوصل إلى حلول وسطية.

كما أنّ خوارزميات الإنترنت تقوم بتخصيص المحتوى المعروض للمستخدمين بناءً على

سلوكهم السابق، مما يؤدي إلى خلق فقاعات معلوماتية تحد من تعرضهم لوجهات نظر مختلفة، وبالتالي تؤثر على آرائهم السياسية واتجاهاتهم الانتخابية⁽¹⁾. كما "يمكن أن يؤدي التصفية الخوارزمية إلى إنشاء حلقات تغذية راجعة تعزز المعتقدات والاهتمامات القائمة لدى المستخدمين. فبدلاً من عرض معلومات وآراء متنوعة، غالباً ما تعطي الخوارزميات أولوية للمحتوى الذي يُتوقع أن يجذب انتباه المستخدمين بشكل أكبر، مما يخلق 'فقاعات معلوماتية' يصبح فيها الأفراد أقل عرضة لمواجهة وجهات نظر مختلفة، الأمر الذي يؤدي إلى تعميق الانقسامات المجتمعية والحد من الفهم الجماعي⁽²⁾.

وأن الصحفيين والجمهور يعيشون في فقاعات معلوماتية منفصلة على الإنترنت، مما أدى إلى صدمة في نتائج الانتخابات الأمريكية الأخيرة، حيث لم يكن الإعلاميون على دراية بتوجهات مؤيدي ترامب بسبب انعزالهم في فقاعاتهم الخاصة⁽³⁾. ويؤكد «سنستين» أن وسائل التواصل الاجتماعي تساهم في هذا التأثير عبر إنشاء "مجموعات منغلقة فكرياً"، حيث يصبح النقاش محصوراً بين من يشتركون في نفس الرأي، مما يقود إلى تفاقم الانقسامات السياسية والاجتماعية⁽⁴⁾.

الفصل الثاني:

تأثير الإعلام على الإستقرار السياسي والديمقراطية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تأثير الإعلام الرقمي والأخبار المزيفة على الرأي العام في الانتخابات الأمريكية 2016.

المبحث الثاني: تأثير الأخبار المزيفة

على الاستقرار السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية.

المبحث الأول: تأثير الإعلام الرقمي والأخبار المزيفة على الرأي العام في الانتخابات الأمريكية 2016

شكلت الانتخابات الأمريكية لعام 2016 نقطة تحوّل مفصلية في تاريخ العلاقة بين الإعلام الرقمي والمجال السياسي، حيث ظهرت لأول مرة بشكل جليّ قدرة وسائل التواصل الاجتماعي على التأثير العميق في تشكيل الرأي العام، وتوجيه السلوك الانتخابي، بل والمساهمة في إعادة صياغة القيم السياسية داخل المجتمع. لقد برز الإعلام الرقمي

كأداة مزدوجة، تتيح المشاركة والانفتاح من جهة، لكنها في الوقت نفسه تُستغل لنشر الأخبار المضللة وتعزيز الانقسام من جهة أخرى.

في هذا المبحث، سنقارب هذا التحوّل من خلال تحليل أبرز أوجه التأثير الإعلامي على العملية الانتخابية الأمريكية عام 2016، بوصفها نموذجاً حياً لما يمكن أن تُحدثه التقنيات الإعلامية الحديثة من تغيير على مستوى الثقة السياسية، والسلوك الانتخابي، والمجال العام عموماً.

الفرع الأول: تأثير الإعلام على الثقة في المؤسسات السياسيّة

أدى الانتشار الواسع للأخبار الزائفة خلال الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 2016 إلى تقويض الثقة في المؤسسات الديمقراطية، حيث ساهمت هذه المعلومات المضللة في تشكيل تصورات خاطئة لدى الناخبين، مما أثر على قراراتهم الانتخابية وأضعف من مصداقية العملية الديمقراطية برمتها⁽¹⁾.

يعتبر التأثير الأول للأخبار المزيفة في الانتخابات الأمريكية 2016 هو تقويض الثقة في المؤسسات السياسية الأمريكية. وفقاً لدراسة أجراها Pew Research Cen-ter (2016)، تمثل الأخبار المزيفة تهديداً كبيراً للثقة العامة في المؤسسات السياسية، حيث أظهرت الدراسة أن حوالي 64% من الأمريكيين اعتقدوا أن الأخبار المزيفة كانت تلعب دوراً في تقويض مصداقية النظام الانتخابي⁽²⁾. الأخبار المزيفة التي انتشرت على منصات مثل فيسبوك وتويتر كانت تتضمن معلومات مغلوطة حول فساد المرشحين واتهامات غير موثوقة ضد هيلاري كلينتون، مما أدى إلى زيادة الاستقطاب بين الجمهور وأدى إلى عدم ثقة جزء كبير من الناخبين في النظام السياسي.

أ- تعزيز الاستقطاب السياسي

لقد عززت الأخبار المزيفة الانقسامات السياسية بين الأمريكيين. كما بينت دراسة Harvard Kennedy School (2017)، أن الأخبار المزيفة كانت تهدف إلى التأثير على الناخبين من خلال تعزيز القضايا الخلافية مثل الهجرة، والاقتصاد، والأمن الوطني، مما جعل عملية اتخاذ القرار السياسي أكثر تعقيداً. أدى ذلك إلى زيادة الاستقطاب بين الحزبين الرئيسيين: الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي، حيث كانت الأخبار المزيفة تعمل على تعزيز الأيديولوجيات المتطرفة وتقوية مشاعر العداء بين المؤيدين والمعارضين⁽³⁾. وبحسب تقرير (The New York Times 2018)، فإن هذا الاستقطاب كان له آثار بعيدة المدى على الاستقرار السياسي، حيث أصبح من الصعب على السياسيين إيجاد أرضية مشتركة لإجراء إصلاحات أو اتخاذ قرارات سياسية فعالة⁽⁴⁾.

علاوة على ذلك، فإن الأخبار المزيفة كان لها تأثير كبير على دور الأحزاب السياسية في الانتخابات. وفقاً لدراسة أجرتها (Stanford Internet Observatory) 2018، كانت الأحزاب السياسية الأمريكية في حالة من الفوضى بسبب الأخبار المزيفة، التي استهدفت إضعاف الثقة في مرشحي الحزب الديمقراطي بينما ساعدت في تعزيز الدعم لمرشحي الحزب الجمهوري، بما في ذلك دونالد ترامب. هذه الأخبار المزيفة لم تؤثر فقط على الرأي العام، بل ساهمت أيضاً في تراجع الأيديولوجيات الوسطية داخل الحزبين، مما أثر سلباً على التعددية السياسية في البلاد.⁽¹⁾

1- تهديد الوحدة الوطنية

تعتبر الوحدة الوطنية من أبرز القيم التي تهدتها الأخبار المزيفة في الانتخابات الأمريكية 2016. لقد أدت الأخبار المزيفة إلى زيادة الفجوة بين مختلف الفئات الاجتماعية والعرقية في الولايات المتحدة، مما أثار توترات عرقية وسياسية. كانت الأخبار المزيفة تتضمن تقارير مغلوطة عن الأعمال الإجرامية التي يُزعم أن جماعات معينة ارتكبتها، ما أدى إلى تأجيج المشاعر العداوية والعنصرية بين الأمريكيين. دراسة Oxford Uni – versity (2017) تشير إلى أن الأخبار المزيفة لعبت دوراً كبيراً في زعزعة استقرار الوحدة الوطنية، حيث كانت تؤثر بشكل سلبي على التفاهم المتبادل بين الأمريكيين المختلفين عرقياً وأيديولوجياً.⁽²⁾

2- تداعيات على السياسة الخارجية

لا تقتصر تداعيات الأخبار المزيفة على السياسة الداخلية فقط، بل تمتد أيضاً إلى السياسة الخارجية. بحسب تقرير (The Washington Post) 2018، فقد أثر الانتشار الواسع للأخبار المزيفة في الانتخابات على صورة الولايات المتحدة في العالم، مما ساهم في تشويه سمعتها كداعم للديمقراطية وحقوق الإنسان، خاصة بعد تورط جهات خارجية مثل روسيا في نشر الأخبار المزيفة لتوجيه مسار الانتخابات الأمريكية لمصلحة مرشح معين.⁽³⁾

ب- التأثير الاجتماعي للإعلام الرقمي على الانتخابات

يعتبر الإعلام الرقمي أحد الأدوات الرئيسية التي تؤثر على القيم الاجتماعية والسياسية في المجتمع، وخاصة خلال الانتخابات. في الانتخابات الأمريكية 2016، لعب الإعلام الرقمي دوراً محورياً في تشكيل الرأي العام وتوجيه مواقف الناخبين. من خلال منصات التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك وتويتر، كان يتم نشر المعلومات السياسية، مناقشة القضايا السياسية، وحتى التأثير على السلوك الانتخابي للأفراد، مما أحدث تحولات اجتماعية كبيرة كان لها تأثير على نتائج الانتخابات. وتتجلى هذه التحولات في التالي:

1- تعزيز الانقسام الاجتماعي

أحد أبرز التأثيرات الاجتماعية التي أظهرها الإعلام الرقمي هو تعزيز الانقسامات الاجتماعية والعرقية في المجتمع الأمريكي. وفقاً لدراسة - Pew Research Cen (2017)، أظهرت أن الأخبار المزيفة التي يتم تداولها عبر منصات التواصل الاجتماعي ساهمت في تضخيم الخلافات العرقية والجغرافية في الولايات المتحدة، حيث كان يتم نشر محتوى يتضمن رسائل مؤيدة أو معارضة لسياسات معينة بشكل مكثف. وتبين أن هذه الأخبار تتضمن مواضيع مثيرة للجدل مثل الهجرة والسياسات العنصرية، مما أدى إلى تصاعد التوترات بين الجماعات المختلفة في المجتمع الأمريكي⁽¹⁾.

2- تأثير الإعلام الرقمي على القيم السياسية

من جانب آخر، كان الإعلام الرقمي في الانتخابات الأمريكية 2016 أداة فعالة لتغيير القيم السياسية في المجتمع. استناداً إلى تقرير⁽²⁾ (The New York Times 2018)، يمكن ملاحظة كيف أن النقاشات السياسية على منصات التواصل الاجتماعي ساعدت في نشر أفكار سياسية متطرفة وتحقيق نوع من "التميط السياسي"، مما ساهم في تحويل مواقف العديد من الأمريكيين إلى مواقف أكثر تطرفاً من الناحية السياسية. ساهمت هذه المواقف المتطرفة في تقوية الولاء الحزبي وبالتالي تفاقم الاستقطاب السياسي، مما أثر سلباً على السلوك الانتخابي وعلى انفتاح الأفراد على الأفكار المتنوعة.

3- التحول في سلوك الناخبين

من التأثيرات الاجتماعية الكبرى للإعلام الرقمي في الانتخابات الأمريكية 2016 هو التحول في سلوك الناخبين. وفقاً لدراسة (2017) Harvard Kennedy School)، كان الإعلام الرقمي من خلال منصات مثل فيسبوك وتويتر أداة رئيسية في حملات التوعية والتأثير على الناخبين. على سبيل المثال، تم استهداف الناخبين المحتملين من خلال الحملات الرقمية التي تستخدم بيانات شخصية دقيقة، مما أثر على قراراتهم التصويتية. وتبين أن هذه الحملات كانت تستهدف الفئات المهمشة أو التي يُحتمل أن تكون غير مهتمة بالانتخابات، ما أثر في نسبة المشاركة الانتخابية لصالح مرشح معين⁽³⁾.

4- تأثير الإعلام الرقمي على الحوار الاجتماعي

علاوة على ذلك، كان الإعلام الرقمي عاملاً مهماً في تغيير الطريقة التي يتم بها الحوار الاجتماعي في الولايات المتحدة. ووفقاً لتقرير ⁰ Stanford Internet Observa-tory (2018)، فقد ساهم الإعلام الرقمي في تبادل الآراء السياسية بشكل سريع وواسع، لكن غالباً ما كان هذا الحوار يفتقر إلى العمق والنقد البناء، حيث تزايدت حدة الخطاب السياسي وقلت قدرة الأفراد على التواصل بطريقة محترمة. هذا أدى إلى تراجع مستوى الحوار السياسي الجماعي وزيادة الانقسام بين الأفراد والمجتمعات.

5- تأثير الإعلام الرقمي على الصورة الشخصية للمرشحين

كان للإعلام الرقمي دور كبير أيضاً في تشكيل الصورة الشخصية للمرشحين، سواء كان ذلك إيجابياً أو سلبياً. حسب ⁰ (Oxford University 2017)، فإن الحملات الرقمية نجحت في استغلال منصات مثل تويتر للتواصل المباشر مع الناخبين، وبالتالي أصبح بإمكان المرشحين التأثير على الرأي العام بطريقة غير مسبوقه. في حالة ترامب، على سبيل المثال، كانت حملاته عبر وسائل التواصل الاجتماعي ذات تأثير كبير في نشر رسائل سياسية قوبلت بتفاعل ضخم، سواء كان ذلك تأييداً أو معارضة. هذه الحملات ساعدت في تشكيل الصورة العامة للمرشح بشكل يتلاءم مع احتياجات الجماهير المستهدفة، مما أثر بشكل مباشر على سلوك الناخبين.

6- التأثير على المجموعات الشبابية والمجتمع المدني

أثر الإعلام الرقمي أيضاً في كيفية تفاعل المجموعات الشبابية والمجتمع المدني مع الانتخابات. بحسب دراسة (The Washington Post 2018)، تم استخدام وسائل الإعلام الرقمية من قبل الشباب بشكل مكثف لنشر رسائل انتخابية والتعبير عن مواقفهم السياسية. بالإضافة إلى ذلك، ساعدت منصات مثل فيسبوك وتويتر في تكوين حركات اجتماعية مثل "حركة النساء" و"حركة Black Lives Matter"، التي كان لها دور كبير في التأثير على النقاشات الاجتماعية والسياسية خلال الانتخابات. هذه الحركات الاجتماعية لم تكن تؤثر فقط على سلوك الناخبين، ولكنها ساهمت في توجيه النقاشات السياسية العامة في البلاد.⁰

الفرع الثاني: آثار الانتخابات الأمريكية 2016 وتطبيقاتها على لبنان

من خلال الانتخابات الأمريكية 2016، تبرز العديد من الدروس التي يمكن للبنان الاستفادة منها لتطوير نظامه الانتخابي، وتعزيز الاستقرار السياسي والاجتماعي في ظل التحديات التي يواجهها. الانتخابات الأمريكية كانت بمثابة اختبار حي لفهم تأثير الإعلام الرقمي والأخبار المزيفة على الانتخابات، وكذلك تأثير الإعلام الرقمي على استقطاب الآراء السياسية. يمكننا استعراض هذه الدروس في السياقات التالية:

أ- أهمية تنظيم الإعلام الرقمي

من أبرز الدروس التي يجب أن يتعلمها لبنان من الانتخابات الأمريكية 2016 هو ضرورة تنظيم دور الإعلام الرقمي وتحديد مسؤوليات منصات التواصل الاجتماعي. في الولايات المتحدة، أثرت الأخبار المزيفة والإعلانات المضللة التي تم نشرها على منصات مثل فيسبوك وتويتر بشكل كبير على الرأي العام.

أما في لبنان، حيث يشهد المواطنون أيضاً استخداماً مكثفاً لوسائل الإعلام الرقمية في التفاعل مع الأخبار والمعلومات السياسية، فإن غياب الرقابة على هذه المنصات قد يعزز من قدرة بعض الأطراف على نشر الأخبار المضللة التي تؤثر على اختيارات الناخبين. لذا، فإن التشريعات التي تنظم كيفية استخدام الإعلام الرقمي في الحملات الانتخابية قد تكون خطوة مهمة لضمان انتخابات أكثر نزاهة وشفافية⁽¹⁾.

1- تعزيز الثقافة السياسية والوعي الانتخابي

من الدروس المهمة التي يمكن للبنان الاستفادة منها هو التركيز على تعزيز الثقافة السياسية والوعي الانتخابي بين المواطنين. في الانتخابات الأمريكية 2016، لوحظ أن كثيراً من الناخبين وقعوا ضحية للأخبار المزيفة لأنهم لم يمتلكوا آليات التحليل والنقد التي تمكنهم من تمييز الأخبار الحقيقية من الزائفة. لذلك، يجب أن يكون لبنان أكثر اهتماماً بتعليم المواطنين حول كيفية استخدام منصات الإعلام الرقمي بشكل واع، وضرورة التحقق من المعلومات قبل التفاعل معها أو نشرها. يمكن أن تشمل هذه التدابير حملات توعية رقمية تنظم من قبل المؤسسات المدنية، والجامعات، والهيئات الحكومية لمكافحة الأخبار المزيفة وتعزيز النقاش السياسي المسؤول.

2- استراتيجيات الحملة الانتخابية الرقمية

إحدى الدروس الأخرى هي استراتيجيات الحملة الانتخابية عبر الإعلام الرقمي. في الانتخابات الأمريكية 2016، كانت الحملات الانتخابية الرقمية تُستخدم بشكل فعال لاستهداف الناخبين المختلفين بناءً على بيانات شخصية دقيقة، مما ساعد في التأثير على قراراتهم التصويتية. في لبنان، وبالنظر إلى تنوع المجتمع اللبناني من حيث الانتماءات الدينية والطائفية والجغرافية، يجب على الأحزاب السياسية أن تستخدم هذه الأدوات بحذر للتأكد من أنها لا تُفاقم الانقسامات الاجتماعية بل تساعد في تعزيز المشاركة المدنية والنقاش السياسي. كذلك، قد يساهم استخدام البيانات الشخصية في الحملات الرقمية في تعزيز الحملات الانتخابية الموجهة نحو التوعية بمطالب وحقوق المواطنين من جميع الأطياف، مما يساهم في زيادة ثقة المواطنين في النظام السياسي.

3- تعزيز الحوار الوطني والعدالة الاجتماعية:

من الدروس الكبرى التي يمكن أن يأخذها لبنان من الانتخابات الأمريكية 2016 هو أهمية تعزيز الحوار الوطني والمساواة الاجتماعية في الساحة الإعلامية. في الولايات المتحدة، أدى الإعلام الرقمي إلى تقسيم المجتمع الأمريكي بشكل عميق بين مؤيد ومعارض للمرشحين، وزادت حدة الخطابات العنصرية والجنسية. أمّا في لبنان، فيجب أن تعمل وسائل الإعلام الرقمية على نشر قيم الحوار والتسامح وتعزيز العدالة الاجتماعية، لا سيما في فترة الانتخابات التي قد تشهد تبايناً في الآراء بين الطوائف والمناطق. يجب أن تكون هناك استراتيجيات تواصل تهدف إلى الحد من الانقسامات الطائفية والجغرافية، وتدعم الوحدة الوطنية في أوقات الانتخابات، وتؤسس لبيئة سياسية أكثر تسامحاً وشمولية.

ب- دور الإعلام التقليدي والرقمي في تعزيز الديمقراطية

من الدروس التي يجب أن يتعلمها لبنان هو ضرورة التكامل بين الإعلام التقليدي والإعلام الرقمي في تعزيز الديمقراطية. في الانتخابات الأمريكية 2016، لعب الإعلام التقليدي دوراً مهماً في تغطية الأحداث، ولكنه كان مكماً لدور الإعلام الرقمي في التواصل المباشر مع الناخبين. في لبنان، حيث ما يزال الإعلام التقليدي له تأثير واسع، يجب تعزيز دوره في تقديم معلومات دقيقة ونزيهة وموضوعية للناخبين، جنباً إلى جنب مع الإعلام الرقمي الذي قد يتسم بسرعة الانتشار، لكنه في نفس الوقت قد يحمل تحديات تتعلق بالمصداقية والحيادية.

ج- مواجهة التدخلات الخارجية

من الدروس البارزة التي يمكن أن يستفيد منها لبنان في ضوء تجربة الانتخابات الأمريكية لعام 2016، هي أهمية حماية العملية الانتخابية من التدخلات الخارجية التي تتم عبر الإعلام الرقمي. فقد أظهرت تلك التجربة كيف يمكن لقوى خارجية أن تستخدم منصات التواصل الاجتماعي لنشر الأخبار الزائفة، والتأثير على توجهات الناخبين، وزرع الانقسام داخل المجتمع.

وفي الحالة اللبنانية، حيث يعاني النظام السياسي من حساسيات داخلية وتأثيرات خارجية متشابكة، فإن هذه التدخلات قد تكون أكثر خطورة. وان إدراك خطورة هذه التدخلات لا يعني القدرة التامة على منعه، بسبب الطبيعة المفتوحة للفضاء الرقمي، إلا إن تجاهلها ليس خياراً. ، لكنه يُلزم الدولة والمجتمع المدني باتخاذ خطوات استباقية لتقليل تأثيرها، وبناء ثقافة انتخابية رقمية أكثر وعياً ومقاومة للانخداع ، وتطوير القوانين التي تنظم الحملات الإعلامية على المنصات الرقمية، ومراقبة مصادر تمويل المحتوى السياسي، إلى جانب تعزيز التعاون مع الجهات الدولية المعنية برصد التدخلات الإلكترونية.

الخاتمة

من خلال الدراسة التي تناولت تأثير الإعلام الرقمي على الانتخابات الأمريكية 2016، وتأثير الأخبار المزيفة في تشكيل الرأي العام، تبين لنا أهمية الدور الكبير الذي يلعبه الإعلام الرقمي في التأثير على الديمقراطية واستقرار الأنظمة السياسية. لقد كانت هذه الانتخابات مثلاً حياً على كيفية استغلال هذه الوسائل للتلاعب بالناخبين، وزيادة الاستقطاب السياسي والاجتماعي، مما يعكس الحاجة الملحة إلى فهم عميق لهذه الظواهر وتأثيراتها على المدى البعيد. من خلال ما تم عرضه، يمكننا استنتاج أن الإعلام الرقمي، على الرغم من إمكانياته الهائلة في تعزيز المشاركة السياسية والوعي الديمقراطي، يمكن أن يشكل تهديداً كبيراً إذا لم يتم تنظيمه وإدارته بشكل يضمن الشفافية والمصادقية. التدايعات التي أفرزتها هذه الانتخابات تُظهر بوضوح أن الإعلام الرقمي في عصر ما بعد الحقيقة قادر على تغيير مسار الانتخابات وتوجيه الرأي العام بما يخدم مصالح معينة، وهو ما يبرز الحاجة إلى إجراءات تنظيمية تضمن توجيه الإعلام الرقمي لخدمة الحقيقة والعدالة الاجتماعية. لكن، لا يمكن اعتبار هذه الظواهر سلبية تماماً، حيث تفتح في الوقت نفسه أفقاً جديداً للحوار السياسي والرقمي، وتساهم في تحفيز المجتمع على المشاركة بشكل أكبر في الشأن العام.

إن الدروس المستفادة من الانتخابات الأمريكية 2016 تتجاوز الحدود الجغرافية وتصل إلى دول أخرى مثل لبنان، الذي يعاني من تحديات مماثلة فيما يخص استقطاب الرأي العام وتوظيف الإعلام الرقمي. يمكن للبنان أن يتعلم من تجربة الانتخابات الأمريكية في تنظيم الإعلام الرقمي، تعزيز الوعي الانتخابي، وضمان نزاهة الانتخابات من خلال تشريعات تواكب التطورات التكنولوجية. في هذا السياق، يعد الإعلام الرقمي سلاحاً ذو حدين: من جهة، يمثل أداة لتمكين الديمقراطية وتعزيز المشاركة المدنية، ومن جهة أخرى، قد يُستغل في نشر الأكاذيب وتقويض الاستقرار السياسي إذا لم يتم استخدامه بحذر. إن البحث في تأثير الإعلام الرقمي على الانتخابات يعكس ضرورة التفاعل المسؤول مع هذه الأدوات الحديثة في سياق ديمقراطي صحي ومستقر. من خلال تفعيل الرقابة الذاتية والتشريعات المناسبة، وتفعيل الحوار بين وسائل الإعلام الرسمية وغير الرسمية، يمكن للبلدان مثل لبنان أن تقلص من الأضرار المحتملة للإعلام الرقمي وتحقق أكبر استفادة ممكنة منه. في النهاية، لا يُمكن أن تتحقق ديمقراطية حقيقية في عالم مليء بالتحديات الرقمية إلا من خلال وعي جماعي وإرادة سياسية حازمة لضمان نزاهة المعلومات وسلامة الرأي العام.

لائحة المصادر والمراجع

وفيها:

أولاً: المصادر والمراجع العربية

1. إيلي بارسر. (2011). كيف تتحكم خوارزميات الإنترنت في ما نقرأ وما نشاهد“.
2. بين باجديكيان. (2004). الصحافة الرقمية والشعبوية: العلاقة المعقدة بين الإعلام والسياسة. نيويورك: دار بيكون.
3. تشي كاي (2020). المعلومات المضللة في عصر الوسائل النواصل الاجتماعي المجلد 10، العدد 6.
4. توماس باترسون . (2019). « تدمير الاعلام الديموقراطي: كيف افسدت الأخبار الزائفة السياسة الأمريكية؟». دار جامعة بيل للنشر.
5. الحجاج، ابو جبر. (2022). ”ما بعد الحقيقة: الإعلام والتضليل السياسي في العصر الرقمي“. دار معنى.
6. رالف كيبز Ralph Keyes . (2004) عصر ما بعد الحقيقة : الخداع والتضليل في الحياة المعاصرة، دار النشر سان مارتين برس.

7. عبد المجيد، طارق. (2021). الإعلام الرقمي والتحول الديمقراطي في الوطن العربي. القاهرة: دار الصفاة.
8. الغفيلي، فهد بن عبد العزيز. الإعلام الرقمي: أشكاله، وظائفه وسبل تفعيله. الرياض: دار تشكيل للنشر والتوزيع، 2018.
9. فهمي، منى. (2022). الإعلام الرقمي وصناعة الرأي في زمن ما بعد الحقيقة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
10. كاستلز، مانويل. (2012). شبكات الغضب والأمل: الحركات الاجتماعية في عصر الانترنت بوليتي برس.
11. ماكنتاير. لي. (2022). ما بعد الحقيقة: تحديات وتوجهات. نشر باللغة العربية. دار المعنى.
12. نيكولز، توم. (2017). موت الخبرة: كيف يهدد رفض الخبرة المعلوماتية الديمقراطية. مطبعة جامعة أكسفورد.

ثانياً: أبحاث ودراسات

1. بول، جيمس. (2017). ما بعد الحقيقة ... كيف سيطر الهراء على العالم؟. مجلة الصحافة، دار بايت باك، بريطانيا.
2. تفقجي، زينب. (2015). الأضرار الخوارزمية فيما يتجاوز فيسبوك وجوجل: التحديات الناشئة لوكالة الحوسبة. مجلة قانون تكنولوجيا كولورادو، 13.
3. حامد محمد فتحي، الاعلام الجديد وتحولاته في السياق الديمقراطي، مجلة كلية الاعلام، جامعة القاهرة، العدد 58، 2020.
4. الزهراني، سعود بن سعيد. (2018). "الإعلام الاجتماعي والسياسة في العالم العربي". مجلة دراسات الإعلام، 45 (2).
5. محمود، علم الدين (2016)، "الإعلام الجديد وتحولات القوة"، مجلة الإعلام العربي.
6. الهاشمي، عبد الله. "الإعلام الرقمي بين الديكتاتورية والديمقراطية." مجلة محكمة، 2020.

ثالثاً: المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

1. The Filter Bubble: How the New Personalized Web Is Changing What We Read and How We Think).
2. .Castells, M. (2009). Communication Power. Oxford University Press.
3. Benkler, Y., Faris, R., & Roberts, H. (2018). Network propaganda: Manipula-

- tion, disinformation, and radicalization in American politics. Oxford University Press.
4. Castells, Manuel. (2009). Communication Power. Oxford University Press.
 5. Harvard Kennedy School. (2017). Digital Campaigning: Social Media and the American Election. Harvard University Press.
 6. Harvard Kennedy School. (2017). Social Media and Fake News in the . 2016 U.S. Election. Harvard University Press. .
 7. Katz, J. E., & Rice, R E. (2002). Social Consequences of Internet Use: .Access, Involvement, and Interaction. MIT Press
 8. McIntyre, L. (2018). Post-Truth. MIT Press.
 9. Oxford Dictionaries. (2016). Post-truth named 2016 word of the year. Oxford University Press. <https://languages.oup.com/word-of-the-year/2016>
 10. Oxford University. (2017). Digital Politics and Political Campaigning in the U.S. Election. Oxford University Press. ص. 95.
 11. Oxford University. (2017). The Impact of Fake News on U.S. Politics: Russian Interference in the Election. Oxford University Press.
 12. Pew Research Center. (2017). The Role of Social Media in Politics: An Analysis of the 2016 U.S. Election. Pew Research Center.
 13. Pew Research Center. (2017). The Role of Social Media in Politics: An Analysis of the 2016 U.S. Election. Pew Research Center.
 14. Stanford Internet Observatory. (2018). Social Media, Fake News, and the 2016 U.S. Election. Stanford University.
 15. Stanford Internet Observatory. (2018). The Influence of Social Media on Voter Behavior in 2016. Stanford University.
 16. Sunstein, C. R. (2017). #Republic: Divided democracy in the age of social media. Princeton University Press.
 17. The New York Times. (2018). Fake News and the U.S. Election: Political Polarization and Trust in the System. The New York Times.
 18. The New York Times. (2018). The Social Media Effect: Political Polarization and Democracy. The New York Times.
 19. The Washington Post. (2018). Fake News and Its Global Impact: The 2016 U.S. Election and Beyond. The Washington Post.
 20. The Washington Post. (2018). The Impact of Social Media on U.S. Elections: Civic Engagement and Youth Involvement. The Washington Post.

21. Yochai Benkler, Robert Faris, and Hal Roberts Network Propaganda: Manipulation, Disinformation, and Radicalization in American Politics Oxford University Press. 2018.

رابعاً: المواقع الإلكترونية

1. مقال ”كيف نعيش نحن والصحافة في فقاعات منفصلة على الإنترنت؟“: فريق التحرير 9 ديسمبر 2016. موقع نون بوست: [/https://www.noonpost.com/15557](https://www.noonpost.com/15557)
22. Pew Research Center. (2016, December 15). Many Americans believe fake news is sowing confusion. Retrieved from <https://www.pewresearch.org/journalism/2016/12/15/many-americans-believe-fake-news-is-sowing-confusion>.

(1)- Castells, Manuel. (2009). Communication Power. Oxford University Press, p. 56.

(2) – محمود علم الدين، (2016)، ”الإعلام الجديد وتحولات القوة“، مجلة الإعلام العربي، العدد 4، ص 22

(2)- Katz, J. E., & Rice, R E. (2002). Social Consequences of Internet Use: Access, Involvement, and Interaction. MIT Press. p. 27.

(2) – الغفيلي، فهد بن عبد العزيز. الإعلام الرقمي: أشكاله، وظائفه وسبل تفعيله. الرياض: دار تشكيل للنشر والتوزيع، 2018. ص. 67.

(5) – الغفيلي، مرجع نفسه. 2018. ص. 45.

(6) – كاستلز، مانويل. (2012). شبكات الغضب والأمل: الحركات الاجتماعية في عصر الانترنت بوليتي برس. ص 98.

(7) – الزهراني، سعود بن سعيد. (2018). ”الإعلام الاجتماعي والسياسة في العالم العربي“. مجلة دراسات الإعلام، 45 (2)، ص 112.

(8) – المصدر نفسه. ص 67.

(9)– Castells, M. (2009). Communication Power. Oxford University Press p. 412

(10) – عبد المجيد، طارق. (2021). الإعلام الرقمي والتحول الديمقراطي في الوطن العربي. القاهرة: دار الصفوة. ص. 85.

(11) – كاستلز، مانويل. (2012). شبكات الغضب والأمل: الحركات الاجتماعية في عصر الانترنت بوليتي برس ص 110.

- (12) – المصدر نفسه. ص. 115.
- (13) – الزهراني، سعود بن سعيد (2018). ”الإعلام الاجتماعي والسياسة في العالم العربي“. مجلة دراسات الإعلام، 45 (2)، ص 125.
- (14) – محمود. علم الدين (2016)، ”الإعلام الجديد وتحولات القوة“، مجلة الإعلام العربي، العدد 4. ص. 80.
- (15) – الزهراني. سعود بن سعيد . (2018). ”الإعلام الاجتماعي والسياسة في العالم العربي“. مجلة دراسات الإعلام، 45 (2)، ص. 125.
- (16) – كاستلز. (2012) مرجع سابق، ص 135.
- (17) – محمود علم الدين. (2016). مرجع سابق. ص 89.
- (18) – الزهراني، سعود بن سعيد. (2018) مرجع سابق، ص 147.
- (19) – كاستلز (2012)، مرجع سابق، ص 142.
- (20) – حامد محمد فتحي ، الاعلام الجديد وتحولاته في السياق الديمقراطي ، مجلة كلية الاعلام ، جامعة القاهرة ، العدد 58 ، 2020 ص. 48.
- (21)- McIntyre, L. (2018). Post-Truth. MIT Press.p. 5.
- (22) – فهمي، منى. (2022). الإعلام الرقمي وصناعة الرأي في زمن ما بعد الحقيقة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ص. 102.
- (23)- Oxford Dictionaries. (2016). Post-truth named 2016 word of the year. Oxford University Press. <https://languages.oup.com/word-of-the-year/2016>
- (24) – +
- (25) – كاستلز، مانويل. (2012). مرجع سابق . ص. 5
- (26) – +
- (27) – نيكولز، توم . (2017). موت الخبرة: كيف يهدد رفض الخبرة المعلوماتية الديمقراطية. مطبعة جامعة أكسفورد، ص. 22.
- (28) – تشي كاي (2020). المعلومات المضللة في عصر الوسائل التواصل الاجتماعي المجلد 10، العدد 6. ص. 54.
- (29) – الحجاج، أبو جبر. (2022). ”ما بعد الحقيقة: الإعلام والتضليل السياسي في العصر الرقمي“. دار معنى. ص. 88.
- (30)- 135 McIntyre, Lee. (2018).
- (31) – علم الدين (2016). مرجع سابق. ص. 89.

- (32) – الزهراني، سعود سعيد. (2018). "الإعلام الاجتماعي والسياسة في العالم العربي". مجلة دراسات الإعلام، ص. 147.
- (33) – كاستلز، مانويل. (2012). مرجع سابق. ص. 95.
- (34) – الهاشمي، عبد الله. "الإعلام الرقمي بين الديكتاتورية والديمقراطية". مجلة حكمة، 2020.
- (35) – بول، جيمس. (2017). ما بعد الحقيقة. كيف سيطر الهراء على العالم؟. مجلة الصحافة، دار بايت باك، بريطانيا. ص. 112.
- (36) – رالف كيبز. (2004) عصر ما بعد الحقيقة: الخداع والتضليل في الحياة المعاصرة، دار النشر سان مارتين برس. ص. 54.
- (37) – ماكتاير. لي. (2022). ما بعد الحقيقة: تحديات وتوجهات. نشر باللغة العربية. دار المعنى. ص. 29.
- (38) – بين باجديكيان. (2004). الصحافة الرقمية والشعبوية: العلاقة المعقدة بين الإعلام والسياسة. نيويورك: دار بيكون. ص. 66.
- (39) – توماس باترسون. (2019). « تدمير الاعلام الديموقراطي: كيف افسدت الأخبار الزائفة السياسة الأمريكية ؟. دار جامعة ييل للنشر، ص. 74.
- (40) – Benkler, Y., Faris, R., & Roberts, H. (2018). Network propaganda: Manipulation, disinformation, and radicalization in American politics. Oxford University Press. p. 30.
- (41) – إيلي بارسر. (2011). كيف تتحكم خوارزميات الإنترنت في ما نقرأ وما نشاهد". ص. 9. The Filter Bubble: How the New Personalized Web Is Changing (What We Read and How We Think
- (42) – تفقجي، زينب. (2015). الأضرار الخوارزمية فيما يتجاوز فيسبوك وجوجل: التحديات الناشئة لوكالة الحوسبة. مجلة قانون تكنولوجيا كولورادو، 13، ص. 207.
- (43) – مقال "كيف نعيش نحن والصحافة في فقااعات منفصلة على الإنترنت؟": فريق التحرير 9 ديسمبر 2016. موقع نون بوست: <https://www.noonpost.com/15557>
- (44) – Sunstein, C. R. (2017). #Republic: Divided democracy in the age of social media. Princeton University Press. P. 5..
- (45) – Yochai Benkler, Robert Faris, and Hal Roberts Network Propaganda: Manipulation, Disinformation, and Radicalization in American Politics: رشانلا Oxford University Press 2018.

- (46)-Pew Research Center. (2016, December 15). Many Americans believe fake news is sowing confusion. Retrieved from <https://www.pewresearch.org/journalism/2016/12/15/many-americans-believe-fake-news-is-sowing-confusion>.
- (47)-Harvard Kennedy School. (2017). Social Media and Fake News in the 2016 U.S. Election. Harvard University Press. P. 112.
- (48)-The New York Times. (2018). Fake News and the U.S. Election: Political Polarization and Trust in the System. The New York Times. P. 122.
- (49)-Stanford Internet Observatory. (2018). Social Media, Fake News, and the 2016 U.S. Election. Stanford University. P. 93.
- (50)-Ford University. (2017). The Impact of Fake News on U.S. Politics: Russian Interference in the Election. Oxford University Press. P. 68.
- (51)-The Washington Post. (2018). Fake News and Its Global Impact: The 2016 U.S. Election and Beyond. The Washington Post. P. 137.
- (52)-Pew Research Center. (2017). The Role of Social Media in Politics: An Analysis of the 2016 U.S. Election. Pew Research Center. P. 58.
- (53)-The New York Times. (2018). The Social Media Effect: Political Polarization and Democracy. The New York Times. P. 115.
- (54)-Harvard Kennedy School. (2017). Digital Campaigning: Social Media and the American Election. Harvard University Press. P. 135.
- (55)-Stanford Internet Observatory. (2018). The Influence of Social Media on Voter Behavior in 2016. Stanford University. P. 123.
- (56)-Oxford University. (2017). Digital Politics and Political Campaigning in the U.S. Election. .Press. P. 95.
- (57)-The Washington Post. (2018). The Impact of Social Media on U.S. Elections: Civic Engagement and Youth Involvement. The Washington Post. P. 102.
- (58)-Pew Research Center. (2017). The Role of Social Media in Politics: An Analysis of the 2016 U.S. Election. Pew Research Center. P. 58.

Artificial Intelligence (AI): Adapt, Transform and Use

Doris Massoud Younes

Dr Lebanese
University-
Deanship –
Dekwaneh
doris.younes@
ul.edu.lb
+96170110610

Abstract

The rapid development of Artificial Intelligence (AI) has transformed various aspects of society including Higher education by providing new opportunities, yet this growth raised concerns about its usefulness and drawbacks in the field of education and ethics. This paper is descriptive research that endeavors to define in its introduction AI and its seven types and tools. Then, to highlight the positive and negative impacts of AI tools on teaching /learning processes and research ethics. The literature review not only defines some teaching and learning principles and strategies to be used in Higher Education while introducing one of AI tools in the classroom, but also suggests some safe ChatGPT strategies and activities that instructors are encouraged to implement in their syllabi based on Li Dug's quote and the case study on ChatGPT. According to Li Dug (2023), "ChatGPT is a powerful tool for improving communication and collaboration between humans and machines" (Mindsgoals.com). In the methodology, I would refer to a survey conducted online on 70 English language teachers in the International English language Teachers Association (IELTA- Lebanon). Also, the steps for designing lesson plans on the four language skills, speaking, listening, reading and writing are elaborated and a sample provided. To conclude, instructors and lecturers in the digital age are supposed to consider students' needs in their educational system and syllabi and to adapt to AI and use what matches with the course

goal and objectives and research ethics and vary the technology tools so that to cope with technology progress and achieve academic success.

Key words: artificial intelligence- ChatGPT- education- research ethics- AI tools- digital age- collaboration – communication

التلخيص

أحدث التطور السريع للذكاء الاصطناعي (AI) تحولاً في مختلف جوانب المجتمع، بما في ذلك التعليم العالي، من خلال توفير فرص جديدة. ومع ذلك، أثار هذا النمو مخاوف حول فائدة الذكاء الاصطناعي وبعيويه في مجالات التعليم والأخلاق. هذا البحث هو بحث وصفي يسعى في مقدمته إلى تعريف الذكاء الاصطناعي أنواعه وأدواته السبع ثم يسلط الضوء على التأثيرات الإيجابية والسلبية لأدوات الذكاء الاصطناعي على عمليات التعليم/التعلم وأخلاقيات البحث. لا يقتصر استعراض الأدبيات على تعريف بعض مبادئ واستراتيجيات التعليم والتعلم التي يمكن استخدامها في التعليم العالي عند تقديم إحدى أدوات الذكاء الاصطناعي في الفصل الدراسي، بل يقترح أيضاً بعض استراتيجيات وأنشطة ChatGPT الآمنة التي يُشجع المعلمون على تضمينها في مناهجهم استناداً إلى اقتباس لدوغ ودراسة حالة حول ChatGPT وفقاً لدوغ (2023)، "ChatGPT هو أداة قوة لتحسين التواصل والتعاون بين البشر والآلات" (Mindsgoals.com). في المنهجية، أود أن أشير إلى استطلاع أجري عبر الإنترنت على 70 مدرساً للغة الإنجليزية في الرابطة الدولية لمعلمي اللغة الإنجليزية (IELTA – لبنان). أيضاً، يتم وضع خطوات تصميم خطط الدروس على المهارات اللغوية الأربع، التحدث والاستماع والقراءة والكتابة وتقديم عينة في الختام، يجب على المعلمين في العصر الرقمي مراعاة احتياجات الطلاب في أنظمتهم التعليمية ومناهجهم، والتكيف مع الذكاء الاصطناعي، واستخدام ما يتوافق مع أهداف النظام التعليمي وأخلاقيات البحث. يجب أيضاً تنويع أدوات التكنولوجيا في التعليم لمواكبة التقدم التكنولوجي وتحقيق النجاح الأكاديمي.

الكلمات المفتاحية: الذكاء الاصطناعي، ChatGPT، التعليم، أخلاقيات البحث، أدوات الذكاء الاصطناعي، العصر الرقمي، التعاون، التواصل

I- Introduction

Artificial Intelligence (AI) is a human-made device that emulates the “cognitive” abilities of human intelligence. It is a changing force in modern society that has reframed technology, education and ethics. AI’s role in education is evolving. Kelleher et al. (2015) suggested that the former has revolutionized education by the educational systems to students’ needs. Moreover, the wide spread of AI has questioned ethical matters and the necessity to evaluate machine intelligence in issues like bias, fairness and transparency using ethical frameworks and guidelines to govern the development of AI systems.

Since the Artificial Intelligence tools are deeply integrating in our society, ethical concerns have arisen and the implementation of AI in education is not only a moral obligation but also a prerequisite for a sustainable technological future. Ethical AI is a set of principles aimed at providing the progress and use of AI systems that give priority to fairness, accountability and social benefits. Fairness principle requires to mitigate biases by treating equally among various demography. Accountability dictates that developers and users of AI hold responsibility for the results of their creations and to have remedies in case of unintentional harm. Furthermore, ethical AI protects personal data and the implementation of informed consent measures. The aim of ethical AI is to surpass individual interests to broader society influences so that to leverage for the collective well-being of humanity. In fact, unethical use of AI in the recruitment process could systematically favor certain demographic groups perpetuating systemic discrimination in employment opportunities.

According to Whitfield (2024), Artificial Intelligence (AI) consists of seven types. The first is Narrow AI, which is designed to complete very specific action and can’t independently learn. The second is Artificial General Intelligence (AGI). It is designed to learn, think and perform at similar levels to humans. The third type is Artificial Supremely which as its name indicates goes beyond human knowledge and capabilities. As for the fourth type, Reactive Machine AI, it has the capability to respond to external stimuli in real time; it can’t build memory or store information for future. The fifth type is Limited Memory AI that can store knowledge and use it to study and practice future tasks. The sixth type is Theory of Mind AI that can feel and respond to human emotions, and perform the tasks of limited memory machines. The last type of AI is self-aware. This type detects people’s emotions and has human level intelligence.

In addition to AI seven types, Mc Farland (2024) discussed many AI- powered

tools available for academic research and education. The first tool is Course Hero that was founded in 2006. It instantly helps in solving homework by finding quick answers and detailed explanations for a wide range of study materials, such as fill-in-the-blank, and open-ended questions. The deliverance of answers is fast as 30 seconds. Course Hero AI offered not only AI-powered homework assistance for instant answers and explanations, but also its AI assistant provides relevant study material information and quick solutions and spot out concepts. Also, Course Hero offers 24/7 expert tutor support for personalized help. Thus, Course Hero is a Global network of vetted subject-matter experts. The second AI tool used in academic researches is Grade scope, a combination of machine learning (ML) and AI so that to facilitate grading and save time and users. Moreover, Grade scope enables students to assess each other and provide feedback. As for instructors, they can benefit from grade scope to grade paper-based exams and online homework and to prepare all the prementioned abilities at a time. The main Grade scope features are first, manual question and grouping. Second, it is student-specific time extensions. It helps in grading and increasing efficiency and fairness. The third AI tool for education is Fetchy, a generative AI-powered platform designed especially for educators to create motivating lessons, generate newsletters, craft, and professional e-mail. It also develops instructors' teaching methods, optimize time management, and make confident and informed decisions. So Fetchy generates lesson plans, permits teachers to view history from multiple lenses/view points and find math or science experiments. The fourth AI tool is Socrat. It enhances teaching and learning by providing a seamless platform for teachers to create classes, manage assignments and track students' progress. Students engage with AI-driven tools to improve their learning outcomes. Teachers set up classes, monitor students' progress and participate in discussion questions, writing feedback, and Socratic dialogues. Features like Debate-a-bot encourage critical thinking and debate skills. So Socrat play allows classroom engagement without individual student accounts, and teachers can manage student activities in real-time.

The fifth AI tool is Cognii. It develops AI-based products for K-12 and higher education institutions. It also deployed corporate training environments. One of Cognii's main AI tools is its virtual learning assistant, which relies on conversational technology to help students form open-format responses and improve critical thinking skills. The virtual assistant also provides one-on-one

tutoring and real -time feedback designed for every student.

The sixth AI tool is Ivy chatbot that were designed for universities. They assist in application forms, enrollment, tuition costs, deadlines, and the ability to plan recruitment campaigns through gathered data. The last AI tool is Knowji which is one of the top AI education tools. It is an audio- visual vocabulary application that level-up current education research. This tool uses various methods and concepts to help students learn faster. This AI tool tracks each word's progress and can predict when users are likely to forget.

Like any invention, AI has positive and negative impacts on education. According to Nikitha et .al (2024), the main positive influences on education are first, AI has offered computer systems with the potential to learn, reason and observe logic. Second, AI saves errors and finish in a fast and correct way the obligation. Academically, AI helps in brainstorming ideas, reporting writing, preparing lesson plans and activities. Moreover, AI moved the experience of education to a personalized adaptive learning experience and the need to create ethical frameworks and guidelines to avoid issues as bias, privacy and transparency. AI- powered Chatbots made teachers rethink the needed skills to enhance students' written communication skills. For specific writing assignments, instructors need to tell their students that they are allowed to use AI, but teachers need to make an essential part of the final grade a detailed explanation of exactly how they used the AI and how they evaluated and worked with the AI'S responses.

The drawbacks of AI are first, automation, wherein human beings are replaced by AI in the workplace. Second, human closeness will gradually become limited and the personal meetings at work and in the daily life will not be needed for verbal exchange. Third, the increase reliance on AI powered Chatbots may decrease students' critical thinking and problem-solving abilities. Instructors need to teach students how to develop strong discretion, judgement, and reasoning skills.

Based on the National Committee for Research Ethics in the Social Sciences and the Humanities (NESH) in 2023, research ethics is core set of scientific norms, developed over time and institutionalized in the international community. It includes four types of norms: truth, methodological, institutional and common. The first norm is commitment to truth, integrity, and honesty are preconditioned for quality and reliability in research. The methodological norms are factuality, accuracy, transparency and

accountability. The institutional norms ensure that research is open, collective, independent and critical. The common norms originate from society's demands and expectations to research in a broad sense. It includes human dignity that is protected by three principles" respect of equality, freedom and autonomy, beneficence and protection from the risk of significant harm and unreasonable burdens and justice in procedures and the distribution of benefits and burdens. Researchers are individually responsible for research ethics when they participate in collaborations with external partners. The academic institutions must make sure that research, teaching, training; Master degree (MA) or Philosophical Doctorate (PhD) supervision, project leadership, administration and governance are conducted in accordance with recognized norms of research ethics.

The research guideline consists of five parts that concern different ethical obligations. The first is research community. Researchers have a shared responsibility towards each other within the research community. They should act truthfully, respect others and appreciate each other's contributions in projects and publications. Researchers have a collective responsibility to promote the values and norms of research ethics in their teaching, supervision, dissemination, and publication. The second part is the research participants. Researchers have responsibilities towards everyone who is involved in or participates in the research. They must respect human dignity and safeguard their personal integrity, safety and well-being. Researchers should procure information and obtain consent from those who are involved in or participates in research. The third part is commissioners, funders, and collaborators. Research ethics balance the norms of openness and independence against demands for social utility and relevance. The last part is dissemination of research. Researchers and the academic institutions and center of research are responsible for disseminating scientific results, methods and attitudes from their own and others' research to the society at large. It englobes dialogue among disciplines, interaction with different actors in society and participation in public debates (pp.1-4).

According to Pervaiz (2024), the deep spread and integration of AI in education requires a responsible implementation of AI systems not only for the sake of moral imperative but also as a prerequisite for a sustainable technological future and to be accepted as a tool for learning and conducting academic and professional researches and studies. To fulfill this task,

ethical AI includes a set of principles aimed at ensuring the development and deployment of AI systems. AI systems prioritize fairness, transparency, accountability and societal benefits. Fairness means that AI systems should be designed to mitigate biases, securing equitable treatment across diverse demographics. Transparency demands that AI programs to be explainable, comprehensible and match the rationale behind decisions made by these systems. Without transparency there is a risk of eroding public trust in AI technologies and hindering their widespread acceptance and adoption. Accountability requires developers and users of AI to be responsible for the outcomes of their creations, with mechanisms in place for recourse in case of unintended harm. Ethical AI respects privacy, the protection of personal data and the implementation of informed consent measures. Ethical AI avoids the perpetuation of societal biases and discrimination. In fact, the lack of conscious efforts to address biases within AI systems exposes the risk of expanding inequalities and exacerbate societal divisions. For example, the use of AI in recruitment if it wasn't checked, biased algorithms could systematically favor certain demographic groups and perpetuate systematic discrimination in accessible communication about how AI systems work, including the data they use, the algorithms they employ, and the decision-making processes they follow. In addition to transparency, to ensure privacy when using AI systems, robust safeguards should be established. Ethical AI should prioritize societal benefit over narrow self-interest. AI can be leveraged to address pressing challenges such as healthcare disparities, environmental degradation and economic inequality. Transparency between AI developers and users would involve clear employment opportunities. Moreover, ethical AI is essential in enhancing trust and accountability in technology. Thus, an ethical approach to AI advocates for the implementation of stringent data protection measures and mechanisms for informed consent, ensuring that individuals retain control over their personal information. This paper is not only a comprehensive overview of both the positive and negative impacts of AI on education and ethics, but also it is designed to maintain a responsible and equitable use of AI by following guides policy makers, technology experts and the public.

II- Literature review

Human beings tend to search for fast and efficient ways to accomplish their

tasks with less challenges. According to humankind, machines and technology tools soften many hardships for daily living and initiatives. The great efficacy of AI motivated people to always develop and invent new tools.

Nowadays, creators of AI systems are trying to implement in their systems ethical strategies and ways to enhance the teaching methods from streamlining administrative tasks to creating more personalized learning experiences to students. Using AI optimizes the designed syllabus, generate dynamic course, create syllabi content, lesson plans, assignments and rubric, for instance, a prompt can be created using AI. Teachers and students need to be clear in asking questions to AI tools as ChatGPT. To pinpoint knowledge instructors recure to test prep, Exam soft, and class point. For generating quiz questions and assessing students' needs, instructors use educators Copilot, ChatGPT and ChatGPT task for lesson plan and prompt. For students' self-directed learning and teachers or students' Auto- Grading, Grade scope allows to set the criteria for assessment and grading. In crafting a prompt for AI, teachers need to provide relevant context to help the AI understand the background and scope of your request. The language used in asking the AI questions should be concise and unambiguous. If the task you ask involves multiple steps, break them down to become clear and sequential instructions. Also including examples can guide the AI towards the desired outcome. Thus, to get the best results from AI applications you need first, to clearly explain the problem. ChatGPT is totally clean slate and knows nothing about you or your problems. Second, to explain the structure of the output you want like for example, "Answer in a bulleted list", "Respond in fewer than 100 words". "Answer in the form of a limerick". Third, explain the tone, styles or personality you want it to communicate with, for example, "answer the question as a patient math teacher". Finally, give the AI application any special tools they might need to meet your request. You can provide any unique knowledge needed for the task (OTL, 2024).

As writing classroom's activity, the instructor can ask his or her students to use AI to generate a variety of thesis statements and to evaluate them. Instructors can also ask the AI to list the strengths and weaknesses of each of their ideas. Then, the instructor would work with students on improving the thesis statement and making it more insightful and interesting.

Another activity that can be used in class is to tell students to ask AI to generate five- paragraph essay. Then, students are asked to identify and explain what

the AI did by asking them to identify the claims in each topic sentence and the supporting evidence and the transitions. Also, you can ask students to analyze the introduction and conclusion and how repetitive are they? And if they are good or bad and how to improve it observe and discuss how formulaic each paragraph is. Finally, you need to make the essay human like by adding human dimension, richness and insight and voice (Khan academy, 2024).

Teachers and students need to consider ChatGPT as another application that help in searching for information about a specific topic and summarizing it. Thus, ChatGPT might be used to conduct research on a specific topic by discovering research topics, building keyword lists, developing research questions, creating annotated bibliographies and outlines (Skrabut, 2023).

Interactive Fiction is an activity that consists of the teacher providing students with a sentence taken from ChatGPT, which can be for example to write their own adventure story on a wanderer traveling through a haunted forest. Students can use ChatGPT to generate digital and interactive fiction. Students can put on ChatGPT: “write a story about an old man hiking in the Catskill Mountains who meets a down-and-out magician (Skrabut, 2023).

As a listening skill, students are asked to watch two videos then answer the while watching True or False exercise below:

- 1- ChatGPT provides unlimited understanding of context
- 2- Some of ChatGPT questions are questionable
- 3- ChatGPT answers questions on sales, marketing, programming, and content creation

The two-video links <https://youtu.be/3ao7Z8duDXc?si=KboQ7OcjIZQEwk2Y>
https://youtu.be/Gaf_jCnA6mc?si=dPQJX62Xnsjjlkt

Post -Watching Activity

As a group discussion, the instructor can ask students to divide themselves into groups to answer the given questions: Do you use ChatGPT in class? If yes, what do you use it for? If no, after watching the two videos, how are you going to use it in your class? Then, the instructor asks each group to choose one member to summarize the discussion among them. Another possible post-watching activity is to rewrite the steps for creating a ChatGPT account and create your own account in class using your mobile phone or laptop.

Other possible ethical activities that can be implemented in the classroom are first, the chain story game. The instructor starts with a story prompt

like “Once upon a time in a town filled with robots. Each student adds one sentence to the story but must consult ChatGPT for ideas. They can pick their favorite suggestion from ChatGPT or modify it. This continues until everyone has added to the story. The activity will help students understand how AI can generate and continue narratives. The second activity is AI Art Collaborator. You can include DALL-E or a similar visual AI that you can integrate it into the storytelling. The instructor can ask student to write a short story or scene description. They then use Dall-E to create illustrations and images for their story. The third activity is “Fix My Prompt”. Present students with as series of poorly-worded prompts or questions that might yield inaccurate or nonsensical answers from ChatGPT. The instructor challenges students to “debug” and rephrase these prompts to get better responses from the AI. This helps students know the importance of clear communication and instruction. The fourth activity is The Musical Mash-up that consists of asking students to pick two genres instead, like “classical” and “hip-hop”. Teachers ask students to use ChatGPT to help create a story or song that melds these genres. For instance, “What if Mozart and Jay-Z collaborated on a song?”

The last activity is Future Predictions wherein teachers or instructors ask ChatGPT to predict what certain aspects of English language or literature will be like in the future. This activity will lead to a discussion on how AI's predictions are based on current data and trends, and they aren't truly "predicting" the future. Joel C. Meniado conducted research on the impact of ChatGPT on English language teaching, learning, and assessment at the SEAMEO Regional Language Centre (RELC) in Singapore. His research explored how ChatGPT can enhance language learning by providing tailored inputs, scaffolding during language production, and offering feedback on language accuracy. The study emphasized the potential of AI in improving the effectiveness of language education, particularly in Southeast Asia.

III-Methodology

This paper is descriptive research because as far as I know not much is known yet about ChatGPT and its ethical usage. It only describes what other researchers have found out about artificial intelligence.

The ChatGPT teaching strategies for preparing a lesson plan. The first strategy is Socratic questioning. It involves asking questions to encourage critical thinking and self-discovery. It helps students explore their thoughts

and understand concepts deeply. The second is scaffolding that breaks down complex tasks into smaller, manageable parts. This supports students as they build their skills and knowledge step-by-step. The third strategy is interactive learning using discussions, quizzes, and interactive activities to engage students and reinforce learning. The fourth is personalization that consists of tailoring content and approaches to meet individual learning styles, interests, and needs. The fifth is modeling and providing examples. The lecturer demonstrates how to approach problems or tasks, often through examples or case studies, to provide a clear model for students to follow. The sixth is providing feedback and reflection. Lecturers need to provide constructive feedback and encourage students to reflect on their learning process to improve and adapt. The eighth strategy is active learning that consists of encouraging students to actively participate in their learning through hands-on activities, group work, and problem-solving tasks. The last strategy is concept mapping that helps students visualize relationships between ideas or concepts, which can aid in understanding and retention.

Research tool

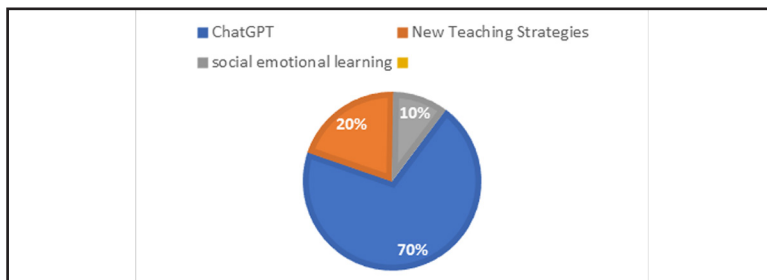
I conducted a short online survey sent to the what's app group of the International English Language Teachers' Association (IELTA -Lebanon). The survey includes multiple choice and open questions on the topic that teachers need to receive training on (see Appendix A).

Participants

Seventy Lebanese English language teachers (ESL and EFL) from various regions in Lebanon.

Teachers' Responses on the Online Survey

The main topics that teachers need to have training on are in the pie chart below



Solution

To satisfy teachers' needs, I planned a training for three weeks.

Training Outline

Objectives

- 1- define ChatGPT, its functions, pros & cons
- 2- provide some of ChatGPT teaching strategies and activities
- 3- guide participants to prepare lesson plans

Goal: by the end of this training, participants should be able to adapt ChatGPT tools to their lesson plans by implementing some strategies and activities in their teaching /learning process

Activities

1-Listening skill

watch two videos on ChatGPT

2- oral discussion

ChatGPT teaching strategies

3- Group work

Guide teachers to prepare a lesson plan

Assessment & Evaluation

1. Formative Assessment

Listening worksheet on the two watched videos

Creation of classroom activities using ChatGPT

2- Summative Assessment

Group work assess

Design a lesson plan on one of the four language skills (see Appendix B)

IV- Conclusion

Joseph Weizenbaum, a pioneer of AI, stated that we should not allow computers make critical choices for us because AI as a gadget will never possess human characteristics such as compassion and awareness to morally parent and choose. AI will continually remain as AI while not having actual human feelings and the capacity to commiserate as Von der Leyen stated in White Paper on AI "AI ought to serve human beings, and consequently, AI ought to continually observe human's rights. Finally, Overreliance on ChatGPT deteriorates 21st century skills as creativity, critical-thinking, and problem-solving. In fact, excessive AI threats that probably interferes with people's rights need to be examined and certified before it reaches our single marketplace.

Appendix A

Objectives

this survey is one of OpenEnglish Professional course assignment. It aims to collect data on EFL and ESL objective and subjective needs of Lebanese teachers from various regions and sectors in Lebanon.

It also deciphers Lebanese teachers' needs and aspirations in terms of teaching tools and techniques so that to design the training accordingly as one of the main projects in the course.

Survey designer

Dr.Doris Younes

Participants

70 English language teachers in the International Association of English language teachers in Lebanon.

Thank you in advance for giving your time to fill in the survey .

Let's go !

1-What is the highest degree received?

- BA in English language and Literature or Education
- BA in Education
- Master in English language and literature or Education
- PhD in English language and literature or Education

If other, specify...

2-How many years of teaching experience do you have?

- 0-3 years
- 4-6 years
- 10+ years

If other, specify

3-What is your level in English?

Upper- intermediate

Advanced

Professional

If other, specify...

4-Circle the correct answer

I am an

EFL

ESL

If other, specify...

5-Which level do you teach?

Pre-school

Primary

Intermediate

Secondary

University

If other, specify...

6-Circle the correct answer

I teach in a

Private school/ university/ technical

Public school/university/ technical

If other, specify...

7-Choose the curriculum you follow

National Curriculum

International Baccalaureate (IB)

French Curriculum and Baccalaureate

If other, specify...

8-If you were to attend a training, what topic would you choose?

9-What specific English teaching strategies or techniques and skills do you think you need to know more about? Justify.

10-Describe the best English language teaching strategies used in ESL or EFL and the positive results this strategy had on students.

Appendix B

Unit 1 (REQUIRED)	Topic: ChatGPT	
<p>Objectives: Define ChatGPT, its main functions, pros and cons, how to create ChatGPT account ?</p>	<p>Activities: Beginning of the training Webinar</p> <p>Listening Skill Activity</p> <p>I will start my webinar by putting two short videos on ChatGPT via zoom platform. The first briefly defines ChatGPT 's functions and pros and cons. The second video explains how to create a free or paid account on ChatGPT.</p>	<p>Assessment: Listening task (video 1) (10 mins)</p> <p>The webinar audience are asked after watching the video to answer questions in the Zoom chat box</p> <p>True or False statements exercise on the pptx slide</p> <p>1- ChatGPT provides unlimited understanding of context</p> <p>2- Some of ChatGPT questions are questionable</p> <p>3- ChatGPT answers questions on sales, marketing, programming, and content creation</p> <p>The two-video links https://youtu.be/3ao7Z8duDXc?si=KboQ7OcjIZQEWk2Y https://youtu.be/Gaf_</p>

Unit 2 (REQUIRED)		Topic: ChatGPT Teaching strategies and activities
<p>Objectives: Provide audiences with ChatGPT teaching strategies and activities and use them to design new activities.</p>	<p>Activities: Warm-up activity Break up room (group moderator in each room) The audience will answer them in the break up room for 10 mins Do you use ChatGPT in class? If yes, what do you use it for? If no, after watching the two videos, how are you going to use it in your class? Post break-up rooms, I will ask the representer of each of the break up rooms to unmute himself or herself and sum up the main ideas discussed with members in the break-up rooms. Then, I will provide as a host and speaker in the webinar some teaching strategies as: Planning units and sequencing lessons Generating class activities and content Personalizing and adapting learning experiences Generating feedback on student work Assisting with report writing Automating task: Data Analysis and grading. Next, I will put on the screen activities that the audience in the chat box classify them as ethical or unethical. Finally, I will present on the slides ChatGPT Activities taken from the link of the activities below https://www.reddit.com/r/OpenAI/comments/15ga6zl/classroom_activities_to_teach_chatgpt_to_students/</p>	<p>Assessment: I will send on the Zoom webinar chat box the link of the Multiple-choice quiz on strategies and activities</p>

Unit 3 (OPTIONAL)	Topic: Design lesson plans	
Objectives: guide audiences to prepare lesson plan using ChatGPT strategies and activities.		Assessment: I share a link in the zoom chat box that audiences need to fill in their lesson plan and ask the audiences by the end of the webinar not to forget to fill in a google form for feedback and suggestions.

References

- Paul, R., & Elder, L. (2014). *The Miniature Guide to Socratic Questioning*. Foundation for Critical Thinking.
- Halpern, D. F. (1998). *Teaching for Critical Thinking: Helping College Students Develop the Skills and Dispositions of a Critical Thinker*. Jossey-Bass.
- Wood, D., Bruner, J. S., & Ross, G. (1976). "The role of tutoring in problem solving." *Journal of Child Psychology and Psychiatry*, 17(2), 89-100.
- Vygotsky, L. S. (1978). *Mind in Society: The Development of Higher Psychological Processes*. Harvard University Press.
- Bonwell, C. C., & Eison, J. A. (1991). *Active Learning: Creating Excitement in the Classroom*. ERIC Digest.
- Prince, M. (2004). "Does active learning work? A review of the research." *Journal of Engineering Education*, 93(3), 223-231.
- Tomlinson, C. A. (2001). *How to Differentiate Instruction in Mixed-Ability Classrooms*. ASCD.
- Pashler, H., Bain, P., Bottge, B., Carpenter, S., Cepeda, N., & Rohrer, D. (2007). "Organizing instruction and study to improve student learning." *Principles of Cognitive Science*, 11, 1-128.
- Bandura, A. (1977). *Social Learning Theory*. Prentice-Hall.
- Bransford, J. D., Brown, A. L., & Cocking, R. R. (2000). *How People Learn: Brain, Mind, Experience, and School*. National Academy Press.:
- Hattie, J., & Timperley, H. (2007). "The power of feedback." *Review of Educational Research*, 77(1), 81-112.
- Schön, D. A. (1983). *The Reflective Practitioner: How Professionals Think in Action*. Basic Books.

Freeman, S., Eddy, S. L., McDonough, M., Smith, M. K., Okoroafor, N., Jordt, H., & Wenderoth, M. P. (2014). "Active learning increases student performance in science, engineering, and mathematics." *Proceedings of the National Academy of Sciences*, 111(23), 8410-8415.

Novak, J. D., & Cañas, A. J. (2006). "The theory underlying concept maps and how to construct and use them." Technical Report, Institute for Human and Machine Cognition.

Jonassen, D. H., & Reed, W. M. (2000). "Scaffolding for scientific inquiry." In: S. D. C. (Ed.), *The Role of Technologies in Supporting Inquiry-Based Learning*. University of Colorado Press

Links

https://www.kidspiritonline.com/magazine/ai-and-the-future-of-knowledge/how-can-ai-be-used-ethically?gadsourc=1&gclid=EAIAIQobChMImpCaiuX3hwMVoztoCR1JURO8EAAYASAAEgIexPD_BwE

<https://www.forskningsetikk.no/en/guidelines/social-sciences-and-humanities/guidelines-for-research-ethics-in-the-social-sciences-and-the-humanities/>

Teaching with AI: Emerging practices for teachers (article) | Khan Academy

10 Best AI Tools for Education (August 2024) (2024) - Unite.AI

The practical guide to using AI to do stuff (oneusefulthing.org)

The practical guide to using AI to do stuff (oneusefulthing.org)

https://www.reddit.com/r/OpenAI/comments/15ga6zl/classroom_activities_to_teach_chatgpt_to_students/?rdt=53552

<https://www.scribbr.com/methodology/descriptive-research/#:~:text=Descriptive%20research%20aims%20to%20accurately%20and%20systematically%20describe,research%20methods%20to%20investigate%20one%20or%20more%20>